نقولا
زيادة

الأعمالُ
الكامِلة

لبنانيات

تاريخ وصور

نقولا زيادة
لبنانيات
تاريخ وصور

16

نقولا زيادة

الأعمالُ الكامِلة

لبنانيّات

تاريخ وصور

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
© رائد وباسم زيادة
إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٢٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

المحتويات

مقدمة الكتاب ٩

القسمُ الاوّل: هؤلاء أرّخو للبنان ٢٥

١ ـ مقدمة ٢٧

٢ ـ من هيرودتس إلى سترابو ٣٠

٣ ـ من مؤرخي لبنان العرب ٣٣

٤ ـ من مؤرخي لبنان في فترة الحروب الصليبية ٣٦

٥ ـ صالح بن يحيى ٣٩

٦ ـ من مؤرخي العصر العثماني الأول ٤٣

٧ ـ من مؤرخي القرن التاسع عشر ٤٧

القسمُ الثاني: مِن خَبَايا التاريخ اللبناني ٥٣

١ ـ الإلياذة والفينيقيون ٥٥

٢ ـ الأوزاعي ٦٠

٣ ـ أرز الرب ٦٦

٤ ـ المدرسة في جبل عامل ٧٠

٥ ـ من مطبعة زاخر إلى مطبعة الأنسي ٧٦

٦ ـ من حديقة الأخبار إلى ثمرات الفنون ٨١

٧ ـ مجلة العرفان ٨٧

٨ ـ المدرسة «الحديثة» ٩٢

٩ ـ الشيخ أحمد عباس الأزهري ١٠٠

١٠ ـ الطريق بين بيروت ودمشق ١٠٥

١١ ـ أول مصرف في بيروت ١١٠

١٢ ـ دور الكتب في لبنان ١١٥

١٣ ـ صلات لبنان مع المغرب العربي ١٢٠

القسم الثالث: مذكرات لبنانيين ١٢٥

١ ـ أدب السيرة والمذكرات ١٢٧

٢ ـ مذكرات نقولا الترك ١٣١

٣ ـ مذكرات رستم باز ١٣٦

٤ - ذكريات رضا التامر ١٤٢
٥ - سامي الصلح يحتكم الى التاريخ ١٤٧
٦ - الامير شكيب ارسلان في سيرته الذاتية ١٥٣
٧ - موسى الزين شرارة ودفتر الذكريات الجنوبية ١٥٩
٨ - محمد رشيد رضا في رحلاته ١٦٥
٩ - كمال جنبلاط ١٧١
١٠ - مذكرات جريح ١٧٧
١١ - جرجي زيدان يتحدث عن بيروت والكلية ١٨٣
١٢ - سبعون ميخائيل نعيمة ١٨٩
١٣ - سوانح خمسين سنة فؤاد الخوري ١٩٥
القسم الرابع: لبنان في كتابات الآخرين ٢٠١
١ - لماذا كتبوا عن لبنان ٢٠٣
٢ - لبنان في النقوش القديمة ٢٠٧
٣ - الكتّاب الكلاسيكيون ولبنان ٢١٦
٤ - جغرافيو العرب ولبنان ٢٢١
٥ - ناصري خسرو في لبنان ٢٢٦
٦ - ابن جبير ومعاصره ٢٣١
٧ - وليم الصوري ومعاصروه ٢٣٦
٨ - يعقوب دي فتري وبركارت وجماعتهما ٢٤١
٩ - ابن بطوطة وأنداده ٢٤٦
١٠ - دو لابروكييه الرحالة الحاج الدبلوماسي ٢٥٠
١١ - الأب دنديني في لبنان الشمالي ٢٥٥
١٢ - تبدل الأزمنة ٢٦٤
١٣ - جون ساندرسون يزور لبنان ٢٦٧
١٤ - هنري مندرل في لبنان ٢٧١
١٥ - عالمان دمشقيان في لبنان ٢٧٥
١٦ - فولني في لبنان ٢٨٢
١٧ - جون كارن يزور لبنان ٢٨٩
١٨ - رسائل من مهندس: وليام مكسول ٢٩٣
١٩ - وليام مكسول ودانيال بلس في مغارة جعيتا ٢٩٧
٢٠ - القاياتي يزور لبنان ٣٠١
٢١ - لبنان في كتاب «القول الحق» ٣٠٥
٢٢ - مؤسس الجامعة الاميركية في بيروت ٣٠٩

مقدمة الكتاب

١ ـ رحلة على الأقدام

تعود صلتي بلبنان، لأوّل مرة إلى سنة ١٩٢٥. ففي تلك السنة، قمت، مع أستاذي وصديقي درويش المقدادي، برحلة على الأقدام، بدأت في صفد بشمال فلسطين، وانتهت بانطاكية، التي كانت لا تزال يومها رسمياً جزءًا من سوريا.

وقد كان طريقُنا على النحو التالي: صفد ـ منطقة الحولة ـ بانياس ـ جَبَّاتا الزيت ـ قمة جبل الشّيخ ـ شِبْعا ـ صيدا ـ جِزّين ـ عمّاطور ـ بعقلين ـ دير القمر ـ بيروت (زيارة لجبيل) ـ صوفر ـ ضهور الشوير ـ صنين ـ العاقورة ـ حَصْرون وبَزْعون ـ الأرز ـ طرابلس ـ تلة كلخ ـ قلعة الحصن ـ صافيتا ـ جبلة ـ اللاذقيّة (٤ أيام في جبال النُّصيريّة) ثم بحرًا إلى أنطاكية. والعودة من أنطاكية عن طريق حلب ـ حماة ـ حمص ـ بعلبك ـ زحلة ـ دمشق ـ القاهرة، بالسيارة والقطار.

ذكرت محطات الطريق، لأبيّن مدى ما تغلغلنا، يومها، في داخل البلاد؛ ولأنّ التنقّل كان على الأقدام فقد كان التصاقُنا بالأرض وما فيها أقوى.

وزرت لبنان، ثانية، سنة ١٩٣٥. وتسلّقت جبل الشيخ، ثانيةً، من راشيا، وصعدت إلى القرنة السوداء (أو ظهر القضيب) أعلى نقطة في بلاد الشام، في شمال لبنان.

هاتان الزيارتان لا تزال آثارهما منطبعةً في ذهني؛ فأنا لا أكاد أذكر شبعا أو أسمع باسمها (والاسم يسمع كثيرًا في هذه الأيّام) حتى أتذكر نزولنا من قمة جبل الشيخ اليها في الليل. والدليل يعرف الطريقَ معرفةً عامةً، ولم يخطئه، لكنّ تفاصيل الحجارة، وما يحيط بنا ليست مما يدخل في علمه. لذلك لما وصلنا مكانًا ـ قبل شبعا ـ عوى كلب، فاستشهد درويش بالبيت القائل:

عوى الكلبُ فاستأنستُ بالكلب إذ عوى ... وصوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطير

وأنا، إذ أتأمّل العقود، التي مرت على زيارتي الثانية لجبل الشيخ، لا أزال أتذكّر العتابا والميجانا والدلعونة، التي غناها دليلنا، في الليلة المقمرة، التي تسلقنا فيها الجبل نحو قمته.

وهناك أماكن كثيرة من لبنان رأيتها بعد ذلك مرات، لكن تلك الهنيهات الأولى لا يزال لها «في قلبي تلفت وخفق».

وأنا، منذ سنة ١٩٤٩، أقيم في لبنان. لكن هذه أيام لها قصة أخرى، أرجو أن أرويها يومًا من الأيام.

ثمة أمور أدركتها، وأخرى ملأت قلبي غبطة وسرورًا، جاءتني من هذه الصلة الأولى بلبنان. فالوقوف على قمة جبل الشيخ وقمة صنين وظهر القضيب علّمني معنى كلمة «الجبل الأشم» و«الرفعة» و«الصمود»؛ والتنقّل على مهل في ربوع الجمال ومغانيه في لبنان يومَها كان له معنى غير المعنى الذي صار له فيما بعد. رأيت الجمال على طبيعته. لم يكن هناك مقهى عند نبع العسل مثلاً، ولم تصل الطريق إلى المُنَيْتَرة وأفقًا، ولم يُتلف أرزَ الربّ فنادق. وكان وادي العرايش (البردوني) في زحلة حقًا وادي عرائش. وكان النادل في المقهى المعرّش هناك يستهجن أن يطلب أحد الزبائن وسكي أو بيرا. وقد روى لي لاعب البُزُق المعروف محمد عبد الكريم أنه زار وادي العرائش مع بضعة أصحاب (حتى في سنة ١٩٣٦). فطلب الجميع العرق وطلب محمد عبد الكريم الويسكي. فصاح النادل (الغرسون) بأعلى صوته: «سبعة عرق للشباب وواحد وسكي لهز...».

وكان أن زرت جبيل (١٩٢٥) وكانت الحفريّات الأثريّة حديثة العهد هناك يومها، وكان الأستاذ مونتيه يشرف عليها، فتفضّل ورافقنا وشرح لنا ما كان قد عُرِف. ولما تسلّقت آثار القلعة فيها وهي من آثار العصر الصليبي، وألقيت نظرةً على ما حولي وما هو قائم تحت، أدركت أن كلَّ شخص يقيم في المشرقِ العربيّ يشاركني يومَها في أنّنا نحمل على أكتافنا وزرَ تاريخٍ يمتد، على الأقلّ، سبعةَ آلافِ سنة. وما أثقله من حمل.

ولما تلفتُّ يمنة ويسرة، رأيت التطوّر الذي أصاب لبنان وجيرانَه خلالَ هذه القرون الطويلة. فهناك مقبرةٌ فينيقيةٌ قديمة وهيكلٌ مصريٌّ وبقايا مسرحٍ يونانيٍّ وآثار مدرّجٍ رومانيٍّ. إلى جانب هذا كله، تقوم كنيسة مار يوحنا ومسجد على مقربة منها. هذه خلاصة للتاريخ الذي عرفته المنطقة.

وفي أفقا (قرب قرية المنيترة)، لما دخلت المغارة ورأيت الماء، ينبثق من الصخر، عرفت معنى الأسطورة مفسرة بأُسطورة تمّوز/ أدونيس.

وفي سنة ١٩٢٥، تسلقت من نهر الليطاني (القاسمية) إلى قلعة الشقيف، تسلّقًا يكاد يكون عموديًا. فلما وصلت القلعة ووقفت هناك أتأمّلُ الجوارَ، وهو واسع، اتّضح لي معنى القلعة التي تسيطر على الطريقين التجاريّ والعسكريّ.

وبعد سنوات من القيام بهذه الزيارة، (ثم بالزيارة الثانية المحدودة نسبيًا) دوّنت وصفًا لما شاهدت، وذكرت الأثر الذي خلفته تلك الأيام في نفسي. وها أنا أنقل بعض هذا الذي كتبت يومها.

٢. فوق جبل الشيخ

أمنيةٌ جاشت في نفسي منذ أن كنت يافعًا - هي أن أصل إلى قمة جبل الشيخ. فقد رأيتُ الجبل الكبير، رابضًا على أطراف السهول الواسعة لأول مرة، إذ كنت

مسافرًا بالقطار من دمشق إلى حيفا، فألهاني منظره عن الأراضي الفسيحة التي يجتازها المسافر، وشغلتني رؤيته عن كل ما عداه فملأ نفسي رهبة شاعت فيها خشية الشيء العظيم الأبيّ، ورغبتُ في أن أرقاه. وكنت أينما سرت في مرتفعات هذه البلاد، يبدو لي جبل الشيخ يدعوني لارتقائه، وكأنه يتحداني. وكل مرة كنت أسمع فيها دعوته، كنت ألبّي نداءه وأعده بالذهاب، حتى تم لي ذلك مرتين. فتسلقت جبل الشيخ من جهتين مختلفتين، وبشكلين متباينين، وعرفت لذة الوصول إلى القمة، وأدركت معنى الاستمتاع بالأفق الواسع يشرفُ منه المرء على الأمور إشرافًا كليًا، فتغيب الجزئيات والصغائر أمام الكليّات والعظائم.

كان اليوم أحد أيام النصف الأول من شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٢٥، وكان الحرُّ شديدًا، وكانت الشمس قد ملأت الأفق، لما اتخذنا طريقنا ـ أنا وصديقي درويش المقدادي ـ من الخالصة إلى جبَّاتا الزيت. كان طريقنا يمرُّ في بقعة من أجمل بقاع البلاد، إذ علينا أن نجتاز المنطقة التي تقطعها روافد الأردن. وكان تل القاضي أجمل هذه الينابيع وأولها في طريقنا. فقد وصلنا إليه قبيل الظهر، فأشرفنا على تلّة، لعل طولها لا يتجاوز الثلاثين من الأمتار، ولا تكاد ترتفع عشرين مترًا، تكسوها الأشجار والأنجم البرية، وينبثق من غربها نبع ماء قوي، يشقُّ طريقه من أحشاء الأرض ويبري الجنادل في سيره، ويملأ الجوَّ صوتًا موسيقيًا، ويملأ النفس لذة وسرورًا. ويأبى الرعاة إلا أن يجعلوا لهذا الشجر الجميل هالةً من القداسة. فهم يحملونك على أن ترى عشر شجرات منفردة عن غيرها، وإذ تقتنع بذلك يتقدّم أحدهم فيروي لك، في كثير من الإيمان وكثير من اليقين، أن عشرة من الصحابة الكرام مروا بهذا المكان، فربطوا خيولهم في أوتاد غرسوها خاصةً لذلك، فإذا الأوتاد تنبت شجرًا كريمًا، وإذا الشجرات العشر تبقى إلى يوم الناس هذا. وفي هذه الأماكن التي اجتزناها متعةٌ تهيىء المرء السائر فيها لقبول ضيافة المساء في جبَّاتا الزيت، إذ يصلها والشمس قد جمعت آخر خيوط لها في الأفق. ونقضي بعض المساء في تحدث عن رحلة الغد. نعم، إلى قمة جبل الشيخ الواقعة جبَّاتا على طرفه الجنوبي. إن حلم الصبي على وشك أن يتحقق. ويتقدم القوم المجتمعون محاولين إقناعنا بالعدول. فالطريق صعب المرتقى، والمسافة طويلة، والماء نزرٌ، ولا سبيل إلى الحصول على دليل يرافقنا. ويرى مضيفنا أننا نسمع كلامه وكلام رجاله، دون أن نقبل نصحَهم، ويتأكد من أننا لا بد صاعدان، فيهيىء لنا كلَّ ما نحتاج، فثمة دليلان بدل الواحد، وكلٌّ منهما يأتي ببغلته معه، على سبيل الاحتياط. والحيطة هذه ظهرت بعد ساعات إذ امتطى كلٌّ من الدليلين دابَّته، وسارا يرشدانا إلى الطريق. وهذا مضيفُنا الكريم يعدّ لنا زادًا كثيرًا، وماء نحمله في تنكتين. فقد لا نجد عند القمة ثلجًا نذيبه، لأن ذوبان الثلج بدأ مبكّرًا تلك السنة، ولعله زال مبكّرًا أيضًا، أو لعله زال كلُّه عن الجبل، وهذا ما لقيناه فعلاً..

كانت الساعة الرابعة صباحًا لما خرجنا من جباتا، وإن أنسى لا أنسَ مختار القرية، وقد رآنا نخرج منها، إذ لحق بنا يحاول، في آخر لحظة، أن يُثنينا عن عزمنا. لقد أقسم بوجود الخطر. ولما يئس منا، بعد أن سايرنا مسافة طويلة، أشهد الفلاحين علينا أنه براءٌ من دمنا، إذا مسَّنا ضُرٌّ. فقد أنذرنا ولم نلتفتْ له، وتركنا صاخبًا، فقد كانت سوريا تغلي بثورة ١٩٢٥.

سرنا بين كروم العنب أولاً، لكن هذه لم تلبث أن انقطعت. واستعضنا عن رفقة الكرم بالحمّص الأخضر، حتى وصلنا «مرج أبو عبد الله»، وهو آخر الجزء الذي يزرع. ولم نر بعد ذلك إلا بقية أعشاب ترعاها الماشية، التي تصطاف هناك مع رعاتها، وترتوي من نبعة «معنون» الباردة، على أن الأعشاب نفسها أخذت تتناقص شيئًا فشيئًا وتحلُّ محلَّها نباتات شائكة ذات رائحة زكية.

بعد عشر ساعات من السير، وجدنا أنفسنا على قمة جبل الشيخ، على قصر عنتر أو شيبوب، وعلى أنقاض الهيكل القديم المكرّس لبعل حرمون. وإن كان الهيكل القديم رمز العبادة الإلهية، وقصر شيبوب رمز البطولة الفذة، فعلى قمة جبل الشيخ أثر صغير رمز الآمال العربية. فهناك رأينا قطعة رخام منقوش عليها ذكرى زيارة فيصل الأول لقمة جبل الشيخ أيام كان ملكًا على سوريا.

أما المرة الثانية، فقد كان صعودي جبل الشيخ من راشيا، من الغرب. بدأنا السير أنا والشيخ سامي العيد في العاشرة مساءً، وأمامنا الدليل ومعه بغلته تحمل زادنا ودثارنا. فقد أُنبِئْنا أن البرد يكون في الصباح شديدًا. كانت الليلة هادئة، وكان القمر بدرًا أو يكاد، وكانت النفس مطمئنةً. وكانت السفرةُ مهيَّأةً، وأراد الله أن يُتم نعمته علينا فكان دليلنا رخيم الصوت. ولم نكد نلتحف الوادي، ونطمئن إلى أننا في الطريق الصحيح، حتى أخذت صاحبنا فورة من الطرب، فانطلق يغنّي غناءه الجبلي القوي العذب، وأخذ الوادي يردد صدى غنائه، فيبعثُ في نفوسنا رهبةَ الجبل العظيم، وسرور الطبيعة، وأمل الليل البهيم، فعتَّب صاحبنا ما شاء له الهوى، (وميَجن) ما شاءت له الذكرى، (ودَلعن) ما هاجه غرامه، وهو في كل ذلك جذلان طرب، ونحن معه جذلان طَرِبان.

إنها قرابة خمس ساعات، فإذا الدليل يصيح بأننا على وشك أن نصل، وإذا بالطبيعة تقدم لنا كهفًا يأوي إليه صديقي والدليل، فيعطيان جسديهما حقهما من الراحة، وآبى أنا على نفسي ذلك. لقد خشيت، إن أنا استلقيت أيضًا، أن تأخذنا كلَّنا سِنةٌ من النوم، فلا نصحو إلا وقد أضعنا الفرصة. لقد كنت ضنينا بأن أُضيِّع هذا الجهد دون أن أرى هذا المنظر الجميل، الذي تتعاقب عليه السنون، فلا تُبلي جدته، ولا تُزيل أثره. أبيت على نفسي أن أعطي جسدي حقه، وقمت بدور الحارس، فلما حسبت أنهما اكتفيا، أيقظتُهما، وتابعنا السير. ولم نسر إلا نصف ساعة فإذا بنا على

قصر عنتر، وإذا بي أقف هناك للمرة الثانية. ولكن هذه المرة في آخر الليل، فالمرة الأولى، كانت في وضح النهار.

ولست أشك، وقد وقفت ثانية، عند الفجر، على قمة جبل الشيخ، وهو من أكثر الجبال ارتفاعًا في بلادنا، أن ما يراه المرء من قمة جبل الشيخ أوسع من كل ما يرى من أي جبل آخر، وتنوُّع المناظر التي تجتليها العين من قمته لا يتيسر في مكان آخر. فأنت إذ تقف على قمة الجبل ـ على أنقاض قصر عنتر أو هيكل بعل حرمون ـ وتمدّ ببصرك حولك، تستجلي عينيك آفاقًا مترامية، وأبعادًا شاسعة: ففي الغرب يخيل إليك أن البحر، بين الكرمل وصور، يرتمي عند موطىء قدميك، أما في الشمال الشرقي، فأنت تطل على دمشق وغوطتها التي تضم كل البقاع الخضراء على سيف البادية. وثمة اللجاة ذات الصخور النارية، وحوران وسهوله الخصبة. وفي الجنوب الشرقي الجولان وفوهاته البركانية.

كان الليل لا يزال يرخي سدوله الكثيفة على قمة الجبل لما وصلنا هذه المرة. وكان القمر رفيقاً بنا في سيرنا، وازداد بنا رفقا لما وصلنا، إذ تركنا لما نحن قادمون عليه، واختفى في الغرب وعلى فمه ابتسامة من يعرف ما يخبّىء القدر لهذه الجماعة الصغيرة من متعة ولذّة. ولكنه اختفى دون إنذار أو تحذير، حتى كدنا نتعثر في سيرنا، في الجزء الأخير من القمة العنترية. وما إن استقرّ بنا المقام، حتى تدثرنا بالسميك من أحرِمتنا، واتجهنا نحو الشرق، نرتقب الجمال والضياء.

لم يطل انتظارنا. بدت تباشيرَ النور في أشعّة فضيّة باهتة، تبين لنا فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أغدقت هذه الأشعة من نورها على الأفق العريض البعيد، فبدا كلُّه مفضَّضًا، ثم استحالت فضتّه ذهبًا يخالطه مزيج من الألوان الناشئة عن انعكاس الأشعة على السماء الزرقاء والرمال المنتشرة في عرض الأفق. ولم تلبث الشمس نفسها أن تجاوزت الخط الفاصل بين الأرض والسماء، فبدا كل شيء موشّى بنورها ملتحفاً بضيائها. وشعرت آنئذ أنَّ الحياة انبعثت في كل ما يرى، من جديد. فظباء الفلاة أخذت تتلفَّتُ نحو مصدر الحياة السماوي، ورمال الصحراء أخذت ترقص طربًا وحبورًا، وأزاهير غوطة دمشق وأشجارها نفضت عنها رداء الليل البهيم، ووجّهت وجهها نحو الشمس، وحنت رؤوسها إجلالاً لها. ملأ قلبي بعض هذه الحياة التي انتشرت في كل شيء، فملأت فراغه، وأشاعت فيه امتلاءً روحيًا. ووقفت مكاني مشدودًا، لا أتحرك ولا أتلفَّتُ، حتى كأنني أصبحت جزءًا من جبل الشيخ. وعندها سرت في نفسي شرارةٌ من عزيمته وثباته، فرأيتني أحسُّ بقوة ونشاط عجيبين. وطال استمتاعي بالمنظر الخلاّب، تتبدّل فيه الألوان دقيقةً بعد دقيقة، وتتوالى فيه الصور مع تبدُّل الألوان، حتى صاح صديقي: «أنظر». فتلفتُّ إلى حيث أشار فرأيت ظلَّ جبل

الشيخ مبسوطًا على سهل البقاع والجبال الواقعة إلى الغرب منه، ثم رأيت هذا الظلّ المديد يتلقص تباعًا لارتفاع الشمس في الشرق.

وهكذا تمت أمنيّتي مرتين، فعرفت جبل الشيخ. وانحدرت منه مرة في الليل وأخرى في النهار. في المرة الأولى، كان نزولنا في وادي جنعم الصخري الملتوي، وطال سيرنا، فصرفنا أربع ساعات هبوطًا حتى وصلنا شبْعا. وكانت الساعة الأخيرة من سيرنا بين بساتين شبعا، لكن الظلام كان حالكًا فلم نتبين منها شيئًا. وأيّ لذة شعرنا بها، وأيّ سرور شملنا! لما أوينا إلى فراشنا تلك الليلة بعد صعود استمر عشر ساعات، وهبوط استمر أربع ساعات، وكانت غايتنا في السير قمة جبل الشيخ.

أما هبوط النهار، فكان عودًا إلى راشيا. وأطبق دليلنا، فما يحدث ولا يغنّي، ومن غنى في الليلة المقمرة يصمت في النهار، ومن رأى شروق الشمس على بادية الشام من قمة جبل، يطبق جفنيه لتطبع هذه الصورة في ذهنه. وهذه سنوات تمر على ذلك اليوم، والصورة لا تزال ثابتة في خيالي، كأنها وليدة صباحي هذا.

ونحن في انتقالنا من شبعا إلى حاصبيا نجتاز وادي التَيم من شرقه إلى غربه، ونعبر نهر الحاصباني وهو ثالث فروع نهر الأردن الكبيرة، ونمرّ بقرية الهبارية، القرية التي استغرب أهلها زيَّنا، وكنا نرتدي السراويل القصيرة، وسألونا إن كنا جنودًا فارّين أو بائعي حكمة (أي عقاقير). وأهل الهبّارية فخورون بسبيل الماء الذي أنشىء ببلدهم. فقد نقشوا عليه: «وجعلنا من الماء كل شيء حيّ. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى». حبّذا أهالي الهبارية، وحبّذا سعيهم المأثور وثباتُهم المشكور. بذلوا في سبيل بغيتهم النفائس، فباءوا بنجاح باهٍ باهر، أجرى عليهم ماء سلسبيلاً وشرابًا طهورًا فاشرب أيها الوارد، وادع بالخير للنزيه الهمام زكي قدري بك، الذي بفضل همته الشماء، تسنّى جرُّ هذا الماء، لهذا البلد الطيب، فأحيا الزرع والضرع. وهذا من بعض آثاره الكريمة حيّاه الله وبيّاه سنة ١٣٣١هـ.

٣ ـ من صنين إلى الأرز

نحن على قمة جبل صنين ـ أنا ودرويش المقدادي.

كنا قد وصلنا نبع صنين بعيد الظهر، وكنا قد سرنا، إليه من ضهور الشوير، في طريق وعر لكنه جميل، بين أشجار تتكاثف حينًا وتتباعد حينًا آخر، وبين ينابيع متعددة، وينابيع لبنان كثيرة كريمة. وكان الجوع قد نال منا، وكان الجمال قد نلنا منه، فجئنا النبع القوي العذب، نستمتع بخرير مائه، ونستجلي محاسن وادي بسكنتا، ونلتهم طيّبات ما رزقنا الله عند صاحب المنزل القائم فوق العين. وما إن نلنا هذا كله، حتى كان النشاط قد عاد إلينا، فرنت أعيُننا إلى صنين، وعقدنا النية على التسلُّق. فقال قائل: «الوقت متأخِّر، فلن تصلا إلا والشمس قد آذنت بالمغيب». وأعجبتنا الفكرة التي قصد تحذيرنا منها، فزادتنا شوقًا إلى الصعود. فأشار صاحب المنزل إلى الطريق.

لكننا كنا قد اعتزمنا أن لا نسير في طريق ملتوية طويلة سهلة يسيرة، ورأينا أن نجابه الجبل رأسًا فنصعد فيه باستقامة. وبلغ الجبل أن اثنين من البشر تحدياه، فضحك في نفسه وتذكر أنه قد قيل في أشباهه.

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لا ينال طويل

وقد فات الجبل أن الأرض التي تحمل مثله قد أنبتت جيلاً من البشر فيه «شباب تسامى للعلى وكهول».

وأخذنا نصعد فيه، وأدرك الجبل الأشم أن عزمنا قد صَحّ، فأخذ يقذفنا بأسلحته الواحد تلو الآخر. فحجارته تتدحرج تحت أقدامنا فتتعثّر، وصخوره تغرينا بالدوس عليها ثم تروغ فتنزلق أقدامنا، وأشواكه تلتف على أرجلنا فتدميها. وقضينا ساعة ونصف الساعة ونحن في هذه المشادّة، وكلما حسبنا أننا على وشك الوصول إلى القمة رأينا الجبل يتسامى كأنه يسابقنا. ولكن أدرك الجبل أخيرًا أن زائريه لن يتراجعا فكفّ عن تحدّيه، وهدأت ثائرته، واستعاض عن لذع أشواكه برائحتها الزكيّة، وهشّ لنا. ووصلنا إلى القمة.

كان صنين شريفًا في خصومته. فما إن رآنا قد بلغنا غايتنا حتى انبسطت أساريره، وضمّنا إلى صدره وحنَا علينا وغمرنا بهدوئه وجلاله، وملأ نفسينا شعورًا بأننا جزء منه، فشعرنا بالشمم والإباء يجريان في عروقنا. ثم طفق يحدّثنا حديث النّد للند، فقص علينا قصته في عذوبة ورقّة. لكنها عذوبة فيها قوة وفيها عزمٌ؛ وهو يهيب بنا أن ندرك سرّ عظمته، ثم أخذ صوته يخفت حتى صار همسًا نكاد لا نتبينه، وأصغنا السمع فإذا بالجبل يشير إلينا أن نصمت ونفتح أعيننا، لأنّ وقت العبادة قد حان.

وخشعنا، واتجهنا إلى حيث أشار، فرأينا الشمس فوق بيروت تنحدر بتؤدة ورفق، نحو البحر، ورأينا نورها يضعف شيئًا فشيئًا، فيبهت لونها، ويستحيل احمرارها شحوبًا واصفرارًا، وإنها لتمسّ الماء، فتشعر أن ساعة هلاكِها قد دنت، فتعود إليها رغبتها في الحياة، وتحاول للمرة الأخيرة أن ترتفع، ولكن الجهد الذي تبذله كبير لا تستطيع أن تتحمله فتخرُّ صريعةً، وقد تضرّجت بدمائها. وتنتشر هذه في الأفق، وترأف غيوم المغرب بالدماء المراقة فتلمُّها وتتصبغ بها، فيحمرُّ الأفق الغربي كله إذ آلمه أن يؤول أمر ربة النور إلى مثل هذا. ويسود الكون صمت تحلو معه العبادة، فيردد صنين صلاته، وتنقلها الأودية منه، وتحمل الينابيع صداها إلى البحر. ويقف الزائران مشدوهين ـ فالجمال أكثر من أن يحيط به وصف، والألم أكبر من يُحدّ، والهدوء لا يشوبه شيء، فيفزعان إلى الصلاة، وهما على مقربة من السماء. وإذ هما ينظران حولهما، بعد أن ثابا إلى رشدهما، لا يريان شيئًا. فقد ألقى الظلام سدوله الكثيفة على كلّ شيء، فاستوى الجبل والوادي. ويبدآن النزول في هذا السكون الشامل، ودليلهما عصا انطوت عليها اليد تتلمس لهما الطريق. ولكن صنين كان رفيقًا بهما في

هذا الدور، فما خاصم ولا رمى بحجارته، بل إنه جنَّبهما الكثير من العثرات. ويقضيان ساعة وبعض الساعة. وإذا بنور النزل يبدو، وإذا بالكلب يعوي فيتمثل صديقي: «عوى الكلب فاستأنست بالكلب إذ عوى»، وإنها لدقائق قليلة، فإذا نحن عند الجماعة الطيبة، التي أقلقها تأخّرنا فأخذت تعدُّ العدة للخروج إلى الجبل تسأله عنا وتحاسبه عما فعل بنا. وتخرج من القوم تحية بالسلامة ممزوجة بالعتب الرقيق...

وهكذا أتيح لي أن أرى ولادة الشمس، من قمة جبل الشيخ، وهلاكها من قمة صنين.

وكان جسمانا بحاجة إلى الراحة، ولكن من يستطيع أن يترك صوت الماء المتدفق من الصفا، وأحاديث أهل لبنان العذبة، ويأوي إلى فراشه؟ لقد أكسبتنا هذه نشاطًا من جديد، فجلسنا نتحدث إليهم حتى مرّ من الليل شطر كبير، كبير، وتفرق السمار فتفرقنا معهم، وأوينا إلى الفراش، لننعم بالراحة، ونحلم.

ودعانا الفجر إليه، فهرعنا إلى الماء، نحاول أن نغسل به أيدينا ووجهينا، فما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. لقد كان باردًا، فاكتفينا بما نلنا، وحملنا زادًا كان قد أُعدَّ لنا، وسرنا ـ وذُكاءُ بعد لم تجمع كل قوتها ـ نهبط واديًا ونصعِّد جبلاً، فمررنا بنبع اللبن ونبع العسل، واجتزنا جسر الحجر، وهو جسر طبيعي نحتت منه المياه على توالي الأيام أجزاءه السفلى وتركته معلّقًا، لو أن مهندسًا وضع تصميمه ويدا صناعٍ بَنته، وهو أحد عجائب الطبيعة الكبرى في لبنان.

ومررنا بقوم يحصدون ويزرعون ويعملون في الأرض، لكن الأرض هناك ضنينةٌ، ذلك لأننا كنا نُساير أعلى أجزاء السلسلة الكلسية حيث تسقط المياه وتتسرب إلى طبقات التربة السفلى، فلا يُنتفع بها ولا يستفاد منها، إلا حيث تتجمَّع فتنبع في صدر وادٍ، دانٍ أو قصيّ.

وأشرفنا، بعد خمس ساعات، على المكان الذي استأثر بمياه الجهة كلِّها. ذلك أننا انتهينا، بعد اجتياز جبل معتدل الارتفاع، إلى منابع نهر إبراهيم، إلى أفقا، فرأينا عجبًا من الأمر. ماء يتفجر من صدر كهف اعتلى كتف الوادي، ويعجز الكهف عن حمله، فينحدر في شلال صغير، إلى بركة، يتجمع فيها حينًا، إلى أن تُجمَّع قوته، ويعود إلى السير. لكن كتف الجبل التالي يعجز عن حمله، فيهبط ثانية. ويتوالى هذا التجمع والهبوط في سلسلة من الشلالات، وتغذّيها ينابيع أخرى على جانبي النهر، وتغذي المياه بدورها عدوات الوادي وجنباته، فتكتسي بثوب، من الخميلة، وتقع العين على هذا الجمال المتناسب المتسق من مياه تتعثر في سيرها، وأشجار الجوز الوارفة الظل وشجيرات منوّعات مزهرة كالدفلة وغيرها، وكلها تتحدث بنعم الخالق.

أوينا إلى ظل شجرة، نستريح ونمتّع أنفسنا بهذا الذي نرى، وقال صاحبي: «هذا النهر هو نهر إبراهيم، وهو شديد الانحدار إلى الساحل، وقوته المائية كبيرة، وقد كان

ولا يزال يدير الطواحين في طريقه، ولو أن الكهرباء وُلِّدت منه، لكانت قوتها كافية لإنارة الجهة كلِّها، وإدارة عدد كبير من الآلات. أما إبراهيم، فاسم أحد الأمراء الذين حكموا هذه البلاد، قبل مدة».

وقبلت ما قال صاحبي. فقد كان أعرف مني بجغرافية البلاد وتاريخها، لكن شيئًا من الريبة خالجني حول الإسم. فالنهر أقدم من أمير كان يحكم تلك الجهة، فما هي قصة هذا النهر؟

لم يطل تسؤالي، فلم نكد ندخل الكهف الأول، لنرى انبثاق الماء من الصخرة، حتى سمعت صوتًا يسرُّ في أذني: «أن أصغ إلى قصتي ففيها متعة لك». وحاولت أن أتبين مصدر هذا الهمس، فلم أتمكن، لكن الصوت استمر قائلاً: «أنا مغارة قديمة العهد في هذه البقعة... وقد أُعجبت بي الإلهة القديمة عشتاروت، فأوت إلى صدري أحنو عليها، وتفيأت ظلال هذا الوادي، تنعم بخيراته خالية البال. حتى بدا لها يومًا شابٌ وسيم الطلعة جميل الخلقة، فأسر لبَّها، وملك عليها قلبها، فأغرمت به؛ وأغرم هو بها، وملأ الحب نفسيهما من كؤوسه، وعاشا في غبطة وهناءة. وكان اسم هذا الحبيب تموز، ولم يعرف أحد من أين جاء، ولكنه كان يتحلى بصفات أقنعت عشتاروت أنه من الآلهة. وكان تموز يغيب عن حبيبته، أيامًا بلياليها، يجوب فيها الآفاق، فيوزع على البشر من بذور حبه ما شاء، فتنبتُ هذه في قلوبهم حبًا قويًا، يعصف بهم حينًا، ويملؤهم اطمئنانًا حينًا آخر. وإذ عاد تموز إلى عشتاروت، أحست هذه بأنفاسه تعطر الجو، فاستقبلته وفي قلبها أغنية وفي نفسها سرور.

«وطوَّف مرة بالآفاق، كعادته، وعاد، لكنه لم يكد يطلُّ على الوادي، حيث تقيم حبيبته، حتى استعشر في وجهها وجلاً، وفي نفسها اضطرابًا. فأقبل عليها يسائلها، فحدثته أن وحشًا قويًا اعتدى على الحي، وعاثَ في الوادي فسادًا، وأنه طاردها مرة، وكاد أن ينال منها، لولا أن عصمتها الأشجار منه. فطار صواب تموز، وتقلّد سلاحه، وأخذ يطوف في الوادي صاخبًا منذرًا، حتى وجد الوحش، وقد أسند ظهره إلى صخرة قوية، وتدرع للقتال. واقترب منه تموز، ونشبت بين الإثنين معركة صال فيها كلٌّ وجال، ونال من صاحبه، ما شاء له القدر أن ينال. وثار ثائر الوحش، فنبت له قرنان من شدة غضبه، فضرب تموز بأحدهما فبقر بطنه، وخلاّه صريعًا، يتضرج بدمه، وفرّ هو كمن أصيب بالصرع، ولم يقف له أحد على أثر. وبلغت أنات تموز مسامع عشتاروت، فأقبلت على الحبيب تضمّد جراحه، وحملته إلى الماء تغسلها به. لكن الدم، الذي نزف، كان كثيرًا، فلم يقو تموز على مغالبة الموت الذي حمل إليه. وندبت عشتاروت حبيبها، وسمعت النساء بما أصابها، فحزنَّ على تموز، وشاركنها أساها، وندبنه معها وأقمن يومًا لإحياء ذكراه. وسالت دماء تموز في النهر، فصبغته، ولا يزال الماء، إلى يوم الناس هذا، تجري فيه بقية من دمائه.

«وأنت يا صاح، إن سرت مع هذه المياه، التي تنبع من هذا المكان، ساعة وبعض الساعة، وصلت إلى أنقاض هيكل أدونيس، حيث كان القوم يحيون ذكرى الصراع بين الخير والشر، بين الحياة والموت، بين المودة والهلاكِ» (وصمت الموت).

وانتهى بنا التطواف، ذلك اليوم، في العاقورة، فقضينا فيها ليلة ماتعة حقًا، وسرنا مع شروق الشمس في اليوم التالي، فمررنا بعرب اللقلوق، وأقسمت نوخة بنت حسين الآمنة أن لا نبارح طنبها قبل أن نأكل: نذوق العيش والملح.

وتنقلنا من مكان إلى آخر حتى مررنا بوادي الدوير، وكان القوم يحصدون، والشمس تلفح وجوههم. وقد انتهى أحدهم من عمله، مبكرًا، فانتبذ من دون الناس مكانًا قصيًا، وأوى إلى ظل شجرة تقيه حرّ الشمس اللافح، وكان الجو أطربه فأخذ يغني:

لأطلع لراس الجبل	واشرف على الوادي
وأقول يا أهل الجبل	نسم هوا بلادي
أيمتى يسيل النهر	تيجرّ الوادي
لحط صدري جسر	لتعبر البنيّة

وردّد الوادي غناءه، وحمله إلى آذان البنيّة.

وتسلقنا جبل بريصات، وأشرفنا على وادي قاديشا الذي يرتكز رأسه عند أقدام الأرز الخالد. شعرنا بنسيم المساء يحمل إلينا عبيرًا كان جديدًا علينا.

٤ ـ من الأرز إلى طرابلس

أطللنا على الأرز من فوف الجبل الذي يحتضن حصرون وبزعون، إلى الجنوب منهما. كانت ساعة الغروب تقترب، لكن الضباب كان يكسو المنطقة بحيث أن الذي تراءى لنا، حيث تقوم غابة الأرز، بدا كأنه مجموعة من الأشجار متداخل بعضها مع بعض؛ كادت تبدو دكناء بسبب انحجاب أشعة الشمس عنها وراء الضباب. لكن، مع ذلك، تركت المنطقة، لما أطللت عليها، في نفسي نوعًا من الرهبة ممزوجًا بالشمم والحنوّ. غريب مثل هذا الشعور. هل كان، يا ترى، نتيجة قراءة بعض ما كتبه جبران وغيره من أدباء لبنان عن الأرز؟ أم هل كان هذا ردَّ فعل لما توقعته؟ كنت أحسب أنني سأرى غابة من الأرز تغطي الجبل والمنطقة. فرأيت حُفنة من الأشجار. فهل أقنعتني هذه الأشجار، وبدون مقدمة، أنها قوية متينة عنيفة، ولذلك، تمكنت من التغلب على عناصر الإتلاف وصمدت؟

وكان علينا أن ننتقل من حصرون إلى بشري، لنقضي الليلة هناك. وفي هذه الدورة من الطريق، أدركت تمامًا، أن وادي قاديشا يرتكز رأسه عند أقدام الأرز. وقد علا الأرز إلى السماء طمعًا في عطفها، فانحنت عليه تقبله، وانهمرت دموع الفرح من

عينيها، فأشفق الأرز وجبله على هذه الدموع أن تهدر فجمعها حبةً حبة وأودعها قلبه، فلما ضاق صدره عنها، انبثقت ينبوع ماء صافٍ مقدس، كان له في يوم من الأيام إلَهُه، الذي زال مع غيره من الآلهة القديمة، واستبدله الناس اليوم بآلات تولّد الكهرباء.

كنا استفسرنا فيما إذا كان من الممكن قضاء ليلة أو ليلتين في الأرز، فقيل لنا إن الناس لم يبنوا بعد الفنادق في الأرز. على كل فنحن في بشري، بلدة جبران خليل جبران، صاحب الكتب التي استمتعنا بها، مثل العواصف، والأجنحة المتكسرة. ولما سمعتُ، في ذلك المساء، أن في بشري سبعة وثلاثين من رجال الدين ـ ولعل هذا الرقم كان مبالغًا فيه ـ أدركت لماذا كتب جبران قصة «خليل الكافر».

وبهذه المناسبة، فإننا، أنا وعددًا من أصحابي في الناصرة، كنا عزمنا على كتابة القصة في نص مسرحي لنمثلها في الناصرة. لكننا لم نلق تشجيعًا من أحد، فصرفنا النظر عنها.

صرفنا اليوم التالي في الأرز، وفي ما حول هذه الشجرات. كم يبلغ عمرها؟ من يدري. ولكن الذي يدريه الناس، رواية وحكاية وقصة وتاريخًا، هو أن هذا الجبل الذي نحن واقفان عليه كان مغطى بالغابات من أقدم عصوره، ويبدو أن الأرزة كانت الشجرة الغالبة عليه. لكن منذ الألفِ الثالث قبل الميلاد أخذ السكان يقطعون هذه الأشجار: البعض قطعها ليصطلي بنارها ويطهو طعامه، والبعض الآخر قطعها ليصنع منها بابًا أو شباكًا أو طبليّة. وهناك بعد الأهم، وهو قطع الأشجار للمتاجرة بالأخشاب التي كانت مطمحَ أنظار المصريين، كما كانت أخشاب جبال الأمانوس محط أنظار أهل أرض الرافدين ـ كانت هذه الأخشاب تصلح جوائز للهياكل ولأجزاء من السفن التي تمخر عباب اليم. لذلك تعرت الجبال، ولم يبق في المنطقة بأجمعها، سوى هذه المجموعة الصغيرة نسبيًا.

عرفت يومها لأول مرة أن سكان المنطقة يسمون أرزهم «أرز الرب». ولكن لماذا؟ الجواب الذي جاءني كان أن التجلّي حدث هنا، والمسيحيون يحتفلون بعيد التجلّي في اليوم السادس من آب / أغسطس من كل عام.

إلا أن الأمر الذي أعرفه أنا هو أن التجلّي تمّ على جبل طابور في شمال فلسطين. وأن الاحتفال يتمّ هناك. فكيف نُقل الاحتفال بعيد التجلّي إلى أرزِ الرب؟

كان الاسم الساميُّ القديم الأكثر شيوعًا على ألسنة الناس للإله هو «بَعْل» ومعناه الرب أو السيد، ويليه اسم آخر هو «إيل». وقد توزع هذان الاسمان فيما بينهما الكثير من أسماء المدن والقرى مثل بعلبك وبعل شمي (بعلشمي) وبيت إيل. على أن الأماكن المرتفعة، التي كانت تعتبر في نظر القوم الأوائل أماكن عبادة، اعتبرت تابعة لهذا الإله أو ذاك ولو لم تكن حولها قرية أو بلدة. فكان الأرز هذا يقال له «أرز بعل».

ويبدو أن السكان كانوا يقيمون احتفالاً خاصًا بالمنطقة. وبهذه المناسبة فإن أيّ

احتفال في الأرز يرجَّح أن يرتَّب في الصيف. ولما اعتنق سكان المنطقة المسيحية، لم يتخلوا عن الاحتفالات المرتبطة بالأرز، وسموا أرزهم أرز الرب، ولكنهم، ربطوها بالأشياء المسيحية، ووقع اختيارهم على عيد التجلّي لأنه عيد صيفي. والذي نعرفه هو أن الاحتفال بعيد التجلي في أرز الرب يعود إلى القرن الثالث عشر. وقد تكون ثمة أخبار من فترات أقدم، لكننا لم نعثر عليها بعد.

لم يُتح لنا يومها أن نصل إلى ظهر القضيب (أو القرنة السوداء)، أعلى قمة في لبنان. هذه الزيارة، بالنسبة لي، انتظرت عشر سنوات حتى حققتُها في سنة ١٩٣٥. لما زرنا الأرز سنة ١٩٢٥ كان فندق الأرز يبنى، ولما ذهبت بعد عشر سنوات كان ثمة إلى جانبه فندق «مون ربو»، الذي يشرف على وادي قاديشا إلى مسافة بعيدة. وفي هذا الفندق أقمت بضعة أيام في زيارتي الثانية.

انحدرنا، طبعًا على الأقدام، نحو طرابلس. وكانت أول مدينة مررنا بها إهدن، التي تتَّكىء على وادي قاديشا. واسم هذه البلدة قديم منذ أن كانت قرية صغيرة. والكلمة آرامية الأصل ومعناها المكان المنيع القوي الهادىء. واسمها، وأنا أتحدث عن سنة ١٩٢٥، ينطبق عليها تمامًا. وكان سيرنا مع طريق العربات غالبًا، إلا أننا كنا نُقودِمُ، أحيانًا اختصارًا للوقت. وأخيرًا أشرفنا على طرابلس.

كان هذا الإشراف الأول من مرتفع يمكِّنك أن ترى وحدتين من التجمعات السكانية، بين الواحدة والأخرى قرابة الكيلومترين من المسافة. هاتان يتحدث عنهما البعيدون عن طرابلس بهذا الاسم فقط. أما محليًا فالأولى تقع إلى الشرق وعلى جزء من تل وفيها القلعة، وهي طرابلس. أما الجزء القريب من البحر فهو الميناء. والميناء هي التي انطمرت تحت أنقاضها وفي جنباتها المدينة الفينيقية واليونانية ومدينة العصور الوسطى. ذلك أن المماليك، لما استعادوها من الصليبيين، دمّروها تمامًا كي لا تقع ثانية في أيدي الأعداء الذين نقلوا مملكتهم من فلسطين إلى قبرص. ثم أدرك هؤلاء الحكام أنه لا يجوز أن تظل المنطقة بدون حصن أو قلعة للدفاع عنها، فكان أن بنوا القلعة، وهي التي شاهدناها وإن كانت فيها زيادات عثمانية. وكان من الطبيعي أن تنشأ حول القلعة مدينة جديدة.

ويدرك المرء، كما أدركت يومها، أهمية طرابلس بالنسبة للمنطقة. هي أولاً مرتكز دفاع هام عن المنطقة الساحلية هناك، باعتبارها مدخلاً إلى المناطق الواقعة شرقي طرابلس. وهي ثانيًا، وهذا ما أدركته بعد يومين لما خرجنا من طرابلس نقصد تل كلخ. هذا الطريق الذي سرنا فيه هو جزء من الطريق الذي يصل بين طرابلس وحمص ويسمى، في جزئه الغربي، سهل البقيعة. وعندما يتذكر الواحد منا أن الساحل الشامي كله تقع إلى شرقه سلاسل جبال صعبة المرتقى، بدءًا من أمانوس في الشمال وحتى جبال القدس والخليل في الجنوب، عبورًا بجبال النصيرية ولبنان والجليل

ونابلس ـ عندما يتذكر هذه الجبال، يدرك معنى وجود ممرٍّ جبليٍّ يصل الساحل بالداخل وأهميته. وهذه الممرات هي، من الشمال إلى الجنوب، مدخل أنطاكية إلى حلب، وممر اللاذقية إلى حماة، وسهل البقيعة الذي يربط الساحل بحمص، وطريق صيدا شرقًا إلى دمشق، ومرج ابن عامر من سهل عكا إلى شمال غور الأردن.

نعم، هذه الإطلالة على طرابلس تمكِّنك، كما مكَّنتني، من تصوّر هذه الأمور، إذا كنت تعرف الحد الأدنى من التاريخ وعندك تصوُّر للجغرافية. ومررنا بالقلعة التي تحمل آثار ستة قرون من البناء والتخريب. ذلك أنه لما بناها المماليك واستعملوها ظلت العناية بها قائمة. لكن بعد مجيء العثمانيين، كانت تمر بها فترات إهمال، فيسطو الناس على حجارتها. فإذا عاد أحد الحكام العثمانيين لاستعمالها، حال حجمها دون إصلاحها بأكملها. فيكتفي بإصلاح جزء منها، بل وقد يضيف إليها أجزاء أخرى. وبذلك يظل بعضها خربًا. ولما زرناها، لم يكن فيها سوى فريق صغير من الجنود والدرك.

ومما أدخل السرور إلى نفسي رؤية البساتين المحيطة بطرابلس. فقد كانت المناطق المأهولة صغيرة، بحيث كانت المدينة تبدو كأنها قد ألقيت وسط خميلة خضراء.

اتجهنا نحو المدينة نستجلي معالمها، وما أكثرها وأغناها. وكان أول ما بحثنا عنه مكانًا للأكل. ولم نلبث أن عثرنا على مطعم صغير لكنه مرتَّب فدخلناه. وكانت الآرمة المعلقة فوق الباب مكتوبًا عليها بالعربية «المطعم الوطني»، وبالفرنسية Restaurant Français. وقد كان هذا المطعم لا يزال موجودًا في مكانه لما زرت طرابلس للمرة الثانية سنة ١٩٣٥.

وسرنا بعد الظهر في شارع عزمي، وكان آنق شوارع المدينة، ثم زرنا الميناء. وكان الخط الحديدي للترامواي الذي بني لوصل طرابلس بالميناء لا يزال مكانه. ولهذا الترامواي قصة. فقد كان من الطبيعي، بعد أن دخل الترامواي بيروت، أن يفكر فيه بالنسبة لطرابلس رغبة في وصل الميناء بالمدينة. والحركة بين القسمين كانت نشيطة بسبب النشاط التجاري الذي كانت طرابلس تتمتع به. فطرابلس، كما أشرنا قبلاً، كانت ميناء المناطق الوسطى من سوريا الداخلية. ورُتِّبت الأمور لإنشاء الترامواي، وبني الخط وجاءت عربات الترامواي، ولكن القاطرة لم تصل بسبب الحروب المتعاقبة التي اشتبكت بها الدولة العثمانية منذ سنة ١٩١١ ـ من الحرب الإيطالية وذلك لاعتداء إيطاليا على ليبيا، إلى حربي البلقان، ثم لم تلبث أن تلتها الحرب العالمية الأولى. ولكن ذلك لم يفت في عضد القائمين على الأمر؛ فقد أحضروا خيولاً قوية، فاستخدمت في جر الترامواي بين المدينة والميناء.

في الصيف يكون النهار طويلاً، وهذا ما يسَّرَ لنا زيارة معالم طرابلس وقضاء

ساعة أو أكثر في أحد مقاهيها نستمتع بالراحة التي أصبحت حقًا لنا، بعد السير الطويل والتي يجب أن نختزن بعضها للغد.

في يوم واحد تركنا نبع قاديشا، وسرنا مع واديه، ولما وصلنا إلى طرابلس، اكتشفت أن اسم هذا النهر هنا هو أبو علي.

٥ ـ أربعون سنة ويزيد

في سنة ١٩٤٩ التحقت بهيئة التدريس في الجامعة الأميركية ببيروت (دائرة التاريخ) وظللت فيها إلى سنة ١٩٧٣ إذ استُغنيَ عني بسبب بلوغي السن القانونية؛ ولكن بيروت لم تستغنِ عني ولم أستغن أنا عنها، ولا لأي سبب!

وأود أن أقول إن الذي لم يعش في بيروت مدة تكفي للاستمتاع بالمدينة والتأسّف لما أصابها فيما بعد، لا يمكنه أن يدرك عمق المحبة التي أشعر بها نحو هذه المدينة. بيروت أعجوبة في دنيا العرب؛ كما أن لبنان واللبنانيين أعجوبة أيضًا. ولن أحاول تفسير هذه الظاهرة الآن، ولن أحاول وصفها بلهَ وصفَ الشعور الذي أحسّ به بسبب إيماني باجتماع عناصر الأُعجوبة هنا. ولأكتف الساعة بتقرير الموقف؛ وأنا أعرف أن عيونًا كثيرة ستحمرّ وأخرى ستزور عندما يمر بها هذا القول؛ ولكنني، وإن كان لا يبدو علي في كلامي وتصرفي أنني أحتضن في أعماقي نفسًا ثائرة وعقلاً متحفزًا وقلبًا خفاقًا، فإنني أعرف أنني أؤمن بأمور معينة، وأعلن عنها من دون ضجة وصخب، وأدافع عنها من دون إعلان، وأقف عندها من دون أن أحيد عن الخط الذي اخترته لنفسي.

لذلك، فأنا أقول إن بيروت ولبنان واللبنانيين أعجوبة، وإنني أحبّ بيروت لمئة سبب وسبب، وإن كنت لا أستطيع أن أعدّ أكثر من عشرة أسباب.

وعندي أن الحب ـ حب شخص أو مكانٍ أو شيءٍ ـ قد يأتي من أول نظرة؛ لكنه إن لم يتح له عنصر المعرفة الحقيقية (بمن تحب وما تحبّ) فإنه يتلف بعد مدة. فهو قد يتخثّر ويحمّض فيؤذي؛ وقد يجمد وعندها يفقد عنصرًا أساسيًا من وجوده. وقد ترتفع فيه درجة الحرارة، عن المعرفة الحقيقية المفقودة، فيحرق؛ وقد يصل المتحابّان إلى وضع ليس فيه تخثّر ولا جمود ولا ارتفاع في درجة الحرارة، لكنه وضع يتلخص في موقف العناد. ومثل هذا الموقف يجهد ويضني وتكون النتيجة الفناء ـ لا فناء المحب في محبوبه على طريقة الصوفية، بل الفناء الناتج عن جهد الخصومة والتشبت بالموقف ـ صحيحًا كان الموقف أم خطأ ـ والإعياء ثم الارتماء.

حبي لبيروت الذي بدأ لما قرأت، قبل سنوات كثيرة طويلة قول الإمبراطور ولهلم (وليام) الأول قيصر ألمانيا: «إن بيروت درة في تاج آل عثمان»، والذي قوي إذ لمح بيروت لأول مرة خلال ثلاثة أيام مع درويش المقدادي (١٩٢٥)، ونما وترعرع وقوي (لا في زيارتين بعد ذلك ولكن) لما جئت إلى بيروت مستجيرًا فأجارتني كما أجارت

غيري. وهذا الحب قوي تدريجًا عبر أربعين سنة ونيف، لأنني جربت أن أعرف بيروت الحقيقية وبيروت المظاهر.

بيروت المظاهر أيسر على المرء أن يتعرف إليها عندما يقيم مثل هذه المدة فيها. أنا أذكر أننا لما سكنّا في شارع جاندارك (١٩٥٠) كنا، في السنوات الأولى، نذهب صباحًا إلى أصحاب البساتين من جيراننا لنشتري بعض أنواع الخضار والبقول «من الحقلة». لكنني رافقت اختفاء هذه البساتين تدريجًا في الخمسينات ثم بالجملة وبسرعة في الستينات. ولم تختف «الحقلة» من حيّنا فحسب، بل اختفت من جهات كثيرة. وفي أكثر الحالات قام مكانها مبان ضخمة.

وأنا أذكر أن قرارًا رسميًا صدر بأن لا تقام أية أبنية بعد الطريق (الكورنيش) لجهة البحر، كي يظل الشاطىء طبيعيًا جميلاً ومكان فسحة للعين والجسم. لكن نفوذ شخص لدى بعض الحكام سمح له أن ينشىء مقهى تحت الطريق. فكرّت السبحة، وأفسد الشاطىء في بيروت (وفي كل لبنان تقريبًا).

أذكر أنني في سنتي ١٩٤٩ و١٩٥٠ كنت أذهب إلى باب إدريس كي أتمكن من شراء قطعة من اللحم للروستو أو للبفتك، ولكن لم يمر علينا سوى وقت قصير حتى فتح تقلا وشريكاه (شارع الحمراء) سوبرماركت من نوع ممتاز، وكانت أصناف اللحوم تباع فيه على ما يشتهي الزبون ـ والتقطيع كان بلديًا وافرنجيًا.

أذكر المظاهرات التي كان الطلاب يقومون بها في الخمسينات، يوم كانت هذه تنطلق من نواحي الجامعة الاميركية، حيث كان الطلاب من المدارس المختلفة يتجمعون هناك في وقت مبكر، ثم يبدأون في الاتجاه المعين لهم. ومن المظاهرات المبكّرة هذه تلك التي انطلقت سنة ١٩٥٣ احتجاجًا على عزل محمد بن يوسف سلطان المغرب عن العرش على أيدي الفرنسيين. ولكنني أذكر أنه بعد إنشاء الجامعة اللبنانية أصبح هناك مركزان لانطلاق التظاهرات؛ وجاءت جامعة بيروت العربية كي تعطي المتظاهرين مركزًا ثالثًا للانطلاق.

أذكر بيروت في الستينات مثلاً وقد أحصيت عدد المناسبات الثقافية التي كان يعرفها رأس بيروت فكانت ثلاثًا ونصف المناسبة في اليوم الواحد بين محاضرات وندوات ومعارض فنية وأمسيات موسيقية وتمثيليات. فقد كانت الجامعة الأميركية وكلية بيروت للبنات (كلية بيروت الجامعية اليوم) والمجلس الثقافي البريطاني ومعهد غوته الألماني والمركزان الثقافيان الإيطالي والإسباني والملحقية الثقافية في السفارة السوفيتية، تعمل جاهدة لدعم الثقافة والفن والأدب بشكلٍ من الأشكال. كان الراغب في نواحي التثقف، على اختلافها، يجد ضالّته في رأس بيروت.

وكلنا ـ ممن عرف بيروت ظاهرًا ـ يذكر مقاهي الحمراء والرّوشة ومطعم فيصل ومقهى انكل سام مقابل الجامعة الأميركية، ويذكر أن هذه لم تكن مجرد مقاه يجلس

الواحد فيها يحتسي فنجانًا من القهوة أو الشاي أو كوبًا من البيرة فحسب، بل كان بعضها، إن لم تكن كلها، شبه أندية أدبية أو فنية تتحلق فيها «العصافير ذات الريش المتشابه» حول موائد صغيرة يتحدثون ـ أو يزقزقون ـ عن شؤون الأدب والسياسة والفن. وكم أوحت هذه الجلسات ـ مثل جلسات الهورس شو والدولتشي فيتا ـ إلى أحدهم بقصيدة قد ينظمها فتفيد، أو يعطسها فتذهب هباءً منثورًا، إلا إذا كان مصابًا بالزكام فقد يصيب سواه بأذى.

تدفق المال على لبنان من الخليج في الدرجة الأولى: أولاً لأن الكثيرين من اللبنانيين أفادوا من مجالات الأعمال المالية والتجارية التي هي واحدة من مهن الساحل اللبناني بشكل خاص. وثانيًا، لأن الكثيرين ممن كانوا يعملون في الخليج، ومن الفلسطينيين خاصة، كانوا يقضون بعض عطلهم في لبنان. وثالثًا، لأن أهل الخليج أنفسهم أعجبهم لبنان فقصدوه متنزّهين ومستروحين ومصطافين. وكم بنى هؤلاء من البيوت الفخمة ـ التي يصر الناس على تسميتها بالقصور ـ في جبال لبنان الأوسط!

وهرع الكتّاب العرب، من أهل البلد وغيره، إلى بيروت لنشر كتبهم، وذلك لأسباب كثيرة، فأصبحت بيروت مدينة النشر الأولى في دنيا العرب. قد لا يكون هذا صحيحًا بمعنى الكمية، ولكنه كان صحيحًا من حيث فنِّ إخراج الكتاب.

كان هذا كله يسير إلى الأمام، وكان يسير بخطى حثيثة، إلى أن جاءت سنة ١٩٧٥، وبدأت بيروت أولاً، ولبنان بعدها، «مسيرة العذاب الطويلة» (لا نزال فيها الآن وأنا أكتب سنة ١٩٩٠). وقد لقيت، كما لقي غيري، الكثير من النصب والخوف والتعب والنزول إلى الملاجىء وانقطاع الماء والكهرباء وحتى الخبز. ولعل ما أصابني أقل بكثير جدًا مما أصاب غيري. على كلٍّ ـ وقد كان بإمكاني أن أترك بيروت ـ بقيت فيها.

بقيت فيها لأنني أحبّها، ولأنني أشعر أن بيروت تحبني. لقد عرفت عن بيروت الكثير مما لم يتح لغيري لأنه لم يُعنَ به، وأحسب أن بيروت عرفت عني الكثير بسبب موقفي أنا منها. ومن هنا جاء هذا الحب. والحب لبيروت لم يكن أقل من حبي للبنان.

وهنا أقول أيضًا إنني أحب لبنان لأنني أعرفه ـ أعرفه جبالاً وهضابًا وسهولاً وآثارًا وثقافة وشعبًا وشعبيًا. هذه المعرفة الحقيقية لهذا البلد وعاصمته هي أساس حبي.

وهذا الكتاب الذي أضعه اليوم بين يدي القارىء إنما هو عربون لهذه المحبة ولهذه الصداقة.

بيروت ـ خريف ١٩٩٠

القسمُ الاوّل

هؤلاء أرّخو للبنان

١ ـ مقدمة

لبنان هذا البلد الأمين، يتذكر ماضيه، ويفكر بحاضره، ويحلم بمستقبله. لبنان ذو التاريخ الطويل، من كتب تاريخه؟ وكيف كُتب تاريخه؟ أين نبحث عن هذه الحضارة القديمة فيه؟ وأين نفتش عن أعمال أبنائه؟ وأين ننقب عن آثارهم؟

تلك أسئلة تجول في ذهن كل من يحاول أن يفكر بهذا التاريخ اللبناني الطويل. إنه تاريخ موغل في القدم. فهذه رقعة من العالم استيقظت على النقرات الأولى للضمير الإنساني، وكانت إحدى قبلتين تطلّع نحوهما العالم في مطلع حياته، في شواطىء البحر المتوسط الشرقية. فأين نتعرف إلى هذا التاريخ؟ أين نجد أولئك الذين دوّنوا هذا كله؟

ونحن عندما نقلب وجوهنا، محاولين أن نجد شيئًا نقف عنده، لنرى أولئك الذين دوّنوا الصفحات الأولى من هذه القصة الجميلة الأنيقة المشرقة الصفحات، فقد تصدمنا مرارة الخيبة. ذلك أن البعض من دارسي التاريخ، لا يرون التاريخ إلا في وثيقة أكيدة، أو نص صحيح السّند. وأنّى لنا الوثيقة الأكيدة والنص الصحيح السند لزمن يرجع إلى ثلاثة أو أربعة أو خمسة آلاف من السنين؟

على أننا لسنا من الذين يتقيدون إلى هذا الحد بالوثيقة والنص، متى كان الزمن بعيدًا عنا إلى هذا الحد، وإنما نحاول أن نجد ضالتنا في كل مكان وفي كل زاوية. وسرعان ما تتجدنا الأمور.

ونحن واجدون أن أول مؤرخ للبنان هو ذلك الذي وضع أول أسطورة عنه. وأحسب أن البحث العلمي لن يكشف في يوم من الأيام عن شخصية واضعي الأساطير. فأولئك أشخاص حجبهم عنا الزمن، ولكن الزمن لم يحجب عنا آثارهم. ومن ثم كان لنا هذا الفيض الكبير من الأساطير التي تلقي أشعة من النور، بعضها باهت، ولكن أكثرها قوي بحيث ينير لنا من الزوايا الكثير، ويطرد الظلام المخيم عليها.

ولسنا هنا في مقام تعداد هذه الأساطير أو تحليلها، فذلك أمر لا يتسع له المقام، ولكن لا بد لنا من تذكير القارىء الكريم ببعض هذه الأساطير ليرى ما ذهبنا إليه من أن واضع الأسطورة هو المؤرخ الأول للبنان. فمن هذه الأساطير أسطورة تموز. وقد تكون هذه القصة، بما فيها من حب وبطولة، وبسبب حدوثها في وادي نهر إبراهيم، تسلية ومتعة لمن يريد أن يمتع نفسه، ولكن فيها غير ذلك تفسير لكثير مما

كان يفكر به هؤلاء الذين سكنوا هذه البلاد في تلك الأزمنة البعيدة. وإلا فما معنى هذا الاحتفال ببطل القصة تموز أو أدونيس! وما هي دلالة إحياء هذه الذكرى لو لم يكن المقصود منها الإحتفاء بمولد الطبيعة والحياة في أوائل الربيع؟ وما معنى خروج الناس زرافات ووحدانا إلى الوادي لو لم يكن الناس يعتقدون بالخصب وما إليه؟

ونحن نسمع بأسطورة أخرى اسمها قدموس. وما هي هذه القصة؟ إنها قصة رجل مهيب، نقل الخير من شواطىء لبنان الى الجيران. وأي خير؟ حروف الهجاء. وهكذا ترى أنه حتى قبل أن يقول التاريخ وعلم الآثار الكلمة الفاصلة أو شبه الفاصلة في الموضوع، كان واضع الأسطورة قد أرّخ لهذه المسألة.

ولسنا نستطيع أن نسير في هذا السبيل إلى أبعد من هذا الحد. فالأسطورة التي تدور حول لبنان شاطئًا وجبلاً وسهلاً، منوعة إلى حد كبير، متعددة إلى درجة بعيدة. ونحن إنما قصدنا الإشارة لا أكثر. فإذا تركناالأسطورة جانبًا، وأخذنا القصة التي روت الحادث كما هو، دون أن يدخل فيه العنصر الإلهي والخيال غير المحدود، لوجدنا عشرات من هذه القصص تساعدنا على فهم التاريخ اللبناني. وإذن، فالقاص هو، بعد واضع الأسطورة، الذي يستأثر باهتمامنا الآن. وكما أنّا لم نُطِلْ في الأسطورة، فإننا لن نطيل في القصة. وسنكتفي بواحدة تشير إلى ما نرمي إليه. تلك هي قصة وينامون، وهو مصري جاء إلى هذه البلاد، في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ليبتاع خشبًا. وقبل أن يصل لبنان طلع عليه اللصوص البحريون، وسلبوه أمواله. ولكن وينامون وصل إلى لبنان، وأخذ الخشب الذي كان بحاجة إليه، على أن يبعث بالثمن فيما بعد. هذه القصة بأقل ما يمكن من الكلمات. فما الذي نستطيع أن نستنتجه من هذه القصة؟ أما أولاً فهو أن مصر كانت تبتاع أخشابها من لبنان، وثانيًا أن الطريق لم يكن دائمًا آمنًا. ولكن الأهم من هذا كله هو أن نذكر أن التاجر المصري حصل على حاجته من الخشب على أن يبعث بالثمن فيما بعد. ومعنى هذا هو أن العلاقة التجارية كانت متينة بين البلدين حتى يُقبل مثل هذا النوع من الدفع.

فإذا انتهينا من هذه الإشارة العابرة إلى واضع الأسطورة والقاص على أنهما ممن أرّخوا للبنان في أطواره الأولى، فنحن واجدون أن المؤرّخ الذي يتطلب الوثيقة الأكيدة والنص الصحيح السند، واجد ضالته في هذه النقوش الكثيرة التي خلّفها لنا أولئك الذين صنعوا التاريخ اللبناني. ومع أننا حتى في هذه الحالة قلما نعرف من هو الذي وضع هذه النصوص، إلا اننا نعرف هذه النصوص أو النقوش، ونستطيع أن نقرأها ونعرف منها الكثير.

هذه النقوش موزعة، بعضها وجد في لبنان ، ولكنه الآن خارجه، وبعضها عثر عليه خارج لبنان، ولكن دلالته وأهميته لتاريخ هذه البلاد، لا تخفيان على أحد. وهذه النقوش مبعثرة، لأنها وجدت على حجارة القلاع القديمة، وعلى النواويس التي عثر

عليها هنا وهناك، وعلى عتبات الهياكل. وهي، فوق هذا وذاك، قد وجدت مجموعة مع بعض بحيث تمكن الباحثون من درسها، ولو على عجل، وأخذوا يرون إمكان تغير النظر في تاريخ الشرق القديم كله على أساسها. ولعل أبعد هذه المجموعات خطرًا فيما يتعلق بتاريخ شرقي البحر المتوسط، وتاريخه الفكري خاصة، هي تلك التي كشفت عنها حفريات رأس شمرا أو أوغاريت. لقد أظهرت حرفًا هجائيًا أقدم مما كان قد عرف بما يقرب من القرن. وبيّنت أن وسائل الكتابة وأشكالها اختلفت عما كان معروفًا. لكن الضجة التي أحدثتها هذه الاكتشافات لم تقتصر على الكتابة والوسائل، ولكنها تعدتها إلى المحتويات. فقد تبين، وإن كان الأمر لا يزال موضع جدل، أن بعض ما كان يعتبر أدبًا لقوم في الجنوب، إنما هو أدب له أصوله في هذه الرقعة. وهذه قضية تهم العالم والمؤرّخ بقدر ما تهم المؤمن والمتعبد.

ونحن عندما نتحدث عن النقوش فإنما نضع إصبعنا على أصل مادي لمعرفتنا لتاريخ لبنان، لكننا نكون في أول الطريق. فالأثر المادي الذي يمكن أن يعيننا في تفهم هذه الناحية كثير الانتشار. فأنت قلما تنتقل من بقعة إلى بقعة في لبنان من دون أن تجد بقية هيكل أو قلعة أو قصر أو دير تحدثك حديثًا مستفيضًا عن الذي مر على هذه البلاد من إنشاء وعمران وتهديم وتخريب وإعادة بناء وتطور في الشعور والعبادة والتوجه واستعباد أو محاولة الاستعباد ثم الثورة والاستقلال. كل هذه النواحي وجميع هذه الصفحات مكتوبة كتابة نافرة على أرض لبنان في هذا الذي تبقى من أبنية منوعة منتشرة مهدمة أو محافظ عليها.

وإذا أنت خرجت من لبنان، وجدت من الآثار ما يدل على ما عمله لبنان في قديمه. وقد لا تجد الكثير من ذلك عند الجيران الأقرباء، ولو أنه موجود حتمًا، ولكنك واجد منه الأكثر جدًا عند القوم البعيدين قليلاً. ففي ليبيا وتونس آثار بناء وعمران أقامهما أبناء صيدا وصور قبل نحو من ثلاثة آلاف سنة. نعم، على مقربة من مدينة تونس الحالية تقوم آثار مدينة كبيرة هي قرطاجة التي أنشأها لبنانيون تركوا بلادهم وضربوا في الآفاق حتى استقروا هناك. وقد تهدمت قرطاجة على أيدي الرومان، لما فتحوها في القرن الثاني قبل الميلاد، لكن الزائر لآثارها اليوم، بعد كل هذا الزمن، يستطيع أن يتصور أي مدينة كانت، وأي عظمة احتوتها تلك المدينة. وأنت تقف على أطلالها، وتزور المتحف الخاص المقام حيث كانت تقوم قصور المدينة، فتشعر أنك تقرأ صفحة ناصعة جلية من تاريخ لبنان، في البناء والفن والصناعة والتجارة.

هؤلاء هم الفريق الأول الذي أرخ للبنان: واضع الأسطورة، والقاص، وحافر النقش، والبنّاء. هم الجماعة الأولى من مؤرخي لبنان، تحدثنا عنهم راجين أن نتحدث عن بقية الجماعة التي كتبت تاريخ لبنان.

٢ ـ من هيرودتس إلى سترابو

في أوائل القرن الخامس ق.م. تعرضت بلاد اليونان لمحنة قوية، كادت أن تطيح بها، لولا أن قُيِّض لها من القادة والحكماء من أنقذها. أما المحنة فهي هجوم الإمبراطورية الفارسية بخيلها ورجلها، على المدن اليونانية. وقد كانت أحداث الحرب سجالاً بين الفريقين، حتى تم لليونان الانتصار، وإخراج الفرس من بلادهم. وكان من أثر هذا الفوز أن أينعت الحياة الأدبية والفنية، بحيث كثر الشعراء الذين اتخذوا من هذه اليقظة موضوعات أغانيهم. وممن أنجبت هذه الفترة اليقظة في التاريخ اليوناني المؤرخ اليوناني الكبير هيرودتس، الذي أرّخ لهذه الحروب.

عكف هيرودتس على التأريخ لهذه الحروب الفارسية اليونانية، وأراد أن يبين أصولها وسيرها ونتائجها، ومن ثم فقد رأى أن يعرض للقوى التي اشتركت في الحروب، بحيث يبين كل ما ساعدها أو أعاقها. لذلك أخذ الإمبراطورية الفارسية فدرس تاريخ قيام الدولة، وعرض لحياتها الدينية، وبيّن فتوحها واستيلاءها على البلاد التي حكمتها، ثم أخذ نظامها الإداري بالتفصيل الكامل، مبيّنًا مراكز الإدارة معطيًا ما كانت تقدمه كل ولاية من ولايات الإمبراطورية.

ولما كان لبنان، في أثناء الحروب، خاضعًا للفرس بعد أن فتحوه في أيام دارا الكبير، فقد ناله من عناية المؤرخ قسطًا كبيرًا، من حيث جغرافيته وتطوره السياسي وإدارته ونظمه في تلك الفترة، أي في القرن الخامس ق.م.

كانت الإمبراطورية الفارسية قد قُسِّمت في أوائل هذا القرن إلى ولايات تدعى واحدتها استرابيّة، ويدير شؤون كل منها مرزبان. وقد كان لبنان يقع في إطار استرابية واحدة، هي الولاية الثالثة، وكانت تدفع هذه الولاية ٣٧٠ وزنة من الفضة. والوزنة الواحدة تساوي في عملة هذه الأيام نحو مئتي جنيه استرليني. ومعنى ذلك، أن الولاية الثالثة كانت تدفع نحو ثلاثة أرباع المليون من الليرات اللبنانية، يدفع لبنان جزءًا منها فقط. على أنه من الضروري أن نتذكر أن قيمة النقد الشرائية في ذلك الوقت كانت نحو عشرين ضعفًا من قيمته الشرائية اليوم (كتب هذا سنة ١٩٥٥).

وهيرودتس حريص على أن يعطي وصفًا وافيًا للشعوب التي يذكرها. فهو عندما يمر بالفينيقيين يقول عنهم: «والفينيقيون أدخلوا في إغريقيا مدة إقامتهم في تلك البلاد عدة معارف ومن جملتها الحروف التي كانت في رأيي مجهولة سابقًا في تلك

البلاد. استعملوها أولاً على طريقة الفينيقيين، لكن مع مضي الزمن تغيرت تلك الحروف بتغير اللغة، وصارت ذات صور جديدة. وكان اليونان حينئذ أهلَ البلاد المجاورة فاتخذوا تلك الحروف كما علمهم إياها الفينيقيون لكن غيروا فيها بعض التغيير. وكانوا يعترفون عن طيب خاطر، وكما يقتضي العدل، فسمّوها بالحروف الفينيقية لأن الفينيقيين أدخلوها في أغريقيا».

وعندما يفصّل المؤرخ اليوناني أنباء حملة أزركسيس أو أحشويرش على بلاد اليونان، وهي الحملة التي انتهت بانتصار الفرس أولاً، يعدد الفرق المختلفة التي ساهمت في الحملة. فيقول عن الفينيقيين مثلاً إنهم أثناء العمل على تحضير الأسطول العام لمهاجمة بلاد اليونان، كانوا يربطون المراكب بحبال من الكتّان. وأخيرًا لما آن الوقت لربط المراكب في سبيل إقامة الجسر كان للفينيقيين يد كبرى في نجاح العمل. لكن العمل الرئيس للوحدات الفينيقية في الأسطول الفارسي جاء في معركة سلاميس، التي انتهت بانتصار اليونان. ذلك أن التنظيم جاء من الفينيقيين، لكن بقية الوحدات هي التي اختلَّ نظامها، فاضطربت، وأدى ذلك إلى هزيمة الأسطول بكامله.

ولا يكتفي هيرودتس بالحديث عن الفينيقيين في بلادهم، وإنما تعدى ذلك إلى ذكر القرطاجيين، الذين كان معجبًا بهم، فيحدثنا عن الجماعة الصورية التي أنشأت قرطاجة، والنجاح الذي أحرزته في تلك الجهات، والمدنية التي انتشرت في المنطقة كلها. وكان هيرودتس يحب الكثير من الأمور الغريبة، فأكثر من رواية الأساطير والقصص التي تعبر تعبيرًا صادقًا عن كثير من آراء القوم وعقائدهم.

وكان الحدث الآخر المهم في تاريخ لبنان، بعد الإمبراطورية الفارسية، هو مجيء الإسكندر الكبير إلى هذه البلاد. القراء الكرام يعرفون أن صور قاومت الإسكندر مقاومة عنيفة. ومؤرخ الإسكندر هو أرِّيان. وأرِّيان يتحدث عن صمود صور أمام القائد الكبير، وعن محاولته اقتحامها. ثم يروي خبر طمر الجزء البحري بين البرّ والمدينة، وعمل البحر في إزاحة الرمال والتراب، حتى انتهى الأمر بالقائد إلى فتح صور، ومعاقبتها على نحو ما عاقب غزة فيما بعد، ذلك أنه باع الكثير من أهل هاتين المدينتين في سوق الرقيق.

وفي النصف الأول، من القرن الأول، قبل الميلاد، احتل الرومان هذه البلاد، وكان ذلك على يد بومبي سنة ٦٣ ق.م. ولم يستتب الأمر لهم إلا بعد مدة. وقامت على الحكم الروماني ثورات كثيرة خصوصًا في نهاية القرن الأول بعد الميلاد. ومع أن هذه الثورات كانت تقوم في فلسطين، فقد وصلت آثار بعضها إلى جنوب لبنان. وهنا يتوجّب علينا أن نرجع إلى يوسيفوس لنستقي منه أخبار هذه الحوادث في هذا الجزء من لبنان. ولا شك أنّ التفاصيل التي نحصل عليها قليلة، لكن مما لا شك فيه أيضًا أن

قراءة هذه الصفحات تطلعنا على نواحٍ من التاريخ الاجتماعي للمنطقة، من حيث شيوع اللغة الفينيقية في الأجزاء الساحلية، وبقية من الآرامية في لأجزاء الداخلية.

وفي القرن الثاني، بعد الميلاد، ظهر في روما كتاب كان له قيمة كبيرة في حفظ أخبار الإمبراطورية الرومانية الجغرافية والتاريخية والسياسية، هو كتاب سترابو المسمّى: «جغرافية». وقد حلل فيه الكاتب الحالة في الولايات، وأوضح معالم تطوّرها، وبيّن نموّ الحياة العامة فيها. ولعلنا لن نثقل على القرّاء إذا نحن نقلنا وصفًا عامًّا للبنان في ذلك الوقت عن سترابو الذي كتب باليونانية، لكنه كان رومانيَّ التبعية.

ففي الفترة التي نشير إليها:

«كانت هذه البلاد مستمتعة بالأمن والحكومة المنظمة، فانتظمت فيها الحياة الاقتصادية، فأنتجت كميات كبيرة من الخمور الجيدة، التي صُدِّرت إلى الهند وفارس وديار الغرب. كما وصل زيتون هذه الديار إلى الغرب أيضًا، ووصل زيتها إلى جهات كثيرة من الإمبراطورية. وكانت صيدا تصدر العطور من الأنواع الفاخرة. على أن الحياكة والصبّاغة ظلّتا في مقدمة الصناعات اللبنانية. فصور وصيدا وبيروت وجبيل كانت تنسج الأقمشة وتصبغها باللون الأرجواني الجميل. وكان الحرير الخام يأتي من الصين، فتتناوله الأيدي الصناع بما يلزمه، ثم تصدره إلى بلاط روما وأسواق الغرب. كما كان الزجاج من مصنوعات صيدا الأولى.

«وقد ازدادت المدن، بسبب هذا الاطمئنان، الذي استمتعت به البلاد. فتم في ذلك الشيء الكثير، إذ إن المدن كانت منتظمة الشوارع، منسّقة الأبنية العامة، مليئة الأسواق. والفن الذي ظهر في ذلك الوقت يمثل شخصية مستقلة على ما يبدو في مباني بعلبك».

٣ ـ من مؤرخي لبنان العرب

في سنة ٦٣٦ للميلاد، انتصر العرب في معركة اليرموك على جيوش بزنطية، وبذلك بدأ احتلالهم لسوريا ولبنان. ولم تمر عليهم فترة طويلة حتى كانت البلاد تحت نفوذهم، أو تحت سلطانهم. وبدأت بذلك فترة جديدة في تاريخ هذه الديار. ولسنا نريد أن نحدد لهذه الفترة نهاية، إذ إن نتائجها لا تزال تعمل إلى الآن في تاريخ هذه البلاد وحياتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية. ولكن ثمة ملاحظات عامة نرى من الواجب أن نذكرها في بدء هذا الحديث. وأولى هذه الملاحظات هي أن الفتح العربي لهذه الأصقاع، غيَّر، على توالي الزمن، الكثير من معالمها. وأهم نواحي هذا التغيير هي تلك المتعلقة بانتشار اللغة العربية في لبنان. فقد كان لبنان، شأن غيره من البلاد الشرقية آنذاك، قد غرق في الحضارة اليونانية والهلينستية، وكان قد قدّم للحضارة مجموعة ممتازة من رجال الفكر. ولكن لغة هذه الحضارة، مثل لغة القانون والإدارة، ظلت محدودة الانتشار، إذ لم تتعدَّ المدن. وظل أهل الريف اللبناني، مثل أهل الريف السوري والفلسطيني، يستعملون لهجاتهم الخاصة بهم. ومن ثمة كانوا محرومين ثمار هذا الجهد الذهني الذي كانت تتمخض المدينة عنه. فلما جاء الفتح العربي، وجاءت معه العربية، أخذت هذه اللغة تنتشر في أصقاعه، فكان منها، على توالي الزمن، لغة موحدة في أصولها وأسلوبها. ولذلك صار الريف يشارك المدن في نتاجها الفكري، ويشترك معها في ثمراته. ولسنا ننكر أن هذا الانتشار اللغوي للعربية لم يتم كله في الفترة التي نعرض لها، ولكنّ أُسسه على الأقل تمّت فيها.

وليسمح لنا القراء الكرام بملاحظة أخرى وهي أن لبنان تمتع في أيام الأمويين بمركز خاص، بسبب أن عاصمتهم كانت في دمشق، وبسبب من اهتمامهم بالموانىء والسواحل والأسطول. ولذلك نرى المؤرخين الذين يتناولون هذه الفترة يتحدثون عن المدن اللبنانية بشيء من التفصيل. لكن ما كادت الدولة العباسية تغلبُ الأمويين على أمرهم، وتتّخذ من بغداد عاصمة لها، حتى أهملت شؤون البحر إهمالاً كبيرًا، وعادت دولة برّية. فكان من نتائج ذلك أن فقدت المدن الساحلية في لبنان قيمتها العسكرية، لكنها احتفظت بقيمتها التجارية. على أن قيام العباسيين كان له أثر آخر، ذلك أن القسم الأكبر من رجال العلم والبحث اتخذوا بغداد أو ما إليها موطنًا. ولما كان الناس

على دين ملوكهم، فقد ترتب على ذلك أن أهمل المؤرخون لبنان وسوريا إهمالاً شنيعًا معيبًا. على أن البلاد لم تفقد من عُني بتاريخها من أبنائها.

وإذا نحن عرضنا للمؤرخين الذين تحدّثوا عن لبنان وأرّخوا له في هذه القرون التي تلت الفتح العربي، وجدنا كثرة من الأسماء. لكننا نريد أن نقف عند جماعة قليلة منهم يرجع إليها الفضل في توضيح الأمور. ومن هذه الجماعة البلاذري من أهل القرن التاسع للميلاد، إذ توفي في أواخره. وهو بغدادي النشأة وكان قريبًا من الخلفاء، تقرّب إليهم بشعره وكتابته. وقد كتب كثيرًا، لكن الذي يهمّنا من كتبه كتاب «فتوح البلدان» الذي تناول فيه أخبار الفتوح من أيام النبي ﷺ لكنّه رتبها ترتيبًا جغرافيًا. والكتاب غزيرُ المادة، ويعتبر حجةً من حيث توخّي الدقة والعناية بالتثبت من الوقائع. على أن الكتاب إلى ذلك كله حوى أبحاثًا عمرانيّة وسياسية واقتصادية وإدارية.

ومما هو جدير بالذكر أن مؤرخًا لبنانيًا حديثًا نقل الكتاب إلى اللغة الإنكليزية ونشره في نيويورك سنة ١٩١٦. أما المترجم فلم يكن إلا الدكتور فيليب حتي.

وبين المؤرخين الذين عالجوا هذه القضايا العامة الطبريّ، الذي عاش في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للميلاد. والطبري مؤرّخ ومفسر، وكان كثير الرحلة في طلب العلم، لذلك جمع المواد الكثيرة. ومع ذلك فإن أخباره عن لبنان وسوريا، خصوصًا بعد زوال الدولة الأموية، قليلة، لأنه يمثل هذه النزعة التي كانت تطغى على المؤلفين في ذلك الوقت وهي إهمال مواطن الأمويين، وإهمال البحر وما إلى البحر.

وبين الذين كتبوا عن هذه البلاد، المقدسيّ. والمقدسي، مبدئيًا، جغرافي. وهو دقيق في بحثه، حريص على الصحة في روايته، ولما كان أصله من الرملة (أو من القدس) بفلسطين، فقد كان يعرف البلاد معرفة وافية. وصوره الجغرافية مصدر غني بالمعلومات، عن الديار اللبنانية والأقطار المجاورة، كما وردت في كتابه «أحسن التقاسيم». والمقدسي من أهل القرن العاشر الميلادي. والقطعة التالية، التي يتحدث فيها عن موارد الثروة في لبنان والأقطار الشقيقة، تبيّن إلى أيّ حدّ كان الرجل دقيقًا ناصع العبارة بيِّن الأسلوب.

يقول المقدسي: والتجارات بها مفيدة:

«يرتفع من فلسطين الزيت والقطّين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفُوط. ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوري غايةً والتفاح وقضم قريش الذي لا نظير له والمرايا وقدور القناديل والأبر، ومن أريحا نيل غاية. ومن صُغَر (زُغَر) وبيسان النيل والتمور. ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل. ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد وبزّ. ومن قدس ثياب المنيّرة والبلعيسيّة والحبال. ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات. ومن مآب قلوب اللوز. ومن بيسان الرز. ومن دمشق المعصور والبنعيسي ودهن بنفسج دون الصفريات والكاغد

والجـوز والقطين (التـيـن المـجـفـف) والزبيـب. ومن حلب القطن والثـيـاب والأشنان والمغـرة. ومن بعلبك المـلابن. ولا نظيـر لقطين وزيت الأنفاق، وحواري وميـازر الرملة، ولا لمعنقة وقضم قريش وعينوني ودوري وترياق بيت المقدس».

هؤلاء المؤرخون، الذين تحدّثنا عنهم هـذا الحديث المقتضب، إنمـا هم قلة من كثرة. وإذا نحن حاولنا عـرض الأسماء فقط، لكان لنا من ذلك جريدة طويلة. ولكننا لم نفعل هذا، تجنيبًا للقـراء الكرام أن يُزعجـوا إلى هذا الحد. لكننا نرى لـزامًا علينا أن نشيـر بكلمة إلى عـدد من الرحّالين، زاروا هذه البـلاد، في القـرنين العاشـر والحادي عشر للميلاد، وتركوا لنا صورًا جميلة جدًا، تنبض بالحياة. وفي مقدمة هؤلاء، ناصري خسرو، الذي مر، في أواسط القرن الحادي عشر، بطرابلس وصيدا وصور فوصفها وصفًا جميلاً لطيفًا دقيقًا.

٤ ـ من مؤرخي لبنان في فترة الحروب الصليبية

تعرّض لبنان، كما تعرضت فلسطين وأجزاء من سوريا، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، لمحنة كبيرة. فقد هاجمت هذه البلاد جيوش الصليبيين واحتلّتها، وظلّت فيها قرابة قرنين من الزمان. ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى ثلاثة أدوار. كان الأوّل دورًا انتصر فيه المهاجمون من الغرب، وانشأوا ملكًا قويًا، وتجارات واسعة، ومدنًا حصينة، وقلاعًا ضخمة. لكن قيام الدولة النّوريّة ثم الدولة الصلاحية أدى إلى انتعاش في هذه الديار، فكان ذلك الدور الثاني. ثم جاء المماليك، في أواسط القرن الثالث عشر، فتم لهم الانتصار على الصليبيين، وإخراجهم من البلاد. وهذا هو الدور الثالث.

هذه الفترة من التاريخ اللبناني، على كثرة ما كان فيها من حروب وخصومات، كانت فترة ثراء وانتعاش. ذلك أن لبنان وجيرانه، هي بلاد تقع على طريق تصل بين الشرق والغرب، وكانت الموانىء هنا، هي الأماكن التي تتبادل فيها سفن اليمّ وسفن الصحراء أحمالها.

وفضلاً عن الانتعاش التجاري والصناعي، فقد شهدت هذه الفترة انتعاشًا نسبيًا في الأدب العربي. ذلك أن الخصومات والحروب استدعت شحذ الهمم، والسبيل إليه شعر ينظم، ونثر ينضّد. ومن هنا، كان هذا السيل الدافق، الذي يجد الباحث نفسه أمامه، عندما يستعرض منتوج العصر الأدبي. وقد لا يكون هذا الإنتاج غنيًا بالفكرة، ولكنه كان، ولا شك غنيًا بالعاطفة المتأججة.

وبقدر ما كانت الفترة نابضة بالحياة، بالنسبة للمشارقة، كانت عنايتهم بتدوين أحداثها كثيرة، وكان اهتمام الغربيين بذلك كبيرًا. فالحروب الصليبية، بالنسبة لهم، ليست شيئًا يحدث كثيرًا. وبسبب اهتمام الجماعات المختلفة، على تباين نزعاتها، بالحروب وما جرّت معها، فقد كثر الكتّاب والمؤرخون فيها. ومن ثم، فنحن أينما اتجهنا، وجدنا عددًا كبيرًا من المؤرّخين لهذه الفترة. وبقدر ما أثّرت الحروب الصليبية على الإمبراطورية البزنطية وأرمينيا، فقد شملت مصادرها مؤلفات يونانية وأرمنية. ولنضف، إلى كل هذه المؤلفات، ما خلّفه الحجاج الأوروبيون، وهم كثر، من يوميّات لرحلاتهم.

لذلك، عندما جئنا لنختار جماعة من مؤرخي لبنان، نتحدث عنهم هنا، لم

تزعجنا القلّة، ولكن حيّرتنا الكثرة. ولنتحدث، بادئ ذي بدء، عن مجموعة من المؤرخين العرب، كان لهم، في توضيح هذه الفترة، يدٌ طولى. وفي مقدمة هؤلاء العماد الأصبهاني، وهو مشرقيّ الأصل، لكنه قضى فترة طويلة من عمره في دمشق، فخدم نور الدين، وولي المدرسة العمادية، ثم التحق بالسلطان صلاح الدين، الذي كان يعزّه، كما كان يعزّه نور الدين قبله. والعماد صاحب عدد من الكتب، أشهرها «الفتح القسيّ في الفتح القدسي»، أرخ فيه لفتح صلاح الدين للقدس. لكن الكتاب، الذي يمكن أن يفاد منه، في تاريخ لبنان، لهذه الفترة من مؤلفات العماد، هو «البرق الشامي»، لأنه أرّخ فيه لحروب صلاح الدين في بقية أنحاء هذه البلاد. كما أن العماد عرض في «خريدة القصر» لتراجم علماء هذه البلاد في القرن الثاني عشر للميلاد.

ومن مؤرّخي هذه الفترة الأفذاذ، في العربية، عز الدين بن الأثير، من أهل القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وكان ابن الأثير دقيقًا في عبارته، قادرًا على تنسيق أخباره، محيطًا بالأمور التي كانت البلاد تجتازها. لذلك، جاء كتابه «الكامل» في التاريخ مرجعًا خصبًا، لمن يريد أن يحيط بالأمور إحاطةً وافيةً. وهو يروي لنا الكثير من حوادث القتال والحروب، التي كانت تقع على، ما يصح اعتباره، الحدود اللبنانية السورية.

وإذا كنا نكتفي بهذين من المخيم العربي، فلأننا نريد أن نشير إلى بعض المؤرّخين الغربيّين. وعندنا من هؤلاء اثنان حريّان بأن نتحدث عنهما، وهما وليم الصوري ويعقوب أسقف عكا. ووليم الصوري وضع كتابه عن تاريخ الصليبيين سنة ١١٨٣، وكان، إذ ذاك، يشغل منصب رئيس أساقفة صور. وقد وصف فيه لبنان وصفًا جغرافيًا دقيقًا، لعلّه أول وصف صحيح كتبه مؤلف غربي. وفي الكتاب معلومات عن «الحشاشين». ولعلّ ما يلذ للبنانيٍّ أن يعرفه، أن وليم وصف صور وبساتينها ونظام توزيع المياه فيها. وعلى روايته، كان للمدينة خزان عظيم، يجمع المياه من غير مكان واحد، ثم تنحدر المياه منه، لا لحاجة السكان فحسب، ولكن لريّ البساتين، التي كانت تنتج كميات كبيرة من قصب السكر.

ويعقوب سيم مطرانًا لعكاء سنة ١٢١٧م، بعد أن قضى عشر سنوات في هذه البلاد. وتاريخه يحوي معلومات جغرافية أكثر مما نجد عند وليم. وقد عرض للطوائف النصرانيّة، فتحدث عنها حديث العارف بأمورها. إلاَّ أنه احتفل كثيرًا بجمع العدد الكبير من القصص الخرافية والاساطير، ونقل كثيرًا من المعتقدات المنتشرة، آنذاك، والمتعلقة بالعيون والينابيع وأنواع المياه وعلاقتها بشفاء الأمراض وإزالة العقم. ومع ذلك، فوصفه للمدن الساحلية في لبنان وسوريا وفلسطين، قلما يُجارى، من حيث دقته.

وحريٌّ بالذكر، أن هذه الفترة، أرخ لها اثنان، بالسريانية، هما ميشيل السريانيّ

وأبو الفرج العبريّ. وميشيل كان بطريرك انطاكية، لليعاقبة، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وروايته عن الأحداث، التي عاصرها، ذات قيمة كبيرة، في تاريخ تلك الحقبة. وهو يتناول شمال لبنان، بكثير من الرواية المفصلة. أما أبو الفرج، فقد دوّن أخبار الفترة المتأخرة من العصر الصليبي، وسنوات المماليك الأولى.

أشرنا، من قبل، إلى كثرة الحجّاج والرحالين، في هذه الفترة، وهي كثرة تدعو إلى الحيرة، عندما يحاول الواحد أن يختار. فالأسماء تتجاوز العشرات. فهناك دانيال الروسي ويوحنا وثيودورتش الألمانيان، وبنيامين الأسباني، وفوكاس الكريتي وتتمار وبُرْكارد الدومنكاني. هذا من الناحية الغربية، أما من الناحية العربية فثمة ابن جبير والهروي وأسامة بن منقذ وعبد اللطيف البغدادي. ولعل أكثرهم فائدة بالنسبة للتاريخ اللبناني ابن جبير وأسامة بن منقذ. فابن جبير، اجتاز من دمشق إلى عكاء، وزار صور. وبذلك مرّ بالأجزاء الجنوبية من لبنان، وترك لنا وصفًا دقيقًا لثراء صور. أما أسامة ابن منقذ فقد روى الكثير عن هذه البلاد. ولعل أطرف ما روى قصة الطبيب الإفرنجي، الذي كان في المُنَيْتَرَة، والذي عالج المرأة المصابة بضغط الدم، بأن حلق شعرها، وحفر في جمجمتها صليبًا، وفرك الجرح بالثوم والملح، اعتقادًا منه، بأن فيها شيطانًا يجب أن يخرج، فماتت. وبالمقابل، يروي ابن منقذ قصة الطبيب العربي من تلك الجهات، الذي كان قد نصح لها، بأن تخفف من أكل الأشياء الحارة، حتى يخف هياج دمها، وكانت على وشك الشفاء، حين جاء الطبيب الإفرنجي.

٥ ـ صالح بن يحيى

أما المؤلف فهو صالح بن يحيى من آل بحتر أمراء الغرب، وأما الكتاب فهو «تاريخ بيروت». وآل بحتر، أمراء الغرب، استقرّوا في المنطقة الممتدّة من بحمدون إلى خلدة من لبنان، في أواسط القرن الثاني عشر للميلاد، إبان كانت هذه البلاد خاضعة جزئيًا للصليبيين. وكان طبيعيًا أن تنمو إمارتهم بنمو القوة المملوكية فيما بعد. وكان لهم نفوذ كبير من جهات مختلفة، وكان منهم طبقات في الإمارة. وقد تركّزت فروع هذه الطبقات في عبيه وعرمون وغيرهما. وظهر في الأسرة، فضلاً عن أمراء الإقطاع وسادة الضياع، جماعة برزت في الأدب، وعرفت من العلم شيئًا تحسد عليه، آنئذ.

وصالح بن يحيى توفي في أواسط القرن الخامس عشر للميلاد، أي أن أمراء الغرب، كان قد مرّ عليهم، نحو ثلاثة قرون، منذ أن استقرّوا في إقليم الشّوف. ولعل تأصّل نفوذهم واستتباب أمرهم، هو ما دعا صالح بن يحيى لأن يدوّن أخبارهم، مستخرجًا الكثير منها، من وثائق عائلية وأخبار خاصة، رواها السلف للخلف. وقدم لكتابه بتاريخ أثريّ موجز لبيروت، قد لا يكون له قيمة تاريخية كبيرة. ولكن الجزء الخاص بتاريخ بيروت وما حولها، في أيام آل بحتر، هو الذي خدم به صالح المؤرّخين المحدثين. والمعلومات التي جمعها المؤلّف في كتابه منوعة. فهو يقص أخبار الأسرة ورجالها، طبقات طبقات، لكنه يضيف دائمًا الأخبار العامّة المعاصرة، ليمكّن القارىء من إدراك ما أصاب الأسرة، في الإطار التاريخي العام.

ونحن، إذا تناولنا الكتاب، وجدنا أن كثيرًا من هذه الأخبار العامة، لا يوجد عند أحد غيره، ولولاه لضاعت. على أن صالح بن يحيى لا يكتفي بذلك، بل يشير إلى أُمور كثيرة خاصة بعلاقات الإفرنج بهذه البلاد، أيام إقامتهم فيها، ثم بعد خروجهم منها. ومع أن هذه الأمور كلها حرية بالاهتمام، فإن «تاريخ بيروت» يعطينا أشياء أخرى. فهو سجل للتطور الاجتماعي والاقتصادي لبيروت وما حولها، في الفترة التي يؤرخ لها. لن تجد، أيها القارىء، هذه الأخبار في باب خاص أو فصل معيّن، ولكنك واجدها ومفيد منها، إذا سمحت لنفسك بأن تصبر، فتنال بغيتك.

ومما يجدر ذكره عن الكتاب، هو هذه البساطة المتناهية التي يشير بها المؤلف إلى كتابه وإلى نفسه. فتراه يقول: «وبعد، فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى صالح بن

يحيى بن صالح بن الحسين بن أمير الغرب لطف الله به. إني أردت أن أجمع شيئًا يستفيد به الخلف من أخبار السلف، من ذريّة بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت، فجمعت هذه التذكرة معتذرًا إلى الواقف عليها من ركة اللفظ ومواقع الخطأ بعد الاجتهاد على صحة النقل وحذف الفضول. لأني لا أريد أن أكون مغاليًا في السلف فأصفهم بأزيد مما فيهم، أو حسودًا فأنعتهم بما ليس فيهم. وقد جعلت هذه التذكرة وقفًا على البيت لا تخرج عن الخلف ولا تعار لغيرهم لأنها كتاب لا ينتفع به غير أربابها».

ومع ذلك، فقد خرج الكتاب من حيث وقف، ليصير مخطوطة فريدة في خزانة كتب باريس، حيث عثر عليه المستشرقون فقلّبوا صفحاته، وأفادوا منه، دون أن يخرجوه، حتى قنصه المرحوم الأب لويس شيخو، فنسخ بعضه وصوّر بعضه، ونشره في مجلة الشرق، ثم طبعه، على حدة، مع تعليقات وإفادات، قبل نحو نصف قرن. ثم طُبع طبعة ثانية عام ١٩٢٧م. وهي خدمة جلى قدمها ذلك المؤرخ الكبير ثم طبع ثالثة بعناية أور والدكتور كمال الصليبي.

وبعد، فليسمح لي القراء الكرام، أن أنقل لهم نماذج من أخبار صالح بن يحيى، التي يتحفنا بها هذا الرجل. يتحدث عن حملة إفرنجية، هاجمت هذه البلاد سنة ١٣٨٢م، فيقول:

«ومن الحوادث أنه في العشر الأوسط من جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين وسبعمائة (للهجرة) حضرت تعميرة الجنوية إلى صيداء فأخذتها وجاءت إلى بيروت. وكانوا سمعوا في دمشق بخبر حضورها إلى صيداء. فقال ملك الأمراء أيدمر: صيداء ما بقينا نلحقها لكننا نروح نلحق بيروت. فوافق حضور العساكر الشامية إلى بيروت حضور التعميرة فلم يتعرض أصحابها للنزول إلى البر، وتوجهت التعميرة إلى جهة قبرص. ثم إن التعميرة المذكورة آنفًا غابت أيامًا قلائل وعاد الجنويون إلى بيروت بعد أن تركوا في قبرص بعض مراكب صغار ومراكب نوافذ كسبوها من صيداء وفي طريقهم مع ما كانوا غنموه من صيداء. فحضر إلى بيروت اثنا عشر غرابًا كبيرًا ودخلوا الميناء، وكان فيها قرقورتان للبنادق فأخذوهما وشحنوهما بالرجال وقدموهما حتى تمكن الرماة منهم بالجروخ والحجارة من صواريها على برج بيروت الصغير البعلبكي. ولم يكن في ذلك الوقت بني البرج وكان مكانه خرائب قديمة. فرمى الفرنج المسلمين بالجروخ والمدافع فتنحى المسلمون عن قبالة الفرنج واستتروا بالحيطان. فتقدمت شواني العدو إلى البر ما بين البرج الصغير والخرائب التي كانت مكان البرج الكبير، ونصبوا صقائلهم من الشواني إلى البر. ونزل منهم شرذمة كبيرة وعليهم مقدّم من كبارهم وبيده سنجق وصعدوا في الجونة إلى جهة الخرائب لينصبوا السنجق على علوة إشارة منهم أنهم ملكوا البلد. وشرعوا ينزلون من الشواني شرذمة بعد أخرى.

فهجمت فرقة من المسلمين مع الوالد على الذين معهم السنجق فقهروهم ورموا السنجق. فلما نظر الفرنج وقوع السنجق وقف عزمهم وقويت قلوب المسلمين فحمل منهم ذوو النخوات فانهزم من كان نزل من الفرنج وازدحموا على الصقائل فانقلب بهم بعضها ففرق منهم جماعة وقتل جماعة وانكسروا شر كسرة».

ويحدثّنا صالح بن يحيى عن النشاط التجاري والإداري في بيروت، في القرن الرابع عشر، فيقول:

«ثم بعد ذلك صارت بعض مراكب الفرنج تتردد إليها بالمتاجر قليلاً قليلاً. وكانت مراكب البنادقة تحضر إلى قبرص فيرسل صاحب قبرص بضائعهم في شونتين كانتا له إلى بيروت نقلة بعد أخرى. وكان للقبارسة كنس ببيروت وجماعة من التجار يسكنون فيها ولهم خانات وحمامات. ثم بطل ذلك وتكاثر حضور مراكب طوائف الفرنج. كانت ضرائب الواردات والصادرات تؤخذ ببيروت وهي تبلغ جملة مستكثرة. وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشارف وشاد يوليهم نائب دمشق. والمتوفر عن المرتّبات يحمل إلى دمشق.

«وكانت تعطى وظائف للعمال فتحصل جامكيَّة للمتولي وجوامك للقاضي والخطيب ولأربعين قرا غلام بخيول وعشرين مشاة وطبلخانات وكوسات وأنفرة وزمر ومناظرية للبحر ورهجية وحمام بطاقة مدرج إلى دمشق وبريد. وقرروا أيضًا أعلامًا نارية تصل إلى دمشق في ليلة. فكانوا يشعلونها من ظاهر بيروت فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة. ومنه إلى جبل بوارش ومنه إلى جبل يبوس ومنه إلى جبل الصالحية ومنه إلى قلعة دمشق فكانت النار للحوادث في الليل وحمام البطاق للحوادث في النهار والبريد للأخبار.

«ولما جدد الأمير أيدمر نائب الشام سور بيروت على جانب البحر جعل أوله من عند الحارة التي لآل بحتر على البحر واصلاً إلى تحت البرج الصغير العتيق عمارة تنكز نائب الشام المعروف ببرج البعلبكية. وجعل بين هذا السور وبين البرج المذكور بابًا وركب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج فسمي باب السلسلة.

«وقد عمّر أُمراء الغرب ببيروت كثيرًا. فمن ذلك أن ناصر الدين اختار أن يكون مجاورًا للبحر فاتخذ الحارة التي هي على جانب البحر وعمر أطباقًا على الأقبية ودارًا عليها سور فجاءت أحسن ما يكون وجعل الأطباق مسجدًا. وأما بنو العيانبة (أُمراء عيناب) ومن أُضيفوا إليهم فإنهم اتخذوا لهم الدار المعروفة بدار صاحب بيروت المجاورة للحمام العتيق. ثم بعد استملاك الحارة الجديدة المذكورة استملك الزقاق المعروف بزقاق الخيالة، وهو من باب الحارة بجهة القبلة إلى قرب الحمام العتيق جانبي الزقاق يمنة ويسرة».

ويتحدث مؤرخنا عن عز الدين جواد، أحد حذاق الصناعة من آل بحتر، فيقول:

«كان حسن الشكل ذا ذكاء ومعرفة، لم ينشأ في وقته أحد مثله في جمعه للصنائع وكتابته المنسوبة. وقد رأينا من ذلك أشياء حسنة متقنة تدل على فضله. كتب على الشيخ بهاء الدين محمود بن محمد خطيب بعلبك شيخ البلاد الشامية بكتابة المنسوب الفائق فاتبع طريقته وجاراه في قلم الطومار حتى أنه لا يكاد يعرف من طومار شيخه. وله اختراعات لم يسبقه إليها غيره منها انه كتب آية الكرسي على حبة أرز وشاهدتها عيانًا. ورأيت في آخر الآية: كتبه جواد».

٦ ـ من مؤرخي العصر العثماني الأول

في أوائل القرن السادس عشر، احتل العثمانيون بلادنا، وضموها إلى إمبراطوريتهم الواسعة. ومع أن الاحتلال كان تامًا، إلا أن الإدارة العثمانية المركزية رأت أن تترك الأمور على ما كانت عليه إلى درجة كبيرة، خصوصًا في لبنان، على الأقل من حيث المبدأ. ذلك أن البلاد كانت قد اعتادت أن تُدار أمورها إدارة محلية، على يد أُمرائها ومقدَّميها، ورأى العثمانيون أن يتركوا ذلك على ما كان عليه، مع أنهم غيروا الأشخاص، إذ عهدوا إلى المعنيين بالأمر.

ومع أن التغيير السياسي كان كبيرًا، وقد شعر به الكثيرون ممن تردّدوا على هذه البلاد من الأجانب، فإن اهتمام أبناء البلاد به لم يكن يتناسب مع أهميته. ولعل الجهل الذي كان مُطبقًا على السكان، نتيجة حكم المماليك الطويل، مسؤول إلى درجة كبيرة عن هذه الحالة. ومن هنا، كان الباحث عن تاريخ لبنان، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، يتحتم عليه أن ينبش دفائن المكتبات الأجنبية، ليطلع على الوثائق الرسمية وأخبار الرحّالة الكثر، الذين اهتموا بأمورنا.

على أنه من الحق أن نذكر، أن القرن السابع عشر بدأ الناس فيه يتحسسون الكثير من شؤونهم، ويكتبون عنها. ولعل من الأمور، التي حفزتهم إلى ذلك، كثرة المتعلمين ـ نسبيًا ـ بين رجال الدين، نتيجة لفتح مدرسة روما المارونية، وعودة هؤلاء الأحبار إلى لبنان، وإنشاء المدارس الكثيرة هنا.

ولعل من أهم هؤلاء الأفراد، من حيث الموضوع، الذي نعالجه، هو البطريرك أسطفان الدويهي، الذي نودّ أن نتناوله كمؤرخ لهذه الفترة الخاصة من تاريخ لبنان، إذ نعرض لكتابه «تاريخ الأزمنة».

ولنبدأ الحديث بعرض حياة المؤلف. ولد إسطفان الدويهي في ٦ آب / أغسطس سنة ١٦٣٠م، في إهدن. وقد تعلم مبادىء العربية في ظل كنيسة القرية، شأن الكثيرين من مواطنيه في ذلك الوقت. ولمّا بلغ من العمر إحدى عشرة سنة، سافر إلى روما، حيث التحق بكليتها المارونية، التي كانت، يومئذ، تحت إدارة الآباء اليسوعيين. وظل هناك أربع عشرة سنة، بلغ، في أثنائها، من العلم والمنزلة حدًا كبيرًا، وكان كثيرًا ما يتكلف بمجادلة الكثيرين من أعلام الوقت. وقد روى عنه البطريرك مار سمعان عواد،

أن أحد أساتذة روما، قال عن الدويهي: «إني قد علّمت في بلدان كثيرة ولم أر تلميذًا مثل إسطفان علمًا وعملاً».

في سنة ١٦٥٥م، عاد إسطفان الدويهي إلى بلدته إهدن، وأخذ يعلّم أولادها، وكان أثره فيهم كبيرًا، كما كان أثر هذا التعليم هامًا في حياته، ذلك أنه أعطاه مجالاً لتقويم لغته العربية وتهذيبها. وبعد سنوات، أُرسل إلى حلب، حيث كانت ثمة طائفة كبيرة، فعمل الدويهي واعظًا هناك. وقد حرِّرت عظاته في مجلدين ضخمين. وفي سنة ١٦٦٨م سيم الرجل مطرانًا على قبرص، فجال البلاد متفقّدًا الرعايا. ويقول الدويهي عن نفسه، بهذه المناسبة: «سنة ١٦٦٨ توجهنا إلى زيارة القدس الشريف وبعد ما تباركنا من تلك المواضع المقدسة وصحبتنا والدتنا وأخونا الحاج موسى، وعاودنا بسلامة إلى تقبيل أيادي السيد البطريرك جرجس، بدير قنوبين، صار نصيب أنه رفعنا إلى درجة المطرانية على الأسقفية بقبروس... وأمرنا نخرج في زيارة الرعايا الذين في أيالة طرابلس وجزيرة قبرص. ولئلا نكون بطّالين أشغلنا ذاتنا في سياسة الشعب».

بعد سنتين فقط، رُفع الدويهي إلى مقام البطريركية. وقد قال هو نفسه، عن هذه المناسبة، ما يأتي: «في سنة ١٦٧٠ في الثاني عشر من شهر نيسان/أبريل عرضت وفاة البطرك جرجس ابن الحاج رزق الله من بسبعل بدير مار شليطا... وكان رجل شجيع ذو مكارم، احتمل مشقّات كثيرة من الداء الكبير ومن جور الحكام. ساس الكرسي الأنطاكي (الماروني) ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ومن شدة الواغش ما صار اجتماع للروسا في تاسعه وتأخرت رسامة الجديد... حينئذ في نهار الأربعين أعني في عشرين في أيار/مايو اجتمع الروسا وأعيان الشعب وألزمونا بالتخلّف بعده».

ونحن، إذا رجعنا إلى الذين أرّخوا للدويهي، وجدنا، حقًا، أن الرجل أُلزِم بقبول منصب البطريرك. وتوفي الدويهي سنة ١٧٠٤، أي بعد أن ساس أمور الرعية ثلث قرن.

والكتاب الذي يهمنا أمره، من مؤلفات الدويهي، هو «تاريخ الأزمنة»، الذي جمع فيه المؤلف التاريخ إلى ١٦٩٩م. وقد كتبه المؤلف، بالخط الكرشوني (خط سرياني كتبت به العربية أحيانًا). وفي سنة ١٨٩٠م، نشر رشيد الخوري الشرتوني تاريخ الموارنة للبطريرك الدويهي، وضمّن هذا الكتاب الكثير من تاريخ الأزمنة. لكن الكتاب، جملة، ظلَّ مخطوطة، حتى أُتيح لجزء هام منه أن ينشر على الناس، نشرًا علميًا، كثير الحواشي والشروح، على يد الأب فرديناند توتل اليسوعي سنة ١٩٥١م. ولعله من المهم أن نشير إلى أن الأب توتل اكتفى بنشر القسم الثاني من الكتاب، لأن القسم الأوَّل ليس فيه كبير عناء.

والكتاب، يتبع مؤلفه فيه نظام الأعوام، فهو يؤرخ لكلِّ سنة بسنتها، ويظهر أن الغاية من وضعه، في نفس مؤلفه، كانت «الإلمام بأهم ما يتوجب على الأديب الشرقي معرفته من حياة جدوده السياسية والاجتماعية والدينية».

أما وقد تحدثنا عن الكتاب وصاحبه، فلننقل نُبَذًا من محتوياته، تمكّن من الحكم على المؤلف وكتابه وقيمته في تدوين التاريخ اللبناني. وسنحتفظ بلغة المؤلف على حالها. يقول الدويهي:

«في سنة ١٥٤٣ كانت عودة البادري مسعد البندقي ورديان جبل صهيون إلى رومية. فبعث صحبته البطرك موسى مكاتيب إلى البابا بولص الثالث يسأل قدسه أن يوصي ريس الرهبان الصغار حتى يوجه إليه ستة كهنة من رهبانه يقيموا مدرسة في جبل لبنان لتأديب الأولاد في اللغة اللاتينية، ليفهموا الكتب المقدسة ويرشدون الرعية... فتشكر البابا من نيته الصافية وأرسل في مكتوبه غفران لساير الرعية يكون مخلدًا، ومكاتيب إلى المقدم عبد المنعم حنا البشراني، وإلى الرؤساء وساير الشعب بفرح ليحظوا بالخيرات الموعودة لصانعي البر».

وأخبار القرن السابع عشر، وخصوصًا نصفه الثاني، يروي فيها الدويهي، باعتباره شاهد عيان أو راويًا عن شاهد عيان. وهنا نجد للكتاب قيمة خاصة. فقد روى عن سنة ١٦٣٠م: «في الخامس من تشرين الثاني نهار الأحد حدث زلزلة مريعة وفي الساعة الثالثة من الليل حلت في قلعة سمر جبيل وهدمت البرج الوسطاني من أربع جوانبه وأخذت جميع ما كان في القبو التحتاني المركب على البير وخطف العارض نوفل ابن الشيخ نادر بن الخازن ووالدته بنت الشيخ معتوق بن حبيش مع ست أنفس».

وأما في السنة التالية، فننقل عنه: «في سنة ألف وستماية وإحدى وثلاثين مسيحية قدمت المراكب من بلاد الفرنج إلى عكا وصور والرملة وطرطورة بسبب وسق القمح فكانت الغلّة شحيحة، وهم يشترونها بأغلى ثمن، وكان الأمير فخر الدين معضدًا لهم حتى إن في مدينة عكا وحدها بلغ عددهن إلى ماية وعشرين برشة بطلب القمح. وزادت الشحطة حتى أن في طرابلس بلغ شنبل القمح إلى ثلاثة قروش والشعير والذرا إلى قرشين وربع. ولم يجد في كل سواحل البحر، فسمع بورودهم قبطان البحر وأرسل عشر أغربة لأجل محافظة السواحل، وفي أول شهر أيلول اجتازوا على مدينة طرابلس ومن هناك إلى بيروت وصيدا وعكا وقبروس».

ويحدثنا عن طاعون أصاب البلاد، فيقول: «في سنة ألف وستماية وإحدى وستين مسيحية حدث الطاعون في بلاد الشام، أهلك كثيرين وكان الخلق بوجلٍ عظيم من الوبا ومن الظلام».

كما ينقل إلينا أخبار غلاء لسنة ١٦٦٣م، بقوله: «في سنة ألف وستماية وثلث وستين مسيحية اشتد الغلاء في بلاد الشام بسبب الجراد الذي ارتعى الزرع. فلحق شنبل الحنطة في طرابلوس إلى أربعة قروش وكيلة الرز إلى قرب القرش، وكان رطل الخبز بحلب بنصف القرش».

ولعل الذين، يستكثرون أمطار لبنان أحيانًا يرون شبهًا فيما قاله الدويهي عن سنة

١٦٧٤م: «وفيها في أواخر تشرين الأول دام المطر نحو عشرين يوم وحمل السيل أملاكًا كثيرة، وأخرب طواحين وعماير، فوصل الثلج إلى البحر وفي رشيد جذفوه عن المراكب، ودنق فيه اثنين من النوتيه، وفي وادي المسيلخ بناحية كسروان انفتحت هوّة كبيرة شرقي دير ماري يوحنا حراش فبلغت سيل الوادي، وفي كفرسلوان بيع طبق الزبل بأربعة قروش لشدة البرد».

وكان الدويهي يتعرض للأذى، بسبب اضطراب حبل الأُمور، في تلك الأيام. وكثيرًا ما اضطر إلى الرحيل والهرب والاختفاء. ويروي خبر واحدة من هذه المحاولات حدثت سنة ١٦٨٣م، قائلاً: «وفيها في أول أيلول من جور حكام جبة بشري ولعدم الوفق بين مشايخ كسروان توجهنا إلى دير القمر، وضمتنا مع حضرة الأمير أحمد ابن معن قرية مجدل معوش، ثبتنا سنتين ورممنا كنيستنا وجملة مساكن، ثم أن أولاد الجبة ارتموا على حضرة الأمير بمكاتيب خضوع من أولاد الشيخ أحمد أنهم ما عادوا يبدلوا ولا يغيروا شروطهم معنا، فرجعنا معهم».

وفي سنة ١٦٨٦م، تعرضت البلاد لكارثة، بسبب تأخر المطر، فوصفها الدويهي: «في سنة ألف وستمائة وست وثمانين مسيحية دخلت التشارين والكوانين دافية، فكثرت دبابات الأرض والفار والدود، فتباين في صوم النصارى الفرفور وكان بكثرة على شبه الجراد في السواحل والجبال، فرعى الزهور وأمات النحل، وكثر الصرصر في سواحل البحر حتى أن بلذاعته أهلك دود القز، وكذلك الحرقص رعى نبات الزرع والذرا في مواضع كثيرة. وفي الجرد تسلط الفار على دود القز حتى اضطروا ينقلوه من البيوت إلى الخصاص وكذلك الدودة قشرت الكروم والسنديان في الأودية».

هذه مختارات قصيرة، نقلناها للقراء، رغبة منا في أن يذكروا أولئك، الذين أرّخوا للبنان.

٧ ـ من مؤرخي القرن التاسع عشر

ليس القارىء الكريم بحاجة إلى أن يذكَّر بما أصاب لبنان في القرن التاسع عشر من أحداث. فلا شك أن أيام المدرسة لا تزال عالقة بذهنه، ولذلك فهو يذكر أن أحداثًا هامة مرت على هذه البلاد، بعضها داخليٌّ وبعضها خارجيٌّ، بعضها سارٌّ وبعضها مؤسفٌ، ولكن كلها تركت في حياة هذه البلاد وسكانها آثارًا قوية لا تزال الحياة هنا تضطرب بها أو تضطرب منها.

وبسبب انتشار نوع جديد من الوعي، وإقبال غير مألوف، قبلاً، على الكتابة والتأليف، ظفرت، هذه الأحداث، بعدد كبير من الأشخاص، الذين دوّنوا أخبارها وعلّقوا عليها، بما شاءت لهم أهواؤهم أو اتجاهاتهم أو ميولهم أو ثقافتهم. وهذه الأخبار والمذكرات والوثائق كثيرة العدد، كبيرة القيمة. ومع أن الكثير منها قد ظهر للعيان ونشر، فإن جلها لا يزال بعد قابعًا في جحره، ينتظر المنقب والباحث، وإن كان يُخشى أن تأتي عليه الأرضة قبل أن يرى النور.

ولست أعتزم، في هذه العجالة، أن أعدد هؤلاء، الذين كتبوا، ونشرت آثارهم، والتي عالجت موضوعات ضخمة، مثل الأمير أحمد حيدر الشهابي ونقولا الترك والمطران يوسف الدبس وميخائيل مشاقة. فهؤلاء لهم، من الأفضال، ما لا ينكر. وقد عرفها الكثيرون من الباحثين. ولكنني أود أن أتناول، على سبيل المثال، مؤرخًا محليًا، لعلّي أوفق أن أوضح للقراء ما أقصده، عندما أشير إلى هذه النواحي، التي لا يعرفها إلا القلائل من تاريخ القرن التاسع عشر ومؤرخيه.

والرجل الذي أريد أن أتحدث عنه، هو الشماس الشيخ أنطونيوس أبي خطار، المعروف بالعينطوريني. وكتابه هو مختصر تاريخ لبنان، الذي نشر سنة ١٩٥٣م، على يد الأب أغناطيوس الخوري، من الرهبنة اللبنانية. وقد عرّف المؤلف بنفسه، في كتابه، فقال: «قد اعتنى في تأليف ونسخ هذا التاريخ الوجيز، الشمّاس أنطانيوس ابن الشيخ بو خطّار الشدياق من بيت الحاج عبد النور، من قرية في جبّة بشري من أعمال طرابلس...».

ولد في سنة ١٧٥٧م.

والظاهر أن المؤلف كان حاكمًا إقطاع قريته عينطورين وما يليها، وارثًا ذلك عن أبيه وأجداده. وأسرة هؤلاء المشايخ الإقطاعيين عريقة في عينطورين. جدّها الأعلى

عبد النور، هجر لبنان إلى دمشق، نزولاً عند محن وظروف. ثم عادت الأسرة إلى لبنان موطنها الأصلي، وقطن أحد أفرادها قرية عينطورين، في سقي إهدن، من أعمال جبة بشري.

ومن دلائل وجاهة المؤلف لقبه الشماس. وهذا تقليد عريق في لبنان، إذ كان الرؤساء الروحيون يُنعمون على مقدّمي لبنان، وبعض حكامه الآخرين وأعيانه النبلاء، بدرجة الشدياقية أو الشماسية، ويرقّونهم إليها، استكمالاً لدواعي إجلالهم في أعين رعاياهم أولاً، وإدماجًا لهم في مصاف الأكليروس، فيتوفّر لهم حق الجلوس معهم في خورس الكنيسة، تمييزًا لهم عن عامة الشعب.

وكان، بالإضافة إلى ذلك، واسع الثراء، وقد لقب شيخ مشايخ الجبة. وقد جاءه هذا اللقب، على ما يرويه معاصروه، إثر استعصاء أهل بشري على الأمير بشير الكبير، ورفضهم تأدية خراج زاده على البلاد. فوكل الأمير إلى الشيخ أنطونيوس أمر إخضاعهم لِما يرى. فاضطلع الشيخ بالمهمة، وحلّ المشكل على وجه أعجب الأمير ووافق الأهلين، مدللاً على بطولة وإخلاص وحنكة ورشاد. فكافأه الأمير بذلك اللقب: شيخ مشايخ الجبّة.

ويظهر أن شيخ المشايخ هذا، سولت له خطورة مكانته، وما كان له من جاه ونفوذ وثراء، السّعي لدى مصطفى آغا بربر، «متسلم» طرابلس، وبعض أعيان هذه المدينة، ليستأثر بحكم الشمال. ودرى به الأمير بشير فجابهه بتشديد النكير والنهي الزّاجر، وهدده بأشد العقاب صرامة، آخذًا عليه عهدًا مغلّظًا. والمعروف أيضًا أن المترجم كان منحازًا وصهره الشيخ بطرس كرم، حاكم إقطاع إهدن وما يليها، ووالد يوسف بك كرم، مع مصطفى بربر الآنف الذكر، إلى حزب أولاد الأمير يوسف شهاب، أخصام الأمير بشير ومزاحميه.

وأخيرًا، تمادى حساد المترجم في الوشاية به، فأقنعوا الأمير أبا سعدى أن محسودهم يعمل، مع صهره المذكور، على سلخ شمالي لبنان عن الإمارة وإتّباعه إلى طرابلس، ليتسنى له بسط نفوذه فيه، والاستئثار بمقدراته، وأن بعض أعيان طرابلس يؤازرون الشيخ وصهره، لدى «الآستانة العلية». ففار غضب الأمير بشير فوران المرجل، وجاء برجاله إلى الجبّة، فاعتقل الشيخ أنطونيوس هذا، وصهره الشيخ بطرس كرم، واقتادهما مكبّلين بالأصفاد، بعد أن غرّمهما بخمسمائة كيس، والكيس خمسمائة غرش، إذ ذاك. وإذ بلغ بهما إلى قرية عين بطرام، افتدت الشيخ بطرس سيدة افرنسية بالمال اللازم، فأطلق الأمير سراحه، واكتفى بالمترجم، فسجنه في قلعة جبيل، وأمر بقتله من دون محاكمة.

وكانت وفاته في١٢ كانون الأول من سنة١٨٢١م.

والكتاب مختصر لتاريخ لبنان، إلى زمن المؤلف، ولا شك في أن الشيخ

أنطونيوس لخّص الكثير مما كتب قبلاً. فإن الأجزاء الأولى من الكتاب لا قيمة لها. ولكن المؤلف يصبح شاهد عيان لحوادث أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.

أما وقد عرّفنا القراء الكرام بالمؤلف وكتابه، فليسمحوا لنا بأن ننقل إليهم نبذًا من أخباره.

يقول، عن تأسيس مدرسة عين ورقة في غوسطا: «وفي سنة ١٧٨٩م نقلوا منه [من دير عين ورقة] الراهبات إلى غير أديرة. وجمعوا إليه أولاد من كلّ الرعايا. وقدّموا لهم معلمين ومرشدين. وابتدوا يعلموهم ويهذبوهم بالأمور الروحيّة. وتعلم بها تلاميذ كثيرون أكثر من خمسين تلميذًا، من حيث قيامها إلى هذا الوقت، أي سنة ١٨١٩. وقام منها مطارين وكهنة كثيرون، أفادوا الطايفة فايدة عظيمة، بإرشادهم ووعظهم وتعليمهم. لأنهم كانوا ينذرون ذلك نذرًا عليهم، بموجب نذر تلاميذ مدرسة رومية. ولم تزل قايمة هذه المدرسة بمعونة الله».

«وكانوا يتعلمون بها علم الغرامطيق السرياني، والنحو العربي، والفصاحة والمنطق، وعلم اللاهوت الأدبي والنظري. وعندما اشتهرت هذه المدرسة، صارت الغيرة على قيام بعض مدارس، مثل مدرسة الرهبان اللبنانيين، في دير البنات (جبيل)، ومدرسة دير مار يوحنا مارون كفرحي، مدرسة دير مار جرجس الرومية. وبهذه الطريقة تفقهت كهنة الطائفة في العلوم، لا سيما علم الذمّة».

وقال عن مدرسة الرهبان، بدير البنات وقرطبة:

«إن قدس الأب العام أغناطيوس بليبل المحترم، أخذته الغيرة الأبوية على أبناء رهبنته. وأقام لهم مدرسة في دير البنات، الذي فوق مدينة جبيل. ووضع بها معلمين لكي يعلّموا الكهنة والرهبان العلم العالي، الذي يلزم وظيفتهم. وقد نتج من ذلك خير جزيل. وتفقهت جملة كهنة ورهبان من الرهبنة المذكورة. ولم تزل هذه المدرسة يظهر منها معلمين، ويفيدوا رهبنتهم وغيرها، لمن يسألهم.

«ثم إنَّ قدس الأب العام المذكور، قد باشر في قيام مدرسة في قرية قرطبا، في جبّة المنيطرة، في بلاد جبيل. فأهالي القرية المذكورة قدموا الكنيسة (مار سركيس) والرزق الذي لها لقدس الأب المذكور. وما بقي من عمار محلات وأماكن لسكنة الرهبان، ومدرسة الأولاد، وشراية الرزق، فهذا جميعه وغيره مما يخص هذه المدرسة، من خير الأب المذكور، لأجل قيام هذه المدرسة، لتعلم علم البسيط إلى أولاد أهالي قرطبا وجيرتها مجانًا.

وكل من راد من أهالي بلاد جبيل، أم غيرها، يوجه ولده ليتعلم مجانًا، ولا مانع من ذلك، حسب نية مؤسسها الأب المشار إليه. لكونه جاعل عليها نظر أوفر من كافة مدارس رهبنته».

وفي سنة ١٧٧٦م، أتمّت مساحة المنطقة، وضمنت عقاراتها، فقال، في ذلك: «وعملوا الديموس على قدر مال البلاد. فطلع حمل الورق (التوت) زلطة وشاهية [نقد ذلك العهد]. وبدار شنبل الأرض غرش وشاهية. وأصل الجوز نصف غرش. وأصل الزيتون ثمانية فضة، وماية جفنة الكرم نصف غرش. وجالية الرجل المزوج خمسة غروش ونصف، والعزب ثلاث غروش إلا ربع».

ولعلّ، من ألطف ما في الكتاب، ذكره لحملة نابليون إلى فلسطين سنة ١٧٩٩م، إذ يقول: «وحاصر عكا حصار عظيم. وصنع بها هولاً جسيم. وذاق من فيها الموتات، وأنفذ على أهلها أمر الحصارات، بما نالهم من الضربات. وعمل بها أعمال تعجز عنها الأسود. وكان، يومئذ، وزيرها أحمد الجزار، صاحب السطوة الكبرى والمعارف المعتبرين، ريس وكبير كافة وُزَرِ (وزراء) عرب بستان (سوريا وجوارها)، وحلب والشام، في عصره وقلبه، كما أخبرنا الأقدمين.

«وحين عرف هذا الوزير ما حصل من الجيوش الفرنساوية في الديارات المصرية، حالاً باشر جمع عساكر وجيوش من كافة المحلات، وباشرت الجيوش (ترد) على عكا، حتى لم عادت تساع من العساكر. وفي وصول الجيوش الفرنساوية، انعقد الحرب والقتال. وبدت الأهوال من كل جانب إلى عكا. وكان المساعد الأكبر مع الوزير، مراكب الإنكليز، الذي كان قبطانهم (قائدهم) سيد (سدني). وساعد (هذا) سكان عكا مساعدة عظيمةً. ولو ما مساعدته، ما كانت لقيت إلا برهة وجيزة.

«وانتصب الحرب بين الفريقين. وذاقوا سكانها كافة الأهوال. وقتلوا منها جملة عساكر. وتم في عكا قول الغفر [أو الجفر]: وعكا سوف تعلوها جيوشًا كما تعلو الغيوم على الجبال. ودخلوا إليها، وملكوها مرتين. والمرة الثانية قتلوا منها جمع غفير. والبعض من العساكر ومن سكانها رميوا حالهم في البحر. والبعض هربوا لنواحي صور وصيدا. وبقي الجزار ومعه عسكر قليل في سرايته. وبعد حصاره ثلاثة وستين يوم، قاموا عنها الفرنساوية في ذي الحجة سنة ١٢١٣ (ذاتها).

«وسبب هذا القيام أنه حضر هجان (رسول) إلى بونابارته من مصر، ومعرفيه، أنه حضر له علم من البلاد (فرنسة) أنه يرجع إليه حالاً. وبوقته طلع العسكر الذي دخل لعكا. وفي الليل ترك جميع الأثقال الذي معه. وأخذ الذي يقدر على حمله بسهولة».

وقد اهتم المؤرخ بو خطار بأخبار الطاعون والغلاء والجوع، فقال، في طاعون سنة ١٧٨٥م: «وفي سنة ١٧٨٥م، صار طاعون في أيالة طرابلس وبرها. ودار في كافة البر من ضيعة إلى ضيعة، كل سنة في مطرح. وينقل من مدينة إلى مدينة، من مدينة يافا إلى مدينة حماه والشام، وبر هؤلاء المدن. ومات في هذه الأماكن خلقًا لا تحصى. ولم يزل يتناقل من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية، مدة ثلاثة وثلاثين سنة. وأما هذ السنة (١٨١٩)، لله الحمد ما عاد بان له أثر».

وفي غلاء أصاب البلاد سنة ١٧٩٣م، قال:

«وفي سنة ١٧٩٣، صار غلا في بلاد سورية وما يليها. حتى وصل شنبل القمح إلى ثلاثين، ومطارح إلى أربعين وأنوف (أكثر). ولكن الغلة كانت موجودة. وفي سنة ١٨١٦، صار غلا في بر الشام، وطرابلس، وما يليهم. حتى وصل شنبل القمح الطرابلسي، في البيدر، إلى ٢٥ غرش، وفي بعض أماكن ألى أربعين وينوف، وشنبل الدرا إلى عشرين، والشعير ١٥، وقفة الرز ستين، وقلة الزيت خمسين. ولكن الباري ألطف في عبيده. واستقام هذا السعر على حاله، من غير زيادة، إلى الموسم الآتي، أي موسم سنة ١٨١٨م. فأخصب الله جميع الغلات. ورجعت تهاودت الأسعار، أي شنبل القمح سبع غروش، وما دون. وتنازلت كافة الأسعار على هذا الموجب فنشكر مراحمه تعالى على ذلك».

وفي سنة ١٨٠١م، أصابت البلاد موجة شديدة من البرد والمطر، فقال عنها:

«وفي ١٨٠١ (ألف وثمانمائة وواحدة)، في ٢٧ آذار، صارت ضربة قوية من قرية صليما في المتن، ووسط بلاد كسروان لنهر إبراهيم، نزل بردٌ بكثرة في الليل استقام مقدار ساعتين. وكانت ساعة مهولة. خشي على كثيرين أن الله سمح في انهدام العالم، لكونه أعدم الزروع، ونثرت أوراق الأشجار الجوي والبري. وأذاب العشب. وقتل جملة طيور برية كبار وصغار. وأصبح البرد في بعض محلات، مقدار ذراعين. وقيل من أناس صادقين أن في وقت نزوله، شاهدوا البرد قريب لبيض النعام. وهذه الضربة ما حكمت (أصابت) لا ساحل البحر، ولا الجرد، سوى الوسوط.

«وفي سنة ١٨١٨م، صارت سيلة في مدينة حماة روحت منها مقدار سبعماية وخمسين بيت. ومات فيها ما ينوف على ألفين نفس. وكان ذلك في ١٥ نيسان».

أما الجراد، الذي هاجم هذه البلاد، في أوائل القرن التاسع عشر، فقد روى أخباره كما يلي:

«و١٨٠٥ (ألف وثمانمائة وخمس) جاء جراد إلى طرابلس، ورعي الزرع والفواكه، وصار منه ضيم عظيم.

«وسنة ١٨١٤، جاء أيضًا جراد إلى المحلات المذكورين وأرسل سعادة الأمير بشير [شهاب الكبير] المفخم، الحاكم يومئذ، أناس من قبله، وجمعوا أهل المقاطعات. وشرعوا يقتلوا ويحرقوا به، ويلاشوه. وما صار منه ضرر. وجاء أيضًا في سنة ١٨١٥، وحصل له مداركة مثل الأول.

وفي سنة ١٨١٦، و١٨١٧، رجع الجراد أيضًا. وبعناية سعادة المشار إليه [الأمير بشير]، ما حصل منه ضرر. ولو ما (ولولا) عناية سعادته، كان خرب هذه الأماكن (البلاد) وعدمها بالكلية».

القسمُ الثاني

مِن خَبَايا التاريخ اللبناني

١ ـ الإلياذة والفينيقيون

عاش هوميروس الشاعر اليوناني المغني، الذي تُنسب إليه الملحمتان المشهورتان: الإلياذة والأوديسة، بين القرن التاسع والقرن السابع قبل الميلاد. والأمر الغريب، هو أن نقول عنه «تُنسب إليه الملحمتان»، على الرغم من أننا تعلمنا في المدرسة، أنه هو صاحب هاتين الملحمتين.

فالقضية ليست قضية ريبة أو شكٍّ، ولكن المسألة أعمق من ذلك. وقبل أن نلقي الضوء على هذه النقطة بالذات، لا بد لنا من العودة إلى هاتين الملحمتين، فنذكر، عن كل منهما، الأمور التي تساعدنا على جلاء أمر النسبة ـ أي نسبة الملحمتين إلى هوميروس. فالإلياذة، على ما يرى الباحثون، تتحدث عن حملة إغريقية واسعة النطاق ضد طروادة، التي كانت تقوم على الساحل الآسيوي لبحر مرمرة، عند الزاوية الشمالية الغربية لآسيا الصغرى.

والقصة تقول إن هيلين اليونانية الجميلة، خطفها باريس، وحملها إلى طروادة. فقامت الحملة لاستردادها. لكن الإلياذة لا تتحدث عن الحصار، الذي ضرب حول طروادة نيفًا وعشر سنين؛ بل إن كل ما تذكره الإلياذة، لا يعدو بضعة أسابيع من هذه الفترة الطويلة. هذا مع العلم بأن الملحمة مكونة من سبعين ألف بيت من الشعر!

ومن المعروف، أن الأوديسة، هي أيضًا، قصة مغامرات، دامت عشر سنوات، قضاها أوديسيوس (أو عولس كما عُرِّب اسمه) حتى تمكن من العودة من طروادة إلى بلده إيثاكا. والغريب، أن الكثير من مغامرات هذا البطل، قد تم في الحوض الغربي من البحر المتوسط، بدل أن يعود من طروادة إلى إيثاكا، في بلاد اليونان، رأسًا.

وإذا ألقينا نظرة على البحوث والدراسات، التي وضعت عن الإلياذة، نجد أن المؤرخين ورجال البحث الأثري، متفقون على أن طروادة تعرضت لغزوة أغريقية مدمرة، حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م. ولكن ليس بينهم اتفاق على سبب هذه الغزوة. وقد أظهر البحث الأثري، أن هذه المدينة، التي دمرت في ذلك الوقت، كانت المدينة السادسة، التي قامت في ذلك المكان. ومعنى هذا، أن الموقع كان يتعرض للغزوات، عبر تاريخه. ولم تأت الغزوات جميعها من الإغريق، بل إن بعض هذه الغزوات، جاء من البر، من الشرق وغيره من الجهات. فهل كان موقع طروادة البحري التجاري، وتمكُّن

المدينة من التحكم بالطرق التجارية، وحتى من احتكار الاتجار، سببًا من أسباب غزوها ومحاصرتها وتدميرها المرّة بعد الأخرى؟

نقول إن هذا الأمر محتملٌ، لأن الحكايات تدخل نسيج الملاحم، بالشكل الذي يريده لها الشاعر المغني. وبهذه المناسبة، فالإلياذة فيها حكايات كثيرة لا تمتّ إلى الفكرة الأصلية بصلة، لكن الشاعر المغني كان يضيفها، كما يحلو له، وكما تتطلب الأحوال المحيطة به.

ولكن هل يمكن للشاعر أن يخلخل بنية قصيدة طويلة من هذا النوع؟ ألم يكن ثمة نص يتقيد به؟

من الطبيعي أن الشاعر المغني ـ وهنا نؤكد على كلمة الشاعر المغني ـ كان يتقيد بالنص، متى وجد هذا النص، سبيله إلى التدوين. ولكن ما دامت الملحمة، بتفاصيلها وجزئياتها وحكاياتها، أمرًا يرويه الخلف عن السلف مشافهة، فالشاعر المغني حرٌّ بأن لا يتقيد بالنص، لأن المهمَّ، في هذه الحالة، الصلة التي تربط بين الشاعر المغنّي القاص وجمهور مستمعيه. وقد تعاقب على رواية الإلياذة، قبل أن وصلت إلى شكلها المعروف، عشرات من الشعراء المغنين القاصين. وكان الكثيرون منهم، إن لم يكونوا كلهم، يضيفون إلى الملحمة من عندياتهم، بل لعلَّ البعض منهم، كان يحذف أشياء من الملحمة، لم تكن تعجب السامعين.

ونحن لا ننفي عن الإلياذة صفتها التاريخية إطلاقًا، ولا نزعم أنها ليست مصدرًا من مصادر التاريخ اليوناني. ولكن لا بدّ من لفت النظر أيضًا، إلى أننا لسنا معنيين هنا بالإلياذة التاريخية، بل بالإلياذة الأسطورة أو الأسطورية. فمن الناحية التاريخية، مرت بلاد اليونان، بعد سقوط طروادة، بفترة، من تاريخها، مظلمة، بالنسبة لنا. والصور، التي ترسمها الإلياذة، فيها الكثير الخاص بالفترة التاريخية، التي تلت ذلك، أي بعد القرن العاشر قبل الميلاد. وعلى سبيل المثال، إن القصور والقلاع، التي يمر وصفها في الإلياذة، لا تعود إلى زمن الحملة الأصلية، بل هي قصور وقلاع عرفتها بلاد اليونان، في العصر الملكيّ، بين القرنين التاسع والسابع، أو ما إلى ذلك. فعناصر التاريخ الاجتماعي والفني والمعماري، التي يمكن أن نحصل عليها من الإلياذة هي أمور مشكوك فيها. أما القصص المتعلقة بالآلهة اليونانية، فلعلها أقرب إلى الواقع.

ولا بد هنا من الإشارة إلى الأوديسة. فأوديسيوس أو عولس متشوقٌ إلى العودة إلى إيثاكا. ولماذا هذا الشوق؟ عولس يريد العودة إلى وطنه، إلى ملكه. لكنه أيضًا متشوق إلى العودة إلى زوجته بنلوب، التي كان يحبّها بقدر ما كانت تحبه. ومع أن المدة تطول عشر سنوات قبل أن يعود، وقبل أن يصل إلى إيثاكا متخفيًا. فقد انتظرته بنلوب. وكان النبلاء الكبار قد قطعوا الأمل من عودة عولس، لذلك أخذوا يتقربون من بنلوب كي تختار أحدهم زوجًا لها، فيصبح الملك. فأقاموا في القصر، وتنعّموا بخيراته.

ووعدتهم بنلوب، أنها عندما تفرغ من نسج قطعة من الحرير، كانت على النّول، فإنها ستختار أحدهم زوجًا. وتقول الحكاية إن بنلوب، كانت تنقض في الليل ما تنسجه في النهار. وقد دامت على ذلك كل هذه السنين، حتى عاد إليها زوجها.

فقصة عولس، هي أيضًا، قصة بطل يبحث عن الفتاة الجميلة، لذلك، يتحمل عشر سنوات من المصاعب والمتاعب والمخاطر حتى يصل إليها.

فلما غادر عولس إيثاكا، ودّع زوجته، وسار في الحملة الكبرى، قائدًا ومحاربًا، وقد حسب نفسه قد فقد. ولما نجا من الموت، أخذ يبحث عن هذه الجميلة، التي نسجها خياله، على صورة امرأته ومثالها. لكن الشوق عنده، كان شوقًا جديدًا، لشيء جديد.

وإذا عدنا إلى الإلياذة، وجدنا أن منيلاوس، لما أثار اليونان لاسترداد هيلين الجميلة، كان البطل الذي يبحث عن الفتاة الجميلة، فتاة الأحلام. ومع أنه كان يعرفها ويحبها، فقد أصبحت أمرًا جديدًا بالنسبة له، بعد أن خُطفت.

إن كلاً من منيلاوس وعولس يمثل البطل، الذي يبحث عن فتاته. والأول يثير، وعلى ذمة الحكاية، الأغارقة لمساعدته. والأغارقة، على ذمَّة الحكاية، يهبّون لنجدته. أما الثاني، عولس، فلعل مجازفاته في الأراضي البعيدة، هي نوع من البحث عن مكان جديد، يجد فيه ضالته. فلماذا لا نحسب أن هناك من أسرّ إليه ـ والحكاية قادرة على إدخال هذا في الملحمة وإسقاطه منها فيما بعد ـ أن بنلوب بَرِمَت بالأمراء، وهجرت إيثاكا. فكان هو يجوب الآفاق، بحثًا عنها. ثم يدلّه قلبه أو هاجسه، أن إيثاكا هي المبتغى، لأن بنلوب لا تزال هناك. ولا بد من القول هنا، إن هذه الفكرة ـ فكرة البطل الذي يبحث عن فتاته ـ معروفة في غير هاتين الملحمتين.

ففي الآداب الشرقة القديمة، السومرية ـ الأكدية مثلاً، نجد أن اهتمام الأسطورة، كان يدور أصلاً حول الخليقة والخلود: كيف خُلِق العالم؟ وكيف يُمكن الحصول على الخلود؟ وأساطير الخليقة وقصصها متنوعة، لكن أساطير الخلود تنتهي عادة بالفشل، أي بأن يفشل الإنسان في تحقيق الخلود لنفسه، فتفلت منه الفرصة، أو يقتل. وقد يبدو، أن ليس هناك شبه بين أساطير الخليقة والخلود من الجهة الواحدة، وأسطورة البطل، الذي يبحث عن فتاة، أو يلحقها، ولو اقتضى الأمر قيام حرب بين جماعته وجماعتها.

ولكن من الممكن أن يكون ثمة صلة عضوية، ولكنها غير ظاهرة، بين الفشل في الحصول على الخلود، وبين السعي للحصول على فتاة جميلة، لتكون زوجة. فالزوجة، في هذه الحالة، تكون سبيلاً لإنتاج النسل، وهو نوع آخر من الخلود. إن المرء، والرجل بشكل خاص، يهمه أن يخلد ذكره، وهو أمر نجده بين الناس، حتى في هذه الأيام. وتخليد الذكر، عن طريق الأولاد والأحفاد، هو تعويض سيكولوجي عن الخلود الشخصي. والجدير بالذكر، أننا نجد أيضًا، في ملحمة كِرِت، شيئًا من هذا.

فملحمة كرت، من حيث لغة تدوينها والحفاظ عليها، أوغاريتيّة، أي أنها مدونة باللغة التي عثر على ألواحها في آثار مدينة أوغاريت أو رأس الشمرا، الواقعة على الشاطىء الشامي للبحر المتوسط شمالي اللاذقية. والمادة، أي محتوى الملحمة، ساميّ فينيقيّ.

والقصة، باختصار، هي أن كِرِت فقد أسرته كلها. ولعل فقده للأسرة كاملة، كان بسبب محاولات ومجازفات ومغامرات، في سبيل الخلود.. المهم، أن الإله (إل) يظهر له في الحلم، ويأمره بأن يقود حملة إلى أراضي أُدُم. فإنه إذا قهر ملكها وتزوج ابنته، فإن ذرية جديدة له، ستأتي منها.

ويقود كرت حملة، إلى بلاد أُدُم، ويفتحها، ويطلب إلى رسل الملك المغلوب، ابنته الأميرة، زوجًا لها، ويرفض كل شيء آخر. إنه يقول: «هب لي حُرّي الرقيقة الوسيمة التي مقلتاها كفصوص اللازورد وجفناها كأقداح المرمر».

وتصبح الأميرة زوجًا لكرت، وتنجب له ذرية.

وفي الإلياذة، نجد أن الأمير اليوناني منيلاوس يجنّد، بوسائل مختلفة، حملة ضد طروادة، ليسترجع هيلين المخطوفة. أو لعلها لم تكن مخطوفة قط، ولكن الأمير اليوناني أرادها لنفسه، فهنا شبه بين كرت ومنيلاوس. الشبه ليس قريبًا، بحيث يخطر للبال، أن هناك نقلاً، للملحمة الواحدة، أو القصة الواحدة عن الأخرى. فذلك أمر لن نعثر عليه، مهما اقترب الاقتباس في القصة الواحدة عن الأخرى. لكنّ المهم هو الفكرة الرئيسة، والتي قد تكون موجودةً عند عدد من الشعوب، أو في كثير من الآداب. هذه الفكرة الرئيسة، تُحاك حولها مئات من القصص أو الحكايات المساعدة، على مدى أجيال أو قرون. فعندما نقرأها، نجد «شخصية» أدبية جديدة، وخصوصًا إذا كان ثمة فرق كبير في اللغة المستعملة. ولكن عندما نحاول الكشف عن الجذور، عندها نصل إلى هذا التشابك.

والمقصود من الإشارة إلى الفرق في اللغة المستعملة في الحكاية، هو أن استعمال لغتين مختلفتين أصلاً، يجعل الفرق بين صيغة الحكاية الواحدة في ملحمتين، مختلفتي اللغة، كبيرًا جدًا. فبين ملحمة كرت السامية، المعبر عنها بالفينيقية، وملحمة الإلياذة، المروية باليونانية، فرق، بسبب الفرق بين اللغتين، وإن كان البطلان فيهما من صنف واحد. فإذا تغيرت شخصية البطل نفسه، وتبدلت معالمه، وتطورت سبل الوصول إلى أهدافه، وألصقت به حكايات جانبية كثيرة، وكان ذلك كله بلغتين متباينتين، اختلفت، تبعًا لذلك، الآراء والأفكار الرئيسة، التي تتّخذ الشكل، الذي يعطى لها في الحكاية.

لكن هل يعني هذا أن فكرة البطل المغامر المحارب الرومانسي، التي نعثر عليها في الإلياذة، منتزعة من الأساطير الأقدم عهدًا؟ أي هل ثمة شيء يدل على النقل؟

ليس هناك ما يدل على أن هذا قد حصل تماماً. ولعل رأي موسكاتي يوضح هذه القضية. يقول موسكاتي: «فكرة القيام بحملة حربية للظفر بعروس جميلة أو استعادتها تذكرنا ولا ريب بالإلياذة. كما أن بعض الشخوص والمواقف والتعابير في هذا الأدب [الشرقي] تنم عن صلات بالأساطير اليونانية القديمة. ومن الصعب أن نبتّ في مسألة العلاقة بين الأدبين بأن نجعل أحدهما معتمداً على الآخر. والأرجح أن مجموعة من الأفكار الأسطورية انتشرت في منطقة شرق البحر المتوسط كلها، وأثرت في آداب الشرقيين واليونان».

ولعل ما يجب أن يذكر، أن الحضارة الأقدم عهداً كانت، ولا شك، الأصل في ذلك. فالفينيقيون ومن إليهم أقدم عهداً من اليونان.

ونضيف أمراً آخر هو أن وصف الموقد المكشوف في الإلياذة لا يلائم منطقة طروادة أو اليونان؛ ولكنه يتفق تماماً مع المواقد المكشوفة، الوارد ذكرها في الإلياذة، على أن الجنود كانوا يلجأون إليها لإعداد طعامهم، في الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، على الأقل، لمدة ثمانية أشهر في السنة.

٢ ـ الأوزاعي

تقع ضاحية الأوزاعي على بعد نحو خمسة كيلومترات، إلى الجنوب من بيروت، وعلى شاطىء البحر. ويعود سبب تسميتها بهذا الاسم، إلى أن الإمام الأوزاعي مدفون هناك، ومنه أخذت اسمها، وقد كان اسمها من قبل، قرية حنتوس، على ما أخرجه الشيخ طه الولي في كتابه: «الإمام عبد الرحمن الأوزاعي».

والإمام الأوزاعي هو فقيه الشام، في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، والذي يزور قبره، لا بد أن يقف أمامه، إجلالاً لهذا العالم الكبير، الذي كان على خلق عظيم.

وثمة ما يشبه الإجماع، على أن عبد الرحمن الأوزاعي متحدّر من عائلة هندية، من حوض السند، حملت أصلاً إلى اليمن، ثم استقرّت في إحدى ضواحي دمشق. ويبدو أن هذه الأسرة انتقلت، بعد ذلك، إلى بعلبك. فالإمام عبد الرحمن مولود هناك، في سنة ٨٨ للهجرة/ ٧٠٧ للميلاد.

ولعلّ أسرةً، هذا شأنها، لم تكن من أصحاب اليسار. فتنقّلها لم يكن بسبب تكسّب تجاري، أو تولّي منصب إداري أو عسكري. ويدلنا على هذا، أن أم الإمام، كانت تضطر للعمل في سبيل تربية ابنها، الذي ولد بعد وفاة أبيه بقليل. ولعل عبد الرحمن كان الولد الوحيد لهذه الأسرة.

وقد نقل الشيخ طه الولي، عن الوليد بن مزيد، قوله: «سبحان الله يفعل ما يشاء. كان الأوزاعي يتيمًا فقيرًا في حجر أمّه، فخرجت به أمه من بلد إلى بلد إلى أن بلّغته حيث رأيته».

أي عالمًا إمامًا.

والواقع، أن الأوزاعي أصبح فقيهًا. ومثل هذا الأمر، كان يقتضي الرحلة في طلب العلم، والرحلة في طلب العلم، كانت متيسرة، لمن رغب فيها، لكن عبد الرحمن جاء في وقت مبكر، فلا شك عندنا في أنه كان صاحب همة قعساء، حتى تغلب على مشكلاته، ورحل في طلب العلم.

ويذكر الباحثون، في أخبار الأوزاعي، أنه طلب العلم في أماكن كثيرة. وكانت أوّل رحلة له، في صفوف القتال، إلى اليمامة. فلما انتهى من ذلك، أخذ يتنقل في الأمصار، حيث يلتقي العلماء، ويأخذ عنهم. وكانت الأماكن، التي رحل إليها، طلبًا للعلم والمعرفة

فيها: البصرة، وعسقلان بفلسطين، ودمشق، والحجاز، واليمن. واستقر في دمشق، حيث عمل في التدريس، شأن أصحاب المعرفة، وإن لم يذكر المؤرخون والمترجمون أماكن تدريسه في دمشق.

على أن الأوزاعي، على ما يبدو، استقر أخيراً في بيروت، وفيها توفي، ودفن في محلة الأوزاعي.

ومع أن تاريخ استقراره في بيروت فيه خلاف، فالمرجح أنه جاءها سنة ١٣٣هـ. يقول الشيخ طه الولي: «أقام الأوزاعي بالقرب من دمشق ما شاء الله أن يقيم، حتى إذا اكتهل... نزعت نفسه إلى التقرب من الله تعالى بالجهاد في سبيله. وكانت مدينة بيروت في أيامه تستقطب أولئك النفر من المسلمين الذين يرون المرابطة في هذه المدينة عملاً دينيًا يقرّبهم إلى الله زلفى. فشدّ الإمام رحاله إليها. وكان ذلك حوالي سنة ١٣٣ من الهجرة».

ظل الإمام الأوزاعي في بيروت، إلى حين وفاته في سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٣م، على الأرجح.

وقد عاش الأوزاعي، نحو ثلثي حياته، في أيام الأمويين، وانتقل إلى بيروت، حوالي الوقت، الذي آل فيه الأمر إلى العباسيين. ومن ذلك الوقت، أي منذ أن جاء بيروت، انقطع إلى العلم والتدريس والعبادة. وقد يكون في تصرّف الأوزاعي نوعٌ من الرغبة في الانقطاع عن الأمور العامة، بسبب التغيّر الذي طرأ على البلاد. فقد كان ولاة العباسيين شديدين، على من كان للأمويين عليهم يد أو فضل.

ويبدو أن الأوزاعي، كان أحد هؤلاء، الذين كان للعباسيين فيهم رأيٌ خاصٌّ. فقد روى الأوزاعي، أنه دخل على عبد الله بن علي، عمّ الخليفة السفاح، بعد أن أجلى الأمويّين عن بلاد الشام، وكان عبد الله قد طلبه. فكان أن سأله عبد الله عن أمور ثلاثة:

أولها إن كان إجلاء الأمويين عن البلاد جهاداً، فقال الأوزاعي إن الأعمال بالنيّات، مستشهداً بالحديث الشريف.

وكان ثاني الأمور، التي سأله عنها عبد الله، هو عن دماء بني أمية، فكان جوابه، استشهاداً بحديث للنبي الكريم أنه:

«لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيّب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

فكان أن سأله عبد الله بن علي السؤال الثالث عن أموال بني أمية، فقال مجيباً على ذلك: «إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً، وإن كانت لهم حلالاً، فلا تحل لك إلا بطريق شرعي».

وهذه الرواية منقولة عن الأوزاعي نفسه.

ومع ذلك، فلم يقتل الوالي الأوزاعي. بل على العكس من ذلك، عرض عليه أن يوليه القضاء، فاعتذر. ولما انصرف من المجلس لحقه رسول ومعه مئتا دينار لينفقها على نفسه، فتصدّق الأوزاعي بها. ولعل العبرة من هذه الرواية، هي أن عبد الله بن علي أكبرَ شجاعة الأوزاعي الشخصية، فأكرمه بعرضه ولاية القضاء عليه.

على أن القصة الأكثر شيوعًا على لسان القوم، هي تشفّعه بمواطنيه من نصارى جبل لبنان. ذلك أن معاوية بن أبي سفيان كان قد صالح في أيامه الروم: «وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك. ولقد بقي من هؤلاء الرهناء خلفٌ تسبّبوا في عهد الدولة العباسية، باضطراب حبل الأمن في البلاد. فقام الوالي العباسي صالح بن علي بقتل مقاتلتهم وإقرار من بقي منهم على دينه، وردهم إلى قراهم وأجلى منهم رؤوس الفتنة...».

ولما شكا هؤلاء، ما أصابهم من غضب الوالي العباسي، إلى الأوزاعي، بادر بالكتابة إلى الوالي. ورسالة الأوزاعي، إلى الوالي، جميلة جدًا. فهو يقول فيها: «... وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان من لم يكن مما لنا لمن خرج على خروجه، ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم، ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يُخرجوا من ديارهم وأموالهم. وحكم الله تعالى أن ﴿لا تَزر وازرةٌ وِزرَ أخرى﴾ (النجم: ٣٨). وهو أحق ما وُقف عنده واقتدي به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإنه قال: من ظلم معاهدًا وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه».

فنزل الوالي العباسي عند رأي الأوزاعي. ويشار إلى الأوزاعي، على أنه فقيه الشام أو إمام الشام. والذي نعرفه، هو أن مذهبه في الفقه انتشر في الشام، وسار أمره كذلك في الأندلس. وليس ذلك غريبًا، لأن الكثيرين، من مقاتلة الأندلس، كانوا من الشام. ولكن أمر الأوزاعي انحسر عن البلدين. أما بالنسبة إلى الأندلس، فقد انتشر فقه الأوزاعي، إلى أن ارتحل علماء من الأندلس، إلى مالك بن أنس، فتتلمذوا عليه، وعادوا بعلمه، وأبانوا فضله. فأخذ أمير الأندلس، هشام، في أواخر القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، بالمذهب المالكي، وأمر الناس جميعًا بالتزامه.

ولكن الغريب، أن يزول مذهب الإمام الأوزاعي من بلاد الشام، كأنه لم يكن. ولا شك في أن الأحوال السياسية، التي سادت بعد ذلك، كان لها تأثير في ما حدث. فالإمام الأوزاعي شامي، وكان يعيش في كنف الأمويين. فلما دالت دولة هؤلاء، انزوى الإمام بنفسه في بيروت.

وكان من الطبيعي أن يُقبل الناس، حتى ولو أنهم لم يُلزموا بذلك، على المذاهب، التي قامت في عاصمة الدولة، أو في مركز من المراكز الإسلامية الأولى الكبرى، مثل المدينة. ولعل رأي محمد كرد علي جدير بالانتباه إليه، في هذه المناسبة. فقد قال:

«اشتهر من أسباب المذاهب الدينية من عاضد الملوك دعوتهم، ومن هام العوام بها وهضمتها نفوسهم. وهناك مذاهب جماعية، لا تقل عن غيرها شأنًا كمذهب الظاهري والأوزاعي والطبري، ضعفت شهرتها، إذ لم تجد لها من يعضدها من الملوك، ولا من يهيم بها من الخاصة أو العامة، كما وقع لمذاهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة أوسع مذاهب أهل السنة انتشارًا».

وهناك من يرى، بأن مذهب الأوزاعي ضعف شأنه، لأن هذا الإمام لم يضع كتابًا يفصل فيه مذهبه، أو يحدد خصائصه.

لكن الشيخ طه الولي يقول، حول هذا الموضوع: «إن مثل هذا القول فيه شيء كثير من المغامرة العلمية التي لا نستطيع الركون إليها على علاتها دون أن نتحفظ أو نحترز».

ولكن أَلَمْ يؤلف الأوزاعي قط؟ هل من المعقول أن يكون للرجل هذا النفوذ، وأن ينتشر مذهبه مثل هذا الانتشار، من دون أن تكون له مؤلفات في الفقه؟

يرى الباحثون، أن الأوزاعي صنّف بنفسه كتبًا، شأنه في ذلك شأن بقية الأئمة. وقد روي، أن مؤلفاته، ضاعت في الزلزال، الذي أصاب بيروت، أثناء إقامة الأوزاعي فيها. ونحن، مع أننا نميل إلى الأخذ بأن الأوزاعي ألّف كما ألّف غيره، فإننا نظن أن الناس صرفوا النظر عن مؤلفاته، لأنها لم تصدر عن مركز السلطة والقوة. وعلى كلٍّ، فإننا نرجو، أن يُعثر على شيء من مؤلفات الأوزاعي، لا مما نقل عنه فقط، ذلك لأن الأوزاعي كان يعيش في (الشام)، وهو بلد كان قد عرف تجارب قانونية لها صفتها الخاصة، على ما نعرف من «كتاب القانون السوري ـ الروماني»، الذي كان معروفًا بالسريانية والعربية في الجزيرة ـ أي شمال شرق سوريا الحالية ـ والذي كان يمثل تجربة قرون من القانون الروماني المطعّم بالعرف المحلي والعادات القبلية والنواحي الدينية المسيحية. ولسنا نشك في أن الأوزاعي، كان يعرف شيئًا كثيرًا عن هذه الأمور.

على أن الأوزاعي، على ما أخرج الشيخ طه الولي، لخّص لنا بكلمات قليلة مفهوم الدين لديه، بقوله:

«خمسة كان عليها الصحابة رضي الله عنهم والتابعون.

أولاً: لزوم الجماعة (أي موافقة الرأي العام الإسلامي في وحدة الكلمة وطاعة الإمام).

ثانيًا: اتباع السنة أي موافقة النبي، صلى الله عليه وسلم في قوله وفعله وتقريره.

ثالثًا: عمارة المساجد (أي غشيان المساجد للصلاة).

رابعًا: التلاوة (قراءة القرآن).

خامسًا: الجهاد، نشر الدعوة الإسلامية وحمايتها».

وهي، كما نرى، أصول إسلامية، مقررة أصلاً. وقد عبّر الإمام الأوزاعي عن ذلك، بقوله: «أصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه. واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعه، ولا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنيّة موافقة للسنة...».

وقال: «وكان من مضى من سلفنا لا يفرّقون بين الإيمان والعمل، فالعمل من الإيمان، والإيمان من العمل. وإنما الإيمان اسم جامع، فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق ذلك بعمله، فتلك العروة الوثقى لا انفصام لها. ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبه ولم يصدق بعمله لم يقبل منه، وكان في الآخرة من الخاسرين».

كان الإمام الأوزاعي العالم زاهدًا ناسكًا مجاهدًا متعبدًا، وهذه كانت نواحي حياته تمامًا. وشخصية الأوزاعي، هي لذلك، شخصية متكاملة، ومن هنا، كان التفات المؤرخين إلى هذه الشخصية؛ فوجدوا أقوى ما فيها، أي أكبر مظهر لتكاملها، هو الجرأة، التي: «كان يبادر إلى التزامها في المناسبات، عندما كانت تصطدم مصالح الناس وحقوقهم مع سيادة الدولة ونفوذها... وليس من شك في أن لجوء العامة من الناس إلى الأوزاعي، في ذلك الحين لدرء الحيف عنهم أو الشفاعة لهم لدى الحكام، من شأنه أن يعطينا فكرة واضحة عن مكانة هذا الرجل الروحية بين قومه. وهي مكانة نابعة، ولا شك، من طبيعة حياته الخاصة، التي كانت تتميز بما يتميّز به عادة أولئك النفر من المنصرفين إلى عبادة الله في قيود شديدة من التبتل والخشوع والإمعان في إذلال النفس والزهد بالملذات الدنيوية».

والكلام هنا للشيخ طه الولي.

ويستمر الشيخ طه بقوله: «إن هذا الرجل قد بلغ حسن الظن بنفسه حد الاقتناع المطلق بأن الله عزّ وجل قد تقبّل منه عبادته، وشمله فعلاً بالرضوان والقبول، وخصّه بمنزلة سامية دونَها منازل سائر الناس في زمانه».

وقد زار عبد الغني النابلسي، المتوفى سنة ١٧٢٠ للميلاد، قبر الإمام الأوزاعي في بيروت، فنظم في ذلك قصيدة، فضلاً عن أبيات أخرى نظمها. وقصيدة النابلسي هي قصيدة صوفي عالم في صوفيٍّ عالمٍ، على أن ألفًا من السنين تقريبًا تفصل بينهما. فمن أبيات النابلسي قوله:

حضرة تملأ القلوب سرورًا … وابتهاجًا بأمر ربّ مطاعِ
شطّ بحر عليه للعلم بحرٌ … طافحٌ بالكمال والانتفاعِ
زادك الله هيبة ووقارًا … ورعى الله منك تربة راعِ
وعليك الرضى من الله يتلو … رحمة لا تزال ذات اتساعِ

وحديثي، هذا، عن الأوزاعي، حريٌّ بأن يختم بما قاله فيليب حتي عنه. قال: «إن

النظرة اللبنانية الشاملة والروح اللبنانية السمحة تتجسدان في سماحة روح الأوزاعي وفي نبل أخلاقه. فإنه كان يشدّد على فكرة العدل والرفق واللطف عندما كان الأمر يتعلق بالرعايا من غير المسلمين. وكان يحب البلاد التي يعيش فيها... وإننا لا نعرف فقهاء من فقهاء المسلمين [الذين عاصروه مثلاً] أظهر من نبل العاطفة، ما أظهره الأوزاعي في دعوته إلى الأخوّة الإنسانية... فالأوزاعي، الفقيه الشامي، كان يمنع قطع النخيل وغيره عند مقاتلة المشركين... وفي رأي الأوزاعي أنه إذا حارب ذمّي في صفوف المسلمين فإن حصته من المغانم يجب أن تكون كحصّة المسلم... وما كان الأوزاعي ليقرّ قتل الرهائن وهو ممن يقولون بأن نكث العهد يجب ألا يقابل بنكث العهد، بل بالمروءة والشهامة».

ويجدر بنا أن نذكر، أن الإمام الأوزاعي دخل في يوم قارس البرد من شتاء عام ١٥٧هـ/ ٧٧٤م غرفة الحمام حيث وضعت له زوجته كانونًا فيه جمر فحم ليتدفأ... فمات اختناقًا. وقد وجدته زوجته، ملقى على الأرض، ووجهه نحو القبلة. والأوزاعي، على ما نال من مال، وجد معه، لما مات، سبعة دنانير فقط.

٣ ـ أرز الرب

نحن نقف على نشز من الأرض، على طريق أرز لبنان. إذا نظرنا إلى جهة الطريق، ونحن بعيدون عنها قليلاً، نحسب أننا على مرتفع من الأرض، فإذا أطللنا إلى الجهة الأخرى أدركنا أننا على رأس الجدار الصخري، الذي ينتهي إلى أسفل الوادي العميق! مثل هذا المكان يبعث الطمأنينة في النفس. فالوادي، وما يحيط به من صخور وتلالٍ وجبال مرتفعة، هو مدعاة للتأمل، والطريق يحفظ اتصالنا بالناس.

وقبل البدء بالتأمل، الذي يمكن أن يوحي به هذا الوادي، ننظر حولنا، فإذا على مسافة قصيرة من حيث نجلس، تتلألأ أنوار بلدة تشاركنا مثل هذا الموقع.

إنها بلدة إهدن، والوادي، الذي تتّكىءُ عليه هي، كما نتّكىء نحن على جانبه، هو وادي قاديشا. وإهدن اسم قديم لهذه البلدة، منذ أن كانت قرية صغيرة، قبل مئات ومئات من السنين. والكلمة آرامية الأصل، على ما يُرجّح، ومعناها المكان القوي المنيع الهادىء. واسمها ينطبق عليها تماماً. فهل ثمة أمنع وأقوى من مثل هذا الموقع؟ إنه يقع بين الوادي إلى الجنوب، والغابات إلى الشمال، ويتم منه الانحدار إلى الغرب. وهو الطريق الذي يتحتّم على القادم من طرابلس الساحلية أن يجتازه ليصل إلى هذه المنطقة. أما إلى الشرق، فثمة منطلق مرتفعات إهدن وجبالها ونقطة الدفاع عنها ولها.

وجدير بنا هنا، أن نتذكر بأن القسم الأكبر من أسماء المدن والقرى في لبنان، وفي فلسطين، وسوريا، قديم عهده، لأن هذه الأماكن أُقيمت فيها القرى ـ العامر منها إلى الآن، والذي تهدّم، وعفا أثره ـ قبل فترة تتراوح بين خمسة وستة آلاف من السنين. وثمة أمر ثانٍ وهو أن أسماء العدد الأكبر من هذه الأماكن جاءت في واحدة من اللغات السامية، التي عرفتها المنطقة ـ الكنعانية والفينيقية والآرامية والسريانية ـ (وهناك أسماء أقدم عهداً). وهذه اللغات اختلطت فيها التسميات، بحيث لم يعد من اليسير حلُّ ألغازها دوماً. والأمر الثالث، هو أن اللغة الآرامية هي التي أصبحت تعرف فيما بعد باللغة السريانية، بعد أن دخلت عليها، أو أُدخلت عليها تبديلات وتغييرات، هي من نوع التطور الطبيعي في تاريخ اللغات.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، عندما نرى هذه الأماكن، هو: لماذا نجد أن أكثر هذه المدن القديمة قامت على مرتفعات، إلا حيث ينعدم المرتفع، كما هو الحال في السواحل وعلى الشواطىء؟

إن هذه المدن أُقيمت على مرتفعات، لأنَّ الرجال الذين بنوها تعمّدوا اختيار المكان الذي يسهل الدفاع عنه، لأن العداوة بين الجيران ليست أمرًا حديث العهد. وهذه المدن كانت كلٌّ منها، في القسم الأطول من تاريخها، مستقلة عن الأخرى. ومن ثم، فقد تقع الحرب القائمة على المنافسة والطمع في أي وقت. فالمكان المرتفع، المبنيّ على قمة تلّ أو على جبل، يسهل الدفاع عنه.

وقد قامت قرى ومدن صغيرة أخرى أيضًا على رأس جبل، من دون أن يكون الباعث على ذلك هو الدفاع ضد العدو، وهي القرى التي أنشئت، حول هياكل الأقدمين، في أعالي الجبال. فالذي يجب أن نعيه دائمًا، هو أن الآلهة القديمة ـ وهنا نستعمل الجمع بالآلهة للدلالة على الأزمنة القديمة جدًا ـ كانت تحبّ، حسب اعتقاد الناس في ذلك الوقت، أن تقيم في الأماكن المرتفعة، ليتسنى لها الإشراف على أتباعها. وقد أكرم هؤلاء الأتباع هذه الآلهة، بأن بنوا لها الهياكل لعبادتها في هذه الأماكن العالية. وفي حالات كثيرة، لم يزد ما بني هناك عن هيكل للعبادة. لكن بعض هذه الهياكل، كانت تجذب اليها عددًا من الزوار الدينيين، في المواسم وغيرها، فيقيم الناس هناك فترات تقصر أو تطول. فإذا طالت، قام إلى جانب الهيكل ما يحتاجه القوم من حوانيت للبيع والشراء ـ المواد الغذائية والأقمشة والأدوات اللازمة. وقد تقوم في المكان سوق أسبوعية. وهكذا، كانت تتنوع هذه الأمور، بحيث تنهض مدينة أو قرية، إلى جانب الهيكل، وكانت تتنوع معها الأسماء أيضًا.

فالمكان المرتفع،إذا كان فيه نبع ماء اعتبر مباركًا، مثل قرية الباروك، أو حتى مقدسًا مثل نبع قاديشا ووادية، ومعناه المقدس، وهكذا دواليك.

ولنذكر، قبل كل شيء، أن هذا الجبل، الذي نحن عليه، وامتداده جنوبًا إلى جبل عامل، وشمالاً حتى جبال اللاذقية، كان مغطى بالغابات، في أقدم عصوره المعروفة مما قبل التاريخ. وكان الأرز هو الشجر الغالب عليه. لكن منذ الألف الثالث قبل الميلاد، أخذ السكان يقطعون هذه الأشجار؛ البعض قطعها ليصطلي بنارها، والبعض الآخر قطعها ليصنع منها بابًا أو شباكًا أو طبليّة. وكلما زادت الحاجة إلى هذه الأشياء، ازداد قطع هذه الأشجار. لكن هذا كله، لم يكن شيئًا يذكر بالنسبة لقطع الأخشاب للإتجار بها.

التجارة بالأخشاب قديمة بالنسبة لهذه المنطقة، وبالأخص للبنان. ولنتذكر، أنه في الألف الثالث قبل الميلاد، كانت حضارتان قد قامتا في المنطقة، هما: حضارة وادي النيل وحضارة دجلة والفرات. وقد كان من أثر التطور، الذي أصاب البلدين حضاريًا، وتنظيم الأعمال فيهما، أن ازدادت الثروة هناك، بحيث أن السكان أصبحوا يتطلعون إلى الإتقان في أعمالهم. لذلك، كانت الهياكل بحاجة إلى أخشاب جيدة لسقوفها وأبوابها، والسفن التي تمخر عباب اليمِّ، أو حتى التي تسير في الأنهار، كانت

بحاجة إلى الخشب القوي لصنعها. والبلدان، حوض النيل وأرض الرافدين، كانا فقيرين بالأخشاب، فاتجهت أنظارهما، حكومة وتجارًا، إلى خشب الأرز الجيد، فأخذا يبتاعانه من سفوح جبال لبنان، والناس هنا يقطعون الأشجار، لكنهم لا يزرعون بديلاً منها. وهكذا مع الوقت، تعرّت الجبال في أغلبها، وبقيت مجمّعات صغيرة من هذا الأرز، لعلّ الذي حماها، أنها كانت تعتبر موئلاً للآلهة. فلم يجرؤ السكان على قطعها بأجمعها، ولعل أكبر مثلين على ذلك في لبنان، أرز الرب وأرز الباروك.

كان الاسم الساميٌّ القديم الأكثر شيوعًا على ألسنة الناس للإله هو (بعل)، ومعناه الرب أو السيد، ويليه اسم آخر هو (إيل). وقد توزع هذان الاسمان فيما بينهما الكثير من أسماء المدن والقرى، فبعلبك و(بعل شمي)، و(بيت إيل) إنما هي نماذج بسيطة.

وكما كانت تنسب المدن للآلهة، كانت الأماكن غير المأهولة تنسب لها أيضًا، بسبب ما لها من ارتفاع في المكانة. ومن هذه الأماكن هذه البقعة التي تقوم فيها بضع مئات من شجر الأرز، الذي يعود إلى مئات ومئات السنين في التاريخ. وهذه الأشجار سميت، أو على الأقل عرفت، باسم أرز بعل. وكانت موضع تقديس وتكريم.

ولما جاءت المسيحية إلى هذه البلاد، وجد الناس، الذين كانوا وثنيّين، أنفسهم وقد اعتنقوا المسيحية. وكانت لهم، من قبل، طقوس واحتفالات دينية مرتبطة بأرز بعل، فلم يتخلّوا عن هذه الاحتفالات، التي كانت تقام، صيفًا، في المنطقة. لقد حافظوا على الاحتفالات والطقوس، لكنهم مع الوقت، وعلى سَيرٍ هيِّن عبر الزمن، جعلوا هذه الطقوس مسيحية.

وهذا معناه، أن قرارًا بهذا الأمر، لم يتخذ في سنة معينة، أو زمان معروف، أو على يد صاحب سلطة ما.

وفي العهد الجديد، في إنجيلي متى ومرقس، يذكر أن المسيح تجلى لبعض تلاميذه، وكان معه النبيّان موسى وإيليا. وأن التلاميذ هؤلاء، اقترحوا أن تقام ثلاث مظلاّت، للمسيح وموسى وإيليا، كي يستظلّوا بها. ولكن قبل أن ينتهي الاقتراح إلى شيء، أحاطت بالمسيح هالةٌ من نور، ورافق ذلك صوت سماوي يباركه. فخرّ التلاميذ أمام هذا، ولما عادوا إلى وعيهم، وجدوا المسيح وحده. وهذه الحادثة هي التي تحتفل بها الكنائس المسيحية، باسم عيد التجلّي.

ولا ندري تمامًا متى تم تحديد هذا العيد. ولكن الذي نراه هو أن الناس كانوا يحتفلون بأعياد وثنية صيفية، في جميع الأماكن الجبلية. لذلك، لما اتّخذ هذا العيد بالذات صفة الاستمرار، وأحياه الناس عامًا بعد عام، فتّش كل قوم عن مكان يناسب هذا الاحتفال. والمهم، أن الرواية المسيحية، عن التجلّي، لم تحدد مكانًا للحادثة، على تحديدها لأماكن معينة لأحداث أخرى في حياة المسيح. وكل ما ذكر، أنه ـ أي التجلّي

ـ كان في بجل عال. ثم إن الرواية لم تشترط حدوث هذا الأمر، في نطاق البلاد، التي عاش فيها المسيح، أي فلسطين.

ولسنا ندري عدد الأمكنة المرتفعة، التي ادعت حدوث التجلي عليها. ولكن جبلين يدعيان هذا الفخر أو المجد: جبل طابور، الواقع شمال شرق مرج ابن عامر، في شمال فلسطين، حيث يحتفل المسيحيون على قمته بالتجلي، والثاني هو أرز الرب في شمال لبنان. وجبل طابور أعلى قمة هناك، ويرتفع من المرج مباشرة، وأرز الرب قريب من أعلى قمم جبال لبنان.

وعيد التجلي، في الروزنامة المسيحية، يقع في السادس من شهر آب. ويتم الاحتفال، في اليوم نفسه، في المكانين المذكورين.

ومن أقدم ما عثر عليه، عن الاحتفال بالنسبة لأرز الرب، يعود إلى القرن الثالث عشر للميلاد، وقد يكون هناك ما هو أقدم عهداً. أما الاحتفال به على جبل طابور، فيعود إلى القرن السادس للميلاد. ولكن ليس المهم، كما ذكرت سابقًا، التقرير ثم الاتباع، فقد يكون الأمر عكس ذلك. أي أنه في هذه الأعياد، وفي كثير من هذه الحالات، الذي يسبق هو الاحتفال والاستمرار في الاحتفال، وعندها تقبل به المؤسسة على أنه أمر واقعي، فتباركه أو تكرّسه، كما يقال في لغة التبريك.

وفي الصباح المبكر من يوم العيد، ينتقل، عادة، أهل المنطقة، لا من بشرّي وحصرون وبزعون وحدث الجبة وإهدن وزغرتا فحسب، ولكن من الأماكن النائية، للاحتفال بعيد الرب ـ أي عيد التجلّي ـ في أرز الرب. وعندها، نرى، كيف أن أرز بعل الوثني أصبح أرز الرب، وكيف أن الاحتفال بالإله الوثني أصبح احتفالاً بتجلّي المسيح.

٤ ـ المدرسة في جبل عامل

غلب على التعليم الإسلامي، والسنيّ بشكل خاص، نظام المدرسة، منذ أن أنشأ الوزير السلجوقي الكبير، نظام الملك، أول مدرسة نظامية، في أواسط القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد. وكانت هذه المدارس، في حقيقة أمرها، حلقات للدرس تُعنى بعلوم الدين، وفي مقدمتها الفقه. وكانت جميع نفقات هذه المؤسسات ملقاة على كاهل الدولة أو الوقف، والدولة هي التي تنتقي شيوخ هذه المدارس، التي كان الإشراف الرسمي عليها، وخاصة في العصر المملوكي، يعود إلى قاضي القضاة في مركز الولاية الرسمي. فضلاً عن ذلك، فإن هذه المؤسسات كانت سنيّة لتقوية فكرة الجماعة. فقد كان موظفو الدولة، في الشرق والغرب الإسلاميين، يختارون من خريجي هذه المدارس. وكان يدخل، في إطار الموظفين، القضاة والكتّاب في الدواوين والمعلمون والوعاظ.

كانت طرابلس مركز الحركة العلمية السنيّة في العصور الوسطى. فقد بنى فيها المماليك مدارس أربعًا، عرفنا منها المدرسة القرطائية، التي أنشئت عام ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، في عصر قلاوون؛ والمدرسة السقرقية، التي يعود إنشاؤها إلى سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م؛ والمدرسة الخاتونية، وهي التي تمّ افتتاحها سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م. ونلاحظ أن هذه المدارس جميعها، أُنشئت في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، أي بعد أن استعاد المماليك طرابلس من أيدي الصليبيين واستقر لهم الأمر في البلاد، وبنوا المدينة الجديدة، بعد أن كانوا قد هدموا المدينة القديمة، إثر الاستيلاء عليها.

لست أشك في أن الطرق الصوفية، التي قوي شأنها في تلك الأثناء، كانت لها مراكز لتدريس تعاليمها. وينطبق هذا على غير طرابلس أيضًا. فقد روى القلقشندي، في كتابه «صبح الأعشى»، أن مدينة بعلبك غنية بالمساجد والمدارس وتكيات، أي خانقانات، الصوفية والبيمارستانات. أما طرابلس فقد كان فيها، على ما أخرج محمد كرد علي، ثماني دور للصوفية.

وقد ورد في أحد الكتب، أن المنهج الذي كانت تتبعه المدارس، في تلك الأيام، كان على طبقات ثلاث:

الأولى تشمل القراءة والخط والإملاء والقرآن الكريم والفقه.

الطبقة الثانية كان فيها المصارعة ورمي السهام والقيافة؛

الطبقة الثالثة أساسها المسابقة وركوب الخيل.

ومثل هذا البرنامج، كان يتبع في مدارس طرابلس وغيرها. ولعل ظروف الدفاع عن البلد وجوارها، من احتمال هجوم عليها، من المملكة الصليبية في قبرص، كان العامل الأساسي في اختيار مثل هذا البرنامج.

ويبدو أن جزين، كانت أقدم مركز للتعليم، في جبل عامل، إذ إن اسمها، كمركز لذلك، يرجع إلى القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد. وكان الطلاب يؤمونها، لتلقي العلم على مشاهير علمائها. ومثل ذلك يقال عن جبع (جباع).

وقد كان من نتيجة احتلال المغول لبغداد، أن تقوّى التعليم الشيعي، في جبل عامل. فإنه بعد استيلاء المغول على بغداد، في عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، اضطربت شؤون الدراسة العالية في النجف. وذلك وضع عبئًا ثقيلاً على معاهد العلم في جبل عامل. وقد نهضت هذه المدارس بالعبء، وكانت على قدر المسؤولية. ففي أواخر القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، نجد أن الشهيد الأول محمد بن مكي، بعد عودته من العراق، يجعل من جزين مركزًا لمدرسة عالية، للفقه الإمامي.

ومن المدارس الهامة، في لبنان، في العصور الوسطى، مدارس جبل عامل. ذلك أن جبل عامل كان، منذ استقرار الشيعة فيه، على اتصال قوي بمراكز الفقه الإمامي، في العراق وإيران. وهناك أسماء لامعة في تاريخ العلم في جبل عامل، منها جزين ومدرستها ومدرسة ميس الجبل ومدرسة جبع (جباع).

وهناك وصف لمدرسة جزين هذه، في كتاب محمد كاظم مكي، عن الحركة الفكرية والأدبية، في جبل عامل، جاء فيه قوله: «ولقد طارت لهذه المدرسة [جزين] شهرة كبيرة في الجبل وخارجه. وقد كانت جزين في ذلك العهد قصبة مهمة محشودة بالسكان وكان فيها جامع كبير ومنارة رفيعة وكان في جزين إثنا عشر شيخًا من العلماء الأفاضل. ولذا كنت ترى جزين محطًا لرجال وطلبة العلم ومنتجعي الأدب. ونبغ في جزين عدد كبير من العلماء على التوالي، وكان بينهم الفاضلات والعارفات من النساء، منهن المجتهدة الفاضلة ست المشايخ فاطمة أم الحسن أخت الشهيد الأول، التي أولاها إخوتها العلماء الفتوى بكل ما يختص بالنساء من أمورهن الدينية».

وكانت مدرسة جبع (جباع)، التي عاصرت مدرسة جزين، قد احتضنت العلم والعلماء لما ضعف شأن مدرسة جزين. على أن المدرسة التي خلفت جزين، هي مدرسة ميس الجبل، وقد أسست سنة ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م.

«وكانت هذه المدرسة مثابة طلاب العلوم في عامة أنحاء جبل عامل ورحلة فضلاء الشيعة من العراق وإيران والشام، وقد بلغ عدد طلابها ٤٠٠ طالب، وقرأ فيها كثير من العلماء منهم العلامة الكبير الملقب بالشهيد الثاني، زين الدين الجبعي، توفي عام ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م. ويبدو أن هذه المدرسة بقيت بعد وفاة مؤسسها ردحًا من الزمن

يشير إلى ذلك تراجم خريجيها. وينتسب إليها كثير من العلماء الذين تخرجوا بعد وفاة مؤسسها. وخرج من ميس الجبل نفسها علماء كثيرون ذكرهم وذكر فضلهم على المعرفة وأشار إلى مؤلفاتهم الحر العاملي. وقد كان منهم في القرن السابع للهجرة علماء كبار منهم أحمد بن تاج الدين العاملي الميسي الذي استجازه العلامة محمود بن محمد الكيلاني سنة ٩٥٦هـ».

وهذا القول هو أيضًا لمحمد كاظم مكي.

لما زرت، قبل سنوات، مدينة أصفهان، وقضيت وقتًا أتنقل بين معالمها المعمارية البالغة الغاية من الأناقة، لفتني، بشكل خاص، مبنىً يبهر الأنظار بجمال بنائه وروعة زخرفته وتناسق ألوانه، وهو المعروف باسم مدرسة لطف الله، التي تعود إلى أيام طهماسب الصفوي، الذي حكم بين عامي ٩٣٠ و٩٨٤ للهجرة (أي بين ١٥٢٤ و١٥٧٦ للميلاد). ولطف الله هذا عالم من علماء مدرسة ميس الجبل. وقد قال عنه صاحب كتاب الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل ما يلي:

«ومن العلماء القدماء الذين خرجوا من ميس [الجبل] الشيخ لطف الله الميسي، كان علامة كبيرًا مات ودفن في أصفهان حيث بني له مقام ومسجد معروف ما زال في إيران حتى اليوم مشهورًا ببنائه البديع وقد كان هذا معاصرًا للشاه طهماسب الصفوي. ويسمى مؤسس المدرسة المنتظمة في ميس بالمحقق الميسي نسبة لتحقيقاته العلمية والأصولية».

ولعل مما يجب أن يذكر أن الشاه الصفوي بنى هذه المدرسة للشيخ لطف الله، ليغريه بالبقاء هناك، شيخًا مدرسًا مستقلاً بمدرسة خاصة به، لا يشاركه فيها شيخ آخر، ولا يشترك هو مع شيوخ آخرين. وهذا مما يدلّ على مكانة علامتنا الكبير.

أما مؤسس المدرسة المنتظمة في ميس الجبل، والذي يرجع إليه الفضل في وضع أسس الدراسة فيها، فهو المحقق الميسي، وقد سمي بذلك، بسبب ما قام به، من تحقيقات علمية وأصولية.

وقد وصلتنا أخبار مفصّلة، عن مناهج التدريس، في المدارس العاملية. وقد أخرج السيد محسن الأمين، في كتابه «خطط جبل عامل»، الكثير عن ذلك. ومع أننا كنا نودّ أن ننقل كل الذي جاء به لأنه وافٍ، بيد أننا مضطرون إلى الاجتزاء بالأهم، مما ورد عنده.

والمنهاج هو كل متكامل الأجزاء، على ما يقول المؤلف. أما المعلوم، التي كانت تعلّم في مدارس جبل عامل، فهو النحو والصرف وعلوم البلاغة وعلم التوحيد وعلم الكلام بقسميه الجواهر والأعراض والإلهيات وعلم أصول الفقه وعلم التفسير والحساب وفن الأدب.

وعلم التوحيد هو أساس هذه العلوم، وله من العلوم المساعدة علوم اللغة من نحو

وصـرف وبلاغـة. ويحيط الطالب، بعـد ذلك، بعلم الكلام، وذلك لتتضح له أمـور علم التوحيد من جهة، والإلهيات وأصول الفقه وعلم الفقه والتفسير من جهة أخرى. أما فن الحساب فقيمته عملية. ويُذكر الأدب على أنه أمر لازم للثقافة.

على أن السيد محسن الأمين، يفرق، في ما كتبه حول هذا الموضوع، بين العلوم وارتباط تعلمها بالأسلوب والطريقة، وحتى بالشيخ، أي المدرس.

وحريّ بنا أن نشير، قبل ذلك، إلى أن كل علم من العلوم كانت له كتبه المقررة، وكان من المألوف أن يبدأ الطالب، بإشراف المدرس وشرحه، بالأبسط من الكتب، متدرجًا نحو الأصعب منها. وأول ما كان يتعلمه الطالب، هو القرآن الكريم، فيحفظه، ويتعلم الكتابة، لأنها أساس كل ما سيمر به. وهذان أمران هامان يشرف المدرس عليهما إشرافًا تامًا.

ويرى السيد محسن الأمين أن هذه العلوم ومتفرعاتها، تقسم، أصلاً، إلى قسمين رئيسين:

الأول، هو ما يتلقاه الطالب بإشراف المدرس أو الشيخ.

والثاني، هو ما يقرأه بنفسه، ولكنه يسترشد بآراء شيخه عند الحاجة.

والمجموعة الأولى أو القسم الأول، يدخل فيه النحو والصرف. ومن البلاغة المعاني والبيان، كما يشمل هذا القسم أصول الفقه ومعالم الأصول والقوانين والتوحيد والتفسير. أما ما يمكن أن يعتمد فيه الطالب على نفسه، فيدخل فيه البديع من علوم البلاغة والحساب والأدب والتاريخ.

وكان على الطالب أن يحفظ متن الأجروميّة غيبًا، ويحفظ إعراب جملة من الأمثلة التي يمثل بها. فإذا أتقن ذلك، قرأ شرح ألفيَّة ابن مالك. أما في الفقه، فيقرأ الطالب «معالم الأصول» و«اللمعة الدمشقية». وفي التوحيد، كان الاعتماد على العلاّمة الحلّي. والتفسير كان مجال الإفادة فيه يعتمد على كنز العرفان. هذه أمثلة من الكتب التي كانت تستعمل في الموضوعات الأساسية. أما في علمي التاريخ والأدب، فللطالب الحرية. ويقول السيد الأمين عن الأدب ما يلي: «ويقتصرون في الأدب على حفظ الأشعار والمطارحة بها ويسمونها المنافسة ويكون ذلك ليلة الجمعة وقت الفراغ ترويحًا للنفس فينشد أحدهم بيتًا فينشد الآخر بيتًا أوله قافية البيت الأول وهكذا، ويأمر الشيخ التلاميذ بحفظ لامية العرب ويفسرها عملاً بالحديث: علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق».

وهناك أمر آخر، وهو اهتمام المدرسة بأن يفيد الطلاب من شهر رمضان المبارك، فهذا الشهر كان عطلة بالنسبة للطلاب. لذلك، نجد إشارة إلى وجوب الإفادة من ذلك في أمور دراسية مختلفة، مثل قراءة كتب إضافية في التفسير وعلم الرجال والحساب.

وكانت الدراسة، على وجه العموم، تعيّن مراحلها بالكتب التي تدرّس، على أن نتذكر فكرة التدرج من الأبسط والأسهل إلى الأصعب والأكثر تعقيدًا. ويمكن القول إجمالاً بأن الكتاب كان نقطة الانطلاق الأساسية، والأستاذ كان محور التعليم. فقد كان الطلاب يتحلقون حوله، ويتلقون منه معرفته، تفسيرًا لآية كريمة أو إسنادًا لحديث شريف أو شرحًا لمتن. وليس أدل على الاهتمام بالمعلم والطالب من أن الشهيد الثاني، زين الدين بن علي بن أحمد الجبعي (المتوفى سنة ٩٦٦هـ٧٤ ١٥٥٨م)، قد وضع كتابًا في التعليم وآدابه، بالنسبة إلى المعلم والتلميذ، سمّاه: «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد».

وفضلاً عن ذلك، فإنّ هذا النظام (أو هذه الفلسفة)، هو الذي كان متبعًا في المدارس المختلفة، في العصور الوسطى، والمدارس التي تجددت مع المحافظة على التقاليد.

وليس في هذا جديد. فهو نظام التعليم، الذي كان منتشرًا في المدارس المختلفة، في الشرق جميعه، والاختلاف هو اختلاف في المحتوى، إذ إن ذلك كان يتوقف على الفئة التي تعلمه، أو العقيدة التي تتبعها تلك الفئة، أو المذهب الذي تتخيّره. وقد استمر هذا الأسلوب، في المدارس العاملية، إلى أواخر القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر للهجرة، (أي أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر للميلاد) في المدارس، التي قامت في تلك الفترة، مثل جبع (أو جباع) المجددة، وشقراء، التي أسسها السيد موسى الحسيني الأمين، والتي اتسعت لنحو أربعمئة طالب، وكانت تعتمد على أوقاف غنية. والكوثرية، التي أنشئت بإيعاز من علماء النجف الأشرف.

وما دمنا نتحدث عن التقاليد العلمية، التي استمرت في مدارس جبل عامل إلى القرن الثاني عشر للهجرة (أو الثامن عشر للميلاد)، يجدر بنا أن نشير إلى أن أبناء جبل عامل، أخذوا أنفسهم بتجديد المدارس القديمة وتقويتها، وإنشاء مدارس جديدة، منها، على سبيل المثال، لا الحصر: مدرسة حنوية (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م) ومدرسة بنت جبيل (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) ومدرسة النبطية الحديثة (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م).

مرّ بنا أن المدارس العاملية أو بعضها على الأقل، كان برنامجها الأدبي يفرض تعليم لامية العرب وحفظها. ولهذه القصيدة صفة خاصة، وهي، بحسب ما جاء في القول المنقول، تعلم مكارم الأخلاق. وهي قصيدة طويلة، جاهلية النفس، لكنها تجمل أخلاق العرب ومآثرهم. وسنكتفي ببضعة أبيات منها، لتوضيح أهميتها، وسبب اختيارها، نموذجًا للأدب الخلقي:

لعمرك ما بالأرض ضيقٌ على امرىء سرى راغبًا أو راهبًا وهو يعقلُ

وإن مـــــدّت الأيدي إلـى الـزاد لـم أكن بـأعــجلهم إذ أجــشع القــوم أعــجَـلُ
وإني كــفــانــي فَــقْــدَ من ليس جــازيًا بـحـــســنـى ولا فـي قـــربـه مـــتـــعلُّلُ
وأسُفُّ تـرب الأرض كـــيــــلا يرى لـه علـي مـن الـطـول امــــرؤ مُـــــتَـطَوِّلُ
وفـي الأرض مـنـأى لـلـكـريـم عـن الأذى وفــيــهــا لـمـن خــاف القِلى مـتــعــزَّلُ

٥ ـ من مطبعة زاخر إلى مطبعة الأنسي

عرفت البشرية، في تاريخها الطويل، عددًا كبيرًا من الاختراعات التي كان لها تأثير كبير في تطور المدنيات. هذه الاختراعات لا سبيل إلى حصرها، ولسنا نزمع ذلك الآن. ولكن إذا ألقينا نظرة عجلى، على بعض ما تم في العصور الحديثة، مما له ارتباط مباشر بالثقافة والفكر والأدب، وجدنا أن اختراع المطبعة يأتي في طليعة هذه الإنجازات البشرية الهامة. فبعد أن كان كل كتاب، صغر أم كبر، لا بد أن ينسخ باليد كي ينتشر، وهذا أمر فيه جهد كبير ومضيعة للوقت الكثير، أصبحت المطبعة تيسّر من النسخ عددًا كبيرًا، وجرد أن تصفّ الحروف. ولنذكر أن اختراع الطباعة مرتبط باسم يوحنا غوتنبرغ، وقد تم ذلك، في أواسط القرن الخامس عشر.

ويبدو أن اهتمام البابوية بمسيحيي الشرق، وخصوصًا الطوائف التي تتبع البابوية بالذات، حمل القوم، هناك، على تأسيس مطبعة في روما، لنشر الكتب العربية والسريانية. وكانت الكتب الدينية هي المطلوبة، والمعتنى بها أصلاً. ويتبين من الدراسات المختلفة، أن مطبعة لليسوعيين في روما، طبعت النص العربي من كتاب للتعليم المسيحي سنة ١٥٨٠. أما المطبعة البابوية بالذات، فقد بدأت عملها بعد ذلك بقليل.

وهذا ينقلنا، مع بعض رهبان الطائفة المارونية، الذين درسوا في الكلية أو المدرسة المارونية في روما، إلى دير قزحيا، في شمال لبنان. فقد حمل هؤلاء، في سنة ١٦١٠م، مطبعة سريانية الحرف، طبع فيها سفر المزامير، من أسفار العهد القديم، من الكتاب المقدس، ثم انتهى أمرها.

كانت ثمة محاولات، لنقل مطبعة من روما إلى لبنان، لكنها ذهبت أدراج الرياح. ولذلك، فقد كان على لبنان أن ينتظر ما يزيد على القرن، قبل أن تقوم فيه مطبعة، على يد الشماس عبد الله زاخر، وهو حلبي المولد (١٦٨٤م)، وكان ماهرًا في الصياغة. وقد اضطر إلى الخروج من بلده، صيانة لحياته، فلجأ إلى دير مار يوحنا الصايغ، في الشوير، حيث استقر هناك منذ سنة ١٧٢٨م. وفي الدير، بدأ يعد العدة لإنشاء مطبعة، لطبع الكتب الدينية، ونشرها بين الناس. ويقول فؤاد أفرام البستاني: «إن كل ما في هذه المطبعة، التي تم تركيبها في سنة ١٧٣١، من آلات وحروف ومسابك ومصفّات ومحابر ومكبس ونقوش وزخارف هي من صنع الزاخر نفسه نقشًا وحفرًا وسبكًا في الخشب والنحاس والرصاص».

وظل الزاخر في الدير إلى حين وفاته، في شهر آب ٧٧ أغسطس ١٧٤٨م.

ومن ثم، فإن «ميزان الزمان»، الذي طبع في لبنان سنة ١٧٣٤م هو من إنتاج عبد الله زاخر ومطبعته. وقد عملت المطبعة ببطء كلي، لكنها أنتجت عددًا من الكتب الدينية، وهذا ما كانت الحاجة تدعو إليه. ثم توقفت تدريجًا، بعد وفاة مؤسسها.

ويلاحظ أن المحاولتين الأوليين لإنشاء مطبعة في لبنان، كانتا في الجبل، وكل منهما، كانت في دير من الأديرة.

لكن أول مطبعة عرفتها بيروت، أسست سنة ١٧٥١م، وهي مطبعة القديس جورجيوس، وذلك في الدير المعروف بهذا الاسم، ولو أن الذي أسسها وأنفق عليها، لم يكن من رجال الدين، إذ إنه كان من وجهاء الطائفة الأرثوذكسية، وهو الشيخ يونس نقولا الجبيلي. ولما كان سِفر المزامير هو الكتاب المعتمد لتعليم القراءة عند أكثر الطوائف المسيحية، فقد كان من الطبيعي أن يكون هو أول إنتاج المطبعة الجديدة، وقد طبع مرة ثانية. لكن المطبعة كانت تعرج، من أول الأمر، فتوقفت عن العمل، مع ما بذله الشيخ يونس من جهد ومال.

وفي سنة ١٨٣٤م، أي بعد توقف مطبعة القديس جورجيوس، بنحو ثلثي القرن، حصلت بيروت على مطبعة محترمة، من حيث الإنتاج والصنع، وهي المطبعة الأميركانية، كما كانت تسمى. وقد نقلت هذه من مالطة، ذلك أن المبشرين الأميركان البروتستانت، كانوا قد اتخذوا من جزيرة مالطة مركزًا لنشاطهم في المشرق. وقد أسس مجلس الإرسالية في الولايات المتحدة مطبعة لتزويد المنطقة بالنشرات والكتب اللازمة. فكانت الكتب تطبع في هذه المطبعة، باللغات الإنكليزية واليونانية والإيطالية والأرمنية والتركية والعربية. ونشرت عددًا من الكتب المدرسية، للمدارس التي كانت تقوم بفتحها في بقاع مختلفة. وكان ممن عمل مصححًا في المطبعة أحمد فارس الشدياق. وفي سنة ١٨٣٤م، نقل القسم العربي من المطبعة إلى بيروت.

وإذا صحّ ما ذكره أحد المرسلين الأميركيين، فإن مدينة بيروت، لم تكن، آنذاك، في وضع تحسد عليه، إذ قال عنها: «إن بيروت المدينة مبنية من الطين والحجر الرملي، وهي مظلمة رطبة وأسواقها ضيّقة... وفي الشتاء قلما تجفّ أوحالها. والأسواق مبلطة منذ القديم وكل ذلك بدون ترتيب، والبلاط غير متناسب في الحجم، وبين الواحدة والأخرى فجوات».

وقد يستغرب المرء التطور، الذي مرّت به بيروت، خلال ثلاثين سنة. فالذين وصفوها، حول سنة ١٨٥٧م، قالوا عنها أشياء أجمل. لكن ثلاثين سنة من عمر بيروت، كانت دومًا مدة تكفي للتبديل. والذين عاشوا في بيروت، خلال الثلاثين سنة الأخيرة، يعرفون ذلك، حق المعرفة. وعلى كل، فقد جاءت المطبعة الأميركانية إلى بيروت سنة ١٨٣٤م. وبعد سنتين، بدِّلت حروفها، وصنعت لها حروف عربية جميلة. وكان من

الطبيعي أن تبدأ بطبع الكتب اللازمة للتبشير والتعليم الديني في المدارس، وحتى مبادىء النحو للشيخ ناصيف اليازجي. وكانت انطلاقتها إيذانًا بطبع الكتب، بشكل يرضي العين. وقد كانت قمة جهدها، في العقود الأولى، طبع الكتاب المقدس، طبعًا أنيقًا صحيحًا مشكولاً، وذلك في سنة ١٨٦٥م.

وإذا كان للمرسلين الأميركان البروتستانت مطبعة، فلا بد أن يكون للكاثوليك اليسوعيين مطبعة. فالنشاط الأول لا يناهض إلا بنشاط مثله. وهكذا كان. وبدأ العمل في مطبعة صغيرة سنة ١٨٤٨م. لكن الكونت دوتريمون تبرّع، فيما بعد، بستة آلاف فرنك، للإرسالية اليسوعية، لشراء مطبعة تليق بها وبنشاطها. وفي سنة ١٨٥٤م، طبع كتاب «الاقتداء بالمسيح»، في ألفي نسخة، وزّع أكثرها مجانًا. وأضيفت حروف لاتينية إلى المطبعة، لجمع نصوص الكتب الفرنسية. وأخذت المطبعة، بعدها، تطبع بالإيطالية والتركية. وفي سنة ١٨٦٨م، بدأت المطبعة الكاثوليكية باستعمال حروف من مسبك المطبعة الأميركانية. وكان رجال الحكم، من العثمانيين، على صلة طيبة بالمطبعة والقائمين عليها.

وفي النصف الثاني، من القرن التاسع عشر، قامت في بيروت مدارس كثيرة، الأجنبي منها والوطني، ولو أنها جميعها كانت طائفية النزعة.

وبالإضافة إلى المدارس، نشأت، في بيروت، حركة صحفية كبيرة. والمدرسة والصحيفة، كانتا بحاجة إلى المطبعة، لطبع الكتب والصحف. ومن هنا، نجد حركة إنشاء المطابع تنشط نشاطًا كبيرًا في بيروت. والمطابع، التي قامت، كان كثير منها خاصًا بأفراد، لا بهيئات ومؤسسات، وإن كان ثمة شيء من هذا. ولعل المطبعة السورية، التي أسسها خليل الخوري، سنة ١٨٥٧م، كانت أول مطبعة فردية، وكانت الغاية منها، طبع جريدته، «حديقة الأخبار». وفي السنة التالية، أُنشئت المطبعة الشرقية، لإبراهيم النجار.

وليس غريبًا أن نتذكر سنة ١٨٦٥م، فقد أسست فيها ثلاث مطابع، في بيروت بالذات. وهذه المطابع هي: المطبعة المخلصية، ومطبعة السريان الكاثوليك، والمطبعة الوطنية.

ولعل من أطرف ما عثرنا عليه، لمناسبة تأسيس المطابع في بيروت، نص الاتفاقية، التي وقّعها خليل سركيس وبطرس البستاني، للمشاركة في مطبعة المعارف. كان خليل سركيس قد أنشأ هذه المطبعة سنة ١٨٦٧م، وفي السنة التالية، اشترك مع المعلم بطرس البستاني في استثمارها. والاتفاقية طويلة، ولا مجال لنقلها بأكملها. لكن لا بأس من الإشارة إلى أهم ما جاء فيها. ففي المقدمة جاء قول الشريكين:

«هو أننا نحن الواضعين أسمينا أدناه المعلم بطرس البستاني من الفريق الأول وخليل أفندي سركيس من الفريق الثاني قد اتفقنا على إنشاء مطبعة ومصبّ لصبّ

الأحرف وطبع الكتب... مما يوافق الأدب وشرايع الطباعة المسنونة في الممالك العثمانية».

ورأس المال هو ثلاثون ألف غرش «شُرك»، يدفع كل فريق نصفه. وإدارة المطبعة تناط بخليل سركيس. وشراء الورق والمواد الأخرى، يوافق عليه الفريقان. والموافقة النهائية على الطبع، يجب أن تقترن بتوقيع البستاني.

وفي الفترة، التي نتحدث عنها، ولمدة طويلة بعدها، كان الغرش جزءًا من مئة جزء من الليرة العثمانية، وقيمته أربعون بارة. لكن الغرش «الشُرك»، كان يساوي ثلاثة أرباع القرش، الصاغ أي الرسمي، وقيمة القرش الشرك، كانت تختلف قليلاً بين مدينة وأخرى، من مدن بلاد الشام.

أما فيما يختص بالمكافأة عن الأعمال الخاصة، فإن خليل سركيس، كان يتقاضى ٤٥٠ غرشًا شُركًا، لقاء إدارته للمطبعة، والمعلم بطرس، كان يتقاضى، على تصحيح مسودات الكتب، التي تطبع، المبلغ نفسه، الذي كان يدفعه مدير مطبعة الأميركان، لمصححي مسودات كتبهم. ولم يذكر المبلغ. عدا ذلك، فالأرباح مناصفة. ومع أن الاتفاقية، كانت لخمس سنوات، فقد تجددت، واستمرت، حتى سنة ١٨٧٥م، إذ انفصل خليل سركيس عن المعلم بطرس، وكان خليل قد أصهر إلى البستاني. وأنشأ خليل سركيس المطبعة الأدبية، التي أصبحت مطبعة «لسان الحال»، لما أنشأها، سنة ١٨٧٧م.

أشرنا إلى أن إنشاء الصحف، كان باعثًا على تأسيس المطابع. والمطبعة الأميركانية والمطبعة الكاثوليكية قامتا بذلك، خلال العقود الأولى من إنشائهما. لكن المهم، أنه في العقود الأخيرة، من القرن التاسع عشر، قامت المطابع المرتبطة بصحف أنشأها أفراد. وقد ذكرنا أن خليل سركيس، أسس المطبعة الأدبية، ونشر «لسان الحال». بيد أن عبد القادر القباني، كان قد أنشأ، سنة ١٨٧٤م، مطبعة، وطبع فيها صحيفة «ثمرات الفنون». كما أسس محمد رشيد الدنا مطبعة بيروت، سنة ١٨٨٥م، وطبع فيها صحيفة «بيروت»، بدءًا من السنة التالية. وفي سنة ١٨٩٣م، أسّس محمد سليم الأنسي مطبعة، سماها «المطبعة الأنسية»، وكان يطبع فيها صحيفته «روضة المعارف». وقد اشترى لها صاحبها حروفًا فرنسية من باريس. يقول عنها خليل صابات: «ويمكن اعتبار تلك المؤسسة من بين المؤسسات المطبعية الكبيرة التي ظهرت في لبنان في أواخر القرن الماضي. وقد ساهمت مساهمة طيبة في نشر الكتاب العربي وجعله في متناول الجميع».

وإذا توقفنا، حول سنة ١٩٠٠، وألقينا نظرة على حركة الطباعة في لبنان، وجدنا:

أولاً، أن العمل المطبعي، كان من عمل مؤسسات في بادىء الأمر، ثم قام به الأفراد. وأول مطبعة رسمية عثمانية، عرفتها بيروت، أنشئت، سنة ١٨٨٥م، ولم تنشىء الحكومة سواها في بيروت.

ثانيًا، لو عددنا المطابع الكبيرة في بيروت، لوجدناها ست عشرة مطبعة، «عدا بعض المطابع الثانوية التي تخصصت في طبع الأوراق التجارية المختلفة».

ثالثًا، أن الجبل عرف مطابع أخرى. فدير قزحيا، أسس مطبعة ثانية. وكانت ثمة مطبعة رسمية، في بيت الدين، ثم في دير القمر. هذا، فضلاً عن عدد من المطابع الموزعة في جهات مختلفة، مثل طرابلس.

رابعًا، أنه بفضل مسبك المطبعة الأدبية، ومسبكي المطبعة الأميركانية والمطبعة الكاثوليكية، لم تعد المطابع الوطنية بحاجة إلى استيراد الحروف العربية من الغرب أو من الآستانة. وكانت مطابع القاهرة والإسكندرية، تستورد حروفها من المسابك اللبنانية.

ومن الطبيعي أن تنشر المطابع المختلفة كتبًا متنوعة، فضلاً عن الصحف والمجلات. ومن الكتب التي نشرتها مطابع بيروت، في تلك الفترة نذكر على سبيل المثال، من دون تعيين المطبعة: «تاريخ سلاطين بني عثمان»، و«كليلة ودمنة» (هذا طبع في مطبعة بيت الدين الرسمية سنة ١٨٦٨م)، و«ديوان المتنبي»، و«تاريخ سوريا» للمطران يوسف الدبس، و«محيط المحيط» و«قطر المحيط» للبستاني، و«شرح المعلقات»، للزَوزني، و«القلب المستحق». وإلى هذا، يجب أن نضيف المجلات، التي صدرت في تلك الفترة. على أن مما يستحق الذكر، هو الاهتمام بالكتب المدرسية، وبكتب التراث، التي نشرت في بيروت. ونشرت المطابع عشرات الروايات الأدبية، المؤلفة والمترجمة.

وما ذكرناه، يكفي للإشارة إلى ما يمكن أن يتم في القرن العشرين، وهو كثير. ففي السنة الحالية (١٩٨٧م)، تحتضن بيروت ما يزيد على مئتي دار نشر، أكثرها تملك مطابعها، سوى المطابع التجارية، التي تعدّ بالعشرات.

٦ ـ من حديقة الأخبار إلى ثمرات الفنون

«معرِفَتْلو خليل الخوري. المنهى إليك أنه بموجب المضبطة المبنية على استدعائك الواقع مقدمًا لجانب الحكومة، قد صار الأمر والاشعار بموجب مرنامه ساميه من مقام الصدارة العظمى بأنه شرف صدور وتعلق الإرادة السنية باعطاء الرخصة لك بطبع وتمثيل غزته في بيروت باسم حديقة الأخبار».

هذا النص، هو مزيج من العربية والألفاظ التركية، وفيما يلي، توضيح للمعاني المقصودة فيه: (لو) التركية، التي تضاف إلى آخر الكلمة، يفهم منها (ذو)، أي صاحب. فدولتلو معناها ذو الدولة أو صاحب الدولة، ورفعتلو ذو الرفعة أو صاحب الرفعة. ومعرفتلو ذو المعرفة أو صاحب المعرفة. وهذا تكريم لخليل الخوري، أن يشار إليه بأنه ذو المعرفة، أو صاحب المعرفة. ومرنامه معناها أمر، فمرنامه ساميه معناها الأمر السامي. وغزته، هي اللفظ الذي كان يطبق للدلالة على الجريدة.

وهكذا يصبح النص مفسرًا على الشكل التالي:

«ذو المعرفة، خليل الخوري. الذي نريد أن نبلغك إياه هو أنه بموجب طلبك المقدم إلى الحكومة صدر أمر سام من مقام رئاسة الوزراء بأن الإرادة السنية ـ أي إرادة السلطان ـ أعطتك رخصة لإنشاء وطبع جريدة باسم «حديقة الأخبار».

هذا المرسوم، أرسله محمد خورشيد باشا، والي إيالة صيدا وملحقاتها، إلى خليل الخوري، في سنة ١٨٥٧م. وكانت بيروت، يومئذ، تتبع إيالة صيدا، لأنها لم تصبح ولاية، إلا سنة ١٨٨٨م.

وبموجب هذا المرسوم، أصدر خليل الخوري العدد الأول من «حديقة الأخبار»، في اليوم الأول من عام ١٨٥٨م. وهي أول جريدة شعبية، أي تصدر عن فرد، في بلاد الشام. واعتبر صدور «حديقة الأخبار» حدثًا هامًا. فقد أشار إلى ذلك فارلي، في كتابه «سنتان في سوريا»، كما لفتت الجريدة لأنظار إليها، منذ صدورها. وقد كانت «أسبوعية، سياسية، علمية، تجارية، تاريخية».

وثمة وثيقة، نقلها دي طرازي، في كتابه «تاريخ الصحافة العربية»، توضح الطريقة، التي أعلن بها خليل الخوري عن عزمه على إصدار «حديقة الأخبار». لكن قبل ذكر ما جاء في الوثيقة، نذكر أن خليل الخوري كان ينوي، على ما جاء في الوثيقة، تسمية الجريدة «الفجر المنير»، ثم بدّل رأيه. أما الوثيقة فتقول:

«إنه سيطبع في بيروت بمطبعة خصوصية مجموع حوادث عربي العبارة يحتوي على حوادث هذه البلاد وعلى الحوادث الخارجية مؤلفة ومترجمة من أحسن وأعظم جورنالات الأوربا. وعلى فوائد علمية وأحوال متجرية ليكون نافعًا سائر طبقات الناس. وذلك بهمة جمعية مؤلفة من أحذق وأنبه رجال البلاد المؤلفين والمترجمين والمصححين الذين ستشهر أسماؤهم فيما بعد لا سيما جناب عمر أفندي الأنسي الحسيني وجناب الشيخ ناصيف اليازجي. وابتداء العمل يكون حين ورود الفرمان العالي بعد أخذ الأسماء اللازمة لهذه العملية. فنلتمس من كل مهذب يرغب نفع البلاد أن يشرفنا بوضع اسمه في هذه القائمة. وثمن هذا المجموع مئة وعشرون قرشًا بالعام تدفع عند استلام أول عدد. وهو يطبع كل أسبوع تحت إدارة كاتبه خليل الخوري واسمه الفجر المنير».

وقد تبدل الاسم، كما ذكرنا، إلى «حديقة الأخبار».

وفي مقال حديث، لجوزف نعمة، يذكر أنه جاء، في مقدمة العدد الأول، من «حديقة الأخبار»:

«نحمدك يا من أبدعت خليقتنا بحكمتك الإلهية وملأت من فضيلتك كل ما أنشأته عنايتك الأزلية. وملّكت الإنسان على هذا الكون الخافق، فاتسع بأعماله المتجددة على مرّ الدقائق، وجعلت «أخبار» كل قوم لكل قوم حديثًا».

على أن الذي يلفت، في هذا الأمر، هو أن خليل الخوري، لما نشر «حديقة الأخبار»، كان له من العمر ثمانية عشر عامًا فقط. وكان قد أصبح شاعرًا معروفًا، إذ نشر أول ديوان له، وهو في سن الرابعة عشرة. وكان خليل الخوري، قد أنشأ المطبعة السورية، قبل البدء بنشر «حديقة الأخبار»، بسنة واحدة.

هذه بداية أول جريدة عربية، صدرت في بيروت، على يد رجل واحد. ولما حضر فؤاد باشا إلى سوريا سنة ١٨٦٠م، خصص «حديقة الأخبار» لخدمة الحكومة، واتخذها بمثابة جريدة نصف رسمية. وقد عُيِّن لصاحبها، بإرادة سنية، راتب شهري قدره عشرون ليرة عثمانية، إعانة على نشرها، حتى ظهرت جريدة سوريا الرسمية. وفي شهر آب ١٨٦٨م، أي بعد عشر سنوات ونيف، من صدور «حديقة الأخبار»، أصبحت تصدر باللغتين العربية والفرنسية، لأن فرنكو باشا، حاكم جبل لبنان، جعلها الصحيفة الرسمية لحكومته... وبمقابل ذلك، نال صاحبها ثلاثين ليرة عثمانية، راتبًا شهريًا... وبعد أن قطعت حكومة جبل لبنان عن «حديقة الأخبار» راتبها الشهري، استمر خليل الخوري على نشرها لحسابه إلى آخر أيامه. وقد توفي خليل الخوري سنة ١٩٠٧م، أي بسنة قبل الاحتفال بيوبيلها الذهبي، الذي تمّ، على كل حال، سنة ١٩٠٨م، وتوقفت الجريدة، سنة ١٩١١م.

وفي سنة ١٨٦٠، تعرض لبنان لحرب داخلية، آذته كثيرًا. وقد نشر المعلم بطرس

البستاني جريدة صغيرة، ذات صفحتين، سماها «نفير سوريا»، كانت تظهر على شكل رسائل وطنية، تتضمن نصائح مفيدة، لشدّ عُرى الإلفة بين السكان. ولما أخلد الناس إلى السكينة، أوقف نشرها. وقد ظهر منها ثلاثة عشر عددًا، سميت النفير الأول، والنفير الثاني... الخ.

ومن المعروف، أنه بدءًا من ستينات القرن التاسع عشر، أخذت الصحف والمجلات تظهر في بيروت بكثرة، وقد استمر بعض هذه الصحف حتى أوائل القرن العشرين. وليس مما يجوز أن نعدد هذه الصحف والمجلات، ونذكر أسماءها وأسماء أصحابها فقط، في موضوع، القصد منه التوقف عند نقاط انطلاق أساسية. لذلك، فإننا سنختار البعض منها، لأنها كانت تمثل اتجاهًا أو نقلة في الحياة. ونذكّر القراء، أننا سنتناول الصحف، إلى نهاية القرن التاسع عشر أو مطلع القرن العشرين، ولن نتابع تطورها بعد ذلك.

لعل أول جريدة، تستحق أن نعنى بها، هي «ثمرات الفنون»، التي كان صاحب امتيازها السيد عبد القادر القباني. إلا أن عبد القادر القباني، كان عضوًا في جمعية اسمها «جمعية الفنون»، وهي التي تبنّت الجريدة، التي هي أولى الجرائد الإسلامية في بيروت، وثانيتها في السلطنة العثمانية بعد «الجوائب»، التي أنشأها أحمد فارس الشدياق في استانبول. وكانت «ثمرات الفنون» في بداية عهدها شركة مساهمة، تتألف من اثني عشر سهمًا، وقيمة كل سهم ألفان وخمسمئة غرش. فهي، من هذا القبيل، باكورة الصحف العربية المساهمة. لكن جمعية الفنون لم يطل عمرها، فانتقل اسم الجريدة ومطبعتها إلى الرجل الذي كان الامتياز باسمه، وهو عبد القادر القباني. وكان القباني يحافظ على شعار الجمعية الأصلي، وهو نشر المعرفة وخدمة الفقراء. أما الجريدة فقد مرّت، على ما يرى الدكتور هشام نشابة، بفترات ثلاث. ففي دورها الأول، كانت تدافع عن الأمة الإسلامية والدولة العثمانية، ثم مرّت بها فترة، أسهمت فيها في النزعات القومية العربية، ولكن بعد عودة الدستور (١٩٠٨)، عادت إلى خطها الأول.

هناك عبارة كتبها عبد القادر القباني، لمناسبة عودة الدستور، وقد وردت في كتاب دي طرّازي، «تاريخ الصحافة العربية»؛ قال القباني:

«إن مسؤولية أصحاب الجرائد في زمن الدستور أعظم منها في دور الاستبداد. ولذلك يلزم أن يقوم بتحرير كل جريدة نخبة من الكتّاب من جميع العناصر للمحافظة على تأليف وحدة عثمانية من عناصر الوطن، فتعتز الجامعة العثمانية بهذه الوحدة. ولا أقدر من الجرائد لتحقيق هذه الأمنية، التي هي روح الدستور، إذا اتفق كتّابها على التفاهم والتحاب ونبذ كل ما يدعو إلى سوء التفاهم».

على أن الغريب في الأمر، أن عبد القادر القباني لم يلبث أن أغلق الجريدة، في السنة نفسها.

ومن جميل الروح، التي كانت منتشرة في بيروت يومها، أن تظهر الأسماء التالية، بين الكتّاب والمحررين، في «ثمرات الفنون» مثل: يوسف الأسير (الأزهري) والشيخ إبراهيم الأحدب وإسماعيل ذهني وسامي قصيري وعوني إسحق وسليم الشلفون واسكندر طراد والشيخ أحمد حسن طبارة والحاج محمد الحبّال.

وفي سنة ١٨٨٦م أصدر محمد رشيد الدنا جريدة علمية، سياسية، تجارية، أدبية، اسمها «بيروت». واستمرت في الصدور إلى سنة ١٩٠٨م. بدأت ثلاث مرات في الأسبوع ثم صارت يومية، لكن كثرة الصحف، التي نشرت، بعد إعلان الدستور، أو إعادته على الأصح، ثبطت همة أصحاب الجريدة، وكان مؤسسها قد توفي، فتوقفت عن الصدور.

على أن الجريدة التي عمّرت أطول من أي جريدة أخرى في بيروت، هي «لسان الحال»، التي أصدرها خليل سركيس سنة ١٨٧٧م، وقد وصفها طرازي بقوله: «فجرت منذ أول نشأتها على خطة الاعتدالِ والمسالمة وعدم التشيع إلى عنصر دون آخر. فاشتهر أمرها بذلك ونالت ثقة القريب والبعيد وأقبل الناس على مطالعتها من جميع الملل والنحل».

بدأت «لسان الحال» نصف أسبوعية، وتطورت، فزادت أعدادها في الأسبوع، وكبرت، ثم صارت يومية، سنة ١٨٩٥م. ولعل «لسان الحال»، بحكم أنها عمّرت طويلاً، هي الجريدة التي أسهم في الكتابة فيها، بشكل أو بآخر، كل من حمل قلمًا في هذه المنطقة، ومنهم كاتب هذه السطور، الذي زوّدها بمقال أسبوعي طوال سنة ١٩٦٢م.

أُنشئت «لسان الحال»، في سنة ١٨٧٧م. وفي سنة ١٩٠٤، جرى الاحتفال بيوبيلها الفضي، (وكانت قد بلغت الخامسة والعشرين من سنها قبل ذلك بعامين). وفي سنة ١٩٢٧م، احتفل بيوبيلها الذهبي. وفي عامي ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤م، كنت أباحث صاحبها ومحررها يومئذ، الأستاذ جبران حايك، في أمر الإعداد للاحتفال بعيدها المئوي، الذي كان سيقع في سنة ١٩٧٧م. وكان عندي برنامج ضخم لذلك. فهي الجريدة الوحيدة التي بلغت مثل هذا العمر. لكن الأستاذ حايك، كان يشك في إمكان القيام بفكرتي على النحو الذي أردته. وفيما نحن نتحدث أخذت الأحداث تعصف بلبنان، ونسفت «لسان الحال»، مبنىً وجريدة. وعلى هذا، فقد عمّرت أقل من قرن بقليل.

ولم تكن «لسان الحال» سجلاً لأخبار بيروت ولبنان والمنطقة، لهذه الفترة الطويلة فحسب، بل كانت سجلاً للأخبار العالمية والتطورات، التي مرّ بها العلم والبحث والعالم.

وكما نُشرت الصحف، ظهرت المجلات، في النصف الثاني، من القرن التاسع عشر. وقد كانت المجلات، على وجه العموم، على نوعين:

الأول، هو الذي نشرته المؤسسات الدينية، الأجنبية التبشيرية منها والوطنية،

مثل «البشير»، الكاثوليكية، و«النشرة»، البروتستانتية، و«الهدية» الأرثوذكسية و«النحلة» السريانية، وهاتان الأخيرتان نماذج للمجلات الدينية الوطنية.

أما النوع الثاني فيدخل في عداده المجلات التي نشرت للعلم أو للأدب أو لكليهما ـ وهذه كانت الأشيع. فـ «الجنان» التي أصدرها المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٧٠م، كانت من هذا النوع. وبسبب شهرة صاحبها العلمية، عبر مؤلفاته وكتاباته والمدرسة الوطنية، راجت المجلة. وكان سليم، ابن المعلم بطرس، هو الذي ينشىء أكثر مقالاتها السياسية والتاريخية والروائية. ويقول طرازي عن «الجنان»: «ونالت الجنان عناية مدحت باشا في ولايته لسورية حتى أنه كان يزور إدارتها في مجيئه لبيروت، ويبث أفكاره الإصلاحية بواسطتها».

وقد عمّرت «الجنان» سبعة عشر عامًا.

والمجلة التي أنشئت في بيروت، سنة ١٨٧٦م، ثم نقلت إلى القاهرة، سنة ١٨٨٥م، أي «المقتطف»، كانت المجلة الأعظم شأنًا بين ما ظهر من مجلات في العالم العربي، في تلك الحقبة. وصاحبا «المقتطف»، يعقوب صروف وفارس نمر، هما من بواكير تلاميذ الكلية السورية الإنجيلية (وهي الجامعة الأميركية في بيروت اليوم). وقد عمل الإثنان، بعد تخرجهما، مدرسين في الكلية نفسها. وقد رأيا، أثناء الدراسة والتدريس، وبسبب سعة الأفق التي تمتعا بها، أن مجاراة الأمم الغربية، في العلوم والمعارف، مستحيلة إذا كانت الجماعة، التي يعيشان بينها ستكتفي بترجمة الكتب. وإذا كانت ثمة رغبة أو نية في التقدم، فلا بد، للبلد، من مجلة تقطف ثمار المعارف والمباحث، شهرًا بعد شهر، وتذيعها في الأقطار العربية.

وقد كانت تتمة روايتهما، عن إنشاء «المقتطف»، طريفة، إذ قالا: «فعقدنا النية على إنشاء المقتطف لهذه الغاية ورسمنا خطته التي سار عليها منذ إنشائه إلى الآن. ولم نختر له اسمًا بل قمنا كلانا وذهبنا إلى أستاذنا الدكتور فان ديك، وكان في المرصد الفلكي حيث كان يقضي أكثر أوقاته. فاستشرناه بما عزمنا عليه وسألناه أن يختار له اسمًا. فأبرقت أسرّته وجعل يشدّد عزائمنا ويسهل علينا الصعاب. وقال سمياه المقتطف واجعلاه كاسمه وحسبكما».

وكان خليل الخوري، صاحب جريدة «حديقة الأخبار»، قد أصبح مديرًا للمطبوعات في سوريا، فكتب فان ديك إليه، أن يسعى في جلب الرخصة السلطانية بسرعة. فجاءتهما في نحو الشهر. وصدر العدد الأول من «المقتطف»، في غرّة تموز/ يوليو سنة ١٨٧٦م. وهذه المجلة، كتب فيها أيضًا، كل من حمل قلمًا، بين سنتي إنشائها وتوقفها.

وفي ختام هذا الحديث، يجدر بنا أن نشير إلى مجلة «الصفا»، التي أُنشئت سنة ١٨٨٦م، ولم تطل أيامها سوى سنوات ثلاث، لكنها كانت نموذجًا لصفاء اللغة والفكر.

وقد تحوّلت، فيما بعد، إلى جريدة، بدءًا من سنة ١٨٩٩م، وذلك بعد احتجاب، دام نحو عشر سنوات. أمامي الآن المجلد الثالث منها، الذي يبدأ في شهر آذار/ مارس ١٨٨٨م. واللطيف، أنها تضع على الصفحة الأولى، التاريخين الميلاديين الغربي والشرقي، وتضع، طبعًا، التاريخ الهجري. وينص الغلاف، على أن: «قيمة الاشتراك خمسة عشر فرنكًا في بيروت ولبنان، وعشرون في الخارج».

وفي مقدمة العدد، إشارة إلى الخبر عن إنشاء ولاية بيروت (١٨٨٨م)، وعن وصول الوالي علي رضا باشا. ومن هنا، يبدأ تاريخ جديد لبيروت، إذ تصبح تابعة لها متصرفيات اللاذقية وطرابلس وعكا ونابلس، وهي رقعة واسعة وهامة.

٧ ـ مجلة العرفان

عندما نستعرض ما مرّ على هذه المنطقة من أحداث في القرن الحالي، نجد أن إعادة الدستور سنة ١٩٠٨م، بعد أن خنقه عبد الحميد نيفًا وثلاثين سنة، كانت من أبرز الأحداث، التي فرح لها الناس فرحًا كبيرًا. فأيام عبد الحميد كانت أيامًا سوداء. هكذا رآها الناس، وأخذ بعضهم يردد أبياتًا من قصيدة اسمها «الحرية تشكو»، نظمت في تلك الفترة، وهذه بعضها:

كيف أشكو من البرية ضيمًا	ومن الروح في الجسوم بقية
أسروني فهان أسري لديكم	كيف يا قوم تؤسر الحرية؟
هدموا مجدي المؤثل حتى	بتُّ مرمى لأسهم العصبية
أقضت سنّة التمدن في ذا	أم قضت فيه بدعة الهمجية؟
عيل صبري وطال منكم صدود	أين أنتم يا للوفا والحمية!
أنسيتم زمان رغد تقضّى	في حماكم ودولة عربية؟

والجدير بالذكر، أن صاحب هذه القصيدة هو الشيخ أحمد عارف الزين، صاحب «العرفان». واللطيف، أن هذه القصيدة نظمت قبل إعلان الحرية، أي قبل إعادة الدستور، ببضعة أشهر. ومعنى هذا، أن أحمد عارف الزين، كان لا يزال في شرخ الشباب، لما نظم هذه القصيدة.

فالرجل مولود في شحور، من أعمال صور، سنة ١٨٨٣م، «وقد تلقى علومه الدينية والمدنية في القرية وفي النبطية، ثم درس اللغات الأجنبية، ولا سيما الفرنسية على بعض الأساتذة، في صيدا».

وإذن، فأحمد عارف الزين، كان في منتصف العقد الثالث، لما تغنّى بأسر الحرية، وتذكر الدولة العربية. إلا أن هذا الرجل، كان قد مرّت به بضع سنوات وهو يكتب في الصحف البيروتية، التي كانت تظهر هناك، في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. فقد كتب في «حديقة الأخبار» و«ثمرات الفنون» و«الاتحاد العثماني». والشيخ يذكر ذلك، فيما بعد، فيقول: «أول كتابتنا كانت في ثمرات الفنون والاتحاد العثماني ثم في جريدة حديقة الأخبار إذ كنت وكيلها ومراسلها في صيدا».

وصيدا هي المدينة، التي استقر فيها، بدءًا من سنة ١٩٠٤م.

وكان من الطبيعي، وقد جاءت الحرية إلى البلاد، وأحمد عارف الزين على هذه الدرجة من الوعي والرغبة في اللجوء إلى القلم وحمله، أن يتجه نحو إنشاء عمل صحافي، يكون له ومنه. لذلك أصدر مجلة «العرفان»، التي صدر العدد الأول منها، في ٥ شباط/ فبراير سنة ١٩٠٩م. ولأن صيدا لم يكن فيها مطبعة صالحة للقيام بمثل هذه المهمة، فقد طبعت «العرفان» في بيروت، لمدة سنتين، إلى أن أسس الشيخ أحمد عارف الزين نفسه مطبعة العرفان، فنقل العمل جميعه إلى صيدا.

أذكر، أنني كنت أقلب أعدادًا قديمة من مجلة «العرفان»، فوجدت العدد الأول. وأعجبني تقديمان للعدد ـ أو على الأصح للمجلة ـ من الشيخ نفسه.

الأول، التقديم الغلافي جاء فيه: «العرفان مجلة علمية أدبية أخلاقية اجتماعية تصدر كل شهر عربي، لمنشئها أحمد عارف الزين في صيدا. قيمة اشتراكها في صيدا ريال مجيدي واحد، وفي الخارج ربع ليرة فرنسية».

هذا التقديم الإعلامي.

أما التقديم الداخلي المنهجي، فيقول فيه صاحب «العرفان»:

«ومنشىء هذه المجلة منذ نعومة أظفاره وهو يتشوّق لإنشاء صحيفة يتمكن بها من خدمة أمته ووطنه إذ «كل امرىء ميسّر لما خلق له». وقد قيّض الله لنا ما نتمناه (والأمور مرهونة بأوقاتها)، فأنشأنا هذه المجلة على اعتراف منا بالتقصير والعجز، ودعوناها «العرفان»، ولكل مسمّى من اسمه نصيب. وقد ألقي على عاتقها البحث في العلم والأدب والأخلاق والاجتماع قدر ما يستطاع. على أنها ستزيد مباحثها إذا رأت إقبالاً، فهي تعمل على ناموس الارتقاء وسنة الكون ﴿سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلا﴾. وتصدر في كل شهر عربي. وفقنا الله لإتمام هذه الخدمة والقيام بهذه المهمة».

وقبل متابعة الموضوع، لا بد من معرفة قيمة المجيدي، الذي كان اشتراك «العرفان» في صيدا.

كانت الليرة العثمانية الذهبية مقسومة إلى ثمانية أقسام، كل منها يسمى مجيدي، وهو من الفضة. ولا نحسب أن الاشتراك في الخارج، كان ضعفي الاشتراك في صيدا، فالليرة الفرنسية، كانت أقل من الليرة العثمانية. وإنما استعملها صاحب «العرفان» وحدة للاشتراك الخارجي، لأن النقد الفرنسي كان السبيل الأساسي للتعامل مع الخارج.

وفي سنة ١٩١٣م، نشر أحمد عارف الزين كتابه، «تاريخ صيدا». وقد جاء فيه، بمناسبة الحديث عن الصحافة والطباعة في صيدا، ما يلي: «... ولما رأى صاحب هذا الكتاب عدم وجودِ صحيفة ببلدة صيدا، أنشأ مجلة دعاها العرفان. وقد صدر العدد الأول منها في المحرم سنة ١٣٢٧هـ الموافق ٥ شباط سنة ١٩٠٩. وقد طبعت

في السنة الأولى والثانية في بيروت. ثم أنشأنا مطبعة في صيدا وذلك في ذي الحجة سنة ١٣٢٨ الموافق ١١ كانون الأول سنة ١٩١٠، دعوناها أيضًا «مطبعة العرفان»، وطبعت المجلة بها في سنتها الثالثة والرابعة. وقد وقفت هذا العام نظرًا لما لحقنا من الخسائر. غير أن توقيفها ساء بعض الغيورين فشجعونا بمساعدتهم المادية والأدبية على إعادتها في بدء السنة الهجرية إن شاء الله».

واستمرت «العرفان»، بعد ذلك. ومع أنها توقفت بعض الوقت، بسبب موقف الحكومة العثمانية من الحركات الوطنية، سنتي ١٩١٣ و١٩١٥م، إلا أن «العرفان» وقد تعهدها صاحبها نفسه نصف قرن من الزمان، ظلت تصدر إلى حين وفاته سنة ١٩٦٠م، وأشرفت على إصدارها أسرة الزين. وما دمنا عدنا إلى كتاب «تاريخ صيدا»، لا بد من ذكر فقرة قصيرة، تتعلق بنشاط الشيخ أحمد عارف الزين بقلمه. قال: «وقد رأينا الحاجة ماسّة لإنشاء جريدة سيارة، فأنشأنا جريدة أسبوعية دعوناها جبل عامل، وذلك في المحرم سنة ١٣٣٠. وقد صدرت سنة كاملة، تعطلت بأثنائها شهرًا ونصف شهر من قبل الديوان العرفي في بيروت، وحكم علينا أيضًا بالسجن... ونظرًا لما أصابنا من الخسارة تركناها أيضًا لذلك ولأمور أخرى».

كانت «العرفان» تمثل هذه الفرحة، التي عمّت المجتمع العربي، في بلاد الشام، وكانت استجابة لعودة الحرية. لكن الشيخ أحمد عارف الزين، وغيره من حملة الأقلام في بيروت وطرابلس، لم يلبثوا أن أدركوا أن الجماعة التركية ـ الاتحاد والترقي ـ لم تكن تنوي منح الحرية للعرب، فقامت أولاً سياسة التتريك، ثم، بعد دخول تركيا الحرب، جاءت سياسة قمع كل حركة سياسية، مهما كان نوعها. وعلى سبيل المثال، سنة ١٩١٥م، سيق صاحب «العرفان» إلى الديوان العرفي، في عاليه، بتهمة تأليف «جمعية فتاة العروبة»، مع عبد الكريم الخليل ومحمد حيدر.

لكن المهم، أن «العرفان» لم تظل مجلة فحسب، لقد أصبحت «مدرسة». فقد استقطبت كبار الكتّاب، في لبنان وبلاد الشام ومصر والعراق وغيرها. ولسنا نحسب أنه من الممكن أن يخطر بالبال اسم كاتب أو شاعر لم تنشر له «العرفان» شيئًا. لكن المهم، ليس أن «العرفان» كانت منبرًا، بل المهم أنها كانت مدرسة. فكم تدرب فيها الشباب على الصحافة! وكم تلقّى الشباب، عبرها، من دروس في الخلق الكريم والثبات على المبدأ والوطنية! ولم تكن القضية أن «العرفان» كانت تشارك في القضايا الوطنية العربية، عن طريق الإشارة، بل عن طريق إعطاء التفاصيل وتوضيح الأمور، بحيث أن الذي يقرأها، ويتخذ بعد ذلك موقفًا، كان يفهم تمامًا، لماذا يتخذ مثل ذلك الموقف. وفضلاً عن تزويد القراء بالمعرفة، كان هناك المثال العملي الحي، الشيخ أحمد عارف الزين نفسه. فقد كان له من قوة شخصيته، وثباته على مبادئه، وانبرائه للدفاع عن الأمور، التي يقبل بها، وحماسته لدحض ما لا يؤمن به، ما يملأ القلوب والنفوس إيمانًا وعزة.

وفضلاً عن ذلك كله، فـ «العرفان» سجل لتاريخ منطقة وجماعة وشعب وأمة وقضية. فإننا نستطيع أن نتابع تطور هذه، سياسيًا وفكريًا وعاطفيًا وقوميًا، من خلال مجلدات «العرفان». وكان صاحب «العرفان» يجد الوقت الكافي لأمور اجتماعية كثيرة ـ اجتماعية بمعنى النقاش الفكري والعلمي ـ لا مجرد الحديث العادي. ففي سنة ١٩١٢م، اشترك مع الشهيد الصيداوي، الضابط توفيق البساط، في تأسيس جمعية نشر العلم، وانتخب أحمد عارف الزين رئيسًا لها. ويقول شفيق الأرناؤوط عن الشيخ أحمد عارف الزين: «كان منزله في صيدا مضافة للزوار من الأدباء والعلماء والشعراء والشخصيات الوطنية والسياسية. وكانت الأحاديث والمناقشات الأدبية والعلمية والوطنية تطغى على سائر الأحاديث... وكانت صالة الشيخ الأدبية مفتوحة في كل يوم».

وكان لدى الشيخ أحمد عارف الزين صالونان أدبيان ـ الواحد في مكتبه، وهذا الذي يعرفه معظم زواره، والثاني في بيته، وهذا الذي يشير إليه شفيق الأرناؤوط.

وكان للشيخ أحمد عارف الزين رأي في التاريخ، جاء به، في مقدمة كتابه لتاريخ صيدا، إذ قال: «إن الذين يكتبون التاريخ بدون عصبية وتحيّز قليلون جدًا بين الفريقين، أي المؤرخين من شرقيين وغربيين، فلذلك أصبح تمييز صحيح التاريخ من فاسده من أشق الأعمال. ولا أظن أن مؤرخًا يسلم من الغلط، وينجو من الشطط، مهما بالغ في التمحيص، وبلغ الغاية من العناية في تتبع الصحيح. ولكن حنانيك، بعض الشر أهون من بعض، وشتّان بين من يبذل ما في وسعه للوصول إلى الحقيقة الثابتة فيخطئها أحيانًا، وبين من يراها بأم عينه فيدفعه عنها تعصب أعمى أو نفاق وتدليس».

بل إن الشيخ أحمد عارف الزين، كان يعرف رأي ابن خلدون في التاريخ. فهو ينقل عنه قوله:

«إعلم أن فن التاريخ فن غزير المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية. إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولتهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء، ممن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكّبان به عن المزلّات والمغالط. لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في المجتمع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق».

ولعلّ مما يدل على نظرة الشيخ أحمد عارف الزين المنصفة، بالنسبة للكتابة التاريخية، قوله في مقدمة كتابه «تاريخ صيدا»، إذ ورد فيها: «يتعذر بل يستحيل على

الباحث من أمثالنا أن يأتي بتاريخ جامع للشرائط المطلوبة طبقًا لما يسير عليه مؤرخو الغرب حذو القذّة بالقذّة، لأنّا لم نزل بعيدين عنهم أشواطًا بعيدة في العلم والبحث والجد والكدّ. بيد أن ما لا يدرك كله لا يترك جلّه، على حد ما قيل. فلذلك سيكون ما نكتبه عن تاريخ صيدا معزوّا إلى التواريخ المعتبرة شرقية أو غربية. ولا نألو جهدًا في تمحيص الأنباء التاريخية أتمّ تمحيص ونقدها أدق نقد كما ينقد الصيرفي الدرهم. فيكون عملنا هذا جهد المقل».

والهدف من ذكر هذه الفقرات، من مقدمة كتاب، وضعه الشيخ أحمد عارف الزين، في وقت مبكر من حياته العلمية والفكرية والأدبية، والرجل لم يكن مؤرخًا بالمعنى المهني للموضوع، هو أن الذي ذكره هذا المفكر والكاتب والعالم والصحافي سنة ١٩١٣م، أمر التزم به في حياته كلها. فهو لم يكتب فقط مقدمة لـ «تاريخ صيدا»، ولكنه وضع لنفسه خطة، سار عليها فيما كان يكتب من تمحيص ونقد وترجيح وأقيسة. لذلك كانت أبحاثه في «العرفان» تتبع هذا النهج؛ ومن هنا كانت أهمية «العرفان». فهو إذ يتحدث عن لجنة الاستفتاء الأميركية، كنغ ـ كراين، التي زارت البلاد سنة ١٩١٩م، أو يشترك في اجتماع الساحل سنة ١٩٣٦م، أو يتحدث عن امتياز «شركة التبغ والتنباك» سنة ١٩٣٢م، أو عن سياسة الإرهاب سنة ١٩٣٦م، أو عن القضية الفلسطينية، التي عني بها كثيرًا، أو عن عبد الواحد هارون، من زعماء الكتلة الوطنية في سوريا لما توفي الزعيم ـ في كل هذا وغيره، كان يلتزم النهج نفسه ـ البحث عن الحقيقة، ممحّصًا، ناقدًا، موازنًا، مصدرًا الحكم، بعد هذا الجد والجهد والكدّ.

وكان الرجل يكره الجمود والتحجّر، ويحب لنفسه ولقومه التقدم والتطور. ولكن لم يكن يندفع متحمسًا، بل كان يبحث ويقرر وعندها يندفع. وإذا اندفع، لم يكن يحفل إلا بالمبادىء والأسس الخلقية.

وتعجبني قولة لشفيق الأرناؤوط، عن «العرفان» وصاحبها، وهي:

«لم يكن رصيد العرفان حسابًا في مصرف، أو بندًا من بنود النفقات السرية للدعاية، أو مساعدة من دولة وطنية أو أجنبية، أو تشجيعًا من حزب أو جمعية، بل كان رصيدها الإيمان والثبات والتضحية المتواصلة والعدد الكبير من القراء في البلاد العربية وإيران والهند وبلاد الاغتراب. فأنفق صاحبها عليها بدل أن تنفق عليه، وأذاب صحته في العمل لها، وباع ورهن ما تركه له أبوه وشريكة حياته، بدلاً من أن يثري ويبتني الدور الفخمة للنشر والسكن والاستثمار».

٨ - المدرسة «الحديثة»

أُنشئت، في القرن التاسع عشر، وخاصة في النصف الثاني منه، مدارس متعددة في لبنان. وكانت هذه المدارس، إما لسد حاجة معينة، أو استجابة لتحدٍّ، تعرضت له البلاد. وأول الحاجات، التي كان من اللازم أن تسدّ، هي تدريب رجال الدين المسيحيين، ليكونوا رعاة متعلمين لطوائفهم. وقد بدا أن الطائفة المارونية، كان يلزمها هذا النوع من الكهنة المتعلمين. لذلك، أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر، سنة ١٥٨٤م، مدرسة في روما، باسم «المدرسة المارونية في روما». وكان القصد من تأسيس هذه المدرسة، تعليم رجال الدين الموارنة، ليقوموا بواجباتهم نحو الرعية، بأسلوب أفضل من ذي قبل. أما تلاميذ هذه المدرسة، فكانوا يؤخذون من لبنان وشمالي سوريا وقبرص، ويقضون هناك حوالى عشر سنوات، يتلقون فيها اللغات السامية واليونانية واللاتينية والفلسفة والمنطق واللاهوت، ويدربون على الفرنسية والإيطالية. ولما عاد هؤلاء إلى لبنان، عملوا على تأسيس مدارس أرقى من المدارس التي سبقتها. وقد انتشرت هذه المدارس في المناطق المارونية، وأصبح المعلمون فيها، وأكثرهم من خريجي المدرسة المارونية في روما، يضيفون مواد جديدة للمناهج، ويعلمون طلابهم لغة كلاسيكية في غالب الأحيان. ولما كانت آفاق أولئك المعلمين الجدد أرحب، ونظرتهم أوسع، وتجاربهم أغزر وأعمق، فقد انتقلت مدارس الكنيسة والدير و«تحت السنديانة» إلى دور جديد في حياتها.

وقد أنشئت مدرسة في لبنان، على غرار مدرسة روما، أو على الأقل قريبة منها، لأن متخرجي المدرسة المارونية في روما، لم يسدّوا الفراغ. فكانت قمة ما بلغته جهود الذين نفخوا في التعليم روحًا جديدة، بتأثير المدرسة المارونية في روما، إنشاء مدرسة عين ورقة (عام ١٧٨٩م)، التي عمل على تأسيسها المطران يوسف أسطفان (توفي عام ١٨٢٠م). يقول فؤاد أفرام البستاني، عن عين ورقة:

«فمن الطبيعي إذًا أن يفكر بعض العائدين منهم [من متخرجي المدرسة المارونية في روما]، أن يفكروا بإنشاء مدرسة كبرى على غرار مدرسة رومه، ويكون ذلك في عين ورقة من مقاطعة كسروان سنة ١٧٨٩، سنة الثورة الفرنسية وسنة تولّي الأمير بشير حكم لبنان.

«قامت عين ورقة دينية الأسس ثانوية البرامج، ولكنها لم تلبث أن توّجت هذه

الدروس بفروع من التعليم الجامعي كالمنطق والفلسفة واللاهوت النظري والأدبي، على غرار جامعات ذلك العصر، مع تدريسها أربع لغات: العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية».

وشهد القرن التاسع عشر قدوم المبشرين لفتح المدارس. ولعلّ هذا، كان هو التحدّي، الذي أدّى إلى فتح مدارس وطنية.

ففي أوائل القرن التاسع عشر، جاءت لبنان فئتان من المبشرين، لم تلبثا أن أخذتا على عاتقيهما إنشاء المدارس في البلاد. والفئتان هما، البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبعثات التبشيرية الإنجيلية (البروتستانتية). وكانت الأولى فرنسية الأصل، أما الثانية فكانت في أغلبها أميركية؛ وإن كان ثمة مشاركة محدودة، للمؤسسات التبشيرية البريطانية. وتعددت المدارس في لبنان، وانتهى الأمر بإنشاء مدرستين ثانويتين، في عبيه (للأميركان)، وفي غزير (لليسوعيين). ثم توّجت كل من هاتين الفئتين جهودها في التعليم بإنشاء الكلية السورية الإنجيلية، عام ١٨٦٦م (وهي الجامعة الأميركية في بيروت اليوم)، وكلية القديس يوسف عام ١٨٧٥م (وهي جامعة القديس يوسف اليوم).

وقد أقبل الطلاب على هذه المعاهد، يتلقون فيها العلوم الحديثة، من فيزياء وكيمياء ورياضيات وفلك (ودروس الطب في الجامعتين) واللغات القديمة والحديثة. ولسنا هنا في معرض التحدث عن هذه المدارس وآثارها في الحياة الفكرية في لبنان، ولكننا نودّ أن نلفت إلى أمرين هامين:

أولهما أن ميزة الانفتاح التي عرفت عن اللبناني ورغبته في أن يأخذ الحكمة والمعرفة من أي جهة جاءت، بدت واضحة في إقباله على التعلّم.

والأمر الثاني، وهم الأهم، هو أن الفئات المختلفة، التي يتكون منها لبنان، أخذت هي نفسها إنشاء المدارس اللبنانية، رغبة منها في الحفاظ على ذاتيتها وشخصيتها. ومن هنا، كان هذا الإقبال على فتح المدارس الخاصة بأبناء البلاد، سواء أكان الذين قاموا على تأسيسها أفرادًا أم جمعيات أم مؤسسات دينية.

وإذا كان المقصود بكلمة وطنية هو مدرسة لجميع أصناف التلاميذ، فالمدرسة الوطنية، التي أنشأها المعلم بطرس البستاني، عام ١٨٦٣ م، في بيروت، هي النموذج لذلك. على أن لفظ وطنية، قد يعني ان جماعة من أبناء الوطن هم الذين أنشأوا المؤسسة المذكورة، ولكننا، وفي المقام نفسه، نلاحظ أن المدارس في لبنان كانت طائفية. وهنا نذكر المدرسة البستانية أولاً، التي كانت: «أفضل مؤسسات المعلم بطرس البستاني الوطنية، وأخلص مآتيه في سبيل اتحاد أبناء بلاده. شاهد ما أدت اليه المنازعات والمشاحنات بين الطوائف من مجازر سنة الستين، فابتدأ بنشر ندائه الحار في «نفير سورية». ثم أدرك أنه من الواجب الابتداء بزرع بذور المحبة والوئام

في أفئدة صغيرة طاهرة، في أفئدة الأطفال، فتنمو بنمائها، ويجني المستقبل ثمارها اليانعة. فأسس سنة ١٨٦٣ مدرسته الوطنية، وهي في طليعة المدارس العالية في لبنان وسورية. وقُبل فيها الطلبة من جميع الطوائف والمذاهب، فتقاطروا اليها من كل الجهات. فكان يدرس فيها أبناء سورية ولبنان الى جنب أبناء مصر، والآستانة واليونان، والعراق، وإيران. فيتعلمون اللغات العربية والانكليزية والافرنسية على مشاهير ذاك العصر. وكان المعلم بطرس يتولى رئاستها بحزم وبُعد نظر، ويعلّم فيها صفًا باللغة الانكليزية، ويخطب في التلاميذ مرتين في الاسبوع يحثهم على التقوى والفضيلة ومكارم الأخلاق. وكان أيام الآحاد والأعياد يرسل كل فئة من التلاميذ النصارى مع معلم الى كنيسة طائفتها فنالت المدرسة نجاحاً باهراً، واشتهر العدد الكبير من تلامذتها في الأدب العربي، وإحراز المناصب العالية في الادارة والسياسة. وقد كافأته الدولة العثمانية بوسام على انشائها، وكان الولاة يزورونها مرات شاكرين مشجعين».

ولقد تغلبت النزعة الطائفية على المدرسة اللبنانية الحديثة. فقد أرادت كل فئة أن يكون لها معهد أو أكثر خاص بها، يربي النشء ويعلمه، فلا يلجأ الى مدرسة تبشيرية أجنبية، ولو كانت المؤسسة القائمة عليها من أتباع تلك الطائفة. وهذا ينطبق بشكل خاص على المدارس التبشيرية الكاثوليكية.

ونعدّد، فيما يلي، المدارس الطائفية الحديثة، متّبعين بقدر الإمكان، ترتيبها التاريخي. وأول مدرسة طائفية، حديثة كانت المدرسة الداودية، في عبيه، التي فتحت أبوابها سنة ١٨٦٢: «وهي المدرسة الأولى والوحيدة التي عرفت باسم الدروز، تأسست سنة ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٢ م في مدة متصرف لبنان الأول داود باشا. وقد سميت باسمه لأنه هو الذي اعتنى في إنشائها، تقريباً للدروز الى العلم، لأنهم كانوا خارجين من ميدان قتال وموسومين بالجهل.

«وجمعت الأوقاف المعروفة باسم «حسنة الدروز» وباسم الشيخ أحمد أمين الدين التي كانت قبلاً بيد مشايخ العقل، يوزعون ريعها على الفقراء والعقال، فجعلت رأس مال المدرسة، وعيّن راتب التلميذ السنوي ثمانماية غرش».

ومع أن هذه المدرسة كانت خاصة، فقد كان في نظام إدارتها، أن يتولى رئاستها قائمقام المنطقة، وهو درزي.

«وعهدت ادارة المدرسة في أول الأمر الى لجنة مؤلفة من القائمقام وشيخي العقل ووكيل الطائفة. وبقيت هكذا الى سنة ١٢٩٦ هـ/ ١٨٧٨ م إذ صار تعديل في نظام المدرسة ووُضع لها نظام آخر في السنة المذكورة نفسها. ونقلت ادارتها الى عمدة من وجوه الطائفة وأعيانها، عددها اثنا عشر ينتخبون على طريقة هي: أن يدعو القائمقام لا أقل من مئة وخمسين شخصاً من أعيان ووجوه الطائفة، فينتخبون اثني عشر شخصاً. والاثنا عشر (أي العمدة) ينتخبون رئيساً لهم منهم. وقد جرت العادة أن

ينتخبوا القائمقام في جملة الاثني عشر، فيتفقون على انتخابه رئيساً للعمدة، وذلك لغاية المحافظة على المدرسة وأوقافها بما يكون بيده من سلطة الحكومة، فيكون أقدر على المحافظة من غيره. وهذا كان صواباً لولا ان الاختبار أظهر خطأه، لأن تبدل القائمقام بتبدل السياسة أو تبدل السياسة بتبدل القائمقام قد أضر بالمدرسة فجعلها تتقلّب مع السياسة ادارة وتعليماً كما هو معروف. وقد تولّى رئاستها للمرة الأولى الأمير ملحم ارسلان فبقيت تحت رئاسته مدة قائمقاميته التي دامت ثلاث عشرة سنة. وتلاه الامير مصطفى ارسلان فترأسها مدة تسع سنوات. ثم انتقلت القائمقامية الى نسيب بك جنبلاط فانتقلت معها اليه رئاسة المدرسة مدة تسع سنوات من سنة ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨١ م الى سنة ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩٠ م، ثم عاد الامير مصطفى فترأسها عشر سنوات أيضاً الى سنة ١٣١٨ هـ/ ١٩٠٠ م».

ومع أن المدرسة الداودية كانت درزية، فإن المعلمين فيها، جاؤوا من طوائف أخرى، فقد:

«كان أول اساتذة المدرسة المعلم أسعد الشدودي، الذي كان يدرس فيها الرياضيات واللغتين العربية والانكليزية. ثم جاءها المعلم فضل الله الغرزوزي، فزاد على ما كان يعلّمه الاستاذ الشدودي علم الفرائض. وغير هذين سعدالله البستاني وغطاس البعبداتي وفاضل الخوري من بحمدون، وأحمد حسن سليم من جباع، وعلي بك ناصر الدين ونجله أمين بك في عهدها الأخير».

والمدرسة المارونية الكبرى أنشئت في بيروت، وهي مدرسة الحكمة، التي أنشأها المطران يوسف الدبس (توفي عام ١٩٠٧ م) الذي كان نابغة عصره، في العلوم العقلية والنقلية. وقد لقي الكثير من العراقيل والعقبات، لكنه ذلّل ذلك كله، بحكمته وأناته وصبره ومثابرته. وقد شرع ببناء المدرسة سنة ١٨٧٤ م، وفتحت المدرسة أبوابها، لقبول الطلاب، غرة تشرين الثاني، عام ١٨٧٥ م، وقبلت ٧٢ طالباً. وبلغ عدد طلابها عام ١٨٨٢ م مئتين وثمانين طالبا، كان يعنى بهم ثلاثون معلماً. وكانت تعلّم العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية والتركية والحساب ومسك الدفاتر والجغرافية والتاريخ والفلسفة وعلم الطبيعة والفقه. وفي سنة ١٩١٤ م، بلغ عدد طلابها ٣٨٤، بين داخلي وخارجي.

وقد أشرنا، من قبل، الى عناية الشيعة بتجديد مدارسهم، في تلك الفترة.. من القرن التاسع عشر، مثل: مدرسة حنويه (١٨٧٨ م) ومدرسة بنت جبيل (١٨٨١ م) ومدرسة النبطية الحديثة (١٨٨٢ م) والمدرسة الحميدية (١٨٩٢ م) ومدارس جمعية المقاصد الاسلامية في صيدا (١٨٩٧ م) والمدرسة النورية في النبطية الفوقا.

وكما كانت مدرسة البلمند المدرسة الرئيسية لطائفة الروم الارثوذكس، فقد كانت مدرسة دير المخلص الرئيسية لطائفة الروم الكاثوليك، وقد اهتمت هذه الطائفة

بمدرستها الرئيسية، ذلك ان التعليم الديني العالي، كان مقتصراً، بادىء ذي بدء، على مدرسة عين تراز، التي أنشئت سنة ١٨١١ م، لكنها، لأسباب محلية وسياسية، لم تفتح أبوابها، إلا سنة ١٨٢١ م، وظلت على ذلك الى سنة ١٨٦٠ م. ولما أُعيد فتحها، رؤي أنه من المناسب، إنشاء مدرسة يتلقى فيها الرهبان العلوم اللاهوتية العالية، اللازمة لرجال الدين. وقد افتتحت مدرسة دير المخلص سنة ١٨٦٧ م، ثم توسعت، بعد ذلك، بحيث أصبحت مناهجها تنطبق على حاجة العصر ومناهجه.

كان الفوج يقيم في المدرسة نحو ست سنوات، وكان الطلاب يدرسون الصرف والنحو والشعر والبيان، في كتب الشيخ ناصيف اليازجي، وكذلك، كانوا يتعلمون الحساب، في كتاب «كشف الحجاب»، لبطرس البستاني، والمنطق والفلسفة واللاهوت النظري واللاهوت الأدبي، في كتب منقولة عن اللغات الأجنبية. وكانت اللغة الفرنسية واللغة اللاتينية واللغة اليونانية تعلّم فيها. وقد أُضيفت العلوم المصرية، في السنوات الأخيرة، من القرن الماضي.

وفي بيروت أُنشئت المدرسة البطريركية، سنة ١٨٦٥ م، على يد غبطة غريغوريوس يوسف البطريرك الأنطاكي والأوروشليمي وسائر المشرق. وقد كان فيها، في سنة ١٨٨٢ م، نحو مئتي طالب، وفيها ١٢ معلماً. وكانت تدرس فيها العربية بفنونها، والفرنسية والانكليزية والتركية والرياضيات وعلم الطبيعة، وغير ذلك.

كانت أول مدرسة حديثة للطائفة الاسلامية في بيروت، هي التي أنشأها حسن البنا سنة ١٨٦٣ م (على وجه التقريب)، وقد سمّاها صاحبها المدرسة الرشديّة، قبل أن تنشئ الدولة العثمانية مدارسها المعروفة بهذا الاسم. وكانت تعلّم اللغة العربية والخط والحساب والدروس الدينية. وكان من مدرسيها الشيخ إبراهيم الأحدب.

وفي سنة ١٨٩٥ م افتتح الشيخ أحمد عباس الأزهري مدرسته (الخاصة)، التي سمّاها «العثمانية» (والتي أصبحت، فيما بعد، تسمى «الكلية العلمية الإسلامية»)، والتي عمّرت زهاء عشرين عاماً. وقد: «اتسعت دائرتها وجمعت داخل محيطها أقسام التعليم الثلاثية الابتدائي والاستعدادي والعلمي ـ عدا روضة الأطفال. وبهذه صارت كلية وأخرجت للأمة من الشباب الناهض الذي انطلق يؤدي ما وجب عليه لأمته من خدمة المدنية في فروع العلم التي حصّلها في الكلية الاسلامية».

ولم يكن الشيخ أحمد عباس معلماً فحسب، لكنه كان يعنى بالقضايا الاصلاحية العامة.

فمن: «الأماني الاصلاحية التي كانت تشغل قلب الرئيس التوفيق بين مقتضيات العلوم الحديثة ومقررات العلوم الدينية. كان يزعجه ما يرى من تباين في الرأي بين بعض تلامذة المدارس العصرية وبعض طلبة العلوم الدينية لجهل كل من الفئتين بعلم الفئة الأخرى، وخاف على الجهود المبذولة في سبيل نهضة الأمة أن يحيط بها هذا

الخلاف أو يحبطها الى عكس المقصود منها. فهمّ بتلافي الأمر فوسّع قدر ما أمكن دروس العلوم الدينية من فقه وتوحيد وأضاف إليها درساً في علم الأصول، ثم حاول إنشاء دائرة خاصة بمريدي الاختصاص في العلوم الدينية شرط أن لا يقبل فيها إلا من اضطلع بالعلوم العصرية».

إلا أن أهم ما جرى في تاريخ التعليم، بالنسبة للطائفة الاسلامية السنية، في لبنان، في القرن التاسع عشر، هو تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية، سنة ١٨٧٨ م، في بيروت وصيدا، وامتداد عملها، بعد ذلك، الى طرابلس، ثم الى أماكن أخرى.

إن الدعوة الى إنشاء مثل هذه الجمعية، للعناية بالتعليم، عرفتها أصلاً أوساط بيروت لمدة ليست بالقصيرة. وأخيراً، اجتمعت الأسباب، التي أدت الى تأسيس الجمعية، فظهرت الى الوجود سنة ١٨٧٨ م، وبدأت نشاطها حالاً. وكانت باكورة أعمالها افتتاح مدرسة للبنات، في السنة نفسها (١٨٧٨ م) وافتتاح مدرسة ثانية للبنات، في السنة التالية. وقد كان في المدرستين نحو ٤٣٠ طالبة، وقت الافتتاح، فارتفع العدد الى ٥٣٦ طالبة، في السنتين التاليتين. وجاء حالاً، دور افتتاح مدارس للصبيان، وبدىء العمل بتأسيس مدرستين. واتسع نطاق الأعمال التعليمية، التي قامت بها جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية، الى خارج بيروت. ونحن، لسنا بمعرض التأريخ للجمعية أو لمدارسها، ولذلك، فإننا نكتفي بهذه الاشارة العامة. إلا أنه لا يسعنا إلا التذكير، بأن جمعية المقاصد لقيت بعض الصعوبات، في أيام السلطان عبد الحميد، وحيل بينها وبين النشاط، حتى سنة ١٩٠٨ م، حيث جدّدت وجودها وعملها.

على أنه يجب أن نشير الى أمرين يتعلقان بالأسباب التي حملت مفكري المسلمين، وأهل الهمة فيهم، على افتتاح هذه المدارس.

الأمر الأول يتصل برغبة القوم في أن تكون للطائفة مدارس خاصة. ذلك بأن المدارس الرسمية، كانت تعتبر مدارس غير وطنية، ولذلك، فإن القوم لم يجدوا فيها الحل البديل للمدارس الأجنبية، التي افتتحت في البلاد. وفي سبيل توضيح هذه المسألة بالذات، نضع الفقرة التالية بين أيدي القراء: «وأخيراً لا بد من الاشارة الى أنه حين قيام جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت بوضع نظامها التربوي الذي ستسلكه في مدارسها كافة كان من الطبيعي أن تتأثر بمصدرين: المصدر الأول هو المدارس الرسمية التركية التي كانت سائدة آنذاك والتي تعتبر مدارس اسلامية، بالإضافة الى كونها تركية رسمية. والمصدر الثاني هو المدارس التبشيرية الأجنبية والوطنية التي تعتبر مسيحية ولكنها متقدمة ومتطورة علمياً وتربوياً. ومن الصعب الحكم في أي من المصدرين كان له التأثير الأكبر على اتجاهاتها التربوية، ولكنه من المؤكد أن الجمعية بدأت منذ ذلك الحين محاولات تدريجية دؤوبة لتفلت من بعض

جوانب المنهج التركي ولإضافة مواد وأساليب «عصرية» مقتبسة من المدارس التبشيرية».

أما الأمر الثاني، فمرتبط بهذا الاهتمام الذي أظهره القوم في العناية بتعليم البنات. وفي كلمة لحسين بيهم، نشرت في «ثمرات الفنون»، لعام ١٢٩٦ هـ/ ١٨٧٩ م، جاءت العبارة التالية: «فإذا كانت أيها السادة هذه حالة الذكور الذين يوجد عندهم بعض وسائط تعليمية جزئية، فكيف حالة الإناث اللواتي وسائطهن أقل والجهل بالتالي وبالواقع عندهن أعمّ مع أن أمر تعليمهن ضروري لأنهن المربيات الأول للأولاد وعليهن مناط التهذيب، فإنه لا أمة بلا رجال ولا رجال بلا عائلة ولا عائلة بلا مرب وهذا المربي هو الأم التي إن لم تكن متعلمة وهي صبية لا يمكنها أن تربي أولادها وبالتالي لا تتهذّب الأمّة».

قد لقيت جمعية المقاصد بعض الصعوبات، في أيام السلطان عبد الحميد، وحيل بينها وبين التوسع، حتى سنة ١٩٠٨ م حين جددت وجودها، ووسعت نشاطها.

وفي دراسة لشاهين مكاريوس، نشرت في المقتطف سنة ١٨٨٢ م، تناول صاحبها التعليم في سوريا، جاء فيها أنه كان في بيروت وحدها ٥٨ مدرسة للصبيان و٣٥ مدرسة للبنات. وكان يعمل في مدارس الصبيان ٢٩٠ معلماً، يُعنَون بنحو ٦٣٠٠ تلميذ، وكان عدد المعلمات مئتي معلمة، يدرّسن نحو ٥٤٨٠ تلميذة.

أما وقد ذكرنا أهم المدارس الوطنية، فجدير بنا أن نعود فنذكّر أنفسنا بأن كلا من الفئات، التي يتكوّن منها لبنان، رأت أنه لزاماً عليها أن يكون تثقيف نشئها، وتعليمه، والقيام على أمور تربيته، بأيدي أبناء الفئة نفسها. وبذلك تتمكن من الحفاظ على ذاتيتها ومقوّمات شخصيتها، وتعمل ذلك في حرية تامة.

ولأن هذه المدارس أُنشئت في القرن التاسع عشر، أي بعد أن كان لبنان قد تعرّف الى المدرسة الحديثة، فإنه توجّب عليها ـ على كل مدرسة (وكل فئة) ـ أن تكون مدرسة حديثة. بل كان عليها أن تحتوي مناهجها على العلوم الحديثة ـ الكيمياء والفيزياء والرياضيات والجغرافية، وعلى التاريخ القومي أو الوطني. وكان عليها أن يكون في نطاق تدريسها اللغات الحيّة الحديثة. ومن هنا، كانت اللغات الانكليزية والفرنسية والايطالية تعلّم في كثير من هذه المدارس. وتعليم التركية يرجع الى أنها كانت لغة الدولة.

ولما كانت ثمة مدارس تجمع، في التعليم، بين الثقافة الدينية والثقافة العصرية، فقد توجّب على هذه المدارس أن تُعنى باللغات اللازمة للدراسات الدينية، ومن هنا، نجد أن بعض هذه المؤسسات ظلت تُعنى بالسريانية، وبعضها أضافت اليونانية أو اللاتينية الى اللغات التي تعلمها.

ونحن إذا نظرنا الى هذه المدارس، من حيث ارتباطها بالشخصية اللبنانية،

وجدنا أنها كانت منفتحة على العالم الحديث، وتمثل الرغبة في حرية العمل. وكان التعاون قائماً في العمل التعليمي. فالشيخ عباس الأزهري درّس في المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني، ودرّس في المدرسة الداودية الدرزية، والعلاّمة يوسف الأسير كان يدرّس في مدرسة الحكمة المارونية.

وهكذا كانت المدرسة دوماً عنواناً على الشخصية اللبنانية. والمدرسة، في عصر النهضة الحديثة، كانت أشد التصاقاً بهذه الشخصية.

٩ ـ الشيخ أحمد عباس الأزهري

قام الأزهر، خلال القرون الطويلة، بدور هام في سبيل الحفاظ على العلوم الإسلامية والعلوم المساعدة لها، مثل اللغة والأدب. فتاريخه طويل حافل، وتلاميذه كانوا يأتون إليه من جميع انحاء العالم الاسلامي، وخصوصاً من البلاد والجماعات الاسلامية، التي تقوم الى الشرق من مصر.

وقصة الازهر ودوره العلمي معروفان واضحان، فضلاً عن أن الأزهر، كانت له وقفات وطنية وقومية هامة في تاريخه. لهذا، ومع أن الأزهر، يستقطب طلاباً يفدون اليه من كل حدب وصوب، فإن على المرء ان يتذكر، أن الحاجة قد أدت الى قيام جامعين معاصرين له، من حيث الإنشاء، وموازيين له، من حيث الوظيفة، هما: الزيتونة بتونس والقرويين بفاس.

لكن الذي يعنينا مباشرة، هو الأزهر بحد ذاته. فقد كان الطلاب من لبنان يذهبون اليه لتلقي العلم الشريف. وكان هؤلاء، مع الطلاب القادمين الى الأزهر من فلسطين وسوريا، يسمون الشوام، نسبة الى بلاد الشام. ولما كان الأزهر، من حيث طلابه وحتى شيوخه وأساتذته، مقسماً الى أروقة وحارات، فقد كان الطلاب «الشاميون»، يُسجلون في رواق الشام، وكان الكثيرون منهم، يقيمون في رواقهم. وقد أخرج الدكتور مصطفى رمضان أن عدد الطلاب الشاميين، أي الذين كانوا في رواق الشام، سنة ١٨٨٦ ـ ١٨٨٧ م بلغ مئة وواحداً وثلاثين طالباً، وأن هذا العدد ارتفع في سنة ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤ م الى مئتين واثنين وعشرين طالباً، كان منهم سبعة وثلاثون من لبنان.

لكن اللبنانيين كانوا، ولا شك، يذهبون الى الازهر قبل سنة ١٨٨٦ م، إلا أنني أحسب أن ضبط الأمور، نظاماً وتسجيلاً، لم يكن مألوفاً، قبل ذلك. وقد عنيت، قبل مدة، بتتبع أخبار اللبنانيين، الذين تعلموا، ثم تخرجوا في الأزهر، في القرن التاسع عشر، فوجدت ما يزيد على عشرين منهم. ولست أدّعي أنني وقعت على جميع الأسماء. وقد مرّ بي اسم رجل واحد فقط، هو الشيخ يوسف الذوق الطرابلسي، الذي كان من طلاب الازهر ومتخرجيه، في القرن الثامن عشر.

والذي نعرفه، ان خريجي الازهر، كانوا مُعدين لتولي مناصب قضائية شرعية، على اختلاف درجاتها، أو للقيام بالتدريس في المدارس القائمة في بلادهم، أو في

بلاد أخرى، إذا شاؤوا ذلك. فماذا كان نصيب خريجي الأزهر من اللبنانيين؟

إذا عدنا بالذاكرة الى الوضع في لبنان، في القرن التاسع عشر، والنصف الثاني منه بشكل خاص، وما اتسم به من تطورات كبيرة ومجالات للعمل واسعة، أدركنا ان الازهريين واكبوا هذا الركب، وعملوا حتى خارج المدارس. ولكن قلة منهم بقيت في مصر، وآثرت أن تعمل في الازهر نفسه. ومن هؤلاء الشيخ عبد القادر (الثاني) الرافعي، الذي ظلّ يعمل هناك مدرساً ثم أستاذاً، ثم تولى مشيخة رواق الشام؛ وأخيراً، لما توفي الشيخ محمد عبده، وكان مفتياً للديارالمصرية، عيّن الشيخ عبد القادر خلفاً له. لكن المنية عاجلته، فلم يلبث بالمنصب سوى ثلاثة أيام. وقد ظل الشيخ حسين منقارة، الطرابلسي أيضاً، في الازهر، الى نهاية حياته استاذاً وشيخاً لرواق الشام.

والتحق بعض هؤلاء الخريجين بوظائف الدولة العثمانية، بحسب اختصاصاتهم، وخارج لبنان. فكان لا بد أن يلفت كثيرون منهم، أو بعضهم على الاقل، نظر رجال الدولة، بسبب نبوغهم أو تفوقهم، فحاولت الحكومة ان تفيد من علمهم ومعرفتهم.

وقد رفض البعض الآخر عروضاً للعمل في خدمة الدولة، وآثر هؤلاء العودة الى بلادهم للعمل فيها. فمن الذين قبلوا، مثلاً، الشيخ عبد الحميد الرافعي، الذي انتقل الى العاصمة العثمانية، ودخل مكتب القضاة، وحاز على الشهادة الممتازة من المكتب المذكور. وعيّن في نيابات القضاء في حماة فاللاذقية فالقدس فالبصرة فالمدينة المنوّرة فحلب فإزمير. وقد توفي في هذه المدينة الأخيرة. ومنهم الشيخ يوسف الذوق والشيخ مصطفى الرافعي والشيخ محمد الجسر أبو الأحوال والشيخ يوسف الاسير والشيخ عبدالله الصوفي. لكن إقامتهم في الخارج كانت على العموم قصيرة، إلا الشيخ الصوفي، الذي تولى مناصب قضائية في نابلس وعكا وصنعاء وحلب ودمشق.

لكن من الملاحظ، على الأقل بين الاسماء، التي حصلت عليها، أن بيروت لم ترسل الى الأزهر العدد الذي يتناسب مع عدد سكانها، وأن طرابلس، كان الذاهبون منها، الى الازهر، كثيرين. ويخيّل إليّ أن الأعمال المنوّعة في التجارة وفي وظائف الدولة في بيروت، خصوصاً بعد أن أصبحت هذه عاصمة لولاية (سنة ١٨٨٨ م)، كانت تفتح أمام الشباب مجالات واسعة للعمل. ثم لعلّ المدارس والكليات، التي قامت في المدينة، في تلك الفترة، كان تغري الكثيرين بالالتحاق بها.

وكان، في بيروت، مجالان هامان لهؤلاء المتخرجين:

الأول هو هذه المدارس الحديثة، التي قامت في المدينة، في النصف الثاني، من القرن التاسع عشر. فمدارس جمعية المقاصد الاسلامية كانت بحاجة الى مدرسين. وحتى مدرسة الحكمة والكلية السورية الانجيلية (الجامعة الاميركية اليوم) كان فيهما مجال للعمل. وهذا الشيخ يوسف الأسير، مثلاً، يدرّس في هاتين المؤسستين. ثم قامت الكلية العلمية الاسلامية.

والمجال الثاني هو الصحافة. فقد ظهرت، على التوالي، بين سنتي ١٨٥٨ و١٨٧٦م، الصحف التالية: «حديقة الأخبار» و«نفير سوريا» و«البشير» و«ثمرات الفنون» و«لسان الحال». كما أنشئت، في الفترة نفسها تقريباً، المجلات التالية: «العلوم» و«الجنان» و«المقتطف» و«الصفاء» و«المشرق». وهذه الصحف والمجلات، كانت بحاجة الى كتّاب ومحررين ومصححين. وهذا كان مجالاً كبيراً للعمل. فالشيخ يوسف الأسير، مثلاً، لم يقتصر عمله الصحافي على لبنان، بل انه كان يعمل في جريدة «الجوائب»، التي أنشأها أحمد فارس الشدياق، في استانبول.

هذه المقدمة، التي تبدو طويلة، كانت ضرورية، لفهم الدور الذي قام به الشيخ أحمد عباس الأزهري. إن هذا يعطينا صورة عن البيئة التي عمل فيها الرجل. فالشيخ أحمد عباس بيروتي المولد (سنة ١٨٥٣ م)؛ وقد تلقى علومه الابتدائية في بيروت، وانتقل الى الأزهر، وعاد وقد أضاف «الأزهري» لقباً له. وبعد عودته، عمل في التعليم. والذي نعرفه، هو أن الرجل كان يعمل في المدرسة «السلطانية» في بيروت، سنة ١٨٨٥ م. في ذلك الوقت، كان الشيخ محمد عبده في هذه المدينة. ذلك بأنه لما حكم عليه بالنفي من مصر، بسبب علاقته بثورة أحمد عرابي باشا (١٨٨٢ م)، اختار بيروت مكاناً لإقامته. وذهب، بعض الوقت، الى باريس، ليشترك.. مع الأفغاني، في إصدار «العروة الوثقى». فلما توقفت هذه عن الصدور، عاد الشيخ محمد عبده الى بيروت. ودُعي لإلقاء الدروس في المدرسة السلطانية، فنفخ في المدرسين والطلاب روحاً جديدة، بحيث أصبحت المدرسة وكأن حياة جديدة قد دبّت فيها. فبعد أن كان الطلاب يعتبرونها: «حبساً يقضون عامهم في توقع الانفراج وتمني الانطلاق... صارت المدرسة وكأنها غير المدرسة، وأصبح علمها كأنه غير علمها في مدة من الزمن لم يألف التصور حصول ذلك في مثلها».

يقول عبد الباسط فتح الله: «غير أن إرادة الله الانتقامية لم تشأ أن ينعقد لعمل الشيخ محمد عبده الثمرة المرجوة، إذ أن ازدهار المدرسة وفلاحها أشعل نار الحسد في قلوب جماعة من رجال «العسكرية» على مديرها، الذي صار له بفضل الأستاذ وحكمة تدبيره من النبالة ولسان الصدق في الناس، ما لم يرضه له أولئك الأوغاد، فسعوا بالمدير فبدلوه بآخر... فجاء خلفه وغيّر وبدّل واضطرب نظام المدرسة فضلّت نهجها القويم وغايتها المثلى... وفارقها معناها المرسوم فيما تقدم، فاستقال الاستاذ الشيخ محمد عبده».

وقد كان الشيخ أحمد عباس الأزهري مدير المدرسة، الذي تعاون الشيخ محمد عبده معه.

ولسنا ندري تماماً، كم ظلّ الأزهري مديراً للمدرسة، ولكن الذي نعرفه أن المدرسة، لما انضمّ محمد عبده اليها، كانت في بدء سنتها الثالثة. والذي نعرفه، أن

شخصية الأزهري القوية، انتهت به الى إنشاء مدرسة خاصة به. وكان ذلك سنة ١٨٩٥ م، أي بعد نحو عشر سنوات من التخلي عن السلطانية، او إقصائه عنها. وقد سمّى مدرسته «المدرسة العثمانية»، ثم غيّر الاسم، وأطلق عليها «الكلية العلمية الإسلامية». وقد عمّرت هذه المدرسة زهاء عشرين سنة.

وكان للأزهري، في هذه المدرسة، في ذلك الوقت المتأخر من القرن التاسع عشر، منهاج حديث، بمعنى أنه كان يعلّم فيها مبادىء العلوم واللغات الأجنبية، شأن المدارس العديدة، التي أُسست في بيروت في ذلك الوقت.

فالمدرسة اهتمت بالعلوم الدينية واللغة العربية، لكنها أضافت ما ذكر. فقد كانت اللغتان التركية والفرنسية تعلَّمَان فيها. وفي السنوات الأخيرة، أضيفت اللغة الانكليزية. وكانت فيها روضة للأطفال، وثلاثة أقسام، الابتدائي والاستعدادي والعلمي.

وقد قال عبد الباسط فتح الله، عن مدرسة الأزهري، ما يلي: «وبهذا صارت (هذه المؤسسة) كلية وأخرجت للأمة من الشباب الناهض الذي انطلق يؤدي ما وجب عليه لأمته في خدمة المدنية في فروع العلم التي حصّلها في الكلية الإسلامية».

وليس في قوله هذا مبالغة. فالمدرسة أو الكلية استمرت حتى الحرب العالمية الاولى، ولا يزال في بيروت جماعة من أهل العلم والأعمال ممن تخرجوا في تلك المؤسسة. ولعلّ عناية الشيخ أحمد عباس الأزهري بالتربية الخلقية، بالنسبة للطلاب كانت، أهم من المعرفة، التي كان الطلاب يحصلون عليها. إذ كان يُعنى بهم، ويتابع تصرفاتهم، خصوصاً الطلاب الداخليين منهم. وقد توفي أحمد عباس الأزهري سنة ١٩٢٧ م.

ولا بد من التذكير، بأن الشيخ أحمد عباس الأزهري، الذي كان عالماً عاملاً قوي الشخصية، ما كان اهتمامه ليقتصر على إدارة مدرسة خاصة، وتخريج طلاب صالحين منها. فهو الذي كان يعيش في بيروت، مدينة النشاط والحركة والمحاولات الاصلاحية، قد عُني بالقضايا العامة أيضاً.

لقد كان يربط بين المدرسة والمجتمع، فيرى مشكلات الثاني، فيحاول وضع الحلول لها، عن طريق الاولى. ويقول عنه عبد الباسط فتح الله:

«فمن الأماني الإصلاحية التي كانت تشغل قلب الرئيس [الشيخ أحمد عباس] التوفيق بين مقتضيات العلوم الحديثة ومقررات العلوم الدينية. كان يزعجه ما يرى من تباين في الرأي بين بعض تلامذة المدارس العصرية وبعض طلبة العلوم الدينية، لجهل كل من الفئتين بعلم الفئة الأخرى. وخاف على الجهود المبذولة في سبيل نهضة الأمة أن يحيط هذا الخلاف أو يحبطها الى عكس المقصود منها. فهمّ بتلافي الأمر، فوسع قدر ما أمكن دروس العلوم الدينية من فقه وتوحيد، وأضاف اليها درساً في علم

الأصول، ثم حاول إنشاء دائرة خاصة بمريدي الاختصاص في العلوم الدينية فقط شرط أن لا يقبل فيها إلا من اضطلع بالعلوم العصرية».

ومثل هذا الرجل الذي علّم، ودرّس، وبَرْمج، وحافظ على الأخلاق، وأثّر في الناس، وخلّف جيلاً من المتعلمين، وكان له حظ في تقدّم بيروت، ولكن ليس له، في بيروت، أثر يبيّن فضله ويخلده. ولا يذكّر الناس بهذه الأمثولة الطيبة سوى شارع صغير، تقابله وأنت تنحدر من تلة الخياط شرقاً، في اتجاه شارع مار الياس. وقد كتب اسمه «شارع الشيخ عباس». وأحسب أن هذا العالم العامل المربي الكبير، يجب ان يخلّد اسمه بأكثر من هذا، وأن يعطى اسمه كاملاً ـ لعل الناس، عندها يعرفون أن المقصود هو الشيخ أحمد عباس الأزهري.

١٠ ـ الطريق بين بيروت ودمشق

عُرفت بيروت، في منتصف القرن التاسع عشر، بأنها أنسب وأصلح ميناء على الساحل الممتد من غزة الى الاسكندرونة. وكان يقطنها بين ٤٠ و٥٠ ألفاً من السكان. لكنها كانت تعاني المشاق في اتصالها بالداخل. إذ لم يكن ثمة سوى دواب النقل ـ الحمار والبغل والجمل ـ لتنقل الركاب والمتاجر الى دمشق مثلاً، حيث كان يقيم نحو من مئة ألف من السكان.

وأذكر أن جدي، كان يشير الى فلان أو علان على أنه كان «مكاراً» أو «مكارياً»، أي أنه كان يقوم بنقل البضائع من مكان الى مكان. ولا شك، أن انتقال الناس بهذه الطريقة، كان صعباً، وما أحسب أن نقل البضائع كان أسهل!.

فانتقال الناس على الدواب كانت فيه مشقة ـ ولكن يمكن للمسافر أن يستريح ـ إلا أن نقل البضائع كانت فيه صعوبة إضافية. ذلك أن الصناديق الكبيرة، والرزم التجارية البالغة الضخامة، كانت تفكك في بيروت، كي تنقل محتوياتها على ظهور الدواب. وكم كانت تتعرض البضائع للضياع أو للكسر (بسبب تعثر البغل مثلاً).

يضاف الى هذا، أن الطريق الجبلي، بين بيروت ودمشق، كان الثلج يكسو النقاط المرتفعة فيه، أياماً عديدة من الشتاء. (وعندها، كانت الدواب توضع في الاسطبل، ويأوي المكارة أو المكارية الى البيوت، يصطلون قرب النار).

وفي الأحوال العادية، كانت السفرة، من بيروت الى دمشق، تحتاج الى أربعة أيام ذهاباً، وإلى أربعة أخرى إياباً. ولكن السوّاح، الذين كانوا ينتقلون من بيروت الى دمشق، كانوا يحتاجون الى ثلاثة أيام، ذلك بأنهم، كانوا يعطون خيولاً قوية، ويدفعون أجراً يتناسب مع ذلك. وكان الطريق المتبع، غالباً، هو من بيروت الى دير القمر في اليوم الاول، وفي اليوم الثاني، كان السواح ينتقلون منها الى جب جنين، في البقاع الغربي. ويصرفون اليوم الثالث في طريقهم من هذه الأخيرة الى دمشق. وكان السوّاح غالباً ما يعودون عن طريق بعلبك، ولذلك، كانوا يحتاجون الى أربعة أيام في الطريق. والمحطات هي: الزبداني، بعلبك، زحلة.

لا تتوفر لدينا أيّ معلومات عن أجرة الدابة ـ بغلاً أو جملاً ـ في قيامها بنقل حمل من المتاع أو المتاجر، من بيروت الى دمشق. لكن لدينا نسخة عن اتفاقية، هي رسالة موجهة من شخص اسمه ميشيل مرجان الى كل سائح، يبيّن فيها ما يتوجّب على

هذا السائح دفعه، مقابل نقله من بيروت الى دمشق، وإعادته منها، بطريق بعلبك. وذلك المبلغ يساوي خمسة وعشرين فرنكاً، أي ما يعادل جنيهاً استرلينياً، لليوم الواحد.

وفما يلي نص الرسالة مترجمة الى العربية:

«أنا - ميشيل مرجان - أتعهد بأن أنقل السيد (-) من بيروت الى دمشق في أيام ثلاثة، وأن أعيده اليها في أربعة أيام مع التوقف في بعلبك بطريق العودة، وذلك مقابل خمسة وعشرين فرنكاً (أي جنيه واحد) لليوم الواحد. وأتعهد بتقديم خير الخيول التي يمكن الحصول عليها للسيد (-)، وأن أزوده بحاجاته من المواد الغذائية والفراش والخيمة والسكاكين والشوك والملاعق والأواني اللازمة والكراسي. وأتعهد للسيد (-) بأن أنزله في أفضل فندق في دمشق وأن أدفع عنه جميع نفقاته هناك، وفي أي مكان آخر في الطريق، ولا يترتب على السيد (-) أن يدفع أي نفقات اضافية قط».

ومع ذلك، فإن الكثيرين، كانوا يرون، أن دفع سبعة جنيهات أو مئة وخمسة وسبعين من الفرنكات للرحلة، هو أمر قد لا يستطيعه الكثيرون. ولسنا نعلم من يقترح على المسافرين أسلوباً يكلف من النفقات أقل من ذلك.

لكن الأسلوب الآخر لا يتهيأ إلا للذين يقيمون مدة طويلة في البلاد، ويكون لهم خيول يملكونها. وقد خلف فارلي، الذي كان كبير محاسبي البنك العثماني في بيروت، سنتي ١٨٥٦ و١٨٦٧ م، تقديراً دقيقاً لما كان ينفقه شخصان، يملكان الخيل، لمثل هذه الرحلة. فنفقات الطريق مع المواد الغذائية، للشخصين، تساوي ٤٢٠ قرشاً، بمعدل ستين قرشاً، في اليوم الواحد. والإقامة، في دمشق، في الفندق، لثلاث ليال، تكلف ٣٠٠ قرش، ونفقات الترجمان، وأجرة حصانه وثمن أكل الخيول ٥٤٠ قرشاً. فتكون نفقة الشخصين، لمثل هذه الرحلة، هي عشرة جنيهات ونصف الجنيه (مقابل أربعة عشر جنيهاً)، أي بتوفير جنيه وثلاثة أرباع الجنيه للشخص الواحد (فأجرة الفندق، للشخص الواحد، في دمشق، كانت خمسين قرشاً، لليوم الواحد).

على أن انتقال الاشخاص، ونقل البضائع، على ظهور الدواب، كان لا بد من أن يتبدلا. فإذا لم تقم الحكومة بذلك، وإذا كان أهل البلاد لا يملكون المؤهلات ولا المال، فهناك من كان يتطلع الى تغيير الحال، على أساس الكسب من مشروع كهذا. وقد نشرت جريدة «ديلي نيوز» اللندنية، في ٣ آذار/ مارس سنة ١٨٥٨ م رسالة من بيروت، مؤرخة في ١٦ شباط/ فبراير، أي بعد كتابتها بأسبوعين، أعلنت فيها، أن بيروت، الميناء الرئيسي في شرق المتوسط، ستتصل قريباً بدمشق بطريق عربات، وذلك بهمة ونشاط «برتوي»، وحذقه المالي، واهتمامه التجاري.

وهذا الرجل هو الكونت أدمون دو برتوي Perthui، أحد ضباط الاسطول الفرنسي المتقاعدين. كان برتوي يقيم في بيروت، وهو صاحب فكرة إنشاء طريق

عربات، بين دمشق وبيروت (وبهذه المناسبة، فاسم هذا الرجل أُطلق على شارع صغير في بيروت، يبدأ أمام مدخل الجامعة الاميركية قبالة المستشفى، ويدور مع خط الترام القديم، متجهاً نحو المدينة. ويصل الى شارع الداعوق. ولعل طوله لا يزيد على مئتي متر).

لقد طلب برتوي امتيازاً من الدولة العثمانية، ولاحق الطلب في استانبول، وأخيراً حصل عليه، في صيف ١٨٥٧ م. والامتياز يقضي بمنح شركة برتوي حق استثمار الطريق، بين بيروت ودمشق، لمدة خمسين سنة، على أن تتقاضى الدولة من العربات، على اختلاف أنواعها، رسوماً، لأنها ستفيد من الطريق. أما المكارة أو المكارية، فقد حوفظ على حقهم في استعمال الطريق، من دون ان يدفعوا أيّ رسوم. وباشرت الشركة، بعد تأمين ثلاثة ملايين ونصف المليون من الفرنكات، من رؤوس أموال من القطاع الخاص، العمل في الطريق، في اليوم الثالث من كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٥٩ م، إذ ضرب المعول الأول. وبعد أربع سنوات تماماً، وصلت الشحنة الاولى من البضائع المنقولة على عربات الى دمشق، وكان ذلك، في الثالث من كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٦٣ م.

قامت، بعد ذلك، خدمات بعربات الدلجانس، التي كانت تجرها ستة خيول أو بغال، وهذه كانت لنقل الركاب، كما وضعت الكارّات المختلفة لنقل البضائع. وكانت الشركة تستورد جميع حاجاتها، لإصلاح العربات وغيرها، من فرنسا. لكنها لم تلبث ان أنشأت، في بيروت، مصنعاً لصنع المسامير والبراغي وما إليها.

وأصبحت الرحلة، وطول الطريق من بيروت الى دمشق ١١١ كيلومتراً، تستغرق ثلاث عشرة ساعة. ولما انتظمت خدمات الدلجانس اليومية، كانت تلتقي في شتورا العربات الآتية من دمشق وتلك الآتية من بيروت.

على أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان عصر البخار والسفن التجارية والسكك الحديدية. فلم تعد حتى العربات والكارات والدلجانس تكفي. فضلاً عن ذلك، فإن المنطقة، التي تشمل العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والاردن أصبحت، تدريجاً، موضع تنافس بين الدولة الكبرى لتوطيد نفوذها فيها. (فالمدرسة والصحيفة وشركات استثمار الموانىء وبناء الطرق كانت وسائل للتسرب أولاً، ثم التوطيد). والسكك الحديدية، كانت موضع اهتمام الحكومات والشركات شبه الرسمية او الرسمية بين سنتي ١٨٩٠ و١٩١٤ م. (ويكفي ان يتذكر الواحد منا المحاولات، التي تمّت للحصول على امتيازات لبناء السكك الحديدية. وفي هذه الفترة أضيفت سكة الحديد الى العربات، واسطة للانتقال).

ولم يكن الأمر يتعلق بفشل طريق العربات او تقصيره. فالطريق كان جيداً، وكانت العناية به تامة ومستمرة. وقد شهدت بذلك السائحة الانكليزية، اللادي برتن

Lady Burton، التي أطرته كثيراً. وكان أيضاً مريحاً، بالنسبة للشركة. ولكن الزمن تغيّر. فالسكة الحديدية كانت قادمة!

منح امتياز، لتوسيع ميناء بيروت سنة ١٨٨٨ م، لجوزيف مطران من بعلبك، وهو الامتياز الذي كان أساساً لشركة ميناء وأحواض بيروت. (فالأمور كانت تتغيّر وتتبدّل). وكان هناك حاجة ماسة، في الواقع، لزيادة وسائل النقل بسبب ازدياد كميات البضائع، التي أصبحت ترد عن طريق ميناء بيروت برسم الداخل. (ولم يكن في وسع شركة طريق العربات ان تزيد عدد دواب النقل التي لديها، وكان عددها ألفاً، كما أنها لم تكن تستطيع استعمال عربات وكارات أكثر عدداً).

وكانت شركة بريطانية قد منحت امتيازاً لبناء سكة حديدية، تصل دمشق بحيفا، وكان العمل قد بدأ، وبنيت عشرة كيلومترات او ما يقارب ذلك. ومثل هذا العمل، كان سيزاحم طريق دمشق بيروت، ويتغلب عليها، وقد يؤدي ذلك الى نقل مركز الثقل التجاري الى حيفا. لذلك، كان لا بد من العمل السريع لبناء سكة حديدية بين بيروت ودمشق. ومن ثم، فإن شركة طريق العربات نفسها أصبحت حريصة على إنشاء سكة حديدية، لتحافظ على أرباحها وامتيازاتها.

فقامت الشركة بتكليف جماعة بدرس مشروع إنشاء طريق حديدي، وهي التي أصبحت، في مطلع سنة ١٨٩١ م، تحمل اسم «الشركة العثمانية لسكة حديد بيروت ـ دمشق». ويبدو ان الخبراء، كانت لهم وجهات نظر مختلفة، في سير الطريق، وعرض السكة الحديدية، قبل إتمام مشروع دمشق ـ حيفا، إذ إن هذا المشروع يخطف تجارة بيروت. وتقرر ان يكون رأس مال المشروع أربعة عشر مليوناً من الفرنكات.

وقد حصل حسن بيهم، أحد وجهاء بيروت، على هذا الامتياز، في ٧ حزيران/ يونيو سنة ١٨٩١ م، وبُدىء العمل، في صيف السنة التالية، واستمر ثلاث سنين، بحيث أمكن البدء باستغلال الخط في ٣ اب/ أغسطس سنة ١٨٩٥ م. وكان طول السكة الحديدية ١٤٧ كيلومتراً، وكان القطار يقطعها في تسع ساعات.

لقد اختصر وقت السفر، بفضل التطور الجديد، من أربعة أيام، على الدواب، الى ثلاث عشرة ساعة، في العربة، الى تسع ساعات، في القطار. وكان هذا هو أثر التكنولوجيا بين سنتي ١٨٦٣ و١٨٩٥ م بالنسبة الى التنقل بين بيروت ودمشق.

وكان طريق سكة الحديد أطول بسبب متابعة عدوات الأودية وسفوح التلال والجبال. وقد استعمل الخط المسنن، في المناطق الشديد الانحدار، وذلك محافظة على الركاب وغيرهم. ومن المعروف أن سكة الحديد هذه، ارتفعت الى ١٤٨٧ متراً، عند ظهر البيدر، وأن الانحدار، الى جانبي سلسلة جبال لبنان الغربية، نحو الساحل غرباً، ونحو البقاع شرقاً، هو شديد. والجزء المسنن من الخط، وهو على جانبي سلسلة جبال لبنان الغربية، نحو الساحل غرباً، ونحو البقاع شرقاً، هو شديد. والجزء

المسنن من الخط، وهو على جانبي ظهر البيدر، يبلغ طوله ٣٢ كيلومتراً. وتجتاز السكة أربعة أنفاق، أطولها يبلغ ٣٥٠ متراً.

وقد أريد من السكة الحديدية أن يفيد منها البقاع، ومن هنا، كان لها محطتان رئيستان فيه، هما: المعلقة ورياق. وقد أفاد البقاع، من هذه السكة الحديدية، أكثر مما أفاد من طريق العربات. فقد أصبحت زراعة الكرمة، التي كانت قد بدأت قبل ذلك، صناعة رئيسية، كما أصبح صنع الخمور مورد رزق كبير. ومن جهة ثانية، أصبح من اليسير نقل الاشياء، التي يحتاجها البقاعيون، من دمشق بشيء من اليسر.

ومدّت من رياق، فيما بعد، سكة حديد، هي الثانية في لبنان، الى بعلبك ووصلت هذه، تدريجاً، الى حمص وحماه وحلب، كما ان حمص وُصِلت بطرابلس بسكة حديدية أيضاً.

وجدير بالذكر، أن سكة حديدية، بنيت في التسعينات من القرن الماضي، بين يافا والقدس. وكانت ثمة امتيازات متعددة، لربط أجزاء لبنان وفلسطين وسوريا ببعضها البعض، لما نشبت الحرب العالمية الاولى. وكان من جراء ذلك، تبدل آني في بعض المخططات، وإسراع في تنفيذ الأخرى. هذه هي قصتنا؛ ففيها ربطنا بيروت بدمشق، بطريق عربات وسكة حديدية، ويسّرنا على الناس التنقل والنقل.

١١ ـ أول مصرف في بيروت

لعلّ ما يلفت في بيروت، وخصوصاً نظر الزائر لها لأول مرة، المصارف الكثيرة المنتشرة فيها، ولأكثرها أكثر من فرع واحد. وهذا الامر ينطبق، وبدرجة أقل طبعاً، على طرابلس وصيدا وزحلة، وحتى على المدن الاصغر من ذلك. فالمصارف المسجلة في لبنان، الوطنية منها والعربية والاجنبية، تتجاوز المئة عدّاً. ولكن السؤال، الذي يخطر على البال، هو متى أُنشىء أول مصرف في بيروت؟

حريّ بنا أن نعود الى كتاب وضعه ج. لويس فارلي، بعنوان «سنتان في سورية»، ونشر في لندن سنة ١٨٥٩ م، لكي نتعرّف الى وضع بيروت التجاري، في أواسط القرن الماضي، لأننا نجد فيه ما يهيىء لنا السبيل لمعرفة ظروف تأسيس المصرف الاول، في هذا البلد. أما السنتان، اللتان قضاهما فارلي في البلاد، فهما ١٨٥٦ و ١٨٥٧م. وأول ما يجب ان نذكره، مما قاله هذا الرجل، هو أن اسواق بيروت، تتوفر فيها أنواع اللحوم والطيور والأسماك والخضر والفواكه، على اختلاف أنواعها. ويشير الى أن الفستق الحلبي يأتيها من حلب، وأن البطيخ يحمل اليها من ميناء يافا. وقد يبدو هذا القول غريباً بالنسبة لسكان بيروت اليوم، لكن نحن نتكلم عن أواسط القرن التاسع عشر. على أن الذي يشدّد عليه فارلي، هو أن الاوروبي يجد في بيروت جميع ما يحتاج اليه.

شغل فارلي منصب أمين صندوق البنك العثماني في بيروت؛ لذلك، فإننا عندما نقرأ كتابه بعناية، نستطيع ان نرسم صورة لتجارة بيروت، في ذلك الوقت، وهي صورة، ولا شك يحب البيروتي في الدرجة الاولى، واللبناني على العموم، أن يتعرف اليها. فحوانيت المدينة، كانت تحوي كل ما يخطر على البال من حاجات. ومن المفيد أيضاً، أن نعرف أن دهاقنة التجارة الاجنبية في بيروت، كانوا من الفرنسيين. وكان التجار البريطانيون يلونهم في الرتبة. وقد كان لوكلاء الشركة التجارية الهندية الشرقية، وهي شركة بريطانية كبيرة جداً، معتمدون في هذه لمدينة، هم «ميسون وشركاؤهم».

ومع أنه حول سنة ١٨٤١، أي بعد خروج ابرهيم باشا وجيشه من بلاد الشام، لم يكن يُرى في ميناء بيروت أكثر من سفينة واحدة، فإنه في سنة ١٨٥٦، وفي السنة التي تلتها، كانت تجتمع ست أو سبع من السفن معاً في الميناء.

كان البريد يخرج في يوم الجمعة، من كل اسبوع، من لندن الى بيروت، ويمر عبر مرسيليا. كما أنه كان ثمة خط بحريّ منتظم، بين بيروت وليفربول في بريطانيا.

وإذا كنا اليوم نتناول الجريدة يوميّاً لنقرأ فيها، فضلاً عن الأخبار المحليّة والسياسيّة، أسعار العملات الاجنبية، فلا بد من القول بأن الصحافة لم تكن موجودة في مدينة بيروت قبل أول كانون الثاني سنة ١٨٥٦ م. لذلك، فإن أسعار العملات الأجنبية، كانت أمراً يعرفه التجار من اتصالاتهم، وعبر أعمالهم. وفضلاً عن ذلك، فإن أنواع العملات الاجنبية كانت أقل بكثير مما هي عليه اليوم. والواقع ان سوق بيروت كانت تتعامل بنوعين من النقد الاجنبي هما: الجنيه الاسترليني والفرنك الفرنسي. وكان الجنيه يحسب بـ ١٢٠ قرشاً (تركياً). إلا أن هذا السعر كان يتقلب قليلاً، ومدى التقلب كان بين ١١٧ و١٢١ قرشاً. أما الفرنك الفرنسي، فقد كان يساوي أقل من خمسة قروش بقليل.

كانت العملةُ الرسميّة في البلاد، هي نقدُ الدولة العثمانية، وأساسه الليرة العثمانية، والليرة العثمانية الذهبية طبعاً. وهذه الليرة كانت تقسم الى مئة قرش او غرش. وكان القرش يقسم الى أربعين بارة. وعندما نقول ان الجنيه الانكليزي كان يساوي ١٢٠ قرشاً، فمعنى هذا، ان الجنيه الانكليزي، كان فيه، من الذهب، أكثر من الليرة العثمانية.

ومما يلفت، في أقوال فارلي، تأكيده على أنّ المدينة كانت تتمتع بدرجة كبيرة من الأمن يومها. فالحياة والمال لا خطر عليهما. ويضيف، ان القتل والسرقة وغيرهما من الجرائم، التي تكثر في بعض المدن الاوروبية، نادرة في بيروت. والمرء يمكنه ان يتنقل في المدينة وضواحيها متنزهاً، مشياً أو على صهوة حصان، من دون الإحساس بالخطر قط.

ونودّ التذكير بفندق بسّول القديم في بيروت، الفندق الذي كان يقوم على مقربة من السان جورج اليوم، ويشرف على الخليج، وتطلّ عليه الجبال اللبنانية القريبة من بيروت، قبل ان تقوم حوله الأبنية الكثيرة. ففندق بسّول، الذي كان يملكه يومها نقولا بسّول، كان قائماً في بيروت سنة ١٨٥٦ م. وإذ انه كان معروفاً ومشهوراً يومها، فلا بد أنه كان قد مرّ عليه بعض الوقت. وفندق بسّول هذا، كان يقصده السواح من الانكليز والاميركيين والفرنسيين.

وبهذه المناسبة، فقد عرفت نفراً من الانكليز الذين نزلوا في فندق بسّول سنة ١٩٥٨ م، أي بعد مائة سنة من أيام فارلي. لقد اعتادوا أن ينزلوا فيه من قبل، وحافظوا على صلة الصداقة مع المكان وعائلة بسّول. وكان نقولا بسّول، مؤسس هذا الفندق، يعمل أصلاً دليلاً للسواح. وكان الدليل يسمى «ترجمان»، ولكن الأجانب درجوا على لفظها دراغُمان dragoman؛ ولذلك، فإن الكلمة ترد في أكثر الكتابات، التي وصلت من القرن التاسع عشر، بهذا الشكل. ثم ترك نقولا بسول عمله، كدليل او ترجمان، وفتح هذا الفندق. لكنه لم يترك أمر الاهتمام بالسواح، ذلك بأنه كان ينظّم لهم رحلاتهم الى دمشق والقدس، بالاتفاق مع شركة طوماس كوك، التي كانت تُعنى

بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، والأماكن الأثرية في مصر بشكل خاص.

والذي يطّلع على أسعار الفنادق في بيروت اليوم، إذ تصل أجرة الغرفة الواحدة عشرات الدولارات للنوم فقط، يرى في أسعار فندق بسّول، في أواسط القرن الماضي، شيئاً رخيصاً جداً. إذ يقول فارلي، ان الفرنكات العشرة، التي كان يدفعها الشخص الواحد، في فندق بسّول، كانت تغطّي نفقات غرفة للنوم مع الطعام للوجبات الثلاث والخدمة. والشيء الوحيد الذي لا يدخل حسابه في هذا المبلغ الزهيد، هو الخمور. فهذه كان المقيم يدفع ثمنها منفردة. ويضيف الكاتب، انه من الممكن الحصول على أسعار أقل للإقامة الطويلة.

إن الفرق في أسعار الفنادق كبير جداً، لكنه فرق الزمن والقوة الشرائية للنقود. وفضلاً عن ذلك، فإن أشياء كثيرة، نعرفها في الفنادق اليوم، لم تكن معروفة، حتى ولا مخترعة يومها، ولعل إيجار المنازل يثير الدهشة أكثر من أسعار الغرف في الفنادق. فإن منزلاً متسعاً صالحاً لأسرة معتدلة العدد، كان يمكن الحصول عليه لقاء مبلغ يتراوح بين ثلاثة آلاف وستة آلاف قرش سنوياً. وهذا المبلغ، كان يساوي، يومها، ما بين خمسة وعشرين وخمسين جنيهاً انكليزياً. وكانت أجرة الخادم الماهر او الخادمة الماهرة، لا تتجاوز مئة وخمسين قرشاً في الشهر.

ويتضمن كتاب فارلي إحصاءات عن تجارة بيروت للسنوات ١٨٥٣ و١٨٥٦ و١٨٥٧ م. ولا ننوي نقل جميع أرقامه وإحصاءاته هنا، ولكن نود ان نشير الى أن بيروت استوردت سنة ١٨٥٣ م ما قيمته ٧٢٥,٠٠٠ جنيه استرليني، ولكن المبلغ ارتفع الى مليون وثلثمئة وخمسين ألفاً سنة ١٨٥٧ م، أي بعد أربع سنوات فقط. يقابل هذا أنّ ما صُدِّر من بيروت، كان يساوي ٦٢٥,٠٠٠ جنيه في سنة ١٨٥٣ م، فارتفع الى نحو المليون بعد أربع سنوات.

ويبدو، لأول وهلة، أن هذه الأرقام كبيرة، إن بالنسبة للاستيراد او للتصدير، ولكن بيروت كانت تعيد تصدير الكثير من هذه الواردات، أي أنها كانت ميناء استيراد، لا لحاجات سكانها وضواحيها فحسب، بل وللداخل أيضاً.

كانت بيروت تسير دوماً على هذا السبيل، تستورد من البحر، الذي يصلها بالخارج، وتبعث بما يأتيها الى الداخل الشامي. ولم تكن بيروت وحيدة في هذا الوضع، بلبنان؛ فطرابلس وصيدا وصور كانت تقوم بمثل هذا الشيء أيضاً. لكن بيروت، كانت الأهم والأكبر. ومثل ذلك يقال في صادراتها. فمن بيروت، كانت ترسل أشياء كثيرة، مصنوعة وخاماً، بعد ان تكون هذه قد وصلتها من الداخل ـ من المدن اللبنانية ومن دمشق وحتى من الاردن.

وكانت بيروت تستورد الأقمشة القطنية والحريرية والصوفية والحبوب والأرز والخمور، والسكر، والبنّ، والمصنوعات المعدنيّة، والنحاس، والرصاص، والفحم

الحجري، والأدوية. ولنأخذ، مثلاً، الاقمشة، على اختلاف أنواعها، فقد قدِّر ما دفعته بيروت، ثمناً لها، سنة ١٨٥٧ م، بما يزيد على ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات الاسترلينية. ومن الطبيعي ان قسماً كبيراً، او القسم الأكبر على الأصحّ، كان ينقل الى الداخل ـ القريب او البعيد ـ ليُباع في أسواقه.

أما ما كانت تصدره بيروت، عن طريق مينائها، فيدخل في عداده الحرير والشرانق والمنسوجات القطنية والحريرية والتبغ والصوف الخام. وواضح ان التبغ، الذي كان يصدّر من ميناء بيروت كان ينقل اليها من مزارع التبغ في المناطق اللبنانية وغيرها من الجوار. وكانت قيمة الحرير والشرانق الصادرة من بيروت تقرب من ثلث مليون جنيه استرليني.

ومع ان المتاجر كانت ترد الى بيروت من تركيا وبلاد اوروبية متعددة، فقد تبدل مركز الدول المستوردة منها بين سنتي ١٨٥٣ و١٨٥٧ م. ففي السنة الاولى، استوردت بيروت من البلاد الاوروبية الرئيسية: بريطانيا فالنمسا ففرنسا، على هذا الترتيب. أما في سنة ١٨٥٧ م، فقد جاءت فرنسا في المرتبة الأولى، وتلتها النمسا ثم بريطانيا.

لكن التصدير حافظ على ترتيبه خلال تلك السنوات. فقد كانت الدول المستوردة، هي التالية، على الترتيب: النمسا ففرنسا فتركيا فبريطانيا.

ويبدو أنه لم تكن ثمة صعوبة في التفاهم بين تجار بيروت والتجار الاجانب. يقول فارلي، إن أكثر التجار المعتبرين في بيروت، يتكلمون إما الفرنسية او الايطالية. وهناك من يستطيع التكلم حتى بالانكليزية. وهذا يذكرني بما أوردناه سابقاً من أن الكثير من المدارس، التي أُنشئت في لبنان، بعد تأسيس مدرسة عين ورقة، سنة ١٧٨٩ م، كانت تعلّم لغات اجنبية. وقد أفاد الذين تعلموا هذه اللغات، لما احتاجوا الى استعمالها في السوق والمصرف.

وهنا، نعود الى موضوع إنشاء أوّل مصرف في بيروت، بعد ان تتبعنا مراحل تطور أسواق بيروت ومتاجر بيروت وميناء بيروت وفنادق بيروت، ومن ثم ازدهار تجارة بيروت.

فالمصرف يصبح أمراً ضروريًا، عندما تنمو التجارة وتزداد العلاقات التجارية، بين مكان ما وأمكنة أخرى في العالم. ولما كانت الحركة التجارية في بيروت مزدهرة، في أواسط القرن الماضي، فقد كان من الضروري، أن يؤسس مصرف يقوم بالأعمال المالية المرتبطة بالتجارة الخارجية خاصة. وقد كان أول مصرف، فتح في بيروت، هو البنك العثماني. وكان ذلك في ١٦ تشرين الاول/ اكتوبر سنة ١٨٥٦ م. والبنك العثماني، بهذه المناسبة، هو مصرف بريطاني. ومن هنا كان موظفوه بريطانيين.

كان فارلي، مؤلف كتاب «سنتان في سورية» هو رئيس قسم المحاسبة في البنك. ويحدثنا، ان السيد (م)، كان قد وصل الى بيروت، في أواسط شهر آب/ اغسطس سنة

١٨٥٦ م، وأعدَّ أماكن لسكنه ولسكن بقيّة الموظفين، واستأجر البناء الذي سيعمل المصرف فيه. فلما وصل الموظفان الآخران، السيد (ب) وفارلي، فتح المصرف أبوابه، في ١٦ تشرين الاول/ اكتوبر، كما ذكرنا.

بدأ المصرف أعماله بثلاثة موظفين بريطانيين وهم السيد (م) الموظف الرئيسي ويحمل لقب «مدير» المصرف، والسيد (ب) المسؤول عن الحسابات الجارية. أما الثالث فهو فارلي، الذي كان كبير المحاسبين. وكان موظف محلي يساعد السيد (ب). أما فارلي، فكان عنده مساعدان محليان، كانا يحسنان التعاون معه. ويصف فارلي المساعد الاول، ويعطي اسمه بشارة آدم، بقوله: «ومساعدي الاول، بشارة آدم... هو شعلة ذكاءٍ ونشيط جداً في عمله».

وفي رسالة، مؤرخة في ٢٧ تشرين الاول/ اكتوبر ١٨٥٦ م، بعث بها فارلي، من بيروت، يتحدث عن الموظفين البريطانيين، اللذين كانا معه، فيقول ان السيد (م)، بقدر ما يستطيع ان يحكم عليه، هو مناسب جداً لعمله. إلا ان السيد (ب) «لم يكن الشخص المناسب للمكان المناسب». ويرى أنه ليس لديه أية معرفة بالشؤون التجارية. ويضيف: «انه يجهل كل شيء من المنتظر ان يعرفه صبي لندني ابن خمس عشرة سنة؛ وقد نالني منه من المتاعب اكثر مما نالني من مساعديَّ العربيين».

وينتقل، بعد ذلك، الى القول بأن مؤسسة مثل المؤسسة التي يعمل فيها، أي البنك العثماني، يتوجّب ان يسير العمل فيها، وفي كلِّ دائرة منها، بنظام واستمرار، بحيث لا تتأخر الدائرة الواحدة بسبب اخطاء تُرتكب في دائرة أخرى. ولكن فارلي يشهد للسيد (ب) بأنه ذكي، وأنه قد يكون قابلاً للتعلم. لكنه يستشهد، في الرسالة نفسها، بمثل عربي معناه. «علّم حماراً يتبعك، فإذا علمت انساناً فإنه ينقلب عليك».

ويأمل ان ينتهي الأمر على خير. ويستغرب فارلي اختيار مجلس الادارة في لندن، مثل هذا الشخص، ليشغل منصباً مهمّاً لا يستحقه.

وفارلي، الذي أدرك أهمية السوق البيروتية، كان يرى انه من الممكن ان يؤسَّس مصرف ثان وثالث، لأن السوق تحتاج الى ذلك. لكن فارلي البريطاني، كان يأمل في أن تكون المصارف، التي تفتح، بريطانية.

وعلى كل، فإنه يبدو ان فارلي لم يستطع الصمت، أمام بعض تصرفات، اساءت الى المصرف، فأظهر سخطه. فكانت النتيجة ان اضطر الى الاستقالة، بعد سنة واحدة تماماً من إنشاء المصرف في بيروت. وعاد بعدها الى لندن، ليدافع عن نفسه، لكنه لم يجد أذناً صاغية. ولسنا ندري ما إذا كان فارلي، لو بقي في عمله في بيروت، او حتى لو ترقّى، بحيث أصبح المدير في الفرع، سيجلس ليكتب هذا الكتاب النافع لنا، والذي نعرف منه ان البنك العثماني كان أوّل مصرف يفتح في بلاد الشام. لكن الواقع هو ان البنك العثماني في بيروت، كان أول مصرف تجاري افتُتح في المشرق العربي.

١٢ ـ دور الكتب في لبنان

لسنا ندري متى وجدت أول دار للكتب أو مكتبة في لبنان أو أين وجدت. وأغلب الظن، أن ما وجد منها، في العصور الخوالي، كان مجموعات من الوثائق الملكية القانونية والسياسية والتجارية، أكثر منه مجموعات من كتب الأدب والدرس. نقول هذا، ونحن نقارن بين ما عثر عليه المنقبون، في أنقاض المدن السومرية الأكّدية، مثل أور، أو في المدن الكنعانية الشمالية مثل أوغاريت، أو مدن الفرات مثل ماري، وأخيراً في شمال سوريا في أبلا أو تل مرديخ.

ولا شك، بأن الهياكل كانت تحفظ فيها الأدعية والصلوات والأناشيد الدينية، إن وُجِدت، إذ لا يعقل، أن يدرّب الشباب، من رجال الدين للمستقبل، من دون نوع من وسائل التعليم.

لكن عندما نتحدث عن دور الكتب، فإننا نقصد المكتبة المرتبطة بمعهد للدراسة أو مركز ملكي او أميري للقراءة والمتعة. ولنا ان نحسب، أن مثل هذه الامور، طرأت على العالم، بعد ان انتشرت فيه القراءة، ولو انتشاراً محدوداً، وبعد ان خرج التعليم من أيدي الكهنة المحتكرين له، بحيث صار للناس الحق في أن يتعلموا.

وإذا كان الامر كذلك، فالمرجع عندي، ان صيرورة التعليم مدنياً أو علمانياً، هي التي أدت الى إنشاء مكتبات أو دور كتب، ولنسمّها عامة. ولم يصبح التعليم مدنياً، في وقت واحد، في دنيانا، وما جاورها، وما ابتعد عنها. ولذلك، فإننا إذا أخذنا لبنان، مثلا، فإننا سنجد، ان قيام مدرسة الحقوق أو القانون في بيروت، يمكن ان يكون أحد المعالم لقيام مكتبة لمصلحة الأساتذة والطلاب.

ومن المعروف، ان مدرسة الحقوق، بدأ عملها في القرن الثاني أو أوائل الثالث للميلاد، واستمرت حتى أواسط القرن السادس، لما تهدمت مع المدينة، إذ ضربها زلزال قوي جداً، وطاف البحر عليها، فأصابها الدمار، من البر والبحر. ونحن، عندنا اشياء كثيرة تتعلق بالمدرسة، عن أساتذتها، وطلابها، وسنوات الدراسة فيها، ومعيشة الطلاب، لكن لا تتوفر، لدينا، معلومات، عن مكتبتها.

فلو كان في مدرسة الحقوق مكتبة ضخمة، لوصلتنا أخبارها. لكن يجب ان نذكر، ان المدوّنات كانت، الى ذلك الوقت، تتم على رق او بردي، وكلاهما ثمين. وكانت حاجة الطلاب كتاباً واحداً أساسياً، لكل موضوع. لذلك، فالمكتبة، التي كانت موجودة، لم

تكن بضخامة مكتبة الاسكندرية، في العصر الهلينستي. ولكن الاسكندرية، مثل انطاكية وجنديسابور فيما بعد، كانت مركزاً لدراسات منوّعة، ومن ثم فالمكتبات، في هذه المدن، كانت أكثر تنوعاً، وأكبر عدداً، فيما أظن.

وليس من شك ان عدداً كبيراً من الأديرة، في لبنان والجوار، كان فيها مكتبات، لاستعمال الذين ينضمون الهيا، للتعلم والدرس. على أن انتشار المكتبات، بشكل واسع، كان مرتبطاً بوصول الورق، او الكاغد، من الصين الى هذه الديار. وهذا تمّ، بعد الفتح العربي لأواسط آسية، في سمرقند وبخارى وما اليهما. فمن هناك، بدأ انتشار استعمال الورق. لكن أهم من استعماله كان صنعه. ومن هنا نلاحظ، انه لم يكد القرنان التاسع والعاشر يحلاّن بأراضي الامبراطورية العربية الواسعة، حتى كان استعمال الورق قد شاع في المشرق العربي والمغرب العربي والأندلس. ومن هذه انتشر، فيما بعد، الى أوروبا.

ولا شك ان هذا الأمر يفسر لنا غنى المكتبات أو دور الكتب، التي نشأت في المدن العربية والاسلامية، منذ انتشار استعمال الورق. إذ إن الورق أرخص ثمناً وأسهل معالجة، والكتابة عليه أيسر، وحفظ المخطوطات يحتاج الى مكان أصغر.

وهذا الأمر يوضّح لنا كيف أنشئت المكتبات الضخمة، التي عرفت فيما بعد. ولا بد لنا من الأخذ بعين الاعتبار ان بعض الدول كانت حريصة على نشر أفكار معينة أو مذاهب خاصة، ولذلك، كان حكّامها والسائرون على طريق ملوكها، يعنون عناية خاصة بتوسيع المكتبات. أضف الى ذلك، الرغبة الخاصة، التي يرافقها ثراء في الدولة أو الدويلة أو المدينة.

ومن هنا، ننطلق الى الكلام على مكتبة آل عمار، في طرابلس.

فبنو عمّار، الذين حكموا طرابلس، قرابة نصف قرن، في القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر، حريّون بأن يذكروا بالخير، إذا ما ذكر الخير، في تاريخ لبنان. وهم مغاربة أصلاً، رافقت قبيلتهم الفاطميين، لما انتقلوا من المهدية، في تونس، الى مصر، واتخذوا من القاهرة، وهم بُناتها، عاصمة لهم. وكان للفاطميين دور كبير في بلاد الشام، فأرسلوا من قبيلة كتامة، وبنو عمّار منهم، من يحكم في شؤون دمشق وطرابلس وغيرهما.

لكن بني عمّار، الذين كانوا يحكمون البلد، قبل مجيء الصليبيين، لمدة تقرب من نصف القرن، ظهروا على المسرح، بعد مجيء الفئة الأولى. فقد أخرج الدكتور عمر عبد السلام التدمري، ان الحسن بن عمّار كان قاضياً في طرابلس، سنة ١٠٦٥ م، وكان يلقب بأمين الدولة. والذي نراه، ان تلقيب او تلقُّب القاضي بأمين الدولة، يعني انه كان يقوم بدور أكبر من دور القاضي، بقطع النظر عما إذا كان منتدباً للقيام بهذا الدور أم أنه انتدب هو نفسه لذلك. ويرى التدمري، أن أمين الدولة ظل على ولائه للدولة

الفاطمية، حتى سنة ١٠٧٠ م. ونحن نحب ان نفسر هذا بقولنا، انه كان موالياً للدولة الفاطمية الشيعية الاسماعيلية. لكنه لما رأى تغلّب السلجوقيين على الامر، في العراق وما اليه، فضّل ان يقف على الحياد، فأعلن أن طرابلس هي دولة محايدة مع ان الحكام كانوا شيعة.

وتلا أمين الملك، في الحكم، جلال الملك، ثم فخر الملك. وفي زمن جلال الملك، وُسّعت الدولة الطرابلسية، بحيث شملت جبلة وعرقة وطرطوس (أو انطرطوس كما كانت تسمّى) وجبيل، فضلاً عن جرود جبيل. أما أيام فخر الملك، فقد كانت أيام فخرٍ وصمود للمدينة. فقد حاصرها الصليبيون، عشر سنوات، قبل ان يحتلوها، وذلك سنة ١١٠٩ م.

كانت طرابلس في تلك الفترة غنية. فقد نقل يوسف العش، في دراسته الهامة، عن دور الكتب العربية، في العصور الوسطى، ان المدنية، كان فيها أربعة آلاف، يعملون في نسج الحرير والصوف والقطن. وقد وصف ناصري خسرو، الرحالة، المدينة، في أواسط القرن الحادي عشر، بالثراء. وكانت طرابلس مشهورة بصنع الورق، وكانت توزعه على كثير من الأماكن الداخلية. فضلا عن ان طرابلس، كانت، دوماً، مفتاح التجارة البحرية، مع أواسط سوريا.

لكن الثراء وحده، لا يؤدي إلى قيام مكتبة، كالتي عرفناها، أيام بني عمّار. فلا بدّ أن يكون ثمة تقليد، أقدم من ذلك.

لكننا لا نعرف إلى أي زمن يعود هذا التقليد. ولكن الذي نعرفه، هو أنه، في أيام أبي العلاء المعري، المتوفى قبل بدء حكم بني عمّار، كانت، في طرابلس، مكتبات، يقصدها الدارسون، للإفادة منها. وكانت هذه المكتبات مما وقفه الاثرياء على طلبة العلم. ويبدو ان أبا العلاء نفسه، كان أحد أولئك الذين أفادوا من هذه المكتبات؛ وهذا كان قبل إنشاء دار العلم العمّارية. وهذه المكتبة، أنشئت في الفترة التي سمّاها يوسف العشّ: «عصر دور العلم»، ويذكر قيام دور علم في القاهرة وبغداد (سابور) وطرابلس والقدس. وهو يربط دور العلم بالدعوة الشيعية. والواقع، ان أمين الملك نفسه، كان فقيهاً شيعياً كبيراً.

فمن الطبيعي، ان تقوم في طرابلس، في أيام بني عمّار، مكتبة ضخمة، فيها أقسام للفقه والفلسفة والشعر والتاريخ. وإن عدد مجلدات هذه المكتبة، كانت لا تقل عن مئة ألف. لقد أنشأها أمين الملك، ووسعها جلال الملك، بعده، وحافظ عليها فخر الملك جهده.

ومعنى هذا، ان طرابلس كانت مركزاً كبيراً للتعلّم، ولسنا نشك في ان الطلاب، الذين كانوا يقصدون المدينة للدرس، كانوا يحصلون على الكثير من العون المعنوي والمادي؛ وفي استخدامهم للمكتبة، كانوا يعطون الورق والحبر.

وصلت الينا أسماء ثلاثة، ممن تولوا النظر على دار العلم في طرابلس، ونقل التدمري أخبارهم، وهم: الحسين بن بشر وابن أبي روح وأبو عبدالله الطليطلي النحوي. وكان أولهم من قضاة طرابلس وعلمائها، كما كان أديباً وخطيباً، وكان الثاني أيضاً قاضياً، بل كان «من أكابر قضاة طرابلس وعلمائها، وكان رأساً للشيعة في الشام»، وله تصانيف كثيرة.

أما الثالث، أبو عبدالله النحوي، فهو أندلسي الاصل، ويدل اسمه «الطليطلي» على أنه من طليطلة الاندلسية. ومن المعروف، أنه لما اشتد ضغط الاسبان على العرب في اسبانيا، وكانت طليطلة في الخط الاول، أخذ البعض، من رجال العلم والصناعة، يهجرون المدن الاسبانية، الى شمال افريقيا ومصر والمشرق. والذين وصلوا الى مصر والمشرق، كانوا قلة، بينهم أبو عبدالله هذا. وكانت له، في دار العلم الطرابلسية، «حلقة عامرة بالطلبة يلقي عليهم فيها دروساً في العربية والأدب».

وقبل متابعة أخبار النحوي الطليطلي، لا بد من العودة الى بني عمّار ودار علمهم. فقد ضمّ الدكتور التدمري ما وجده عنهم في المظان بقوله: «كذلك فإن أمين الدولة اتخذ له دار علم جمع فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب وقفًا. وكان يرسل المراسلات الى أقطار البلاد ويبذل الأثمان الباهظة ويجلب الكتب النادرة لهذه المكتبة، ويهتم بالعلم ويحنو على العلماء ويستميل طلاب العلم الى عاصمته. واقتفى كل من جلال الملك وفخر الملك آثاره. فقام جلال الملك بتجديد دار العلم... وكان مقصد الشعراء من أنحاء الشام. وأوقف على طلبة العلم جرايات من الذهب، كان المتولي على دار العلم يقوم بتوزيعها على طلبة الدار. وكان فخر الملك أيضاً مقصد الشعراء والأدباء، ومحباً للمجالس العلمية والمناظرات الادبية، يعقد في قصره المناظرات والمباريات الفقهية والشعرية. وكان بنو عمّار من الممدّحين من شعراء عصرهم. ومن الشعراء الذين مدحوهم ابن الخياط الدمشقي وابن النقار الطرابلسي وأبو المواهيب المعري وابن حيوس».

وكان طلاب العلم يأتون الى طرابلس من أصقاع بعيدة - من مصر ومن الحجاز ومن العراق ومن آسيا الصغرى ومن فارس. وقد أورد الدكتور التدمري أسماء عدد كبير من هؤلاء العلماء، في كتابه الحياة الثقافية في طرابلس الشام، في العصور الوسطى، وهو مرجع هام، لمن أراد التعرف اليهم. أما بشأن النحوي الطليطلي، الذي كان صاحب دار العلم ومكتبتها، والذي كانت له صلة بوالد أسامة بن منقذ وعمّه، لما كان له من المعرفة والعلم، فهو لما أسره الصليبيون، عند احتلالهم المدينة، بعثا بمال اليهم، افتدياه به، واستخلصاه لأنفسهم، وصار أستاذاً لأسامة نفسه. وقد قال عنه أسامة، في «كتاب الاعتبار»: «الشيخ العالم أبو عبدالله النحوي... وكان في النحو سيبويه زمانه. قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين وكان متولي دار العلم

بطرابلس... وشاهدت من الشيخ أبي عبدالله عجباً. دخلت عليه يوماً لأقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو ـ كتاب سيبويه وكتاب الخصائص لابن جنّي وكتاب الايضاح لأبي علي الفارسي وكتاب اللمع وكتاب الجمل. فقلت يا شيخ أبا عبدالله، قرأت هذه الكتب كلها؟ قال قرأتها! لا والله كتبتها في اللوح وحفظتها. تريد ان تدري؟ خذ جزءاً وافتحه واقرأ من أول الصفحة سطراً واحداً. فأخذت جزءاً وفتحته وقرأت منه سطراً، فقرأ الصفحة بأجمعها حفظاً حتى أتى على تلك الاجزاء جميعها. فرأيت منه أمراً عظيماً ما هو في طاقة البشر».

والغريب في أمر طرابلس، انها بالرغم من إحراق الصليبيين لمكتبها، حينما احتلوها، فقد عادت اليها أهميتها كمركز للعلم. ويبدو ان المسيحيين، اليعاقبة العرب، الذين كانوا فيها، جعلوا منها مركزاً لدراسة الطب وتعليمه. وفيها اشتهر الأسقف اليعقوبي، ميشيل الحلبي. وكان هناك عدد من الاطباء المسلمين أيضاً. وقد برز، في القرن الثالث عشر، عالم افرنجي كبير هو وليم الطرابلسي، كما اشتهر ابن العبري، الطبيب الفيلسوف المؤرخ، وكان من أهل القرن نفسه. وغير هذين كثيرون.

وإذا كانت دار العلم بطرابلس، أشهر وأكبر مكتبة عرفها لبنان، في تاريخه الوسيط، فقد عرف، في تاريخه الحديث، عدداً من دور الكتب، ولو أنها لم تصل الى ما وصلت اليه دار العلم . والمكتبات، التي أقصدها، كانت على نوعين، الواحد منهما: المكتبات الخاصة، التي نجدها في بيوت العلماء. وطرابلس بالذات، كان فيها عدد كبير من العلماء في القرن التاسع عشر، الذين كانوا يحتفظون في بيوتهم بمكتبات لهم. كما كان لعلماء جبل عامل وبيروت ولرجال الدين المسيحيين المتعلمين مكتباتهم.

أما النوع الثاني، فهو دور الكتب العامة، وأقصد بذلك تلك التي ارتبطت إما بمؤسسات دينية او علمية، وطنية وأجنبية على السواء. وفي مقدمة هذه المكتبات الكبيرة في لبنان مكتبة بكركي، وفيها من المخطوطات السريانية والعربية الشيء الكثير، ومكتبة دير المخلص في جهات صيدا، ومكتبة ديرالشرفة. اما المكتبات التي قامت الى جانب المؤسسات العلمية، ففي مقدمتها، في لبنان، مكتبة الجامعة الاميركية ومكتبة جامعة القديس يوسف. ومن المكتبات الخاصة، في بيروت، في القرن التاسع عشر، تلك التي كان يملكها الحاج حسين بيهم.

ومن المكتبات الخاصة الكبيرة، التي أعرفها، مكتبة المرحوم الشيخ أحمد عارف الزين، مؤسس «العرفان»، ومكتبة السيد كميل أبو صوان، التي جمع فيها صاحبها، تقريباً، جميع كتب الرحلات الافرنجية، عن بلاد الشام. ولكن من الضروري ان يقوم الباحثون بمسح شامل، لمكتبات خاصة كثيرة، لعلنا لا نعرف عنها شيئاً. فبلد له في العلم والمعرفة تاريخ طويل، لا بد ان يكون عند المشتغلين بالعلم، من أهله، مجموعات حَرِيّة بالعناية والاهتمام.

١٢ ـ صلات لبنان مع المغرب العربي

أحسب ان كل لبناني وكل تونسي يعرف أن قرطاجة أنشأتها جماعة أصلها من صور. والكثيرون هم الذين يروون القصة؛ وقد يزيد فيها البعض أو ينقص؛ ولكن تظل قرطاجة بنت صور. وفي هذا المقال، لن نعود الى الحكاية فنرويها، ولا الى القصة فنزخرفها. بل إننا سنتطرق الى أمور أحدث عهداً بكثير، وهي تعود الى القرن التاسع عشر، وإلى نصفه الثاني على وجه التحديد.

كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر عصر إصلاح وتطوير في حياة تونس. وكان من الممكن ان تسير تونس قدماً في ذلك، لولا ان فرنسا احتلت البلاد سنة ١٨٨١ م، وفرضت عليها حمايتها. ففي عهد محمد باي، الذي حكم تونس من ١٨٥٥ الى ١٨٥٩ م، وهي أول فترة للإصلاح، أدخلت مطبعة حجرية الى تونس، ثم توسّع المشروع، فسعى الباي لجلب أحرف معدنية مع الاجهزة اللازمة لها من باريس. إلا أن الأجل وافاه قبل ان يتم مشروعه، وخلفه أخوه محمد الصادق باي، الذي حكم تونس من ١٨٥٩ الى ١٨٨٣م، فجاء بالمطبعة، ثم أنشأ جريدة «الرائد التونسي» التي أصبحت الجريدة الرسمية، وأناط رئاسة تحريرها بالأستاذ الشيخ محمود قابادو.

على أن المطبعة، كان في عملها فتور، كما كان صدور «الرائد» غير منتظم. ولذلك، لما ولي خير الدين باشا الوزارة سنة ١٨٧٣م، أظهر اعتناءً بـ «الرائد التونسي». فأسند ادارة الجريدة الى فرنسي مستعرب، كان قد نشأ في بيروت، وتعلّم في كلية القديس يوسف، هو منصور كرليتي. وهذه الصلة هي من الصلات الاولى، بين لبنان وتونس، في الأزمنة الحديثة.

على أن الصلة الأولى الأهم،كانت تدور حول فارس الشدياق. ذلك بأنه كان قد استقر في مالطة، حيث كان يعمل مصححاً، في مطبعة الاميركان هناك. وظل في الجزيرة فيما بعد، ويبدو انه كان يعلّم العربية، في مدرستها الكلية. وكانت له علاقة بالوزير التونسي، مصطفى خزندار، الذي كان يغدق عليه الهبات. فقد رُوي ان الوزير منحه عشرة الاف فرنك، ليطبع كتابه «سر الليال». كما أن ابنه سليماً، الذي كان يقيم في باريس، كان وكيلاً تجارياً للوزير مصطفى.

ويبدو ان فارس الشدياق تردّد على تونس زائراً، لكنه لم يقم فيها طويلاً. وليس من المؤكد انه عمل محرراً في جريدة «الرائد التونسي». لكنه، في هذه الفترة، اعتنق

الاسلام، وأصبح يكتب اسمه أحمد فارس الشدياق. والمعروف، أن هذا الكاتب الكبير، طبع له كتابان، في مطبعة «الرائد التونسي»، هما: «الواسطة في أخبار مالطة» و«كشف المخبّا عن فنون اوروبا».

ولما انتهى الامر بالشدياق في الذهاب الى استانبول، حيث أنشأ «الجوائب»، كان يكتب الكثير عن تونس وغيرها، في جريدته. والواقع ان منتجات «الجوائب» (كنز الرغائب)، التي نشرها ابنه سليم فيما بعد، فيها فصول اضافية عن تونس والحركة الإصلاحية فيها.

كان من كبار علماء تونس، في النصف الثاني، من القرن التاسع عشر، محمد بيرم الخامس. وكان هذا مصلحاً، ومن مؤيدي خير الدين باشا. فلما اعتزل هذا الوزارة، سنة ١٨٧٧ م، وخلفه مصطفى بن اسماعيل، كان محمد بيرم في صفوف معارضيه. ولم يكن مجال للتوفيق بينهما، فقرر العالم الكبير الرحيل عن تونس نهائياً. فغادرها سنة ١٨٧٩ م، وذهب لأداء فريضة الحج، ماراً بمالطة والاسكندرية والقاهرة. وقد زار بيروت، حيث استقبله مدحت باشا. واجتمع، في المدينة اللبنانية، بعدد من رجال الفكر، كان بينهم سليم البستاني والشيخ ابرهيم اليازجي والشيخ عبد القادر القباني صاحب جريدة «ثمرات الفنون». ونظم الشاعر ابرهيم الأحدب قصيدة في مديح محمد بيرم في هذه المناسبة.

وكانت مدارس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية حديثة عهد في البلاد فزارها محمد بيرم، وأطرى العمل، وشجّع القائمين عليه. وكان ينوي التوجه الى دمشق، لزيارة الامير عبد القادر الجزائري، لكنه عدل عن ذلك، وتوجّه من بيروت الى استانبول.

والعالم التونسي الآخر، الذي كانت له ببيروت علاقة، هو محمد السنوسي، المولود سنة ١٨٥١ م. وقد تولى محمد السنوسي تحرير «الرائد التونسي». ولما احتل الفرنسيون تونس سنة ١٨٨١ م، أراد محمد السنوسي ان يتغيّب عن تونس، ولو لبعض الوقت، فغادر البلاد سنة ١٨٨٢ م، بحجة أداء فريضة الحج. فزار ايطاليا، وكان فيمن التقى بهم هناك، الكاتب المصري ابرهيم المويلحي. ثم ذهب الى استانبول، حيث لقي محمد بيرم الخامس، الذي مرّ ذكره. وأخيراً اتجه الى الديار المقدسة، لأداء الفريضة الكريمة. وبعد فترة قضاها هناك، عاد مع الحاج الشامي براً. وقد فرض الحجر الصحي على الحاج في وادي الزرقاء، وكان بين الحجاج حاج من مصر. وفي ليلة الخميس ـ الجمعة، في التاسع عشر من صفر، سنة ١٣٠٠ هـ، الموافق للحادي والعشرين ـ الثاني والعشرين من كانون الاول/ ديسمبر، لسنة ١٨٨٢، قرأ محمد السنوسي خبر وفاة الصادق باي، حاكم تونس، وتولّي أخيه، علي باي، مكانه. وكان السنوسي مؤدِّباً للباي الجديد. والذي يهمنا هنا، ليس الخبر بحد ذاته، بل إن هذاالخبر قد قرأه السنوسي في جريدة «ثمرات الفنون»، التي كانت تصدر في بيروت،

لصاحب امتيازها عبد القادر القباني، وكان يحمل الجريدة الحاج المصري المشار اليه قبلاً.

ولا شك أن هذا الخبر حمل محمد السنوسي على الاستعجال في العودة الى تونس. وأقام فترة وجيزة في دمشق، حيث لقي الامير عبد القادر الجزائري. ثم انتقل الى بيروت. وكان ممن لقيهم في بيروت، من أهل العلم والمعرفة، المعلم بطرس البستاني، الذي طلب اليه أن يكتب فصلاً عن تاريخ تونس، لدائرة معارفه. فلبّى محمد السنوسي الطلب. وهذا نموذج حيّ للتعاون العلمي والفكري، الذي كان يتمّ بين علماء البلدان العربية يومها.

ولمحمد السنوسي آثار علمية هامة، ليس هنا مجال ذكرها. فنحن هنا لا نؤرخ للحركة الفكرية أو الادبية في تونس. ولكننا نودّ ان نشير الى واحد من أعماله الهامة. كان بين كبار أهل العلم، في اللغة والأدب، في تونس، الشيخ محمود قبادو، الذي كان يدرّس العربية والدين والأخلاق، في المدرسة الحربية، التي أُنشئت في باردو، بتونس (١٨٤٠ م).

ولما أغلقت المدرسة، أصبح قبادو أحد شيوخ جامع الزيتونة الكبار. وقد كان هذا الرجل شاعراً، في طليعة شعراء القرن التاسع عشر. وكانت وفاته سنة ١٨٧١ م. ولما كان محمد السنوسي من تلاميذه، وكان يتولاه برعايته، فقد رأى لزاماً عليه ان يجمع شعره؛ ففعل ذلك، ونشر الديوان في جزءين، وطبع في مطبعة «الرائد التونسي»، في ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ م.

أهدى محمد السنوسي ديوان قبادو الى أدباء لبنانيين، كان قد اجتمع بهم في بيروت. وقد كتب اليه اثنان من الادباء يشكرانه على ذلك. ونشر محمد السنوسي الرسالتين، في آخر الجزء الثاني، من الديوان. ونقدم، فيما يلي، نماذج من الرسالتين، مع العلم ان هذين الأديبين، المُهدى اليهما الديوان، كانا الشاعر ابرهيم الأحدب والحاج حسين بيهم.

وكان أولهما، الشاعر ابرهيم الأحدب يومها، رئيس كتّاب المحكمة الشرعية ومحرراً في «ثمرات الفنون». وقد صدّر ابرهيم الأحدب رسالته بأبيات من الشعر، فيها:

ثنائي على آثار فضلك ننشرهُ	يطيب به عرف النديم سرى ندي
وحمدي لما أسديتَ يلحم نسجُه	محامد يضفو بردُها بمحمدِ
فإنك قد أتحفتني برسالة	تحدّث بما أبدته دعوى موحّدِ
بها نال ابرهيم ودّ محمد	فتى الفضل والعليا على رغم حسّدِ

وهذا التضمين، في البيت الأخير، لاسم ابرهيم الأحدب، الذي تلقّى الهدية،

واسم محمد السنوسي، مرسلها، جميل للغاية، إذ كان ابرهيم الأحدب يشعر، بأن ثمة من يحسده على هذا الاعتناء الخاص.

والرسالة كلها مسجوعة، ويختمها ابرهيم الأحدب بقوله: «ورأيت ان أصفيك خلتي وإن قلّ في هذا الزمان صفيّ، وأفي لك ببعض الواجب وإن عدم في أيامنا وفيّ. فحررت هذه الحروف الرقيقة من جموع القلة، وثنيت شكرك وثناءك بجملة كلامي الفصيح بغير علة. راجياً اتصال رسائلك الحسان لهذا الخليل، ودوام توجهاتك القلبية بما يحافظ على سروره الجليل».

أما الأديب الثاني، الحاج حسين بَيْهُم، رئيس الجمعية العلمية السورية، وأحد مؤسسي مجلة مجموع العلوم، فقد ولد في بيروت، سنة ١٨٣٣ م، وكان فيمن قرأ عليهم الشيخ محمد الحوت. وقد زاول التجارة حيناً، ثم نزع الى العلم، «فبرع بفنون الانشاء على اختلافها»؛ ونظم الشعر. وكانت له مكتبة عظيمة، فيها الكتب النادرة. وفي سنة ١٨٦٩ م، تولى رئاسة الجمعية العلمية السورية. وفي سنة ١٨٧٨ م انتدبه سكان وطنه، ليمثلهم في مجلس النواب العثماني. وكان من مؤسسي جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت.

وفي الجزء الثاني، من ديوان قبادو، رسالة الحاج حسين بيهم، وهي كذلك سجع، وفيها مديح وتقريظ لقبادو وديوانه، واعتذار عن التأخر في الكتابة بسبب مرض ألمّ به، وشكر على الهدية الجميلة.

ويقول الحاج حسين في رسالته: «ثم إن النسختين اللتين برسم سيدي الامير الجليل عبد القادر الجزائري الحسني، ونجله الكريم ذي الخلق الباهر السني، وصّلتهما اليهما مع الكتابين، فوصلني علم وصولهما بلا مَيْن. وهما يشكران لطفكم على تلك التحفة، التي هي أعظم طرفة».

وقدكان السجع هو الغالب على أساليب الكتابة يومها، ومن هنا، نجد أن هذا الاسلوب يكثر فيه التصنّع.

ولقبادو نفسه كتابة مسجوعة، صعبة المتابعة، إذ يُكثر فيها من الألفاظ الصعبة.

وهناك خبر عن صلات لبنان بالمغرب الأقصى، لكنه مكتوب بلغة سلسة وأسلوب فصيح. وهذا الخبر منتزع من كتاب للعلاّمة عبدالله كَنُّون اسمه «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث». والمغرب، الذي يتحدث عنه علاّمتنا الكبير، هو المملكة المغربية حالياً. فبعد ان يذكر خبراً عن دخول أول مطبعة حجرية الى المغرب، يقول: «على ان مطابع أخرى من ذوات الحروب المركّبة ما لبثت ان عزّزت المطابع الحجرية في فاس وغيرها. وأهم ما يلفت الأنظار في نتاجها هو ظهور أول جريدة عربية تحمل اسم المغرب. وكان ذلك في طنجة سنة ١٨٨٩. وهي جريدة اسبوعية حرة أصدرها بعض اللبنانيين، ولم تعمّر طويلاً. ثم صدرت بعدها في طنجة أيضاً جريدة المغرب الأقصى

سنة ١٩٠٠، فجريدة السعادة سنة ١٩٠٥ فمجلة الصباح سنة ١٩٠٦ فجريدة لسان المغرب سنة ١٩٠٧. وكلها لصحفيين لبنانيين نزحوا الى المغرب في هذا العهد. ولم يبقَ منها الا السعادة، التي أصبحت فيما بعد لسان حكومة الحماية».

ويضيف الأستاذ كنّون: «على ان الصحف التي كانت تصدر بطنجة، وإن يكن أصحابها لبنانيين، لم تكن تخلو من إسهام المغاربة فيها».

ونحن نرى ان هذا كان أمراً طبيعياً، لأن تلك الصحف، كتبت عن قضايا الإصلاح. وفيما يلي، فقرة منقولة عن جريدة «لسان المغرب»، لعلها تعود الى سنة ١٩٠٨ م، جاء فيها:

«بما ان الوقت قد دعا الى الاصلاح... فنحن لا نألو جهداً بطلبه على صفحات الجرائد من جلالته. وهو [أي السلطان عبد الحفيظ] يعلم أننا ما قلدناه بيعتنا واخترناه لأمتنا... إلا أملاً في أن ينقذنا من هوة السقوط التي أوصلنا اليها الجهل والاستبداد... وعليه فلا مناص ولا محيد لجلالته أن يمنح أمته نعمة الدستور ومجلس النواب، وأن يعطيهاحرية العمل والفكر لتقوم بإصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا المسلمة والمسيحية».

وقد جاء في الجريدة ذكر قيام الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ م، الذي أعيد بموجبه الدستور، وتمت الانتخابات النيابية لمجلس المبعوثان.

ونحن نؤيد ما ذهب اليه الاستاذ كنّون، من أن مثل هذه المقالة، لا بد ان كاتبها هو مغربي، وليس لبنانياً. ولكن الذي قصدنا اليه، في ختام هذا الحديث عن الصلات بين لبنان والمغرب، هو الصحافة، التي كانت عملاً لبنانياً.

كانت هذه صفحات من الصلات التي قامت بين لبنان والأشقاء، على البعد، في القرن التاسع عشر. ولا أشك في أنه من الممكن أن نعثر على صلات أخرى تستحق ان تدوّن.

القسم الثالث

مذكرات لبنانيين

١ ـ أدب السيرة والمذكرات

الأدب العربي غني في المجالات المختلفة، والأدب التاريخي فيه يمتاز بكثرة ما وضع فيه من كتب التراجم، حتى ليمكن تقدير هذا اللون أنه نصف ما كتب في التاريخ إجمالاً. ولكن، لماذا تميّز العرب وأدبهم التاريخي بكتب السير والتراجم؟

ليس من اليسير تفسير هذه الظاهرة، ولكن قد يعود ذلك الى اهتمام العرب الأوائل بالرواة ـ رواة الحديث ورواة الأحكام ورواة الشعر. ومن ثم فقد أرادوا أن يتأكدوا من هؤلاء الاشخاص الذين يمكن ان تُعتمد روايتهم. وقد كان الصحابة أول من أخضع لهذا ثم جاءت طبقات الفقهاء والعلماء والشعراء والأطباء ومن إليهم. فكان، من هذا، هذه المجلدات الضخمة في السير والتراجم. وكثيراً ما كانت كتب السير والتراجم تسمى طبقات مثل طبقات الفقهاء أو العلماء.

وهذا التقسيم هو تقسيم زمني، وليس تقسيماً طبقياً اجتماعياً. وفي حقيقة الأمر، فإن الطبقة الأولى هي الأقرب عهداً بالأصل الذي يهتم اولئك المترجَمُ لهم به. بدأت الفكرة عند التأريخ للصحابة. فقد قُصد بالطبقة الأولى، أولئك الذين كانوا أكثر اتصالاً بالنبي (ص)، وأكبر سناً، ثم جاءت الطبقة الثانية وهكذا. وبعد أن ألف الكتّاب هذا التقسيم، طبقّوه على بقية رجال الحياة العامة والفكرية والشعراء ومن إليهم.

على ما نشاهده من كثرة الكتب، التي تتناول السير والتراجم، فإن السيرة الذاتية، أي تدوين الشخص تاريخ حياته بنفسه، هي قليلة في الإدب العربي. فإننا عندما نقلّب الطرف في الأدب العربي، باحثين عن سيرة ذاتية أو مذكرات، لا نعثر إلا على القليل جداً.

هذه الظاهرة تستحق من العناية الشيء الكثير. ولعل الأمر يتعلق بالمجتمع العربي إجمالاً. فالمجتمع الذي أنتج أدب السيرة هذا، كان مثل المجتمعات الشرقية، التي سبقته، والتي عاصرته، محافظاً محتشماً والمقصود هنا الناس، وليس الأدب المكشوف، الذي عرفناه. فالناس كانوا محتشمين، وأهل العلم، على تباين اهتماماتهم، ما كانوا يحبون أن يرووا الكثير عن أنفسهم.

والناس كانوا متواضعين أيضاً. فعندما يشير العالم، الى نفسه، باسم «العبد الفقير»، لا يمكن ان يخطر بباله، أن يجلس فيكتب أو يملي تاريخ حياته مشيراً الى مآتيه وإنجازاته. وإن هو كتب أو أملى، فإنه قلما يتحدث عن أمور خاصة. إنه كان

يعتبر الشؤون العائلية، مثلاً، شيئاً خاصاً، لا يُتحدث عنه للآخرين.

ويذكرنا هذا الأمر بما أملاه ابن سينا (٩٨٠ م ـ ١٠٣٧ م) من سيرته، على تمليذ له اصطفاه صديقاً. أشار ابن سينا الى أن أباه تزوج أمه في قرية قرب بخارى، كان يعمل فيها. وذكر أنه كان له أخ. وهذا كل ما هناك من شؤون الأسرة وأمور العائلة. ولم يرد ذكر الأخ، إلا لمناسبة حديث ابن سينا عن أبيه الذي استجاب الى دعوة الفاطميين وكأن ثمة داعية يهبط دارهم، وكان يتحدث الى الأب والأخ حول هذه الشؤون، وأنه هو لم يهتم بحديثهم او بآرائهم. وأظن، أنه لولا هذه المناسبة لما ذكر ابن سينا أخاه، ولما عرفنا منه أن له أخاً.

ويحضرنا، بهذه المناسبة، كتاب كبير، وضعه ابن خلدون في الترجمة لنفسه. ولا يشير ابن خلدون إلا الى نسبه. فالنسب، عند العرب، أمر مهم. وثمة إشارة واحدة الى شأن من شؤون حياته الخاصة، ثم تختفي هذه جميعها، ويطل ابن خلدون المؤرخ القاضي العالم السياسي المفاوض بحجمه وشخصيته.

وهناك شبه كبير، بين هذا الشيء المقتضب، الذي أملاه ابن سينا عن نفسه، وهذا الكتاب الضخم، الذي كتبه ابن خلدون عن حياته. وابن سينا، بهذه المناسبة، قد أملى تاريخ نصف حياته فقط، والباقي أتمه تلميذه وصديقه. أما وجه الشبه فهو إظهار طريقة التعلم والانجازات. فابن سينا، حريص على أن يظهر لنا، أنه لما بلغ الثامنة عشرة من عمره، كان قد تعلّم كل شيء، وراجعه، وأنه لم يكتسب، بعد ذلك، علماً جديداً في حياته. وابن خلدون يفعل ذلك. والاثنان يوضحان، نسبياً، علاقاتهما بكبار القوم، سياسيين وعلماء وملوكاً وسلاطين، كما يوضحان لنا ما يصيب المرء بسبب العمل في رحاب القصور والبلاطات الملكية.

اشتهر الغزالي، المتوفى سنة ٥٠٥ للهجرة و١١١١ للميلاد، بكتابه «إحياء علوم الدين»، وهو خلاصة العلم السني، الى أيامه ـ عقيدة وعبادة ومعاملات ـ على شكل لم يترك زيادة لمستزيد. لكن الكتاب الآخر، الذي وضعه الغزالي بعنوان «المنقذ من الضلال»، هو كتاب فريد في نوعه، في الأدب العربي.

وهذا الكتاب، على قصره، يوضح حالة مرّ بها الغزالي. فالكتاب يؤرّخ لا لحياة الرجل بكاملها، بل يتناول أزمة أصابت هذا المفكر الكبير، ورسم هو صورة دقيقة لما كان يعتلج في نفسه، ويضطرب به قلبه وكيف أتيح له أخيراً، أن يعود الى سيرته الطبيعية. وقد وضع الغزالي هذاالكتاب تلبية لطلب أخ رغب اليه أن يكتب له عن غاية العلوم وأسرارها والمذاهب وأغوارها. ثم ألحّ عليه أن يحكي له ما قاساه في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق. وهكذا، فقد وضع الرجل هذا الكتاب، وربط بين أزمته النفسية وغاية العلوم وأسرارها. فـ «المنقذ من الضلال» هو سيرة ذاتية عقلية روحية لعقل نفاذ.

وقبل الانتقال الى المحدثين من كتّاب السير الذاتية وواضعي المذكرات من رجال العرب، يجدر بنا ان نشير الى كتاب قديم هو كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ، من أهل القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد. وهو كتاب يمكن اعتباره لوناً من أدب المذكرات الشخصية، التي تتجاوز، أحياناً، إطار الشخص لتدخل في تفاصيل تخص العصر. فقد دوّن أسامة بن منقذ تجاربه واختباراته وأخبار علاقاته بالناس، الذين تعرّف اليهم، من أهله وبني قومه والأجانب. والأجانب هنا تعني الفرنجة. ذلك ان ابن منقذ شامي من شيزر، كان يخالط الفرنجة في مناسبات عدة، وله فيهم آراء تتراوح بين الاعجاب والاستهجان. والرجل كان يدوّن الأمور التي تعرض له، ويبدي رأيه فيها. ولغة الكتاب مقبولة لكن لا زخرفة صناع فيها، بل صدق الرواية ودقة الملاحظة يعوضان عن الصنعة في الكتابة.

دأب الكثيرون، من رجال السياسة أولاً، ثم غيرهم من أهل الاعمال والفكر، على تأليف السير الذاتية أو تدوين المذكرات. وقد كان الغربيون هم الذين بدأوا ذلك. والسؤال الذي يدور في خلد كل قارىء هو مدى صحة ما يقوله هؤلاء الناس، أي مدى انطباقه على الواقع. ألا يكتب رجل السياسة، أولاً، مذكراته، أو سيرته الذاتية، وينشرها إما ليَمُنّ بنجاح أو ليغطي فشلاً؟ ألا تحمله الحالة الواحدة او الأخرى على الزيادة والنقصان، ليظهر الأول وليطمس الثاني؟ لذلك، فإن المرء يشعر بكثير من الريبة والشك، عندما يقرأ ترجمة ذاتية أو مذكرات، مع أنه يستمتع بها. ولكن المتعة شيء والحقيقة شيء آخر.

وإذا كانت هذه الملاحظة تنطبق على رجال السياسة، فلعل أهل الفكر وأصحاب الأقلام، يكونون أقرب الى الصدق وألصق بالحقيقة، من الجماعات العاملة في المجالات السياسية.

وقد دوّن الكثيرون، من العامة، في العالم العربي مذكراتهم، ووضعوا سيراً ذاتية لأنفسهم، على غرار ما نقرأ لأهل الغرب. لكن العدد لا يزال ضئيلاً. ويا ليت الرعيل الذي عمل في مختلف الحقول الفكرية والسياسية والفنية والعلمية، خلال المائة سنة الماضية، ترك أخباره مدوّنة وأوراقه واضحة. ذلك أنه، مع التحفظ الذي أشرنا اليه قبلاً، فإن التاريخ ـ تاريخ الجماعة والأمة ـ إنما هو جماع تاريخ أفرادها. والذين خلّفوا لنا إرثاً، من هذا النوع، قلّة.

وهنا يمكن التساؤل عن عدد الذين دوّنوا مذكراتهم عن العمل السياسي، في دنيا العرب، منذ الحرب العالمية الأولى الى الآن، وعن عدد الذين أخبرونا مباشرة عن الحركات العربية، التي عرفتها دنيا العرب، في أواخر القرن الماضي، ومطلع القرن الحالي. قليل عديدهم، ولا شك، وهم يستحقون العناية.

والواقع أنه عندما يبدأ المرء بتقصي الحقائق، يجد أن العدد هو أكبر من

توقعاته، وإن كان دون ما كان يأمله. فهناك من كتب مذكرات بناءً على تكليف شبه رسمي. كنقولا الترك، الذي كان من رجال الامير بشير، كلّف بالذهاب الى مصر، أثناء حملة نابليون هناك، ليشرف على الأمور عن كثب، ويخبر سيده بالأمر. وكانت النتيجة ان دوّن مذكراته، التي هي تاريخ للحملة الفرنسية على مصر. والألطف من ذلك، أن ديوان نقولا الترك فيه الكثير مما يمكن ان يعتبر مذكرات، لأن الرجل كان نظّاماً، ولم يكن شاعراً.

ونحن، هنا، نعنى بالنواحي غير السياسية من المذكرات. فمع ان نقولا الترك كان من رجال الأمير، فإن الذي يعنينا منه، هو نظرته الى الثورة الفرنسية، وتفسيره إياها. وهناك شخص آخر، كان معاصراً للأمير بشير، ورافقه مدة، لكنه عاش، بعده، مدة طويلة، هو رستم باز. ومذكرات رستم باز ذات أهمية اقتصادية واجتماعية كبيرة.

والواقع هو أن أكثر الذين سنتناولهم، هم من أهل الفكر، حتى ولو كان بعضهم، قد عمل في وظيفة إدارية أو قضائية. فهذا الرجل، لو لم يكن لديه نزعة للتحالف مع القلم، ولو بشكل من الأشكال، لما جلس يدوّن مذكراته. من هؤلاء، مثلاً، قاضٍ كبير، ومدير بوليس، ومحام وشاعر وأديب. ومن خلال هذه المحاولة، نستطيع ان نرسم صورة، ولو مجتزأة، لحياة هذا البلد، خلال بضعة عقود من السنين.

وحتى الصورة المجتزأة، كما نسميها، تحتاج الى عدد أكبر بكثير من هؤلاء الذين سنتناولهم. فالصورة، التي قد ننجح في رسمها، هي مجرد أجزاء صغيرة من صورة كبيرة. وقد لا تتلاءم أجزاؤها تماماً، فلا تظهر تامة. لكن الامل هو أن يتكرر هذا العمل، وعندها تلتحم الاجزاء، وتتلاءم، وتخرج منها أوصاف للحياة اللبنانية متكاملة.

وقع اختيارنا على جماعة منوّعة الاتجاهات، متعددة النظرات، بين أفرادها الشاعر والكاتب والموظف والمحامي والعامل في الحقول العامة. ومذكرات هؤلاء الناس، التي تصوّر الجو والبيئة والمجتمع، أكثر مما تمثل الأفراد أنفسهم، تبرز التفاعل الذي قام بينهم كأفراد وبين مجتمعهم.

وهنا مجال للتنويه بكتاب، نشر قبل سنوات، وكان فيه أصوات لرجال متعددين، روى كل منهم ذكرياته، وكانوا رجالاً من جنوب لبنان. ويعود الفضل، في إصدار هذا الكتاب، الى المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، الذي دعا مجموعة من أدباء الجنوب، وطلب الى كل منهم، أن يتحدث عن نفسه متذكراً شارحاً مفسراً بمنتهى الحرية.

ولبى الدعوة، آنذاك، ستة، هم: السيد حسن الامين والشيخ علي الزين والسيد علي ابرهيم والشاعر موسى الزين شرارة والصحافي ألفرد أبو سمرة والصحافي سليمان أبو زيد.. وقد نشر المجلس الثقافي للبنان الجنوبي الكتاب، في مطلع سنة ١٩٨١ م، باسم «من دفتر الذكريات الجنوبية».

٢ ـ مذكرات نقولا الترك

ولد نقولا الترك في دير القمر، سنة ١٧٦٣ م. وعمل، منذ شبابه، في قصر الامير بشير الشهابي (١٧٨٩ ـ ١٨٤٠ م). ويبدو أن الامير، لما بلغته أخبار الحملة الفرنسية (نابليون ١٧٩٨ م) على مصر، أرسل نقولا الترك الى القاهرة، ليشاهد، عن كثب، مجرى الأحوال، وليرسل تقريراً عن تلك الحملة وما رافقها.

ظل نقولا الترك في مصر حتى سنة ١٨٠٤ م، عاد بعدها الى دير القمر، حيث بقي في خدمة الامير حتى وفاته.

ونقولا الترك شاعر، وله ديوان نشر في بيروت سنة ١٩٤٩ م، ولعله الى النظّام أقرب منه الى الشاعر. لكن الرجل، بحكم صلته برجال الحكم، واتصاله بالزعماء ـ أصدقاء الامير وخصومه ـ وتعاطيه دور مشاور لصاحب القصر، في بيت الدين، كان وثيق الصلة بمن كان يأتي بيت الدين ودير القمر، التي كانت مركزاً تجارياً مهماً يومها. لذلك، تعرف الى الأمور من منابعها، بقدر الإمكان.

ومما يجب أن يذكر، هو أن نقولا الترك، كان يؤرخ، في شعره، للأحداث، كبيرها وصغيرها. فنابليون يحييه إذ يدخل القاهرة، ويرثي كليبر لما قتله سليمان الحلبي. وعودة العثمانيين الى مصر مؤرخة في قصيدة. هذه من الأمور الجلّى. لكن هناك تواريخ لزواج ابن المعلم ملطي، ولحفل يربط بين الشوام، ولتعيين أحدهم قنصلاً فخرياً في مصر.

ترك المعلم نقولا الترك القاهرة، سنة ١٨٠٤ م، وعاد الى دير القمر. وابتنى لنفسه داراً لائقة به، كما اشتهى. ولم يكن لنقولا الترك مرتب خاص، إنما كان يعيش على «كيس الأجاويد»، والأجاويد كانوا يومها كثراً. فإذا احتاج الى شيء، مأكولاً كان ذلك أو مركوباً أو مشروباً أو ملبوساً، نظم قصيدة، وجهها الى من يعرف كرمه، فتأتي الطلبة حالاً. فكان القمح والعدس والحمص والأرز والجبن والزيت والسمن والدخان والعطوس، يبعث بها اليه الامراء والمشايخ.

أما الأمير بشير، فكان يخص نقولا بخلع الفراء، في الشتاء، والسراويل والقباء والعمائم وما يترتب، في المواسم والأعياد. ومن الامير، كان يأتي المركوب ـ برذوناً أو بغلاً أو حماراً.

أصيب نقولا الترك في عينيه، فعجز عن القراءة والكتابة، فكانت ابنته وردة تقوم له بذلك. ومن المرجح، أنه توفي سنة ١٨٢٨ م. هذا هو نقولا الترك.

أراد الترك، على حد تعبيره، أن يؤلف كتاباً فيه: «تاريخ ذِكر ما يمر من الحوادث الكونية والحركات الكلية كقيام دولة على دولة واشتهار الحروب المهولة وما يتعلق بذلك من المواقع المريعة والأمور الفظيعة».

وكان ان قامت الثورة الفرنسية وما تبعها من أحداث، والتي صادف ان عايشها المعلم نقولا الترك، هناك ووصفها بالقول: «إنه في هذه السنة هاجت شعوب مملكة فرانسا الهيجان الكلي وقامت على ساق وقدم ضد الملك والأمراء والأشراف متطلبين ترتيباً جديداً ونظاماً حديثاً ضد الترتيب الموجود الكائن في مدة الملك، بادعاء أثبتوه ان وجود الملك بصوت منفرد أحدث خراباً عظيماً في هذه المملكة، وان الامراء والأشراف متنعمين في خير هذه المملكة، وباقي شعوبها في غاية الذل والهوان. فلذلك نهضوا كلهم بصوت واحد قايلين لا راحة لنا إلا في نزول الملك وقيام المشيخة».

طريف هذا الوصف للثورة الفرنسية. ويبدو كأن كل شيء، قد تم في يوم واحد، أو ما يقرب من ذلك. ويضيف الترك قوله: «وكان يوماً عظيماً في مدينة باريس، وارتج الملك وباقي أرباب دولته من الامرا والاشراف، ودخلوا على الملك وأفهموه غايتهم. وهو ان الملك لا يستطيع ان يبت حكماً أو يقدم رأياً من تلقاء نفسه. بل يكون بت الأحكام وباقي ترتيب نظام المملكة برأي مشايخ الشعب. وذلك بموجب ديوان عظيم وجمعية، ويكون الملك له الصوت الأول ومن بعده مشايخ الشعب، وانه بهذه الواسطة يصلح حال المملكة».

فماذا كان من الملك أمام هذا الموقف القوي؟ يقول نقولا الترك: «هذا ما ارتأته شعوب فرانسا وقدموه الى الملك. فحين نظر الملك قيامهم هذا العظيم وهيجانهم واحمرار أعينهم، خاف خوفاً عظيماً، وقال لهم أنا مطيع بكامل ما تروه مناسب لأنني أنا أيضاً أحب عماد المملكة ونظامها وخيرها. فقالوا له ان كنت حقاً كما تزعم فاختم إذاً على هذه الشروط. وكانت الشروط متضمنة قيام المشيخة وابطال صوت الملك وحده. فختم حالاً الملك على الشروط التي قدموها له، وفرح الشعب فرحاً عظيماً بنفوذ كلامهم».

بمثل هذه السهولة، روى نقولا الترك ما تصوره عن قيام الثورة الفرنسية. أما الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، والغليان وإحراق الوثائق، والهجوم على الباستيل، فهي أمور لا يذكرها قط.

يتابع نقولا الترك قوله، في وضعه لهذا التاريخ: «وبعد أيام قليلة جداً جهز الملك نفسه وفي ذات ليلة خرج من مدينة باريس مع باقي أصحابه ورجاله هارباً من بين أيدي الشعب قاصداً بلاد النمسا عند الانبراطور أخو امرأته. فبلغ مشايخ الشعب ذلك

فحالا جدوا في طلبه والتقوا به ومسكوه وأحضروه رغماً وأدخلوه الى مدينة باريس بكل ذل وهوان وقام شعب فرانسا قياماً تاماً».

ثم نادى الشعب، بصوت واحد، صارخين: «فليقتل الملك على موجب شريعة المشيخة كون أنه خان عهده مع مشايخ شعبنا، ولا هرب منا إلا لكي يلتجى الى الانبراطور أخو امرأته ويستعين به علينا. فإذا يقتل شرعاً مع امرأته التي بسببها حصل عليه وعلينا الخراب حالا وأحضروه جهاراً أمام الشعب مع امرأته وأولاده وقتلوهم جهراً وكان يوماً عظيم في مدينة باريس».

ومن المناسب، ان نتذكر هنا، أن نقولا الترك يستعمل الكلمات المألوفة في منطقة وحدود معرفته، للتعبير عن الأحداث والمواقف الفرنسية. فهو يقول المشيخة والمشايخ ومشايخ الشعب، وهو يستعمل الديوان، ويذكر كلمة جمعية. وهذه هي التعابير التي حسب أنها توضح ما قام به الفرنسيون. لكن أهم ما يجب أن لا يغيب عن بالنا، أن «الزمن» لم يكن له عند نقولا الترك أي حساب. ولماذا يكون له، وهو يتحدث عن بلاد قاصية، وعن حركة كل ما يربطه بها الآن، إن «الفرنساوية» جاءوا مصر. وأنهم غُلبوا على أمرهم، وخرجوا من البلاد، وأنهم لم يستطيعوا أن يستولوا على مدينة عكا، التي كان الجزار يحكمها.

يدوّن نقولا الترك حادثة اغتيال كليبر، الساري عسكر، أي القائد العام، الذي خلف نابليون، لما عاد هذا الى فرنسا، بعد رجوعه من عكا منهزماً. يصف الحادثة بشيء من التفصيل، كما سمعها، أو تحقق منها، حسب زعمه. حدث القتل في ٢١ من شهر محرم الحرام سنة ١٢١٥ للهجرة وكان الوقت قبيل العصر. طعن سليمان الحلبي الجنرال ثلاث طعنات، وهرب الى الجنينة المجاورة لحديقة منزل الجنرال. وكان هناك نجارون يعملون فوقعت الشبهة عليهم.

يقول نقولا الترك، واصفاً القبض على سليمان: «ورجع سليمان وضرب الساري عسكر الضربة الثالثة وهرب. فحين حضر داماس ورأى ما حدث مسكوا النجارين، فصاحت عليهم امرأة من أحد الشبابيك التي كانت تطل على الجنينة وقالت لهم ان النجارين بريين والقاتل دخل الجنينة متخبي كون الامرأة نظرته... فلحق به العسكر الفرنساوية ووقع في أيديهم. ولولا ذلك لكانت الفرنساوية دورت ضرب السيف في المدينة لأنه هكذا اعتمدوا».

وأخذ المحققون يستجوبون سليمان، ويسألونه عن السبب، وعن أصل ذلك. فقال لهم: «أنا حلبي واسمي سليمان وأنا الذي قتلت الساري عسكر. لا تتهموا غيري. وهذه السكين تشهد عليّ بأني أنا الذي قتلته. فقالوا له لماذا فعلت ذلك، وما مقصودك ومن الذي أغراك على هذا الفعل؟».

فكان جواب سليمان كما يلي: «نحن كنا في حلب جملة شباب فقال لنا الآغا من

منكم يا شباب يقدر يروح يقتل سلطان الفرنساوية في مصر. فقلت له أنا وحيات سيدي أقدر أروح أقتله. واجي. فقال لي ان كنت تقدر تقتله وتخلص الأمة من شره، يحصل لك انعام كبير من الوزير. ثم أعطوني كم غرش خرجية. وجبت اشتريت هذه السكين ولي كم يوم وأنا انتهز فرصة. ولما كان في الجيزة رحت لعنده، وما وقع لي فرصة، وما زلت أترصّد حتى وقعت لي هذه الفرصة وقتلته وخلصت الأمة من شره. وكان يكلمهم بكل جرأة».

وعندها، أتم المحققون استجواب الحلبي على النحو التالي، كما يقول نقولا الترك: «هل لك شريك في ذلك، فقال لهم ما أحد عنده خبر سوى ثلاثة مجاورين في الازهر غزازوة (أي أصلهم من غزة). واعطا أساميهم فبالحال أحضروهم . وحين أثبتوا عليه من اقراره وأثبتوا ذلك على المجاورين من شهادته عليهم، فأثبتوا عليهم القتل. وكتبوا في شأن ذلك كتاب وطبعوه في مطبعتهم نسختين عربية وتركية».

وقد نقلها نقولا الترك في كتابه.

ويروي نقولا الترك، كيف شاعت الاخبار، بأن الجزّار وُلّي أمر مصر، ومدى ما أصاب الناس من جزع لذلك. يقول: «وفي نهار الخميس المبارك ثاني يوم من شهر المحرّم سنة ١٢١٩ هلالية الموافقة الى سنة ١٨٠٤ ميلادية، حضرت الأخبار من مدينة دمياط الى مدينة مصر بأن أحمد باشا الجزار المتولّي على الأقطار الشامية حضرت له الأوامر من الدولة العلية بولاية مصر. وأنه صنع زينة عظيمة في جميع حكمه ثلثة أيام، وضرب المدافع الكثيرة. وصار خوفاً عظيماً عند غالب الناس في مصر».

ويفسر المؤلف سبب الخوف بقوله: «وذلك خوفاً من صرامة حكمه وشدة ظلمه لأن هذا الوزير المومى اليه كان له تسعة وعشرين سنة وزيراً مقيماً في مدينة عكا، ومتمكناً فيها وفي جميع ضواحيها. وفي سنة تاريخه تمكن من الشام وجهاتها، وامتد حكمه من عريش مصر الى حدود حلب الشهبا؛ وأظهر الغرايب والعجايب بأحكامه الصارمة. وكان جباراً قهاراً مرعشاً فرايص الخليفة بسطوته وعلو همته ونفوذ كلمته وطول مدته وحسن خيرته».

ولكن الله سلم مصر والمصريين من شر الجزار وزبانيته، ففي «عاشر يوم من صفر من السنة ١٢١٩ شاعت الأخبار في مصر عن ألسُن السفّار بموت أحمد باشا الجزار. وصار هرجاً عظيماً في مدينة مصر بموت هذا الوزير القهار. وكانت الناس في ذلك ما بين الشك واليقين، إذ كانت تشاع عنه مثل هذه الاخبار في غالب السنين».

ولكن هذه المرة كان الخبر صحيحاً.

ومن المناسب، ان نقدم مثلاً من شعر نقولا الترك، لا لتصوير شاعرية الرجل، فهو، باستثناء مقطوعات قليلة، كان نظّاماً. كان مؤرخاً وكانت مذكرات شعرية مع مديح

أو طلب، الأول تمهيداً للثاني. وقد لا يذكر الطلب بالذات، لكن الأمر معروف. فمن ذلك، أن جمهوراً: «من التجار الشوام في القاهرة أجمع رأيهم على أن يقيموا على طايفة الروم الكاثوليك ثلاثة أشخاص وُكلا عنهم في مقابلة الحكام».

ويضيف الترك، قائلاً: «ومع مقابلة الحكام يباشر هؤلاء الثلاثة ما يرد عليهم من حوادث جزئية وكلية. فانتخبوا يوسف فرحات ويوسف الكحيل ويوسف القريصاتي».

وقد اقترح الثلاثة، على نقولا الترك، نظم قصيدة للمناسبة، فقال:

السعدُ ناصره وفى	والنحس ولّى وانتفى
فاستبشرى يا فيئة	قد ساءها فرط الجفا
فاليوسفان تثلَّثت	اسماؤهم ذات الصفا
فرحاتهم مقدامهم	باليوسفين تولَفا
طبع الكحيل مهذب	نطق القريصاتي شفا
قد أنعم المولى بهم	والدهر جاد وأسعفا
أوصافُهم محمودة	فيها سماعي شنَّفا
محمودة آراؤهم	تبدي الصواب إذا اختفى

والقصيدة طويلة، وهي على هذا المنوال. وهذه نماذج مما دوّنه نقولا الترك في مذكراته وديوانه. وقد قال، ناشر الديوان، البستاني عن نقولا الترك اجمالاً: «فهو لا يسمو فوق آثار التقليد النظمي... فظل شاهد عصر دقيق النظر مرهف الشعور صائب القياس بصير الحكم لكنه كان سيّىء التعبير».

٣ ـ مذكرات رستم باز

ولد رستم باز في دير القمر، سنة ١٨١٩ م، والتحق بخدمة الأمير بشير، لفترة وجيزة نسبياً من حياته. ولما انتهت ولاية الأمير سنة ١٨٤٠ م، ونفي الى مالطة، رافقه رستم باز، وانتقل معه الى استانبول، وخدمه حتى وفاته، سنة ١٨٥٠ م. وفي نيسان/ابريل سنة ١٨٥١، عاد رستم باز الى بيروت بصحبة الست حِسن جهان، زوجة الأمير. وقد مات رستم باز في جبيل، سنة ١٩٠٢ م، لكن ماذا حدث له، بين عودته مع حِسن جهان ووفاته؟

تعرف رستم باز، أثناء اقامته في استانبول، على المدينة وأسواقها وحاجاتها. لذلك، فكّر بالعودة الى استانبول، ليعمل هناك في التجارة. وكان ترتيبه، أن يقوم أخوه، القاطن في بيروت، بشراء البضائع وشحنها الى رستم، الذي سيقيم في استانبول. لذلك، هيّأ الأمور على الشكل الذي نقرأه في مذكراته.

كتب رستم باز مذكراته في أواخر عمره، بعد ان انتقل الى جبيل. والمذكرات مكتوبة بلغة عامية، لكنها طريفة، من حيث بساطتها وصحتها ودقتها وصدقها.

ذهب رستم، مع ابن عمه داود، لزيارة أمين أفندي الإزمِرلي، لأن هذا، كما يقول رستم: «كان مراده يسافر الى إزمير ومنها الى اسطنبول».

وقال له ابن عمه داود: «هذا الانسان محب لنا... وقادر يأخذك معه بلا ناولون، يعني بدون أجرة سفر على المركب. والبضايع الذي تأخذها معك يخلّصها من الكمرك».

وذهب رستم مع داود، وتمّ الترتيب للسفر.

ويقول رستم: «ثم اشتريت صندوقين فراغ ووضعتهم في الدار في بيتنا براس النبع. وتوجهت أنا والمرحوم أخونا لدير القمر لمشترى قماش».

ولكن لماذا الذهاب الى دير القمر؟

كانت دير القمر، يومئذ، مركزاً صناعياً تجارياً هاماً. يقول رستم باز:

«صار فيها من النّوَال عدد ٣٠٠ تشتغل قماش، وستة نوال قماش منطّر وأربعين نوال عبي. وصياغ وعقادين أكثر من ٦٠ معلم ومحلاتهم معروفة... وأما قيسارية الكبيرة للتجار وبها ميزان الحرير. ومن الصنايع الفتالين والصباغين والدباغين والصابون».

طريفة مذكرات باز هذه ومفيدة. يقول: «أكثر حرير لبنان يورد لقيسارية التجار ويسلّم للسماسرة... فتشتريه التجار وترسله للشام وحلب وحمص وحماه، ويصرف منه جانب بالدير للنوال والشراريب وعقايص النسا. وكله يزان بميزان الحرير. وكان أكثر من خمسماية حرمة تعتاش من كسب الحرير».

ومن قوله: «وقيسارية محشوكة في البضايع من جنس تجلبها التجار من كل جهة. وبيروت قلة ما كانت معروفة عندهم. كانت صيدا وحلب والشام».

لهذا السبب، ذهب رستم وأخوه للاستبضاع من دير القمر، وهناك، اشترى أخوه له: «ماية وعشرين طاقة قماش صورية (صُرَّتي) ٦٠ وبُرسُلّي ٦٠ والثمن بضهر بعضهم قوّم ٦٢. ودفع قدر ثلثين الثمن وما بقي الى ثلاثة أشهر».

وحمل رستم باز وأخوه البضاعة الى دارهم في بيروت، وأخذا ينقلانها الى دار أمين أفندي. ومن بيروت اشترى رستم وأخوه، على حد قوله: «زنار طرابلسي ثلاثون أقة والزنار كان ثلاثة فجّات دوده وأصفر وأبيض. ووزن الزنار لا يقل عن ماية وعشرين درهم الى المايتين درهم».

وتفسير معنى هذا القول: اشترى الاخوان باز زنانير طرابلسية وزنها، مجموعاً، ثلاثون أقة. والأقة تساوي ٦٠٠ غرام. فمعنى ذلك، أنهما اشتريا عدداً من الزنانير الطرابلسية وزنها ما يعادل ١٨ كيلوغراماً، وعددها نحو ثلاثين زناراً. وكانت بثلاثة ألوان. ولنتابع الآن أقوال رستم باز: «وهذا أي الزنانير مطلوب السياس والعربجية في اسطنبول وغيرها».

لكن رستم كان معه بضاعة من أنواع أخرى، يذكرها بقوله: «شراريب حرير للعساكر شغل بيروت، الآقة ٢٥٠ وشرابه شغل صيدا عال الأقة ٣٠٠، ودكك حرير منهم شراريبهم بقصب ومرجان، ومنهم بلا ذلك الأقة ٣٠٠ الى ٤٠٠، وكنادر وأكياس خديديَّات شغل الزوق. وزنار أسود حرير لرجال الدين الروم والأرمن».

ويقول رستم:

«لما تم شغلنا وعبينا صندوقين ومَسْمَرْتهم وخَيَّشْتهم وحزمتهم بالمَرص (بالمرس) أحضرنا صندوق ثاني. ويوم سفرنا حضرت الى دار أمين أفندي فأرسل أواعيه والصناديق مع خدامه الى البابور أي المركب».

ويقول رستم، عن ساعة السفر، ما يلي: «وقبل الغروب بساعتين خرج الافندي من داره وحمّلني الشنتة. وتبعناه أنا وخدمه الثلاثة الى البحر. وجدت أولاد عمنا وأخونا. فودعتهم وكنت ودعت والدنا ووالدتنا. وسافرنا من بيروت بعد غروب الشمس في أول ايلول سنة ١٨٥١، فوصلنا أزمير بكل راحة».

لم يخبرنا رستم كيف صرف وقته في البابور، في الطريق الى أزمير. وهو كان ينوي الذهاب الى اسطنبول. لكن أمين أفندي اقترح عليه غير ذلك أي ان يبقى في

أزمير. يقول رستم، ان الناس تواردت للسلام على أمين أفندي في داره. وكان رستم هناك. يقول: «كنت أساعد الخدم بتقديم التطلي أي المربّى والقهوي وأراكيل وشربات».

وبعد ثمانية أيام، اقترح أمين أفندي على رستم أن يبيع بضاعته في أزمير، عن يد همشري، أي صاحب، من بلده اسمه حنا. وأضاف الأفندي: «ان حنا الصوصا رجل زريف مولّع بالكيف ودق الكمنجا وبضاعتك في أزمير نافقة أكثر من اسطنبول... خذ صندوق لعند حنا الصوصا، وهو يدبّر المشترية».

وهكذا كان. فقد ذهب رستم الى مكان اقامة حنا، في خان قزلر، وحمل معه أحد الصندوقين. ولما رأى حنا الصندوق، وفتحه، عتب على رستم، لأنه معه مثل هذه البضاعة وهو مخبئها في أزمير. يقول رستم: «قال حنا افتحوا الصندوق وغاب مقدار ورجع وراه جمهور. فنظروا أولاً القماش ستين طاقة. وتم البزار (أي البيع) كل طاقة بماية قرش. والزنار وخلافه. وحضروا ميزان ووزن حنا وصديق لي. ودفعوا الثمن، وقسموا الرزق بينهم».

ويتابع رستم روايته: «وثاني يوم حضر لعندي حنا وقال يا أخ بعد عندك شي مثل الذي بعناها؟ قلت باقي صندوق والبضاعة مقسومة بهذا وذاك. فأتى بحمال وحمل الصندوق وتبعه الصديق وفتحناه. وأتى بالمشترية فاشتروه بثمن الأول وقبضنا الثمن. وبعت صناديق الفارغة والخيش والمرص ٣٥ غرش».

وهكذا، فإن رستم لم يُضِعْ شيئاً.

واهتمّ رستم بأن يبعث النقود الى أخيه، كي يبتاع له بضاعة جديدة، ويرسلها إليه. يقول في وصف عملية ارسال النقود: «اشتريت دراهم خام وخيّطت كيس ووضعت ثمن البضاعة وهي ليرات سبعة وسبعون ألف (قرش) الرسمال ستين ألف (قرش). وربطت الكيس وختمته ووضعته ضمن صُرَّة وختمتها. وكتبت الى أخي وأخبرته أنه بعد ثمانية أيام نسافر الى اسطنبول. وأخذت ورقة شحن من بيت البابور (أي المكتب) وسلمته الصرة. ولم أبقي معي بارة من ثمن البضاعة. لأن معي ألف قرش لم أصرف منها بارة».

وذهب رستم باز الى استانبول. وهناك، حصل على غرفة، في خان زنبلي. وكان بطرس كرامه، وهو أحد شعراء الأمير بشير، يقيم في غرفة مجاورة. يصف رستم الغرفة، التي استأجرها، وصفاً دقيقاً، لكن ليس في نقل هذا الوصف أيّ لذة أو فائدة. إلا أن الطريف، هو أنه بعد أن غسل الغرفة، أو الأوضة كما يسميها، وطرشها وأثثها. يذكر الأثاث، الذي وضعه فيها، بالتفصيل مع ذكر أسعار الاشياء التي اشتراها. وقد جمع ثمن هذه الاشياء، فكان ٧٣٦ قرشاً.

وقرأت لائحة الحاجيات، التي اشتراها، فكان بينها: «فرشة ومقاعد ومخدّة

وسجادة حصير وطناجر نحاس ومقالي نحاس، وطقم قهوي وطاحون للبن وصحون وكبايات وملاعق وسياخ ومنقل وطباخين حديد».

أما الأشياء اللازمة للأكل، فهي: «سمن عال مسكوبية رطل ٣، زيت رطل ٢، بن يمني رطل ١، سكر انكليزي قالب رطل ٢، قنطار فحم، شمع شحم رطل ١».

ولم ينس رستم أن يبتاع «أراكيل وصينية كبّة». ويقول: «ثم عرفت ان البابور النمساوي حضر من بيروت فذهبت الى غلطة، وهي الحي التجاري يومها. وجدت مكتوب من أخي يطمني عن الصرة، وأنا طالع للدير لمشترى القماش وان شاء الله بأقرب وقت نرسل المطلوب. وكذا مشي حالنا».

وفي سنة ١٨٥٤ م، وصل الأمير أمين ارسلان الى استانبول، وكان أخو رستم، قد أرسل له مكتوباً، يقول له، فيه: «أفندينا الأمير أمين ارسلان توجه في البابور النمساوي إلى اسطنبول لاقوه إلى البابور واعزموه إلى عندكم يرتاح. وتقيدوا بخدمته. ومهما تيسر معكم من الدراهم ولزمته إدفعوها له. وهي أربح لكم من ارسال البضايع. لأن الحال هنا واقف (أي في بيروت)».

ذهب رستم باز الى البابور، واستقبل الأمير، ورافقه الى غرفته، حيث ارتاح الأمير، وأكل قبل ان يذهب الى بيت شكيب باشا، مضيفه. ويقول رستم: «وكان الأمير يحضر عندنا كل صباح يأكل لقمة ويتوجّه».

وكان الامير ارسلان، يومها، قائمقام الدروز، أيام القائمقاميتين.

وأخذ الامير أمين يتأهب للرجوع. وقبل سفره بيوم، جاء الى بيت رستم. يقول صاحب المذكرات: «وقبل سفره بيوم حضر الى عندي وقال لي: أنا اليوم ضيفك. قلت: أهلاً وسهلاً. ثم قال: اذهب الساعة الى بيت (أي مكتب) بابور النمسا واقطع ورقة في سبعة أنفار على الضهر وأنا بالسكونده (أي الدرجة الثانية). وكانت عادة في بيت البابور إذا كانوا ثلاثة ركاب يخفضوا الاجرة. فاتفقت معهم على سعر مخفض. ولما رجعت قال لي ماذا لك عندنا... وعندها جمع كل ما كان لرستم باز عند الامير أمين مع الناولون (أي تذكرة المركب)، فكان المبلغ جميعه ٣٢ ألف قرش. فأخذ الامير ورقة وكتب يطلب منا الى محبنا رستم آغا باز ستة وثلاثين ألف. هذه أربعة آلاف نظير أتعابه قدامنا. وختم الورقة بعد ان شرح أنه بعد وصولنا الى بيروت في ٢١ ندفع المبلغ الى محبنا الخواجا ابرهيم باز».

وابرهيم هو أخو رستم. ويضيف رستم: «ولما وصل لبيروت أرسل لي الصرة كما وعد».

والصرة هذه، كانت نفقات اضافية، جاءت بعد تقييد الحساب السابق.

ثم عاد رستم الى بيروت، سنة ١٨٥٧ م. يقول في ذلك: «ولما تم شغلنا سافرنا الى بيروت. وكان أخونا مستأجر دار... واستأجرنا دكانين واحدة وضعنا فيها منصور

والثانية قعدت أنا وأخي. والنَّول منصوب في البيت دايماً واحد يشتغل فيه، لأن شغلنا مرغوب في اسطنبول».

إلا أن رستم لم يعد الى بيروت بسهولة. وها هو يروي ذلك، إذ يقول: «وحضر الى عندي في اسطنبول المرحوم ابن عمنا داود. وقال لي يا رستم أنا كتبت الى ولدنا سعيد ليحضر ويجيب معه ابن أختي عبود لأجل خدمته ونضعه مكانك. وأنت وأنا نرجع الى البلاد: كفاك غربة، وننهي قضية ابنة فارس لحود، لأنها موقوفة لحضورك. وأنا أوعدتهم بأن أخذك معي».

فماذا كان وقع هذا الكلام في نفس رستم؟ يقول، واصفاً حاله: «فوقع هذا الكلام في أذني موقع يقال لرجل ماخدينك للشنق. لأني في عز شبابي وفي راحة وفي عز وحرية، معزوز عند معارفي. وكان توفي المرحوم والدي. وأقنعني ابن عمي بأن اسطنبول تبقى مكانها بأي وقت ترجع اليها. وكيف نرضى بأن يقال طلبوا بنت فارس ولم يعطوهم إياها؟ وخلافه حتى هوّن علي الأمر: فحضر ولدنا سعيد وعبود وأقمنا معهم شهرين ندربهم على الأشغال. وقد سلمت لولدنا سعيد بقية بضاعة كانت قد كسدت بسبب الحرب (يقصد حرب القرم)».

ورغب رستم في الزواج. يقول، بمنتهى البساطة: «وتوجهنا أنا وابن عمي داود الى عمشيت، ونظرنا ونظرونا. وقد تم الاتفاق بوضع الخطبة... وكانت أفكاري متجهة نحو السترة، لأن من نظر بنات الروم ونسا اسطنبول لا يعجبه بنت. ولما رجعنا أرسلنا أخونا وضع الخطبة... وفي ٦ أيلول عيد مار ميخائيل سنة ١٨٥٧ تزوجت. وفي ٤ حزيران خميس الجسد سنة ١٨٥٨ خلق ولدنا سليم».

ثم يقول رستم: «وأتت سنة ١٨٦٠ وخراب الجبل. فتركنا بيروت الى جبيل».

وقد دوّن رستم مذكراته، سنة ١٨٩٧ م في جبيل، وذلك قبل وفاته بخمس سنوات، إذ إنه توفي سنة ١٩٠٢ م، كما ذكرنا.

ويقول رستم، في نهاية مذكراته: «والآن أقول كلما كتبته الى هنا معلوم. أما من أيام الجزار (وقد ذكرها في مكان من مذكراته)، وكل الحوادث التي لم أكن موجود في الدنيا ولكن بالسمع من المرحوم والدي ووالدتي ومن الرجال القدم الذين كانوا يحضرون للسهرية والصبحية. ودايماً كان حديثهم عن حروب وحوادث قديمة. ومن كوني كنت أرغب اسمع وأحفظ كلما يقع في أذني».

ويقول، فيما يتعلق بالأمور الحديثة، ما يلي: «ولأمور الحديثة هذه في نظر عيني. ولم أعرف انني نسيت حادثة جرت وشاهدتها، وعندما أتذكرها كانت تتصور لي كأنها جرت أمس. وقد تركت أشيا كثيرة لم أذكرها ...»».

ويضيف موضحاً أحواله: «ثم أقول أنه لا بد يوجد فيما كتبته تقديم وتأخير في التاريخ، لأنني لم أكتب عن كتاب موجود، بل عن حفظ وتفكر مطبوع في دماغي. وكيف

بدّك حوادث جرت من عهد خمسة وستون سنة؟». ويضيف: «كل ما كتبته هو بلا زيادة ولا نقصان».

وفي آخر مذكراته، يضع رستم باز خمسة ملاحق، أولها يصف فيه دير القمر، في أواسط القرن التاسع عشر، وثانيها يذكّر فيه نسب أولاد باز، أي أسرته. ويحدثنا، في الثالث، عن أصحاب الوظائف، في بتدّين (بيت الدين)، أي قصر الامير بشير ومراتبهم. ويصف عمامة الامير، في ملحق رابع؛ وأخيراً، يخص الملحق الخامس والأخير بوصف الملبوس الدارج، زمن المؤلف.

٤ ـ ذكريات رضا التامر

في سنة ١٩٠٦ م، وُلِدَ، لمحمد التامر صبي، سماه رضا. وكان ذلك في قرية كفر دجّال، بقضاء النبطية. ثم انتقلت الأسرة الى قرية تولين، في قضاء مرجعيون، وكان رضا قد بلغ الرابعة من عمره. وحكم على الوالد، سنة ١٩١١، حكماً غيابياً، بالسجن خمس عشرة سنة. لذلك، ظل الوالد متوارياً عن الأنظار، تجنباً لتنفيذ الحكم فيه، ولم يُعفَ عنه، إلا قبيل الحرب العالمية الأولى. وفي سنة ١٩٥٥ م، نشر القاضي الكبير، رضا التامر، ذكرياته، في كتاب، أقل ما يقال عنه، إنه كان صادقاً لكاتب صادق.

وإن كانت هذه الشهادة بحاجة الى تزكية، فنجدها، في المقدمة، التي كتبها حبيب أبي شهلا، لهذه الذكريات، قال، فيما قال: «... وما بدأت أقلّب الصفحات الأولى حتى تحوّلت الى قارىء بدقة إذ تذوّقت هذه الصفحات وما انطوت عليه من ذكريات طريفة ومن آراء قيّمة وعبر متنوعة كتبت بأسلوب سهل شيق يملك عليك شواعرك ولا يتركك إلا وقد انتهيت من قراءة الذكريات، وأنت غير شاعر إلا بلذة عميقة وبإعجاب وتقدير».

ولحبيب أبي شهلا كلمة، في صاحب المذكرات، جاءت أيضاً في المقدمة، إذ قال عنه: «رضا التامر رجل علم وتجرد ونزاهة وجرأة واستقلال. ومن كانت هذه صفاته لا يمكن إلا ان يفوز في جميع الامتحانات والميادين».

فقد قضى رضا التامر حياة تشرد مع أسرته، إذ نشبت ثورة في جبل عامل، بعيد الاحتلال الفرنسي. وهو لم يدخل مدرسة، لكن أباه هيأ له معلمين، ليعلموه قراءة الحرف. يقول رضا، في هؤلاء المعلمين: «ما كان هؤلاء بمعلمين حقاً، ولكنهم كانوا من أشباه الأميين ممن يطوفون بأهل اليسار في القرى يستضيفونهم أو يستجدونهم ما يسد بعض جوعهم».

لكن رضا تعلم، يوم صرخ به والده، إذ هوجم: «منزلهم ذات صباح باكر وهم ما زالوا نياماً، بالمدافع تقصفه. فيخرج رضا صارخاً مولولاً، فإذا بوالده يصرخ في وجهه، ولك لا تبكي. ابن محمد التامر ما لازم يبكي».

كان هذا درساً في الشجاعة.

وعلمته الحياة درساً ثانياً، يصفه رضا، بكثير من العاطفة والإحساس. كان والده قد زوجه، وعمره اثنتا عشرة سنة، سيدة أرملة، تكبره بسنها أضعافاً. وكان القصد، من

هذا الزواج، وزواجات أخرى عُقِدت معه، الحفاظ على ثروة كبيرة.

«ولم أشعر قط، يقول رضا، أنني زوج وما أحسست نحو زوجتي لحظة واحدة بما يحس به الأزواج الرجال نحو زوجاتهم».

لكن محمد التامر، يولّي ولده رضا سفارة، من المنصورة الى «رب ثلاثين»، حيث كانت العائلة، ليرحل بالنساء الى المنصورة. وهذا المشهد، يصفه رضا، بكل بساطة وعفوية، يقول: «ها أنا أدخل البيت فجأة في «رب ثلاثين» في جبل عامل، وها هي والدتي ـ يرحمها الله ـ تنكفىء إلي توسعني شماً وتقبيلاً وضماً، بينما تتحدر الدموع من عينيها بصمت وغبطة وخشوع. وها هي شقيقتي الكبرى زينب تعانقني وتقبلني. ثم ها هي زوجتي تتقدم إلي كذلك... وها هي تقبلني فأحس احساساً جديداً في قبلتها. أحس أنني زوج أشعر بعاطفة الزوجية تتيقظ فجأة في قرارة نفسي. وكان الحدث الجديد ساعتئذٍ، وكان الحدث الأول في حياتي الزوجية. واستكملت رجولتي المبكرة يقظتها وتفتحها».

وإذا كان محمد التامر، قد حُكِم عليه بالسجن. أيام الأتراك ، فقد حكم عليه بالإعدام، أيام الفرنسيين. وهنا استفحل التشرد. وكان لجوء إلى فلسطين، حيث أقامت الأسرة في الجاعونة. وأخيراً، صدر عفو فرنسي عن المحكومين، وعاد الجميع إلى «تولين» . وهنا بدأ عهد الدراسة، بالنسبة إلى رضا: الفرير في صيدا، والمطران في صيدا، ومدرسة الحكمة في بيروت واليسوعية. ثم خطر له، أن يدرس الحقوق في باريس. فاعترض الوالد، ثم رضي، قبل سفره. وكان ذلك، فتزوج إبنة خاله.

وذهب إلى باريس . ركب الباخرة في بيروت. قال، يصف شعوره ساعة أقلعت الباخرة : «ما أزال أذكر ـ وقد أقلعت الباخرة من الشاطئ وتفرق المودعون وذهب أخي وأقربائي عن مرمى عيني ـ كيف عرتني الرجفة، وكيف انهمرت دموعي دون أن أستطيع لها رداً، وكيف وددت لو أنني لم أقدم على سفري. وما كنت أحسب، قبل تلك الرجفة، أن للوداع هذا الأثر في النفس، وأن الإنسان على مثل الضعف في موقف الوداع. ولقد شعرت أن كبريائي تتحطم وأن نفسي تصغر وتتضاءل. وخطر لي حقاً أن أغادر الباخرة وأعود إلى أهلي وأنقض عزمي كله!»

لكن رضا يستمر في لعبة السفر؛ وخيال باريس يعود إلى حياته، ورحلة الباخرة، مع جماعة مصرية، انضمت إليها في الاسكندرية، أصبحت متعة. وتمر به تجربة، قلما تحدث في الأسفار. بوق الباخرة يزأر يوماً عالياً، فيخرج الركاب ليجدوا البحارة مصطفين بلباسهم الرسمي. إن عاملين من المغاربة اقتتلا، وطعن احدهما الآخر بمدية، فقتله. فكان لابد من تطبيق قانون البحر: «يوضع الجثمان في تابوت ويوثق بسلسلة حديدية تنتهي بقطعة ثقيلة من الحديد، وتؤدى التحية، ويلقى بالتابوت بالبحر».

ويقول رضا التامر: «ثم ساد الباخرة صمت رهيب، هو صمت الموت ورهبته. هو شيء من الحزن والوحشة يقبض على صدري. نظرت الى من حولي في البهو الكبير فإذا الجميع كأنهم سكون سحيق. يومئذ عرفت قدر الحياة وروعة الموت».

ويصل رضا الى باريس، وينغمس في الحياة فيها، تلميذاً، ومشتغلاً بالسياسة، في الجمعية العربية السورية، ومتنقلاً بين أندية المدينة، ومقاتلاً للصهيونيين، حيث يمكن، وعشيقاً ومحباً. وأخيراً، يقع في أسر الحب الباريسي الجدي. وتنشأ المشاكل مع البيت ـ مع الوالد. وكان لا بد من أن يكتب رضا الى والده رسالة صريحة واضحة. ولا شك أن القارىء يمكنه أن يحزر موقف الوالد من مثل هذه القضية. رضا يريد أن يتزوج فرنسية، وهذا ما كان يخشاه الأب أصلاً.

وجاء الجواب من الوالد رفضاً باتاً؛ قال عنه رضا: «وأخيراً جاء الجواب فإذا هو يحسم الأمر كله بخمسة أسطر لا تزيد... إنه يعُدُّ ولده قد أصيب بكارثة، وأن أمره وأمر ولده الى الله... وإن العلاقة بيني وبينه يجب أن أعدها مقطوعة منذ الآن. ولم يكن الجواب على هذا النحو مفاجأة لي... فلم يداخلني اليأس، ولكن كيف السبيل الى إرضاء الوالد؟».

وحار رضا، في أن يوسط الأصدقاء، بينه وبين الوالد، أو أن يقبل الإنذار، على علاّته. يقول: «ولكن أبت نفسي «التوسيط» وعزمت على أن أقطع الرسائل عن جميع أهلي وأصدقائي ومعارفي في لبنان. وانقضى شهران واضطررت أن أبيع كل ما لدي من كتب وأشياء ذات قيمة لأنفق على نفسي. وكرهت أن أستدين من أحد قليلاً أو كثيراً فقد اعتدت أن أكون دائناً لرفاقي لا مديناً، إذ كنت أنفق بتدبير وتنظيم دون تقطير».

كان رضا يعترف لأصدقائه بخدماتهم له وعونهم عند الحاجة. في هذا الوضع، الذي كان فيه، جاءه العون من واحد من هؤلاء الأصدقاء الخلّص، أسعد هارون. قال له أسعد: «رضا أنت محتاج للمال دون ريب، فلم أنكر عليه ذلك، فاغرورقت عينا أسعد بالدموع؛ ودسّ يده في جيبه ثم أخرجها بستمئة فرنك كانت كل ما يملك يومئذٍ، ودفعها إليّ فأبيت أن أقبلها فأصر، ولما اقترحت أن نتقاسمها رفض أيضاً».

ويعود رضا، في الصيف، الى الوطن، وفي نيّته أن يسوّي الأمور مع والده، بخصوص بوليت وزواجه منها. عاد بحراً، إذ ان هذا هو سبيل الاسفار يومها. وفي وصفه لسفرة البحر، من مرسيليا إلى الاسكندرية فبيروت، يحلق رضا، بحيث تحس كأنك كنت مسافراً معه. وبعد شهر في الوطن، قضاه رضا في حيرة، سُوِّيت الأوضاع مع الأب، بوساطة أحد الأصدقاء. وقال الأب: «الله يهنيك يا ابني» ويضيف رضا «فتقدمت ولثمت يده ساكباً كل ما جال في خاطري في تلك اللحظة من معاني الغبطة والفرح والامتنان والشكر والعاطفة البنوية».

ثم عاد رضا إلى فرنسا؛ وأخذ يعدّ العدة لإنجاز معاملات الزواج. وقضى الطالب

السنة الأخيرة هناك، وكانت زوجته أيضاً طالبة. وقال رضا عن ذلك: «فأخذت أستعد للسفر الى الوطن مع زوجتي بعد أن أنهيت معها الامتحانات النهائية بنجاح لا بأس به!».

كان رضا التامر، الذي جاء لبنان، هذه المرة يحس بواجبه نحو قومه وأهله وعشيرته وأسرته، وخاصة بعد وفاة والده. كان يعرف مؤازرة السلطة الفرنسية لخصوم جماعته. وهو يعرض، هنا، القضية والعلاقات، بينه وبين الخصوم من جهة، وبينه وبين ممثّلي السلطة الفرنسيين، اللذين كانا في الجنوب اللبناني. والواقع، أن هذه الصفحات، إن هي إلا تاريخ اجتماعي صادق، ووصف صحيح لما كان يدور، يومها، هناك.

بل انك إذا غيرت أسماء الأشخاص والاماكن، كانت هذه الصفحات تاريخاً اجتماعياً، لمناطق مختلفة من لبنان، بل وللأقطار المجاورة. ففيها وصف للتكتلات النفعية، والتجمعات الوطنية، والتحالفات الصادقة، والترابطات المصلحية. وكم كان واحدنا يحب لو أن كثيرين فعلوا ما فعله رضا التامر، فكتبوا عن هذه الأمور. وكان لرضا، يومها مكتب محاماة. وقد اتهم بأنه صديق لأهل السلطان، ومما آذاه، يومها، ان قام خلاف بينه وبين زوجته، فعادت إلى فرنسا. ومع أن الأمر سوّي، وعادت معه فقد انتهى الأمر إلى خلاف وهجر، ثم إلى زواج ثان.

وقد عني رضا، يومها، بالانتخابات النيابية.أملاً أن يدخل مجلس النواب، فيكون لديه وسيلة لإصلاح الأمور. ولكن رضا عُوِّض عن دخول الانتخابات بوظيفة. فقد عُيِّنَ قاضيا في المحكمة المختلطة. وكان ذلك بدء حياته القضائية، التي برز فيها، بشكل خاص، على ما نقلنا من حديث أبي شهلا عنه، وكما نعرف من مذكراته.

ولما نشر رضا التامر مذكراته أو ذكرياته، سنة ١٩٥٥م كان قد مر عليه ربع قرن في القضاء. لذلك، سمى هذا القسم ربع قرن في خدمة القضاء. وهو، كما يقول عنه، جزء من قسم أكبر، فضَّل أن يؤجل نشره، لأنه كان، يومها، لا يزال يعمل في القضاء. والذي دوّنه، في هذا الكتاب، يقول عنه: «اكتفيت بهذا الكتاب بما يمكن تدوينه في الوقت الحاضر من تسلية للقارىء وتفكهة له على أن يكون موعدي فيما بعد قريباً أنشر فيه الباقي الكثير من المذكرات».

من الأمور العادية، في الطبيعة البشرية، أن يكتب المرء عن إنجازاته. ولذلك، عندما نقرأ عن هذه الأمور، لا يكون فيها شيء يثير النفس البشرية، فهي، عادة، مجرد أخبار، تدل على ذكاء الشخص الذي يقوم بها. وأعمال رضا التامر، التي تحدث عنها وهو في القضاء، لا تخرج عن ذلك كثيراً؛ إلا أنها تمتاز بالصدق، فالرجل رحمه الله، لم يمنح نفسه أكثر مما تستحق.

فكم من الذين وقعنا على مذكراتهم، كانوا صريحين، فيما يتعلق بالأمور العادية،

التي تجري يومياً، بينما نجد رضا التامر يتحدث عن إخفاقه في الامتحان مثلاً. ولكن أكثر الذين كتبوا أو تحدثوا عن أيام الطلب، وفي الغرب، كانوا يهتمون بالتبجح بالنجاح الكبير والفوز على الأقران وما الى ذلك.

وأول ما يجب أن يقال، عن القصص القضائية، هو أن رضا التامر القاضي، كان يسمع صوت الضمير، إذ يصغي اليه بكل جوارحه. ولم يكن يخشى، في محاكماته وأحكامه، لومة لائم ولا سلطة غاشم. وفي رأيي، ان الفصول التالية، في الكتاب: «البرغوث ووسخه» و«الاخوان» و«حرق الابن»، حرية بالقراءة. وهي قضية في غاية من الحمق الأبوي، لإيقاع قصاص على ابن صغير. وهناك الكينا المغشوشة، وكيف اكتشف القاضي رضا التامر سر هذا الغش.

على أن الذي تجدر الاشارة اليه، هو أن المؤلف وضع فصلا، في آخر «ربع قرن في خدمة القضاء»، حول الجريمة في لبنان. وحتى هذه الملاحظات، إنما قصد منها رضا التامر، أن تكون مقدمة لبحوث طويلة، حول الموضوع. يقول في هذه الملاحظات: «فنحن إذا راقبنا الشكاوى الحافل بها مجتمعنا، وقفنا على الشكوى من كثرة الجرائم وتزايدها يوماً بعد يوم».

ولعل من أصح ما قاله هو: «لقد قضيت شخصياً خمسة وعشرين عاماً في القضاء الجزائي. وما كنت أصدر مذكرة توقيف بحق مجرم مبتدىء إلا ارتجفت يدي، لعلمي أنني أقود المجرم المبتدىء، فيما أقوده الى السجن، الى مدرسة عريقة في تلقين الإجرام وتدريس فنونه. والواقع ان المجرم الذي كان يدخل السجن في لبنان من جراء اقترافه ذنباً صغيراً، يغادره، وإذا هو خبير في الاجرام واتباع مسلك المجرمين».

إنه كان يرى: «أن تثقيف الشخص هو الأساس في إصلاح المجتمع وتخفيف الإجرام. وثقافة المواطن، مقترفاً كان أم غير مقترف، هي حق له على الدولة، التي يجب أن تؤمن حياة أُناس هي القيّمة على شؤونهم ومقدراتهم».

وهناك أمور، يذكرها صاحب المذكرات، تتعلق بعمل القاضي نفسه. منها أن الإلهام له أثر كبير في نجاح قاضي التحقيق، خاصة عندما تكون الجريمة يسودها جو من الغموض، الذي يكاد يكون تاماً. وينصح القاضي رضا المحقق بقوله: «أول ما يجب على المحقق، أن لا يأخذ فكرة مسبقة يكوّنها عن الجريمة في مخيلته تكويناً راسخاً، بحيث يستنتج، قبل ورود أي دليل ان الجريمة ارتكبها فلان وأنها حصلت على الصورة الفلانية».

ويشدّد على ذلك، بقوله: «إن المحقق الذي يسبق سير التحقيق بتكهناته واستنتاجاته هو بِعُرفي أخطر رجال القضاء على المجتمع».

إننا، في ذكريات رضا التامر، أمام لوحات من حياته الخاصة والعامة، رسمها بقلم طيّع وأسلوب رشيق، وأهم من ذلك، أنه رسمها بصدق وإخلاص وعفوية. وكم نودّ لو أن عدد هؤلاء الكتّاب يزداد.

٥ ـ سامي الصلح يحتكم الى التاريخ

يصعب على الكاتب أن يحدّد شخصية سامي الصلح. فقد كان الرجل مفكراً وسياسياً ووطنياً وزعيماً وقاضياً، صلباً في الحق، متواضعاً في تصرفه، هادىء الطبع. أتيح لي أن أراه مرات عن بعد، في مقهى الغلاييني، في بيروت، حيث كان يقصده، من أجل اركيلته المفضلة، في ركنه الخاص. كنت أرى الرجل المحبب الى الموجودين، وكنت أشعر بارتياح، مع أن كل ما دار بيننا من الكلام تحية ليس إلا.

الواقع، أننا سعداء، اليوم، لأن سامي الصلح، كان قد عاد فقبل أن يملي أحداث حياته على سليم واكيم، الذي سجلها وجمعها. وأنا أعرف كم بذل من الجهد، للحصول على هذه الوقائع. وقد نشرت هذه سنة ١٩٧٠ وتنتهي الأحداث، الواردة فيها، الى سنة ١٩٦٨ م.

ولنقدم سامي الصلح، بكلماته يقول: «وُلدت في مدينة عكا في ٧ أيار ١٨٨٧. كانت عكا إذ ذاك تابعة لولاية بيروت، المنفصلة عن لبنان ادارياً وسياسياً منذ سنة ١٨٦١. وكان والدي عبد الرحيم الصلح قد عيّن فيها متصرفاً بالوكالة، ذلك بأنه كان موظفاً كبيراً في السلطنة العثمانية. ويبدو ان والدتي كانت من المعجبين بسيرة الإمام علي (رض). إذ رأته ذات مرة في الحلم، فصممت على تسميتي علياً تيمناً به. إلا أن المرادف سامي فاز في النهاية».

كان سامي الصلح يسمع، من أبيه، كثيراً من ذكرياته الطريفة، عن فلسطين، ومنها موقف السلطان عبد الحميد الثاني، من الأطماع الصهيونية فيها، ودأبه على إحباط مساعيهم، وإيقاف هجرة اليهود.

يقول سامي، عن أبيه: «كان أبي عبد الرحيم تقياً ورعاً ومتحرراً بمعنى أنه كان يعي التقوى، بمنأى عن التعصب. ولا عجب إذا التفّ حوله المسيحيون وشاعت شعبيته في جميع الأوساط. ولعلّ ذلك من العوامل التي أثرت في نشأتي. وقد هاجر أبي مع من هاجروا الى بيروت منذ قرن ونّيف، واطلع بحكم مركزه على التطورات الاجتماعية والسياسية التي عانتها المدينة. لكن والدي كان يتنقل بوصفه موظفاً».

ويقول سامي الصلح، عن أيام شبابه: «نشأتُ بين أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في ظروف برزت فيها فكرة القومية العربية وأخذت تتضح في أذهان بعض المفكرين اللبنانيين. فالقومية العربية التي نادى بها هؤلاء تحدّت في

الوقت نفسه، العصبية الدينية السائدة بين المسلمين بما فيها فكرة القومية العثمانية التي نادى بها زعماء الاصلاح في الآستانة. وحاول دعاة المركزية فرضها على جميع البلاد الخاضعة للسلطنة دون التعرض لجبل لبنان. وفكرة القومية العربية في نشوئها واصطراعها مع فكرة القومية التركية شرعت تزعزع عرش السلطان عبد الحميد، الذي كان لاسمه وقتذاك وقع رهيب يجعل أقوى الأقوياء يرتجفون».

كان سامي الصلح يضطر الى تغيير مدارسه ومعلميه، بقدر ما كان والده يغير أماكن عمله. ولكن بعض التنقلات كانت خيراً عليه، فإن انتقال والده، الى مدن يونانية، أتاح له أن يتعلم اللغة اليونانية، فضلا عن التركية والفرنسية. وكان والده يحضر له المعلمين، لإعطائه الدروس الخصوصية، لأنه، كما يقول: «لم أكن تلميذاً مجتهداً بالقدر الذي يظنه القارىء العادي».

وفي استانبول، عاصمة الخلافة، أكمل سامي الصلح دروسه الجامعية. يقول، في ذلك: «وكان الحوار يتكرر بيني وبين رفاقي كل يوم في صدد التيارات والأفكار التي كانت رائجة آنذاك تتجاذب طليعة ذلك الجيل، إذ لم تعجز فكرة القومية العربية عن ايجاد من يعبر عنها ومن يعتنقها، برغم ولاء السواد الاعظم من المسلمين للسلطة العثمانية، وذلك بسبب تحسسهم حتى أوائل القرن العشرين بالوحدة الدينية والسياسية مع المسلمين الاتراك».

ويصور سامي الصلح شعوره، يوم توفي والده، سنة١٩٠٥م، وكان شديد التعلق به، فيقول: «وقد عبّرت عن هذا الشعور الفياض ببادرة قلّ أن تخطر على بال فتى فقد والده. كان الطقس رديئاً في ذلك اليوم والأمطار تهطل مدراراً والجو يرزح تحت قصف الرعد ووميض البرق. فغادرت حفل المعزين فجأة ورحت أعدو في الشارع المقفر وحيداً أجهش بالبكاء، وقد أغرق المطر دموعي، وأصرخ من قوة اللوعة والصدمة وقد خنق الرعد صوتي».

كانت والدة سامي تريده طبيباً، لكنه كان يحلم في أن يصبح رئيساً لمحكمة التمييز، وهو أعلى منصب قضائي في الدولة، أو محامياً عاماً، أو في أسوأ الحالات، مجرد محام. وإذن، فالمكان الصالح له كلية الحقوق.

ويشير سامي الصلح الى الانقلاب الذي أطاح بعبد الحميد (١٩٠٩ م)، واستخلاف أخيه، محمد رشاد، وتولي حزب الاتحاد والترقي الحكم. ويضيف: «وتبنّى هؤلاء فكرة القومية التركية واعتبروا العنصر التركي العنصر المتفوق في عالم الاسلام وتخلّوا نهائياً عن فكرة القومية العثمانية. وكان من شأن هذه الدعوة انها ساهمت في التباعد بين العرب والأتراك وحتى بينهم وبين الدولة العثمانية التي كانوا يسيطرون عليها».

وفي تلك الفترة، نشطت الجمعيات السرية، في مدن سوريا ولبنان، وبدأت

الاتصالات بالدول الاجنبية. ذهب سامي، بعد حصوله على إجازة الحقوق، الى باريس، لإعداد شهادة الدكتوراه. وقد أصبح لولباً في هذه الحركات. وفي باريس، كان يدعو الى وجوب: «تطوير البلدان العربية وإزالة البدائية والتقهقر من سكانها».

وفي باريس، أصبح سامي الصلح عضواً في لجنة حقوق الانسان؛ ويبدو أنه كان العضو الشرقي الوحيد، الذي انضم الى هيئة غربية، كانت الطليعة في البلاد العربية تخشى أن تجهر بالانضمام اليها. وبسبب الجو الاتحادي التركي، الذي سيطر على إستانبول، وخشية أن يعترض الشباب العرب للمطاردة والقلاقل، قرر سامي وابن عمه رياض الصلح العودة إلى الوطن.

وقد تجلى طموح سامي السياسي، في أنه رشح نفسه في الانتخابات، في بيروت، سنة ١٩١٤م، أي قبل الحرب العالمية الأولى. ولكن تواطؤ السلطة التركية، مع المتنفذين، في بيروت فشّله. يقول: «فشلت بسبب هذا التواطؤ، فما كان مني إلا ان انخرطت، كما يفعل كل مرشح خاسر، في صف المعارضة».

بدأت الحرب، بالنسبة للأقطار الشامية، في خريف ١٩١٤ م، لما دخلتها تركيا، الى جانب المانيا. ولم تكد تمر سنة على الحرب، حتى فتكت المجاعة بلبنان، وأودت بنحو مئة ألف نسمة، يقول سامي الصلح: «واللبنانيون لا يزالون يعانون من عقدة الجوع. فتراهم في كل تهديد بأزمة يتراكضون الى التموّن».

أقام سامي الصلح معسكراً للثوار، في منطقة حلب. وقد تبين له، أن هؤلاء الذين ادعوا أنهم ثوار، إنما كانوا جماعة تنوي السلب والنهب. وتعرض سامي الصلح للاعتقال على يد جماعة جمال باشا، لكنه تحسّب للأمر، واختفى في حلب أولاً.

لكن الخطر اشتد عليه، اذ أعلن جمال باشا مكافأة مالية لمن يأتيه به. لذلك، كما يقول، اختار طريق الصحراء:

ارتديت اللباس البدوي وابتعت حصاناً وأطلقت على نفسي اسم «الشيخ علي البغدادي» واتجهت برفقة بدوي ناحية الصحراء... ووصلت الجزيرة الفراتية حيث قضيت بضعة أشهر بين البدو أتنقل من قبيلة إلى أخرى. فنزلت ضيفاً عليهم ومالحتهم وأقمت بينهم دون أن يطرحوا علي سؤالاً حتى أصبحت بدوياً أستطيع أن أتبين دربي دون دليل».

واقترح المرافق، على سامي الصلح، أن يقوم بعمل ما. ورفض اقتراح صاحبه، أن يتاجر بالخراف بين ايران والموصل. وفضل اقتراحاً آخر، يقتضي بالمتاجرة بالأقمشة المزركشة، التي ترتديها البدويات. وقد وصف الكاتب حانوته وتجارته الجديدتين، بقوله:

«وكان محل النوفوتيه عبارة عن خيمة في جوار القبيلة، فما إن ذاع الخبر حتى تهافتت نساء الجوار وأخذت ما في الخيمة من بضائع، كما يجري في المحلات

الكبيرة، ففرغ المحل بعد قليل من افتتاحه. أما ثمن البضائع فوعدت النساء أن يدفعنه عندما يحين موسم الحصاد».

ولكن سامي الصلح لم يقبض شيئاً.

عاد سامي الصلح، الى حلب، متنكراً في زي امرأة. وأخيراً، سلم سامي الصلح نفسه، الى جمال باشا، في فندق بارون، بحلب، بناءً على وعد قطع له، بالواسطة، أنه لن يعدم. وانتهى الأمر بنفيه الى استانبول. ويصف سامي الصلح الوضع في استانبول، بعد هدنة مودروس في ٣٠ تشرين الاول/ اكتوبر ١٩١٨ م، بين الاتراك والحلفاء، والتي بموجبها انتهى القتال بين هذين الفريقين. يقول:

«وإثر هدنة مودروس رست الاساطيل الانكليزية والفرنسية والايطالية واليونانية في البوسفور الذي شهد للمرة الأولى مجموعة من الأعلام الأجنبية العسكرية لم يشهد مثلها في تاريخ السلطنة، وكنت من مشاهديها ـ أنا الحائر بين الحنين الى الوطن لبنان وبين انتهاز الفرصة لتحقيق طموحي وأهدافي».

ويلقي سامي الصلح بناظره نحو العالم العربي، ويقول:

«كنت في ذلك الوقت ككل مسلم، يصبو إلى التحرر ويتطلع إلى ثورة الشريف حسين وابنه فيصل، وكان قد سبق لي أن اجتمعت إليه قبل نفيي إلى استانبول. فأحلام الشباب تقاس بأحلام القادة. عبد العزيز في نجد، والشريف حسين في الحجاز، وفيصل في دمشق، والتحرر من ربقة العثمانيين ومجد العروبة. كل هذه الأسماء الكبيرة والاحلام كانت تجذبني كالسراب، لكنها لم تكن لتقنعني. فسرعان ما عدت الى حلب... ثم توجهت إلى دمشق حيث قابلت الامير فيصل وأعجبت بذكائه الحاد، وبمشروعاته الضخمة التي كانت حتى ذلك الحين تبدو معقولة».

وذهب سامي الصلح الى القاهرة، حيث قضى ثلاثة أشهر، اشترك، خلالها، بالنقاش مع زعماء الاحزاب والمناضلين. وكان لكل رأيه. ورجع، بعد ذلك، الى دمشق. وأخيراً، استقر في بيروت. وبعد قيام الانتداب، دخل السلك القضائي، الذي ظل فيه اثنين وعشرين عاماً، من دون انقطاع.

يقول سامي الصلح، وقد عين في الوظيفة التي يحب:

«ولم أكن بطبيعتي لأسكت عن هفوات السلطات المنتدبة، لا بل لم أكن لأرضى بالانتداب ليس على لبنان فقط، بل على جميع الأقطار الأخرى. واتخذت لنفسي عقيدة الإنسانية والوطنية اللبنانية المنفتحة على بقية الاقطار، وآليت على نفسي أيضاً أن أخدم الفقير والضعيف وأن أساند المظلوم. وكنت أرى أن تكون السجون مدرسة تهذب النفس البشرية لا مرتعاً للفساد والإفساد. وكذلك يجب أن يكون للأحداث المنحرفين اصلاحية تصلح النفس الفتية، فسعيت إلى استحداثها».

أما من حيث تصرفه في أعماله القضائية، فإنه كتب، عن ذلك، ما يصح أن يكون

دستوراً أخلاقياً، لرجال القضاء. يقول: «ظللت في سلك القضاء اثنين وعشرين عاماً... وتدرجت من محام الى مستشار الى نائب عام لدى محكمة التمييز وأخيراً اصبحت رئيساً أول لمحكمتي الاستئناف والتمييز... وكان من عاداتي أن أباشر العمل باكراً، ومن طبعي العَجُول أن أصرف أشغالي بسرعة وبلا تأجيل. إذ كنت أحس أن لا شيء أكثر من التباطؤ في الدعاوى يلقي اليأس، سواء في نفوس المحامين أو نفوس طالبي العدل».

«ولم أكن أترك الامور تنتظر وتنام في أدراج محكمة الجنايات يوم كنت رئيساً لها. كنت أستجوب المتهمين وأستمع الى الشهود والنيابة العامة ومحامي الدفاع. وبعد المذاكرة كنت أصدر الحكم في اليوم ذاته. إذ عندما يفهم القضاة المخلصون المسائل الموكولة إليهم لا يحتاجون إلى أسابيع وشهور ليلفظوا قرارهم».

ومن أطرف ما وراه سامي الصلح، حادثة جرت له مع مفتش فرنسي. يقول:

«كان المفتش الفرنسي زمن الانتداب، يحضر أحياناً جلسات المحاكمات ويجلس الى جانب القاضي الأول ليشرف على سير العدل... واتفق ذات يوم أن دخل المفتش عليّ أثناء انعقاد الجلسات في قاعة الجنايات. فما كان مني إلا أن وقفت وقدمت كرسي باحترام ظاهر للمفتش. وبدل أن أجلس على كرسي آخر قدم لي على الفور نزعت ثوب القضاة ورميته على كتفي المفتش اللامبالي الذي لم يكن يتصور ما سيحصل، وقلت له بالفرنسية تفضل واحكم مكاني؛ كانت هذه الحادثة لتحيلني على المجلس التأديبي، وبالتالي لإقلاع السلطة المنتدبة عن السماح لمفتشها دخول قاعة المحاكمات أثناء التئام المحكمة».

وفي ٢٧ تموز ١٩٤٢، ألف سامي الصلح وزارته الاولى، وقد أطلق عليها الشعب «وزارة الرغيف»، إذ ان الواجب الاول، لهذه الوزارة، كان معالجة الازمة الغذائية. وقد نجح سامي الصلح في حل المشكلات التموينية، وأخرج الحبوب والطحين من مخازن المحتكرين. وظل سامي الصلح يعرف باسم أبو الفقير.

وقد أصبح سامي الصلح، القاضي العادل القوي الجريء، رئيساً للحكومة أكثر من مرة. ولن نتمكن في هذه السطور من مجاراة أعمال رئيس الوزارة، لمدة تقرب من العشرين عاماً. ولعلنا لن نسيء الى الرجل ـ رحمه الله ـ إذا نحن تحدثنا، عنه كسياسي، في مناسبة أخرى.

لكن لا بد من القول، بأن سامي الصلح الذي اتُّهم بأمور كثيرة، في حياته الطويلة، أحسن صنعاً حين دوّن مذكراته. ولعلنا لم نذكر، أن اسم المذكرات «أحتكم إلى التاريخ». وليس ثمة من شك، في أن التاريخ سينصف الصلح بعد اكثر، عندما يتصدى كاتب بحاثة الى وضع ترجمة، لهذا الرجل الكبير.

وبعد؛ فهناك ثلاث ملاحظات، دوّنها سامي الصلح، يمكن اعتبارها شعارات، في

أدب القضاء. فهو يقول في أولاها: «كانت النزعة الانسانية عندي تتغلب على مفهوم القانون. وكنت أعتبر ان القانون الذي لا يوطد العدل ليس قانوناً، وإنما هو تدبير فرضته السلطة. وهذه النزعة جعلت مني أباً أكثر مني قاضياً».

والملاحظة الثانية، هي قول القاضي سامي الصلح: «وبعد الاثنين والعشرين عاماً التي قضيتها في السلك القضائي. أود ان أوصي القضاة الوصية الآتية: خرجت مقتنعاً بأن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى، حتى في ميدان القضاء. ومهما تكن الضمانات التي تقدمها الدولة، فإذا كان القاضي ضعيف الشخصية فسيبقى ضعيفاً. وهذا ما ينطبق على الحاكم أيضاً».

ويختم ملاحظاته، بقوله: «ولا يستطيع المواطن أن يقدر القيمة الحقيقة للحرية الفردية إلا إذا تفهم وظائف القاضي، وأهمية المحاكمة العادلة، والفلسفة الكامنة وراء الوظيفة القضائية ـ وهي عدم التحيز والاستقلال».

٦ ـ الامير شكيب ارسلان في سيرته الذاتية

إذا عُدّ العرب ورواد الإصلاح، في دنيا العرب، خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي والعقود الأولى من القرن الحالي، برز اسم الأمير شكيب ارسلان، على أنه في طليعتها. والواقع، أن قلة من هؤلاء العاملين في سبيل القضايا العربية، من كان مُتشعِّب الاهتمامات مختلف الاتجاهات متباعد الاتصالات، الذي لا يخلو مجال نشاط من أثر له كالأمير شكيب ارسلان.

فقد قلّبت وجوه نشاطه، فوجدته يعمل في السياسة، ويساهم في الأدب، ويشارك في البحوث التاريخية، ويتابع الاتجاهات الإصلاحية الإسلامية، ويراقب تطور الأمور الداخلية والخارجية، ويكتب في الصحف، ويحرر مجلة الأمة العربية La Nation Arabe التي كان يصدرها في سويسرا بالفرنسية.

والمهم، هو أن ما كان يدبّجه، كان يتسم بالعمق والدقة. فلم يكن إطلاق اسم «أمير البيان» عليه، أمراً بعيداً عن الحقيقة. ولْنشر إلى بعض ما وضعه من كتب، وبعضها كان مقالات، جمعت فيما بعد، وأهمها، في رأيي، تعليقاته الضافية الوافية، على كتاب «حاضر العالم الإسلامي». فقد كانت التعليقات أضعاف الكتاب الأصلي، حجماً.. وهناك «الحلل السندسية»، وهناك شعره، الذي صدرت باكورته، والرجل لم يبلغ العشرين من عمره

ومن ألطف ما كتب الامير شكيب «الارتسامات اللطاف»، وهي ذكريات حجه وانطباعاته، التي خلفتها، في نفسه، زيارة الأماكن المقدسة. وله كتابان، في كل من أحمد شوقي والسيد رشيد رضا. هذان الكتابان، فضلاً عن الثروة الأدبية التي يحتويانها، فإنهما مثال على الوفاء، الذي كان يحمله الامير شكيب لأصدقائه ومعارفه.

أما في مجال السياسة، فيصعب البحث عن نقطة أو بقعة، في العالم العربي والدولة الاسلامية، لم يزرها، إما باحثاً أو مندوباً أو زائراً أو مصلحاً بين خصوم. والواقع، أن السنين الستين، التي قضاها في الاهتمام بالأمور العامة ودرسها والكتابة عنها، تدل على شيء واحد ـ هو الحركة الدائمة. فهل كان هناك زعيم مسلم لم يقابله الامير؟

تنتهي سيرة الامير شكيب الذاتية، التي أملاها، بنفسه، ووافق على نسختها، بخطه، حوالى ربيع ١٩٣١ م، أما الموافقة على شكلها، فقد جاء في صيف السنة

التالية. والأمير شكيب، تردّد كثيراً، قبل أن أقدم على تحرير ترجمته لنفسه. يقول، في ذلك: «لقد ترددت كثيراً قبل أن حررت هذه الترجمة، وقدمت رجلاً وأخّرت اخرى في اثناء عزيمتي أن أصف نفسي بقلمي».

وبعد أن يشير الى أن مثل هذه السير الذاتية، إنما هي مما يختص به العظماء، يعود فيثبّت سبب إقدامه على القيام بهذا العمل. فبعد أن قلّب الامير شكيب الأمر على وجوهه، قرّر أن يحرر ترجمته. ويوضّح ذلك، بقوله: «رأيت بعد التروّي أني مهما اجتهدت في محو نفسي، وحاولت إلقاء ستار الإهمال على تاريخ حياتي، فلن يعدم الميدان أناساً يجولون في هذا الموضوع من بعدي، فيخبطون فيه خبط عشواء، ويزيدون وينقصون بغير علم».

كما أن الكاتب، كان يعرف انه ثمة بين الذين قد يحاولون ذلك المحب المغالي، الذي قد يبالغ، والمبغض القالي، الذي قد يسترسل في القيل والقال.

ومن الطبيعي، أن رجلاً مثل الأمير شكيب، الذي شرّق وغرّب، في سبيل القضايا العربية السياسية، وكتب المجلدات في الأدب والتاريخ، لا يمكن إلا أن يكون بين الذين سيتحدث عنهم فيما بعد: المحب والمبغض. فأراد الرجل أن يضع حداً لمحاولات هؤلاء وأُولئك، فحرّر سيرته الذاتية. لكن أود أن أسرع الى القول، بأن هذا، الذي بين أيدينا، لا يعدو كونه «خلاصة» لحياة الرجل وأعماله. فلو كتب كل شيء، لاحتاج الى مجلدات. فضلاً عن ذلك، ان السيرة تقف عند سنة ١٩٣١ م، أي قبل وفاة كاتبها بخمس عشرة سنة، وهي فترة، كان فيها الامير، كما كان قبلاً، ملء السمع والبصر، عملاً وحركة ونشاطاً.

يقول الامير، في مجال التقديم لسيرته الشخصية أو الذاتية: «وقد يقال ان شهادتي لنفسي لا تعتبر شرعاً ولا عرفاً ولا تنفي عني السيئة ولا تثبت الحسنة، ولا يُنتظر من الإنسان إلا ان يزكي نفسه وإلا أن يخفي عيبه وأن يتنصّل مما يُرمي به».

لكنه يدفع هذا، بقوله: «فأجاوب عن ذلك بأن الحوادث التي أرويها معروفة... وإنما أنا أنقل منها تفاصيل وأروي دقائق يجوز أن لا تكون معروفة عند الكثيرين».

ولد الامير شكيب ارسلان في الشويفات، من جبل لبنان، سنة ١٢٨٦ هجرية (١٨٦٩ ميلادية). وقد بدأ تعلمه في المنزل، مع أخيه نسيب، وكان في الخامسة من عمره، على يد الشيخ مرعي شاهين سلمان، ثم درس القرآن، على يد أسعد نادر. ومع أنه، كانت ثمة مدارس للحكومة اللبنانية، فإنها، على ما يقول الكاتب، ألغيت، لذلك، لم تطل مدة تعلّمهما هناك. فأرسل الأخوان: «الى مدرسة في الشويفات من المدارس الامريكانية يعلمون فيها القراءة بالإنجيل والمزامير ويقرأون شيئاً من الحساب والجغرافيا».

وفي سنة ١٨٧٩، أي لما كان الامير شكيب في سن العاشرة، أدخله والده، مع

عدد من الاولاد الارسلانيين، مدرسة الحكمة المارونية، في بيروت، حيث قضى سبع سنوات، انتقل، بعدها، الى المدرسة السلطانية، في بيروت أيضاً. وكان الشيخ محمد عبده منفياً في بيروت يومها، وكان يدرّس مجلة الأحكام العدلية، في المدرسة السلطانية. وانعقدت صلات قوية بين الشيخ وأسرة الامير.

يقول الامير شكيب، عن المدرسة السلطانية: «ودخلنا المدرسة السلطانية التي كانت يومئذ في بيروت، وكان قد أسسها المسلمون لأجل تهذيب شبانهم كسائر شبان الطوائف المختلفة التي كانت لها مدارس عالية في بيروت. ثم ان الحكومة العثمانية وضعت يدها على المدرسة السلطانية المذكورة وألحقتها بالمدارس الاميرية. فدخلنا الى المدرسة المذكورة لنتعلم اللغة التركية والفقه».

ويصف الكاتب الشيخ محمد عبده، بقوله: «رأينا فيه عالماً لا كالعلماء الذين نعهدهم بل عالماً جمع بين العلوم العقلية والنقلية الى الأمد الأقصى، ونظر الى جميع الاشياء نظر الفيلسوف الذي نظره يعلو على الأنظار المعتادة... وبالاختصار رأينا فيه لا عالماً فقط بل عالماً (بفتح اللام) لم نعهد رؤية مثله من قبل».

وفي سنة واحدة ١٨٨٧ م، نشر الامير شكيب الجزء الاول من ديوانه، بعنوان «الباكورة»، وعيّن مديراً لناحية الشويفات، خلفاً لوالده، الذي توفي تلك السنة. وبذلك، يبدأ حياته العامة على جبهتين، العمل الاداري ـ ومنه الى العمل السياسي ـ والجبهة الأدبية.

وجد الشاب، الأمير شكيب، أن الجبل ضيق المجال، بالنسبة له. فلم يلبث ان ترك الوظيفة. وبدأ رحلة طويلة، حملته الى مصر، ومنها الى الآستانة، طلبته أصلاً، وبعد سنتين زار باريس ولندن. وفي كل مكان، كان ينشىء صداقات، ويوطد علاقات، كان يحافظ عليها الى آخر الحياة.

وفي سنة ١٩٠٢ م، كان الامير شكيب في مهمة، في جبل الدروز، وهو جبل العرب اليوم، ندبه لها والي الشام، ناظم باشا، تمكن فيها من جمع الدروز، هناك، على طاعة الدولة، فعيّنه متصرف لبنان على قائمقامية الشوف. ويمكن القول إنه، منذ هذه السنة، تبدأ حياة الامير شكيب السياسية الواسعة المدى. فهي في إطار الدولة العثمانية، محافظة على كيانها، إذ كان يدرك أن انهيارها أو التخالي عنها، يؤدي بالولايات العربية الى الوقوع في أحضان الدول الاجنبية.

أما في الإطار الأوسع، الذي كان يشمل العالم الاسلامي واتصالاته بأوروبا، فموقف الأمير شكيب يمكن أن يلخص في أمرين ـ التوفيق بين الجماعات العربية والاسلامية أولاً؛ وثانياً، الدفاع عن قضايا العرب والمسلمين، بكل ما أوتي من مقدرة وجهد. ويدخل في النوع الأول، زيارته للمدينة المنورة، سنة ١٩١٣ م، وحضوره مؤتمرين، الواحد عربي، سنة ١٩٢١ م، في جنيف، والثاني مؤتمر اسلامي في مكة. أما

في مجال التوفيق، فقد كانت له اليد الطولى، مع رفاق له كبار، في وقف القتال بين المملكة العربية السعودية واليمن، سنة ١٩٣٦ م.

وأما أمر الدفاع عن القضايا العربية والاسلامية، فهناك دوره في ليبيا، لما اعتدت عليها ايطاليا، سنة ١٩١١ م؛ ومراقبة بعثات الهلال الاحمر، في حرب البلقان سنة ١٩١٢ م؛ ومواقفه من جميع القضايا، التي نشأت عن الحرب العالمية الاولى، وقيام الانتداب في لبنان وسوريا وفلسطين؛ وحضوره مؤتمر جنوا، في ايطاليا، عام ١٩٢٢ م، وإذاعته بيانه عن «الحلف العربي»، سنة ١٩٢٣ م. وأخيراً، إصداره مجلة الأمة العربية la Nation Arabe، التي كان يحررها، بالفرنسية، ويصدرها من سويسرا، بين سنتي ١٩٣٠ و١٩٣٩ م.

ومع ان السيرة الذاتية للأمير شكيب تقف كتابتها عند سنة ١٩٣١ م، فإن الأحداث فيها، تنتهي بالحرب العالمية الاولى. ونحن معنيون بما دوّنه هو نفسه عن نفسه، فإن نشاطاته المتنوعة، والواسعة النطاق جغرافياً، لا يمكن ان تُستوعب بمجموعها. لذلك، فنحن مضطرون الى اختيار محطات، نقف عندها.

ومما يعرفه، التاريخ، ان جمعية الاتحاد والترقي (العثمانية)، تولّت شؤون الامبراطورية، بعد خلع عبد الحميد، وتولية أخيه، محمد رشاد، مكانه. وكانت سياستها «التتريكية»، أحد الأسباب الرئيسة، في تنفير العرب من الأتراك. والفترة، التي تلت ١٩٠٨ م، وهي المعروفة بعهد الحرية، لم تكن فيها حرية. والزعماء العرب، الذين عاصروا تلك الفترة، وعملوا في القضايا العربية، دونوا تجاربهم، بالنسبة لهذه الفترة. ومن هؤلاء الامير شكيب ارسلان.

يقول الامير شكيب، عن هذه الجمعية:

«ولكن جمعية الاتحاد والترقي مع حسن نية رجالها كان ينقصها كثير من الخبرة، وكان أكثر زعمائها شباناً لم يتمرسوا بالأمور، ولم تتجزهم الحادثات. وقد جاء فوزهم بالقبض على ناصية السلطنة غير منتظر ـ حتى من أنفسهم. فسكروا بخمر العز، واستخفوا بمن سواهم، وظنوا أنهم قادرون على كل شيء. والحال أنهم كانوا يواجهون صعاباً ويقابلون عقاباً لا قبل لهم بها».

وهو، كما نرى، نوع من الاعتذار عن تصرف هؤلاء القوم، ولكنه سبب واحد صحيح.

وجاء الهجوم الايطالي على ليبيا، سنة ١٩١١ م، وهنا، برز اسم الامير شكيب، منذ بدء الحملة. فقام، أول الأمر، بإرسال البرقيات، الى أصحاب النفوذ، في استانبول ومصر، طالباً إرسال الإمداد للسادة السنوسية، كي يتمكنوا من التصدي للطليان. ووجه نظره، في معنى هذه الحادثة، أوضحها، بقوله:

«ان كل حركة اليوم ضد الدولة العثمانية تُلحق بها ضعفاً وتزلزل أركانها وتفيد

الافرنج وتضر العرب والترك معاً... وان تسليم طرابلس الغرب او التساهل بها... يكون بداية لانهيار السلطنة العثمانية بأجمعها».

وإذا قارنا بين الامير شكيب ومعاصريه، وجدنا أنه كان يتميز عن الكثيرين منهم، باطلاعه الواسع على السياسة العالمية. لذلك، فإن مقالاته وآراءه كانت واسعة الأفق، كأنه يطل على الأمور من عل. فهو إذ يعالج الكائنة الطرابلسية، كان يراها من خلال مواقف الدول الاوروبية من الدولة العثمانية وأقطارها، ومن خلال مواقف العناصر البشرية المختلفة، التي كانت تتكون منها هذه الدولة الواسعة. وكان يريد، كما أشرنا قبلاً، أن تظل الدولة العثمانية قائمة، لأنها ستكون الترس الذي يدفع عن العرب والأتراك شر الأخطار الاوروبية. وجهاد الامير في ليبيا، ومشاركته ميدانياً وعملياً، وفي إبداء الرأي، كان يتحدث عنها الليبيون حتى أواسط القرن العشرين؛ فقد سمعنا عنها الكثير، من الليبيين، في زياراتنا المتكررة، لتلك الديار.

وعقد، سنة ١٩١٣ م، مؤتمر في الآستانة، بطلب من الدولة، «للكلام في المسألة العربية وفي مطالب السوريين». وكان الامير شكيب بين من دعي اليه. وفي اثناء هذا المؤتمر، اجتمع جماعة من العرب، في باريس، لعقد ما عرف باسم المؤتمر العربي الاول (١٩١٣م). وفي استانبول، تكلم الامير شكيب، قائلاً: «إن الذين ذهبوا الى باريز هم اخواننا... ولكننا خالفناهم في ذهابهم الى باريس وعقدهم مؤتمراً كهذا في اثناء الحرب البلقانية».

والدولة منهكة تعبة. وأشار بشكل عام، الى المطالب الاصلاحية. بقوله: «إننا التمسنا بعض أمور تتعلق بالأمة العربية كتوسيع صلاحية الولايات المتحدة وكالاعتناء باللغة العربية. ومن جملة ذلك تأسيس جامعة عربية مثل جامعة الآستانة المسماة عند الاتراك بدار الفنون».

وقد انصرف رجال الوفد الى سوريا صفر اليدين.

وتابع الامير شكيب: «أبقتني الدولة في العاصمة لأنها كانت صممت على تأسيس دار الفنون في المدينة المنورة. وانتدبتني أنا والمرحوم الاستاذ الشيخ عبد العزيز وجاويش [تقرأ شاويش] للذهاب الى المدينة وتدشين البناء... وذهبنا الى المدينة المنورة بعد ان انضم الينا الاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي. [وهناك] انتخبنا المكان المناسب لتشييد المدرسة الجامعة وأقمنا حفلة التدشين وألقيت فيها الخطب. [وعاد رفيقاي] وأقمت أنا في المدينة المنورة شهرين ونصف الشهر، أسست فيها فرعاً للجمعية الخيرية الاسلامية، التي كنا قد أسسناها في الآستانة».

دخل الامير شكيب مجلس المبعوثان (البرلمان) العثماني، مندوباً، عن حوران. وهناك. خدم القضايا العربية والاسلامية والعثمانية، خدمة الرجل المخلص لبمادئه، العارف بخفايا السياسة العالمية. وجاءت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م)،

وكان للأمير شكيب فيها أدوار كبيرة؛ من محاولة لإبقاء تركيا على الحياد؛ الى الاتصال بالالمان، أثناء الحرب؛ الى نصح جمال باشا، بوجوب أخذ الحيطة، في الهجوم على ترعة السويس.

ويتحدث الامير شكيب، عن أنور وجمال وطلعت، وغيرهم من رجال الحرب العالمية الاولى، من الاتراك، حديث العارف بهم، فرداً فرداً، المدرك لحسناتهم، والمطّلع على زلاتهم. ونود أن نلفت، في الختام، الى أمرين: الأول أننا أردنا الحديث هنا لا عن الأمير شكيب، بل عما كتبه عن نفسه. والثاني هو أن هذه السيرة الذاتية هي مثال للصراحة والصدق والإنصاف ـ كان الرجل صريحاً وصادقاً ومنصفاً للناس ومع الناس، ولنفسه ومع نفسه.

٧ ـ موسى الزين شرارة ودفتر الذكريات الجنوبية

يقول أمين عام المجلس الثقافي للبنان الجنوبي: «في سياق نشاطه الثقافي المكرّس لجنوب الوطن خصص المجلس الثقافي للبنان الجنوبي فصلاً بكامله للشهادات الحية عن الجنوب تاريخاً وثقافة وقضية. وقد حمل هذا الفصل المتميز من برنامج المجلس عنوان «من دفتر الذكريات الجنوبية»، على رجاء ان يكون سجلاً ينبض بالحياة وهو يؤرخ لتلك الحقبة من عمر الجنوب بأصوات شهود أحداثها أنفسهم».

وكان غرض المجلس الثقافي، من ذلك، كشف الغطاء عن جوانب خفية من التاريخ المعاصر، وأن يتولى الكشف أولئك الذين قاموا بالعمل بأنفسهم. وكان اختيار المجلس الثقافي لجماعة من أهل العلم والتاريخ والصحافة. وجئنا نحن نقف عند موسى الزين شرارة، لنتخذ منه نموذجاً للعاملين، في سبيل توضيح هذا التاريخ الثقافي.

يقول موسى الزين شرارة، في مفتتح حديثه: «اسمحوا لي بأن أعود بكم سبعين عاماً الى الوراء لأحدثكم عن جبل عامل... وسأحاول في هذه الذكريات ان أعرض عليكم لوحتين من جبل عامل ـ الأولى، تتعلق بالحياة الاجتماعية خلال الحرب العالمية الاولى، والثانية حول الحياة الثقافية في نهاية العهد العثماني وبداية الانتداب الفرنسي».

وتعود اللوحة الاولى، التي يرسمها موسى الزين شرارة، الى مطلع القرن الحالي. يقول: «ولدت سنة ١٩٠٢ في بلدة بنت جبيل. وفي سنة ١٩٠٨ توفي المرحوم والدي، وهو في ريعان شبابه. وبقيت مع الوالدة، التي كنت أغفو وأستيقظ على نواحها وبكائها، الأمر الذي أرهف حسي وجعلني أحس مع كل مصاب، وأتألم مع كل منكوب، وأهب لمساعدة كل مظلوم، وأحارب الجور والطغيان وكل أنواع الاستبداد ضمن الإمكان».

لكن موسى الزين شرارة يظل، بشهادته نفسه، مرحاً متفائلاً، وينشد، دوماً، قوله:

ولما ان رأيت الدهر بغياً ... الى حربي بلا سبب تطوع
لبست له متين الصبر درعاً ... وقلت له الا ما شئت فاصنع

وعندما يتحدث المرء عن ذكرياته، لا يمكنه ان يلمّ بالتفاصيل، التي تكوّن لوحة

كاملة، ولكنه يرسم لوحات صغيرة، كل واحدة منها تامة بنفسها. يذكر موسى الزين شرارة، من العهد التركي، أنه في سنة ١٩١٤ م، توفي الشيخ عبد الكريم شرارة؛ وبهذه المناسبة، جاءت وفود كثيرة، الى بنت جبيل، من شتى القرى والمدن العاملية، وكذلك الفلسطينية المجاورة، للمشاركة بتشييع الجنازة، وتقديم التعزية.

وهنا، تأتي قصة الضابط التركي. يقول موسى الزين: «وقد حضر بهذه المناسبة أيضاً ضابط تركي مع ثلة من الجنود للمحافظة على الأمن. هذا الضابط كان يدعى «عارف بك». وبعد تشييع الجنازة استدعى جميع مخاتير القرى التي كانت موجودة وأمرهم بفض الرسائل المغلقة التي كانوا تلقوها من الحكومة، وطلبت ان لا تفض إلا بأمر منها. وقد تبين ان مضمونها دعوة «لسفَر برلك» أي التجنيد العام. وأنه يجب على جميع الذكور من سنة ١٨ ـ ٤٠ أن يذهبوا للفحص الطبي».

ويتابع موسى الزين كلامه، بقوله: «وقد لبى الجميع الدعوة. وبعد المعاينة الطبية جنّدوا منهم القدامى أي المدربين، ويسمونهم الاسكيّة، وساقوهم فوراً، وسمحوا للباقين بالعودة الى قراهم وأن يكونوا تحت الطلب».

يذكر محدثنا سوق الخميس، في بلدته، بنت جبيل. كانت تعرض فيها جميع السلع والغلال واللحوم والفاكهة والاقمشة والألبسة وغيرها، ويجتمع فيها حشد كبير من القرى المجاورة من الجليل لابتياع ما يلزمهم. يحدثنا موسى الزين عن أمر وقع سنة ١٩١٦ م. لكن قبل نقل حديثه، لا بد من الإشارة الى ان هذه السوق كانت قديماً، واستمرت بعد الحرب العالمية الاولى. وقد شهدتها أنا، سنة ١٩٢٥ م.

يقول المحدّث: «كانت الساعة التاسعة صباحاً وإذ بي أسمع صوتاً متهدجاً يصيح الله أكبر. سبحان من تعزز بالقدرة والبقاء. وإذا بي أرى رجلا مكبلاً بالحديد وعلى رأسه عمامة خضراء، وقد أحيط بالجنود. لحقت به مع من لحق فإذا على البيدر سيبه (سلم) معدّة هناك. وتقدم منه الجلاد وألبسه رداء أبيض مكتوب عليه الأسباب التي استحق بموجبها الاعدام وهي فراره من الجندية».

ولكن الغرابة في الطريقة، التي كانت توقع أو تقرر عقوبة الاعدام. لم يكن هناك محاكمة، ولا استنطاق، ولا شهود. يقول موسى: «كان ذلك يقرر بالقرعة. وهي وضع تسعين ورقة بيضاء وعشرا سوداء في كيس. وكل من يسحب ورقة سوداء يعدم بدون محاكمة!».

ويروي محدثنا بقية القصة، فيقول: «تقدم الجلاد وأزاح الكرسي من تحت قدمي «السيد»، فانقطع الحبل، ووقع المسكين على الارض والدماء تسيل من وجهه، وصرخت الجماهير الله أكبر وطلبت له العفو. لكن العتاة أحضروا حبلاً ثانياً وشمعوه، وأعادوا الكرة فانقطع الحبل ثانية... وأخيراً أحضروا حبلة ثالثة متينة وعلقوه بها حتى قضى رحمه الله!».

ويحدثنا موسى الزين عن المصائب الكثيرة، التي عمت البلاد، أيام الحرب العالمية الاولى، مثل الكوليرا، التي أهلكت الآلاف، والجوع، الذي مات الناس بسببه على قارعة الطريق، وجحافل الجراد، التي قضت على الاخضر واليابس. وقد شهد كاتب هذه السطور الكوليرا، التي قضت على ثلاثة من أفراد أسرته، والجراد، الذي كان فعلاً يحجب نور الشمس.

وبسبب اضطراب الادارة في البلاد، أيام الحرب، كان كثيرون، ممن يفرون من الجندية، يقعون في أيدي سماسرة المخافر وزبانيتها، الذين كانوا يلقون القبض عليهم، ويشغلونهم سخرة في مصالحهم، او يفرضون عليهم ضريبة شهرية. وإذا أبى هؤلاء أو عجزوا، أطلق الجندرمة عليهم النار، بحجة أنهم كانوا يحاولون الهرب. هذه صورة أخرى يرسمها موسى الزين.

يقول موسى الزين، لسامعيه، في تلك الأمسية، سنة ١٩٨١ م: «أنتم اليوم خريجو جامعات وحملة شهادات واختصاصات شتى، تتحدثون بأكثر من لغة وتتعلمون على يد أكثر من أستاذ، وتدخلون عصر التعليم بالصورة والصوت. ولكن دعوني أذكركم أنه قبل سبعين عاماً لم يكن العلم يعني شيئاً آخر غير «فك الحرف». والمتعلم لم يكن سوى ذلك القادر على قراءة الرسالة، والأديب هو القادر على تحريرها، والعلم الديني كان محصوراً بعائلات معينة».

ولا يهتم موسى الزين بالتحدث عن المدارس عامة، ولا عن المناهج وما الى ذلك. انه يحدث مستمعيه عن طريقة تعلمه هو. فيقول: «وضعتني والدتي عند الشيخ «المحلّي» سنة ١٩٠٨، وكنت في السادسة من عمري. فقرأت عليه الأحرف الهجائية وبعدها القرآن الكريم. وبعدها جاءت الكتابة على اللوح. واللوح هذا من تنك حيث كان السمكري يجعل من تنكة الكاز أربع ألواح يبتاعها منه الطلبة ويكتبون عليها بقلم غزار اي مقطوع من البوص. أما المداد فكان من حجر كلسي كنا نذيبه في الماء كالكلس ونكتب به».

وكان الاستاذ يكتب لنا سطراً بأعلى اللوح يسميه «القاعدة» ونحن نكتب مثلها. فبعد أن نملأ اللوح نحمله للأستاذ الذي يعاينه. فإذا كان الخط جيداً والنقل صحيحاً يقول «عفارم» (أي عافاك بالتركية). وإلا فعلى كل غلطة ضربة قضيب على يده الصغيرة. أما القاعدة التي ننسخ على شاكلتها، فكانت غالباً بيت شعر وأذكر منها:

تعلّم يا فتى فالجهل عار ولا يرضى به إلا الحمار

ومنها أيضاً:

تعلّم العلم وكن أميرا ولا تكن جاهلاً ترعى الحميرا.

وكأن موسى الزين شرارة، قد أنهى المرحلة الأولى من التعليم، عند الشيخ

المحلّي، لا، لأن المنهاج أو البرنامج، قد انتهى، مرحلة، ولكن، لأن هذا المعلم قد انتهى ما عنده. وإذا ظل التلميذ هناك، فإنه لن يحصل إلا على إعادة لهذه المادة. وهي مادة أصلها محدود، فكيف بإعادتها!.

فانتقل بعدها، صاحبنا الى مدرسة أخرى، يقول في ذلك: «بعدها انتقلت لمدرسة شيخ ايراني لأتعلم الخط الذي يسمونه ديواني، وأكتبه بالخط الصغير وبالحبر. لكن القلم كان لا يزال غزاراً، لأن الريشة لم تكن موجودة. وهذا الشيخ - سامحه الله - كان قاسياً جداً يضرب التلميذ بدون شفقة. وغالباً ماكان يعمل بتوصية اولياء التلامذة الذين يقولون له عندما يسلمونه الطفل - «ياشيخنا إلك اللحم وإلنا العظم»، فإذا «تشيطن» أو اخطأ أو أهمل واجباته كان يلقى العقاب الشديد. بل كانت عنده خزانة في البيت كالزنزانة يسميها «حبس الفار» يسجن بها الطفل بعد الفلقة وشمط الاذن».

ومن المهم أن نعرف الكتب، التي كان التلاميذ يقرأونها، بعد أن تعلموا القرآن الكريم، وصاروا يجيدون القراءة، نوعاً ما. يعدّد موسى الزين هذه الكتب، وهي قصص بني هلال والزناتي خليفة وعنترة والزير سالم المهلهل. ويقول:

«ولما تقدمنا بعض الشيء صرنا نطالع نهج البلاغة والكشكول وألف ليلة وليلة ومجموعة أشعار تسمى بدائع الزهور وما يقع بأيدينا. وهذه الكتب كانت غالباً عند «المشايخ» لأنه لم يكن هناك مكتبات أو صحف او مجلات».

ويستثني موسى الزين مجلة العرفان، ويقول إنها كانت تسمى الكزيطة. «وكان الرجال والنساء إذا سمعوا أي خبر يقولون قالت العرفان، مع أن العرفان ليست جريدة اخبارية. ولكنهم كانوا يعتبرون جميع العالم العرفان لأنها كانت النافذة الوحيدة على التراث والعلم الحديث».

ويؤكد على الدور، الذي قامت به العرفان، بالنسبة لجيله بقوله: «وإذا كان جيلنا قد أتيح له أن يطلع على ما يحدث خارج جبل عامل، فالفضل يعود لمجلة العرفان، فهي التي أخذت بيد أوائل مثقفي جبل عامل وشجعتهم على الكتابة وحببت اليهم الثقافة».

ويضيف صاحب الحديث قوله:

«يضاف الى ذلك أنها كانت مدرسة وطنية واصلاحية. فمؤسسها المرحوم الشيخ أحمد عارف الزين رحمه الله، كما عرف الجميع، كان وطنياً صادقاً جريئاً صريحاً. وكان انتسابه لرجال الدين ولعائلة عاملية نافذة يعطيه القدرة على نشر أفكار لم يكن غيره بقادر على نشرها».

ثم جاء دور المدرسة التركية، التي يسميها موسى الزين شرارة المدرسة الاجنبية. وهي التي يقول عنها ان الأتراك تكرموا بفتحها سنة ١٩١٣ م، والتي كان التعليم فيها بالدرجة الاولى باللغة التركية. ويؤكد محدثنا على أن الاتراك كانوا يريدون

فرض اللغة التركية على البلاد العربية. ويقول في وصف هذه المدرسة: «لأن هذه المدرسة كانت تمنع تلامذتها التكلم بغير اللغة التركية. وكانت تعلمنا التاريخ التركي والحضارة التركية وعظمة البادِشاه أي السلطان والتدريب العسكري والنشيد التركي والاغنيات. ولم يكن سوى هذه المدرسة بكل منطقة بنت جبيل، والذي أذكر ان عدد الطلاب فيها لم يتجاوز المئة طالب. أما عدد الاساتذة فهو واحد أحد لا شريك له».

وكان المعلم عازباً. يضيف صاحب الحديث:

«وفي ذلك الوقت لم يكن يوجد مطعم في البلدة، فكان المعلم يفرض كل يوم على عدد معين من التلاميذ تأمين طعامه اليومي. وبالطبع لم يكن هذا الطعام من نوع واحد. فكان عنده طنجرة صغيرة يضع فيها كل ما يأتيه من طبيخ ويضعه على النار ويأكله بعد أن يخلطه. وعنما ذهب الاتراك ذهبت المدرسة معهم وخرجنا بدون شهادة رسمية».

بعد هذا، بدأ موسى الزين شرارة يثقف نفسه، شأنه، في ذلك، شأن معاصريه ومواطنيه. كان يقصد مجالس رجال الدين، حيث كان هؤلاء يتندرون بالشعر، ويحفظونه، ويروونه، ويعنون بالأخبار، ويمتحن بعضهم البعض الآخر، في قواعد اللغة، ويترسلون بالأشعار، يقول: «وقد جذبتني هذه المجالس اليها خصوصاً مجلس المرحوم الشيخ علي شرارة العالم والأديب والشاعر الذي كان يرعى نشأتي الادبية، وألقى لديه كل تشجيع».

وكان نظم الشعر هو أول ما يعنى به المتأدبون، ونشر قصيدة لشاب، كان مفتاح حياته الادبية. وهذا ما أصاب صاحبنا موسى. فقد انصرف، بعض الوقت، الى العتابا والدلعونا والزجل. ثم جاءت سنة ١٩٢٨ م، وكانت سنه السادسة والعشرين، فنشرت له مجلة العرفان قصيدة عنوانها «العلم».

كان مطلع القصيدة:

العلمُ نورٌ يُهتدى بسنائه ... لولاه تاه الكون في ظلمائه

وقد وصف فيها حال الجهالة، في الجنوب، كما رآها، فقال:

عجباً أراه وقد تلألأ نوره ... وهدى الانام الى الهدى بضيائه
وأهاب فيهم داعيا فتجندوا ... ومشوا لحرب الجهل تحت لوائه
إلا بنو وطني اذا أغشاهُم ... في نوره وثبوا الى اطفائه
قد أوصدوا باب العلوم بوجهه ... ليظل يخبط في ظلام غبائه
أرأيت أسوأ حالة من موطن ... كبراؤه والدهر من أعدائه
والعلم فيه مكافحٌ ومطارَدٌ ... كالفقر او كالداء من زعمائه

وقد أصبح موسى الزين شرارة واحداً من كبار الشعراء، لا في الجنوب فحسب،

بل في لبنان. ونقدم، فيما يلي، مقطوعة قصيرة، من شعره. قال:

ليس في قولك معنى إن مضى من غير ضجة
إن صوت الحق يبقى في فم الاجيال حجة
ورخيص القول يبقى مثل ماء فوق ثلجة
كن على الظالم ذئبا ومع المظلوم نعجة
واجعلِ الصدق سفينا إن رأيت الكذب لجّة

ولموسى الزين شرارة شعر سياسي وطني. وأي شاعر، في دنيا العرب، ظهر في العقود الاخيرة، وبرز دون أن يكون له شعر سياسي وطني؟ أليس الشاعر هو المعبّر عن ضمير المجتمع وهو صوته؟؟ فإذا كان كذلك، فلا بد من أن يكون شعره سياسياً وطنياً. ولكن لا مجال، هنا، لنماذج من هذا الشعر، ومن الانسب، ان يُرجع اليها في مكانها.

وفي «دفتر الذكريات الجنوبية»، الذي جمع احاديث حميمة، لستة من أصحاب القلم، في الجنوب ـ السيد حسن الأمين والشيخ علي الزين والسيد علي ابرهيم والشاعر موسى الزين شرارة والصحافي الفرد أبو سمرة والصحافي سليمان أبو زيد ـ في هذا الدفتر، ثروة كبيرة من الالتفاتات الشخصية، والصراحة النادرة، والأدب الرفيع، والعلم الغزير. أورد، في هذا الدفتر، كل ما أراد إيراده، حراً غير مقيد. فهذا الدفتر ثروة، بكل ما في الكلمة من معنى.

إنها قصة العصامية، من أولها الى آخرها. معلم، موزع بريد في منطقة دير القمر، ثم في صور، فمعلم ثانية، فصحافي، ثم يخرج من أسرته أربعة يعملون في الصحافة. بورك للجنوب في أبنائه وبورك لهم فيه.

٨ ـ محمد رشيد رضا في رحلاته

ولد السيد رشيد رضا في القلمون، سنة ١٨٦٥ م. والقلمون بلدة تبعد ساعة ونصف الساعة عن طرابلس، مشياً على الأقدام. وبعد أن تلقّى العلم على شيوخ بلده وعلماء طرابلس، وعمل بالتعليم والإرشاد في تلك المنطقة، رحل الى مصر، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره، أي في سنة ١٣١٥ للهجرة الموافقة سنة ١٨٩٥ م.

وقد كتب السيد رشيد رضا، عن رحيله الى مصر، ما يلي: «هاجر... الى الديار المصرية لأجل القيام بعمل إصلاحي للإسلام والشرق، لا مجال له في بلد إسلامي عربي غير مصر، والاستعانة عليه بصحبة الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والاقتباس من علمه وحكمته، والوقوف على نتائج اختباره وسياحته».

صاغ الكاتب، عن نفسه، هذه العبارة مع ضمير الغائب، وأضاف الى ذلك، قوله: «وأنشأتُ المنار في أواخر تلك السنة، ولم أكن أنوي أن أشتغل بالسياسة بل بالإصلاح الفكري والنفسي والاجتماعي».

ولكن رشيد رضا، اشتغل بالسياسة، وكثيراً أيضاً.

و«المنار»، المجلة التي أنشأها السيد رشيد رضا، أصبحت تحمل: «هموم العالم العربي والإسلامي في القضايا المصيرية كالتساؤل حول سر تقدم الغرب وتأخر الشرق وكالثورة على الاحتلال الأجنبي وكايجاد أجوبة من متطلبات الحياة العصرية».

على ما يقول الدكتور يوسف إيبش. وقد صادرت حكومة سوريا العدد الثاني من «المنار» بعد توزيعه، ثم صدرت إرادة السلطان عبد الحميد بمنع «المنار» من دخول المملكة العثمانية، في الشهر السادس من عمر المجلة. وبذلك، حرم صاحب «المنار» زيارة وطنه، الى أن أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ م، فجاء بلاد الشام لأول مرة.

زار السيد رشيد رضا بلاد الشام مرتين: الأولى بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ م، وقضى نحو ستة شهور، زار، خلالها، بلدته القلمون، ومدينته طرابلس، وبيروت ودمشق وحمص. وزار بلاد الشام، ثانية، بعد الحرب العالمية الأولى. فقد انتقل من القاهرة الى دمشق، بالقطار عبر فلسطين، مستعملاً الخط الحديدي الجديد، بين قناة السويس وحيفا، والسكة الحديدية الحجازية، من حيفا الى دمشق؛ وكان ذلك، في ايلول ١٩١٩ م. ومع أن الكاتب تنقّل في أنحاء البلاد، فقد أقام في دمشق مدة أطول من غيرها، اذ اشترك في المؤتمر السوري العام، الذي عقد في دمشق، سنتي ١٩١٩

و١٩٢٠ م، والذي قرر استقلال سوريا، ونادى بفيصل ملكاً عليها، في آذار/مارس سنة ١٩٢٠ م. وقد انتخب السيد رشيد رضا رئيساً للمؤتمر.

لم تكن زيارة بلاد الشام الرحلات الوحيدة، التي قام بها صاحب «المنار». ذلك أنه، زار الهند وعاصمة الدولة العثمانية وأوروبا والأقطار العربية المختلفة. وكان رشيد رضا يدوّن أخبار رحلاته في «المنار». ومن هنا، عرفنا تفاصيلها. ومع رغبتنا في التحدث عن هذه الرحلات بأجمعها، فإنه لا يسعنا، هنا، إلا الاكتفاء حتى بالقليل، مما ذكره عن بلاد الشام.

ومن حق الرجل علينا، أن نشير الى بعض ما قاله عن القلمون وطرابلس أولاً. ففي زيارته الاولى لطرابلس (١٩٠٨ م)، قال عنها: «رأيت داخل طرابلس على ما تركتها عليه منذ احدى عشرة سنة كأنه لم يتبدّل ولم يتحوّل فيها شيء، حتى خيّل لي أن ما رأيته من الدكاكين ومخازن التجار هو ما تركته فيها بعينه».

ويشير الى التجدّد والاتساع، في ضواحي المدينة.

أما في زيارته الثانية (١٩١٩ ـ ١٩٢٠ م)، فقد امتلأ قلبه حزناً على طرابلس والقلمون. فقد خلت طرابلس من الحلقات العلمية، ومن المحافل والسمّار، من أهل الهيبة والوقار من العلماء والوجهاء. ويقول: «أصيبت طرابلس بالعقم من العلماء والفضلاء... وأما القلمون فلم يبقَ فيها أولو بقية يستفيد الناس منهم الا عمّي، فهو يقرأ درساً في مسجدنا في بعض الأحيان لمن عساه يوجد فيه...».

ومع كل هذا، فقد ذكر أنه في طرابلس، فضلاً عن فرع جمعية الاتحاد والترقي، وهو يشير الى سنة ١٩٠٨ م، ثلاث جمعيات: الأولى جمعية الجامعة العثمانية، والثانية الجمعية العلمية، وهذه لها مدرسة كبيرة، تدرّس فيها العربية والدروس الدينية، لتهيئة المدرسين والقضاة الشرعيين والمحامين. أما الجمعية الثالثة، فقد أسمت نفسها الجمعية الخيرية، ويبدو أنها لم ترق للسيد رشيد رضا، بدليل أنه سعى، مع مفتي طرابلس، يومها، العلامة رشيد كرامي، وحاكم المدينة، لإنشاء جمعية خيرية إسلامية، في المدينة. وقد عقد اجتماع لذلك، في شهر شوال سنة ١٣٢٦ هـ. ١٩٠٨ م، في طرابلس، جُمعت فيه الدفعة الأولى من التبرعات لهذه الجمعية، وكانت ٣٣٦ ليرة عثمانية، مع وعود من الموجودين، بدفعات أخرى، وبجمع مبالغ، ممن لم يحضروا.

وقد تحدث السيد رشيد رضا، عن بيروت، كثيراً. ففي زيارته الأولى (١٩٠٨ م)، قال: «رأيت مسلمي بيروت مستعدين لقبول كل اصلاح ديني ومدني... وأذكياء النابتة الذين يودّون الإصلاح لم يتربوا تربية اوروبية تبعدهم من الدين وتشوّه مدنية سلفهم في أعينهم، وتزيّن لهم الافتتان بكل جديد، كما فُتِن كثير من المتفرنجين في الآستانة ومصر وتونس. كما أنهم لم يتوسعوا في علم الكلام والفقه فيجلعوهما مع فنون العربية كل المطلوب للارتقاء، ولم يحرموا منهما».

ويعود فيؤكد ذلك، بقوله: «ونتيجة هذا، أن قلة اشتغال مسلمي بيروت بالكتب الاسلامية المتداولة وعدم افتتانهم بالتفرنج، قد جعل نفوسهم مستعدة للاصلاح الذي لا يُرتقى بدونه وهو الجمع بين هداية الكتاب والسنة وبين العلوم والمعارف العصرية بغيرمعارضة قوية».

جاءت زيارة السيد رشيد رضا الثانية، لبيروت، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وكانت المدينة بالذات وبقية لبنان، قد أصابها الأمرّان، من ويلات الحرب، خاصة المجاعة الكبرى. وقد سمع من أهوال الحرب الكثير. لكن لفتته أمور أخرى في بيروت، منها أن النساء كنّ أشد محافظة على التقاليد القومية، من أمثالهن في مدن أخرى. وقد أُنشئت في المدينة مدارس إسلامية، تُعنى بتربية البنات. وكانت جمعية المقاصد، هي أولى المؤسسات عناية بمثل هذا النوع من المدارس.

وكان هناك، فضلاً عن المدارس، ناد أنشىء سنة ١٩١٧ م، تقوم عليه: «جمعية من كرائم المتعلمات، قمن بتأسيس مدرسةً لتعليم البنات. وكان النادي يعقد اجتماعات نسائية تلقى فيها المحاضرات وتجري فيها الأحاديث حول المسائل الأدبية والاجتماعية والاقتصادية والصحية وتدبير المنزل والتربية».

وقد ألقى السيد رشيد محاضرة في النادي، ورحّبت به رئيسته. وكان ذلك في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٣٨ هـ (٤ كانون الاول. ديسمبر ١٩١٩ م).

وكان، مما عني به الكاتب، في زيارته هذه لبيروت، العمل على إنشاء كلية اسلامية، للدروس العالية. وحث جمهور البيروتيين على مجاراة المدارس الاجنبية، مثل المدرسة الإنجيلية الاميركية والكلية اليسوعية (وهما الآن الجامعة الاميركية وجامعة القديس يوسف). وقد ألقى، بهذه المناسبة، خطاباً جامعاً، في فضائل العلم. لكن دعوته الأهم، في هذه الناحية، جاءت في صرخته، إذ قال: «هلموا ننشىء مدرسة وطنية جامعة ونجعل في جانب منها مسجداً وفي جانب آخر كنيسة. فإن التربية لا تكمل بغير فضيلة، والفضيلة لا تكمل بغير دين[١]».

اهتم رشيد رضا بالأحوال السياسية في بلاد الشام، ساحلاً وداخلاً. وقد قابل المندوب السامي الفرنسي جورج بيكو، في ١٧ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩١٩ م، وبحث معه في الأوضاع التي كانت قائمة في المنطقة. كما اجتمع في ٥ آذار/ مارس ١٩٢٠ م مع سكرتير الجنرال غورو. وقد كانت النصيحة، التي وجهها للفرنسيس، هي ضرورة تغيير سياستهم في سوريا.

ويمكن القول، ان السيد رشيد رضا كان خصماً للاتحاديين، وكان لا يني يُظهر ما قاموا به، بعد الانقلاب في بلاد الشام وغيرها. لكنه كان، والدولة العثمانية لا زالت قائمة، حريصاً على التفاف العرب والأتراك حول تلك الدولة، خشية أن تقع البلاد

العربية تحت نير الاستعمار الغربي. لقد كان، شأنه في ذلك شأن عدد من الحريصين على إصلاح البلاد، حريصاً على الدولة، كي يتم الإصلاح في ظلها.

ولا يمكن التحدث عن السيد رشيد رضا وزيارته الثانية لبلاد الشام، من دون التحدث عن المؤتمر السوري العام. وأعضاء هذا المؤتمر، انتخبوا على أساس قانون الانتخاب الذي تم بموجبه انتخاب اعضاء المبعوثان، أي البرلمان العثماني. وتمت الانتخابات، في صيف ١٩١٩ م، واجتمع المؤتمر، أول ما اجتمع، ممثلاً لجميع الأقطار الشامية، لمناسبة زيارة لجنة كنغ ـ كراين للبلاد، للاطلاع على رغبات أهل البلاد. ولما بدا أن تقرير اللجنة المذكورة، لن يعنى به، لأن حكومتي بريطانيا وفرنسا لم تقبلا باللجنة أصلاً، أصبح من الضروري أن يوكل الأمر للمؤتمر السوري العام، الذي أعلن، في آذار/ مارس، سوريا، بجميع أجزائها، بلداً مستقلاً، ونادى، في اليوم التالي، بفيصل ملكاً عليها. لقد أوضح السيد رشيد، في المؤتمر، عمله بقوله: «ولما صرتُ رئيساً للمؤتمر وجب علي أن أساوي بين الحزبين ـ حزب التقدم وحزب الاعتدال ـ في كل شيء يتعلق به، وفي احترام أفرادهما حتى في خارجه، واعطاء كل ذي حق حقه، وايتاء كل ذي فضل فضله، بل تركت رئاسة حزب التقدم... وقد اتهمني بعض من صاحبت وواددت من اعضاء المؤتمر وغيرهم بالمحاباة في تنفيذ وظيفة الرئاسة فيهم. وكانت هذه التهمة باطلة. فوأيم الحق أنني كنت دائماً محافظاً على تحري الحق والعدل».

وانتهى أمر المؤتمر والحكومة الفيصلية في تموز/ يوليو ١٩٢٠ م، لما دخلت الجيوش الفرنسية دمشق، وقضت على الحكومة العربية.

كانت عصبة الأمم على وشك أن تعقد جلساتها في جنيف، لذلك، قرر حزب الاتحاد السوري، الذي كانت لجنته المركزية في مصر، ان يدعو الى مؤتمر سوري، في جنيف، لعرض القضية على عصبة الأمم. ووُجّهت الدعوة، باسم لجنة حزب الاتحاد السوري المركزية، فوقعه من قبل الرئيس (الأمير) ميشيل لطف الله، ونائب الرئيس (السيد) رشيد رضا. واتّعد العاشر من حزيران/ يونيو ١٩٢٢ موعداً للاجتماع. وجاء، في الدعوة: «فلجنة حزب الاتحاد السوري تدعوكم وتدعو سائر الجمعيات السورية للاشتراك في هذا المؤتمر، وترجو منكم اشعارها بأسماء مندوبيكم وبميعاد سفرهم وبما ترغبون الاشتراك فيه من نفقات المؤتمر العامة».

وقد تأخر موعد انعقاد الجمعية العامة لعصبة الأمم الى شهر آب/ اغسطس، لذلك سافر السيد رشيد رضا، في الثاني عشر، من ذلك الشهر. وقد ترك في بيته: «الأسرة تستقبل عيد الأضحى في حزن ونفاس وتمريض... فشق عليّ وعلى الأهل والعيال ولكن سفري لم يكن منه بد باتفاق الإخوان أعضاء الحزب وغيرهم... وقد وجدت أن مصلحة خدمة الوطن ينبغي ترجيحها على الأهل والولد. فعزمت وتوكلت».

يصف الكاتب سفرته البحرية من الاسكندرية الى تريسته، ومن هذه بالقطار الى

لوزان، حيث قضت الجماعة الصغيرة ـ ثلاثة فقط ـ ليلة، قبل السفر الى جنيف. والواقع، أن الكاتب، تجلّت مقدرته على الوصف، هنا، كما تجلّت في سفر البحر. فمن قوله: «كان الجو في ذلك اليوم الذي قطعنا به أرض ايطاليا يوم صيف معتدل، وان كانت أرضها أرض ربيع مدبر أو مقبل. ولولا غمام رقيق كان يكفكف بعض أشعة الشمس، لعُدّ هنالك من أيام الحر. وقد تغير علينا الجو في سويسرة بعد نصف الليل، فهب الهواء البليل، ولما أصبحنا رأينا السحاب يتكاثف في الأفق، ثم طفق يجود برذاذ لطيف، ثم تكاثف السحاب قبل الظهر، واشتد المطر بعد العصر».

وفي جنيف، بدأت الاتصالات. فزار الوفد رئيس لجنة الوصايات لعصبة الأمم. ثم دارت المفاوضات بين الوفود، وانتهى الأمر بأن عقد المؤتمر باسم المؤتمر السوري الفلسطيني. وكان ممن عمل في سبيل التوفيق، الامير شكيب ارسلان، الذي كان هناك. وعقدت الجلسة الرسمية الاولى في ٢٧ آب/ اغسطس (١٩٢٢ م)، فانتخب الامير ميشيل لطف الله رئيساً، والسيد رشيد رضا والحاج توفيق حماد (من نابلس) نائبين للرئيس، والأمير شكيب ارسلان الكاتب العام (أي السكرتير).

وقد تقدم المؤتمر بعريضة طويلة، تناول فيها تاريخ المواقف السياسية، التي مرت بها البلاد الشامية، منذ ١٩٠٨ م، مع إشارة الى ما قبل ذلك، ثم فصل أعمال فرنسا وبريطانيا في البلاد، والمعاهدات والوعود. وانتهى المؤتمر الى طلب الأمور التالية من عصبة الأمم:

الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسوريا ولبنان وفلسطين، والاعتراف بحق هذه البلاد، في أن تتحد معاً، بحكومة مدنية، مسؤولة أمام مجلس نيابي، ينتخبه الشعب؛ وإعلان إلغاء الانتداب حالاً؛ وجلاء الجنود الفرنسية والانكليزية عن سوريا ولبنان وفلسطين؛ وإلغاء تصريح بلفور، المتعلق بوطن قومي لليهود في فلسطين. وقد وقع هذه العريضة الرئيس، ونائباه، والسكرتير العام، وأحد عشر شخصاً آخرون حضروا المؤتمر،، وهم من سوريا ولبنان وفلسطين.

وقبل ان يعود المؤتمرون الى بلادهم، وزعوا أنفسهم على أعضاء عصبة الأمم ولجانها، وبسطوا لهم أموراً كثيرة. ومن الاشخاص، الذين تم الاتصال بهم، اللورد سيسيل، والمندوب البريطاني فيشر ومندوب الصين، ورئيس العصبة.

يقول السيد رشيد رضا: «كان مما أقصد اليه في رحلتي هذه ـ الى اوروبة ـ أن ألتقي ببعض أحرار اوروبة المستقلي الرأي، فأستفيد من آرائهم وأفيدهم ما أحب أن يعرفوه عن بلاد الشرق عامة وبلادنا خاصة، وان اقترح عليهم السعي لإصلاح ذات البين بين الشرق والغرب بالعدل والانصاف ومبادلة المنافع وعدول الدول المستعمرة عن مطامعها... لقيت أفراداً من هؤلاء الأحرار في جنيف وغيرها، وتحدثت معهم في هذا المقصد».

كتب السيد رشيد رضا مقالاً، نشره في المنار (ج ٢٣ سنة ١٩٢٢ م)، وكان يجب أن يترجم الى لغة أجنبية لينشر في الغرب. وهذا المقال أشبه بنداء شرقي الى أحرار الغرب. وبعد مقدمة، يدعو فيها هؤلاء الأحرار الى تفهم مشكلات الشرق وأوضاعه، يريد منهم أن ينصفوه، وبذلك، ينصفون أنفسهم وبلادهم. والأمور التي لخصها الكاتب، في آخر المقال، وكأنها شُرِّعة حقوق وفهم للمصالح، يمكن أن نذكر منها، هنا، خلاصات لها: «ان زعماء شعوب الشرق... قد أجمعوا على أن يكونوا أحراراً في بلادهم، مستقلين بأمر حكوماتهم».

وهؤلاء الزعماء يرون: «ان التعاون الانساني بين الشرق والغرب يجب أن ينحصر في استعانة الشرقيين بأهل الفنون الغربية على عمران بلادهم».

وأول ما يجب أن يعمله أحرار الغرب، في سبيل مساعدة زعماء الشرق، على الاصلاح، هو: «أن يقنعوا دولتي انكلترة وفرنسة بتعديل معاهدات الصلح المتعلقة بالشرق ـ على أساس الحق والعدل». «وأن تكف الحكومة البريطانية عن الدسائس التي تبثها في اليمن وسائر جزيرة العرب لإيقاع الشقاق والفتن بين حكامها».

وينهي عريضته، بقوله: «إذا أعرض أحرار أوروبة عن هذه الدعوة، أو عجزوا عن اصلاح ذات البين بين الشرق والغرب، ورأى زعماء الشعوب الشرقية ان عصبة الامم رضيت لنفسها بأن تكون شرَّ آلة وجدت في الارض، لهدم قواعد الحق والعدل، بكفالتها للقوي بالمال والسلاح ـ فستكون عاقبة ذلك خراب اوروبة بحرب أخرى».

هذا ما قاله السيد رشيد رضا سنة ١٩٢٢ م، وكان، ولا شك، يعبر عن رأي كل شرقي محب للعدل والانصاف والاصلاح. وهكذا، كان السيد رشيد رضا رسول علم ومعرفة، ودفاع عن الحق، والتوفيق بين الجهات المتباينة. وقد مكنه من ذلك، علم غزير واطلاع واسع على السياسة العالمية واتصالات لا مثيل لها مع زعماء الشرق قاطبة، عبر مجلة المنار، وعن طريق الرحلات.

٩ ـ كمال جنبلاط

كمال جنبلاط: «رجل يدهشك منه تعدّد نزعاته واتجاهاته ونشاطاته. فهو في صميم السياسة اللبنانية والعربية... وهو مؤسس الحزب التقدمي الاشتراكي، وهو فوق ذلك الرجل المتصوف الذي يتعشق الحكمة ويستقيها من مصادرها».

هذه كلمات مما كتبه ميخائيل نعيمة، عن الرجل الذي ننوي التحدث عنه الآن. وهي كلمات لا تعدو أن تكون مدخلاً الى ما يمكن ان يكتب عن رجل، يعتبره الكثيرون في مقدمة أهل الفكر العربي، في القرن العشرين. والمقدمة هنا تعني الطليعة.

ولعله من المفيد ان ندل على محطات رئيسة، في حياة كمال جنبلاط. قبل ان ننتقل الى آثاره، فننقل منها ما يفيد القراء، ولو انه لن يعطي الصورة الوافية عن الرجل. فحديث من هذا النوع، هو مقدمة متواضعة لتفكير رجل سياسي، هو مفكر وفيلسوف وأديب وشاعر؛ وكتب باللغة العربية، كما كتب بغيرها.

ولد كمال جنبلاط في المختارة، في ٦ كانون الاول/ ديسمبر سنة ١٩١٧ م، وقد قضى السنوات العشر الاولى من حياته فيها، حيث حفّ به، من أهل العلم والمعرفة، عدد كبير، أفاد منهم ما مكّنه منه ذكاؤه. وفي سنة ١٩٢٧ م، وقد بلغ العاشرة من سنّه، أُدخل مدرسة عينطورة، حيث قضى عشراً أخرى، يتابع دراسته المنتظمة، بحيث انتهى الى آخر السلّم الثانوي في التعليم.

كانت باريس محطته العلمية التالية؛ فالتحق بالسوربون سنتين، درس خلالهما العلوم الاجتماعية. والتحق بكلية الحقوق في جامعة القديس يوسف، المشهورة عند أكثر الناس باسم اليسوعية، ونال إجازة الحقوق. وعمل في المحاماة متدرجاً، وانتخب سنة ١٩٤٣ م نائباً عن جبل لبنان.

ولا يدورَنَّ بخلد أحد، ان كمال جنبلاط كان يكتفي بقراءة ما تقره المدرسة من كتب، تؤدي الى الامتحان، أو ما تتطلبه الشهادة المتعلقة بالعلوم الاجتماعية، أو ما تكلفه دراسة القانون. إن كمال جنبلاط، كان يعنى بالقراءة الدقيقة العميقة، في السياسة والفلسفة والتصوف والفيدا الهندية واليوغا، ومما يدور حول هذه كلها. ومن هنا، كانت له هذه الثروة الفكرية المتميزة.

بدأ كمال جنبلاط اهتمامه بالسياسة، المحلية والاقليمية والعالمية، مبكراً؛ وفي سنة ١٩٤٠ م، كان قد اقتعد منها مكاناً حرياً بمثله. وفي سنة ١٩٤٣ م، وَجّه، من

البرلمان، نداءه الى الأمة. وحري بالذكر أنه نظم أولى قصائده «أفيقي» سنة ١٩٤٥ م. فهو قد امتلأت يداه بالعمل والحصاد والقطاف في وقت مبكر، وفي آن واحد.

ولعلّ من نافل القول، التأكيد على أن لبنان، كان يحتل المكانة الاولى، في تفكير كمال جنبلاط. وهذا بعض ما قاله فيه: «على هذا الشاطىء الذهبي الجميل، الذي شاهد منذ ألوف السنين نشوء أول دولة مدنية، ونمو وانتشار الفكرة القومية الاولى، وقيام أول امبراطورية بحرية، وظهور أول شكل نظام تمثيلي ديمقراطي تحقق في نظام الملكية الانتخابية والسافطين ومجلس المئة والأربعة أعضاء في قرطاجة... على مقربة من هذا البحر الذي كان لبنانياً حقبة طويلة من الزمن... وعلى مرأى ومسمع الامواج التي رأت شعوب الدنيا تقوم وتنزح وتقطع الصحارى فتتلاقى وتتهاضم وتنصهر... في هذا الوطن ذي الحضارة الانسانية المتفتح لجميع التيارات الفكرية العالمية».

ويستمر الكاتب قائلاً:

«في هذا البلد القديم الجديد أبداً... يصح أن نتفاءل وأن يطيب فألنا، وأن نأمل ونوطّد الأمل، وأن نؤمن، وأن يعمر ايماننا بقيام صرح ديمقراطية صحيحة بنّاءة خلاّقة».

والديمقراطية الصحيحة، التي تمناها كمال جنبلاط للبنان، هي ما يؤدي إلى أمرين ـ وأن ينتج عن أمرين ـ الأول السيادة المطلقة للقانون المعتاد، الذي يتعارض مع السلطة الاستبدادية؛ والثاني المساواة أمام القانون. ويضيف الكاتب قوله:

«ويتضح لكم تغلغل روح الديمقراطية في بريطانيا وسيطرتها الروحية على النفوس من المثل الأعلى في التمرس بالنظام وبالحرية وبالقومية الصحيحة الذي ضربته بريطانيا للأمم في تاريخها وخاصة إبان الحرب الأخيرة (كتب هذا الكلام سنة ١٩٤٧). وتظهر لنا أيضاً هذه الروح في عدم وجود دستور مسطور في إنكلترا وعدم شعور أحد من الريطانيين بضرورة تسطير مثل هذا الدستور أو تسطير إعلان أو اثبات ما للحريات العامة».

ويربط كمال جنبلاط بين الروح الواعية ومفاهيم الواقع الاجتماعي، فيقول: «هذه الروح الواعية المقدّرة وهذا العقل النيِّر المدرك لمفاهيم الواقع الاجتماعي الاساسية، والمتفهّم... قيمة الشخصية البشرية وقيم المدنية المنبثقة عنها ـ هذا الإدراك الاجماعي الواعي، وهذا الوعي الشامل المدرك لأساليب التصرف والحياة، وهذه الثقة المبدعة طوراً حتى حدود التعديل والتبديل والتجديد والخلق، والمحافِظة تارة حتى حدود الاسراف في المحافظة وفي التقليد... هذه هي وجهة الروح الديمقراطية السياسية الصحيحة كما تتجلى في بريطانيا».

ويعود الكاتب إلى الحرية، فينقل عن باحث أميركي قوله:

«ما هي الحرية اذن التي يجب أن تعمر قلوب الرجال والنساء؟ إنها ليست الارادة الجامحة التي لا رحمة فيها. وليست الحرية أن يعمل المرء ما يشاء؛ فان هذا نقض للحرية يفضي مباشرة للقضاء عليها. وكل جماعة لا يشعر أعضاؤها بكابح لحريتهم، سرعان ما تصبح جماعة لا ينعم بالحرية فيها سوى قلّة متوحشة».

وقد سئل كمال جنبلاط، مرة، عن موقفنا، فأجاب:

«علينا أن نقبل بالآلة ومستلزماتها العملية، وأن نتفهم أهداف تطور الآلة وتطور العنصر البشري، وأن ندخل بحرية في سياق هذا التطور، مزودين بالمعرفة وبالإرادة فنهدم ما نتردد اليوم بهدمه ونبني بيت الجماعة، أي البيت الذي تسكنه السعادة البشرية».

ولمناسبة انعقاد مؤتمر كتّاب آسيا وأفريقيا، سنة ١٩٦٧م، قال كمال جنبلاط، في حفلة الافتتاح: «قضية الحرية التي نجتمع لمناقشتها وتقدير انعكاسها في أدب آسيا وافريقيا هي قضية الانسان منذ أن وُجد. تستقطبه ثم لا يلبث أن يستولي عليها. ثم يرهقها ويقيدها أو يعبث بها أو لا يقدرها حق قدرها، أو يمارسها على غير هدى، ودون إطار من النظام المادي والحرمة المعنوية والمسؤولية الاجتماعية، فترتد لتنتقم منه. ثم يعود فيندرج في مسالكها وأسبابها».

ويتساءل المحدث، عن الذي يصيب الحرية أو الانسان، من هذا التجاذب؛ ويجيب عن ذلك بقوله:

«ثم يؤوب الانسان الى استئثاره وعبثه، ثم ترجع هي لتثأر باسم القيم الانسانية الدائمة. وهكذا دواليك، كأن التاريخ بأسره تناقض جدلي قد صُنِع من هذا الصراع بين الانسان وواقعه وبين الحرية...».

ويؤكد كمال جنبلاط على أن الحرية، نمت، وتعاقبت ألواناً ونظماً سياسية واقتصادية واجتماعية، في هذا المنتدى القديم الجديد، أي لبنان. ويقول:

«لو كان لنا حظ في التنقيب وفي التعمق وفي دراسة التحققات الفكرية والتأسيسية والاجتماعية الغابرة... لواجهنا الحرية بالروح التي تجمع بين الحق الشخصي والمسؤولية».

ويتأمل المفكر كمال جنبلاط في أزمة الأنظمة والديمقراطية، فيقول:

«ان تفهمنا لمجاري الأحداث وعللها ومسبباتها واستيعابنا لقواعد نمو المجتمع ولشرع تطور الجماعة والحضارة والذهن البشري يمكننا من التأثير المباشر في تحريك المعطيات ودفع الطاقات، وتصويب الاتجاهات وتوجيه التيارات».

ويؤكد على أن عقلنا هو جزء وانبعاث وخاتمة وتتويج لطاقة الكون نفسه. وهذه فلسفة ما أكثر ما نجدها عند جنبلاط، الذي كان يرى في وحدة الوجود سبب الوجود نفسه. ويقول: «ولسنا نحن الذين نخلق للكون شرائعه. ولو أننا مُنِحنا عطيّة

الفكرونعمة حرية الاختيار الظاهر والمبادرة المسؤولة. وإنما عقلنا جزء وإنبعاث وتتويح لطاقة الكون ذاته، ونتيجة ونتاج لتطور الحياة في شمولها وانطلاقها».

ويضيف: «بل وعقلنا مرحلة في مسلك تحقق تطور هذه الطاقة الكونية، ومنها الحياة، الى ما يتعدى ما نحن فيه وعليه».

ومن حيث النظرة السياسية الاجتماعية الاقتصادية، فإن كمال جنبلاط، كان في مقدمة المفكرين الاشتراكيين، بمعنى أنه أضاف الى جماع الفكر الاشتراكي أشياء من عندياته، جاءت، في غالب الظن، من نظرته الفلسفية الواسعة، التي لم تقبل أي حد أو انغلاق، مهما كان نوعه.

ومن هنا، جاء قوله: «وهذه الديمقراطية العضوية لا تتحقق الا إذا ساد النظام الاقتصادي في مرحلته المتطورة النامية، والقادمة من خلال الاختبارات الجديدة، والتعديلات الرئيسية للاختبارات القائمة الحيّة».

وكمال جنبلاط، الأديب والشاعر، يقول، في الأدب: «الأدب الحقيقي هو الذي يرتقي بالنفس، يَرفع ولا يُنزل، يصون ولا يهدم، يبعث السعادة لأنه يبعث الجمال الأصيل في النفوس حياً. وإذا لم يكن الجميل فينا وجهاً لطبيعتنا الحقيقية، فكيف نستطيع ان نتذوق الجمال؟ والجمال بحد ذاته معراج، لا هوّة تحوّل أو توقّف أو انزلاق!».

والمعروف، أن أول قصيدة نظمها كمال جنبلاط، كانت «أفيقي» (سنة ١٩٤٥ م)، أثناء نزهة الى عين مرشد، في الشوف!

وهي:

أفيقي فما الكونُ إلا غرام	وحب يهيمُ بلون السَّحر
وقلب يدق وبروح تشقُّ	غبارَ المروج وصمَّ الحجر
حياة تدبُّ وريح تهبّ	بريش الطيور وغصن الشجر
تبلورُ كون وتفتيق زرٍّ	كدر السحاب ولمح البصر
كان البرايا بحلم ذَهول	يمرّ عليها بشتّى الصور
هدير النهور وسجع الطيور	ونفح العبير وضوء القمر
على الخدِّ وردٌ وفي القد رعشٌ	وفي اللحظ لغز عليّ ائتمر
وفي القلب حب طويل الاناة	فسيح الجهات يحيط البشر
ولحن تذوبُ به الكائنات	كنظم النجوم بسمط القَدَر
كأن الثواني أقداح عرس	تفوِّر منها ألوفُ السِيَر
أسائل نفسي: أبعث هنيء	على الكون فيه النذير نفر؟
أفيقي، أفيقي، فما العيش الا	هنيهةُ سعدٍ وعُمرٌ ضجر

ولكمال جنبلاط ديوان شعر، نشر باسم «فرح». وهو، كما وصفه، هو بنفسه: «لمحات من توجهات تعبدي وتطهيري في مسارح العروج، جاءت كما هي دون رغبة أو طلب... لست بشاعر ولكنه الشعور، أحياناً، هو الذي يشعر».

ويضيف: «وبعد فإنها فرصة لتثبيت أقدامي أكثر فأكثر على الشاطىء الأمين. بعضهم يستجدي الألم ويمتع نفسه بالشقاء، لكي يصل. ولكن طريق الفرح هي أكمل وأجدى. كل شيء هو فرح، هو «فرح» ذاتي الجوهرية المشعة في الوجود الظاهر».

و«فرح» مزيج من الشعر الموزون والشعر المنثور. وقد قدّم للديوان ميخائيل نعيمة، الذي قال فيما قال: «أما لماذا اختار (كمال) جنبلاط أن يعبر عن وجده وعن رؤاه بالشعر الموزون والمنثور، على ما في ذلك في التعبير من مشقة بالغة، فعلم ذلك عنده. ولعلّه رأى، مثلما رأى بعض المتصوفة العرب وغير العرب أن الشعر، بما فيه من عذوبة الايقاع وشفافية الصورة، هو الأليق بالنفس عندما تتحدّث عن معاناتها في التدرج من المحدود الى المطلق، أو عندما تخاطب ذلك المطلق».

ومن الصعب تخير مقطوعة من كتاب «فرح»، ولكن لا بد من ذلك، فلنأخذ أبياتاً من «مرقص الضياء».

ها نحن قد جئناك — من شاطىء للفناء
نطوي الوجود فداك — ونرتوي من ضياء

يا فرحةً في الجمال — يا قمةً في الجبل
يا موطناً للحنين — تبلى به الجفون
يا مسبحاً للعيون — يا وفرة في الأمل
هذي بلاد الحبيب — والحب فيها لهيب
والداء فيها طبيب — والمشتري زحل
قل للأماني العذاب — في قربها من هواك
لا ترتضي بسواك — فأنت خمر العنب

وفي آخر كتاب «فرح» فصل سماه كمال جنبلاط أفضل الشعر، جاء فيه قوله:

«وفي معنى آخر فإن الشعراء على أصناف أو مراتب ثلاث: منهم من يصف الأغراض - أي الصور الحسية والعواطف والأفكار - التي يقع عليها النور. وهذا في الحقيقة ليس بشعر. ومنهم من يصف الأغراض وانعكاسات النور عليها، دون ان يتلفّت - في خدعة جهله وانجذاب عقله - الى مصدر الاشياء وينبوع النور. وهذا شعر المتفوقين».

«ومنهم من غاصت عيناه في لجة النور فغاب في النور وأضحت موسيقى النور

سعادة ذاته، فإن صدف له وخرج من ذاك النطاق السحري المسحور قال ما قال، لا لكي يسمعه الناس - وهم ليسوا في سكرة الدنيا بموجودين - بل لكي يراقب حقيقة ما يشاهد. وهو أعظم الشعراء البشر. فما همه ان صاغ شعراً أو كتب نثراً، أو سكت جيلاً، فالشعر ملء برديه وطفح جنانه. والشعر واللحن وروعة الشكل الجميل نغم من أنغام وجوده الممتلىء الفائض».

«ومن البديهي أن مثل هذا الشعر ما ضرّه أن يكتب بقوالب الايقاع أو النثر... فهو في المتى والأين... والزمان والمكان وتر الوجود وريشته يلعب عليها الواحد أنغام وجود الواحد؛ كأن مياه البحار تتدفق على قلبه فيعيش في ساعة واحدة ألف ألف ربيع».

١٠ ـ مذكرات جريح

أما الجريح فهو بولس سلامة، الاديب المبرّز والقانوني البارع. وهي مذكرات كتبها نتيجة قضائه أكثر من أربع عشرة سنة، يتقلب على فراش المرض، ومبضع الجرّاح يلاحقه، دون ان يعرف الجرّاح، لماذا يشقّ الجرح تلو الجرح، موسعاً فيه المرة بعد المرة، كاشطاً عن العظم ومنه، مفرغاً كميات من الصديد، مع بقاء الجرح مفتوحاً مكشوفاً، كي يسمح للصديد بأن يخرج.

وأخيراً اكتشف الطبيب جورج بدر مكمن الداء وسبب العلّة، لكن الكشف جاء متأخراً، وكانت عمليات الدكتور بدر مفيدة للتخفيف قليلاً، لكنها لم تنقذ الرجل من آلامه، وظلّ بولس سلامة يتألم.

دخل بولس سلامة خمسة مستشفيات، وأجريت له تسع عشرة عملية جراحية كبيرة، ولحقتها، فيما بعد، خمس. وكان بولس سلامة قد عقد العزم على التأليف سنة ١٩٣٦ م، وهي السنة التي نكبه المرض فيها. ويقول، عن عزمه على الكتابة: «وقد تراءت لي الخطوط الكبرى فصممت على التوليد سواء أكان الجنين سِقطاً أم بشراً سوياً. ولكن المرض أطاح بهذه التصاميم، وتهاوت براعم الدوحة في مهبّ العاصفة قبل ان تنعقد ثمراً. وغلَّ العذاب قلمي عشر سنين، وقد ملأت الآلام ليلي ونهاري».

وفي سنة ١٩٤٥ م، كان بين عوّاده، في المستشفى، شارل قُرم، فاقترح عيه ان يكتب. قال بولس سلامة: «فقاومت الاقتراح إذ رأيتني غريباً عن اليراع بعد ذلك الهجر الطويل. ولكن صاحبي ألحّ، وكان تأثيره بي تأثير المنوّم بالوسيط. فزاودتني الفكرة وكان الألم المكبوت من زمن بعيد يغلغل في جوارحي. واستشعرت انه حان لهذا الاسير ان يطل على العالم الخارجي ولو من نافذة... وفي هذه الغمرة من الدمع نبتت قصيدتي «ألم» ومقالتي «بين أيوب وبيني»».

وهنا، لن نتابع بولس سلامة الجريح، في خطوات مرضه ومحطات عملياته؛ ولكننا ننوي أن نشير الى بعض تجاربه المؤلمة، مستعينين على توضيحها، بنقل عبارته الأدبية المحكمة السبك، الوثيقة الحبك.

يقول بولس سلامة، عن الجرّاح الأجنبي، الذي كان يرأس قسم الجراحة، في مستشفى الصنائع: «كان يرئس قسم الجراحة، في المستشفى يومئذٍ جراح أجنبي نابه الصيت بعيد الشهرة... فحصني الرجل فحصاً دقيقاً ودفعت أجرة العملية على أنها

بحث عن جسم غريب. وخدّرت هذه المرة بالحقن في العمود الفقاري، وشقني الجراح وأدخل المقحطة حتى تجاوز المنطقة المخدرة البالغ عمقها اثنين وعشرين سنتمتراً. فصرخت صرخة ألم ونبهته الى أنه تجاوز طرف السرداب. وشهد لي بالذكاء وشهدت له بالمهارة».

وقد أخذ الطبيب شيئاً من الصديد، لاختباره: «وجاء بعد أيام يقول بوجوب شق الفخذ. وهوّن عليّ الأمر بأن أجري هذه العملية في سريري... وغاب عني وبعد خمس دقائق ـ وكنت لم أزل أتأوه ـ بعث الي ببيان يعين فيه أجرة هذا الشق المرتجل... وقضيت في المستشفى خمسين يوماً، وخرجت ببشرى أن العلة في اللحم وأنها من النوع الذي يشفى باستعمال مشتقات اليود. فاستعملته على أنواعه وعلى أوسع نطاق، وعلى غير جدوى».

«وأرشدني بعض أخواني إلى طبيب حامل شهادة يضاف اليها معرفته بالطب العربي القديم الذي تلقاه عن والده. وكنا يومئذٍ في مطلع صيف ١٩٤٠. وأشار عليّ الطبيب أن نصطاف معاً لأكون على مقربة منه... واخترنا دير القنزوح مقابل غزير لأن المكان يناسب الطبيب».

لكن لم يفد بولس من الطبيب سوى أن وسّع هذا الجرح، ولقي صاحبه العذاب الشديد، من العملية المتواصلة.

لكن بولس سلامة استمتع بصحبة القرويين. وقد كتب، عن هؤلاء الناس، ما يلي: «كان القرويون يملأون فراغ وقتي بزياراتهم، فأسايرهم في الحديث، وأدرس نفسية الفلاحين والرعاة وأسألهم عن أسماء أبقارهم ومعيزهم غير مستغرب شيئاً، لأني قروي يعرف الأرياف وشؤونها».

وقول بولس، عن نفسه، انه قروي، صحيح، فهو من بتدين اللقش (من أعمال جزين).

وكان من الضروري، أن تفحص الكاتب لجنة طبية، بعد أن تغيب، عن عمله، نحو السنة، لتقرير أمره، من حيث استمراره فيه. وكان في اللجنة مستشار الصحة، يومئذٍ، وهو طبيب جرّاح، فرنسي، وهو جراح عسكري برتبة عقيد: «فحصني الرجل وهز رأسه قائلاً: تباً لهؤلاء القوم الذين تولوا علاجك حتى اليوم... إن سبب الصديد هو دمل في الكلى، وكان عليهم أن يشقوك من الوراء لا من الأمام... وتطوع لإجراء العملية في مستشفى الصنائع التابع لوزارة الصحة، فأكبرت مروءته ودخلت المستشفى في اليوم نفسه».

وكان هذا المستشفى رقم ٤، وكان دخوله في أواسط آب/ اغسطس ١٩٤٠ م.

ويصف بولس سلامة ممرضة الليل في مستشفى الصنائع: «وسألت عن ممرضة الليل لأني مقعد ولي مطالب شتى فقيل لي انتظر فانتظرت... وجاءت ممرضة الليل

وهي أرمنية عجماء، صفيقة الوجه ثقيلة الأرداف واللسان، وفي يدها طعام العشاء وهو أشبه بطعام النساك الحُبَساء فلم أمد اليه يداً. ومن واجب ممرضة الليل ان تظل ساهرة تتفقد المرضى. ولكن هذه كانت تمر بهم في أول الليل وآخره. وتنام في الرواق على كرسي بحري مستطيل فيسمع لها اطيط وغطيط، وشخير ونخير، فتقضّ على المرضى المساكين مضاجعهم».

لكن الأمر سويّ لبولس سلامة؛ بأن هيئت له غرفة خاصة، ووضع تحت رعاية الراهبات، القائمات بأمر المستشفى. أما الطبيب، الذي قال بدمّل في الكلية، فقد أصر على إجراء عملية، مع أن التصوير جاء معاكساً لرأيه. وكانت عملية مرهقة مؤلمة، وقف بولس سلامة، في نهايتها، على شفير الهاوية، لكثرة ما نزف من دمه، فهبطت دقات قلبه، واضطرب قلبه وابيض وجهه. ولما جاء أهله، تبين، حتى وهو في هذه الحالة، الذعر في وجوههم. وبعد شهرين، أجبره الجراح على الحركة، وكانت الراحة به أوْلى. وقضى في مستشفى الصنائع تسعة أشهر.

عاد الى العمل، ولكنه كان يجلس على قوس المحاكمة وحرارته فوق الثمانية والثلاثين أحياناً. وأرشده سنة ١٩٤٢ صديق له طبيب، لقيه في ساحة قصر العدل الى الدكتور جورج بدر. وطلب هذا صورة جديدة، وبعد فحصها مع المصور الدكتور قدورة، حكم الطبيبان بأن عظم الحرقفة هو المصاب، وهو أصل البلوى. وقد حاول الدكتور معالجة الداء بالطرق السلمية، قبل ان يعمد الى المبضع. وأخيراً، كان لا بد من العملية. فما الذي اكتشف؟

يقول بولس، في مذكراته: «واستفقت من المخدر بعد ان استغرقت العملية ساعتين، وقد وجد الطبيب أنه كان قد مر على اصابة العظم بضع سنين صرفناها بالحدس والتخمين... أجل بقي الحيوان المدمّر ست سنين يرتع في عظامي هانئاً هادئاً بالمطاردين، ولو أبصروه منذ ذلك لقضت عليه ضربة خفيفة، ولكنه سمن وبطر فصار هناك سبعاً ضارياً رهيف المخالب حديدي الأنياب، يحتل الحنايا فيشقها كهوفاً».

وأُجريت لبولس سلامة جراحتان أخريان، ولكن المهم هو الحصول على دواء يقتل الميكروب الذي يغذي المرض، وهنا، قرأ بولس سلامة عن البنسلين، وعرف ان البنسلين وصل القاهرة، وأن الذي بلغها خمسة ملايين وحدة. وحسبها بولس سلامة خمسة ملايين قنينة، الى أن أوضح له الدكتور بدر ان هذه الكمية كلها، قد تكفي لمعالجة مريض واحد.

يقول بولس سلامة: «وقطع البنسلين الطريق من مصر الى لبنان، ولكنه بقي في حوزة الجيش، وضرب حوله نطاق من البنادق والمدافع... وبدأت مفاوضة مستشفى الجامعة الاميركية، وبعد جهود عدة... نقلت الى مستشفى الجامعة غب انتظار شهر

ريثما تأتي نوبتي، لأن الكمية كانت جد محدودة.. وجيء بي الى المستشفى حيث مكثت شهراً استعمل لي خلالها ما يقارب المليونين من الوحدات، وصُوِّرت وفُحِصت... وخف الصديد... ولكن لم يزل السبب. وعدت الى مستشفى الروم!».

وهكذا قضى بولس سلامة هذه السنوات الطويلة في معاناة المرض والألم. وكم نحن مدينون لشارل قرم، الذي حمل الكاتب على ان يتناول القلم، ويعطينا هذه الصور الحية الرفيعة المستوى لما أصابه، وانتابه.

وفيما يلي نماذج عنها:

قال بولس سلامة: «إن المريض المتقلب على أحر من الجمر واحدٌ من الشوك، يشعر بانعدام الحركة فلا يكون ليله في الزمن بل في الأبدية. وحالة المريض المتقلب على النار، أيسر من حالة المقعد المشلول عن الحركة، إلا أن تقلبَه يد رفيقة... ولقد مرت علي ثلاثة آلاف من هذه الليالي الدهم، وكل واحدة منها أبدٌ كاملٌ، بعضها جحيم وبعضها مطهر. أما ليالي النعيم بينها فتلك التي يكون الألم فيها خفيفاً.

«ومن الأمور المسلمة أن الألم في الليل أشد منه في النهار... والعتمة تعزل المريض عن العالم الخارجي، فينطوي على نفسه، وتتوقف العلاقة بينه وبين أحاسيسه حتى ليسمع دقات قلبه ويقترب وريده من أذنه... وتتيه مشاعره في سُدُف الظلمة فتلون بلونها... في هذه الليالي الراعبة، ليالي المرض الذي تتقطع به أسباب الأمل، ومن خلال هذه الظلمات الرهيبة، يشع في بصيرته نور الله فلا يرى مفزعاً إلا اليه؛ وإلى من تراه يلجأ؟».

كانت قصيدة ألم أول ما نضح به قلم بولس سلامة، بعد أن حمله شارل قرم على الكتابة. وهنا ننقل بضعة أبيات من هذه القصيدة الطويلة:

يا موت يا ملك الحنان ظلمتني ... وأدرت سمعك عن جريح ندائي
أتُرى يروقك أن أعيش معذّباً ... جسدي تمزقه نيوب عيائي
داء تخلّل في العظام فردّها ... فلذاً وأشلاء على اشلاء
سالت على حد المباضع مهجتي ... فشفارها مصبوغة بدمائي
وتشابهت مني الجراح فأصبحت ... حُفراً تضل بها عيون الرائي
وتشيع في حُمّى تهدّ مفاصلي ... وتدبّ مثل الحية الرقطاء
فأغيب في الكابوس غيبة سابح ... في النار بين الحسّ والاغماء
صبحي أمر من المساء فعيشتي ... موصولة الظلماء بالظلماء

وتبدو للشاعر أيام شبابه ماضياً سحيقاً، فيقول، في ذلك:

واهاً لأيام الشباب وبهجه ... والزّهو حين جررت فضل ردائي
تختال في عزم الفؤاد فتوّتي ... ويطلّ من وضح الجبين روائي

يهفو الى الأمل المحلّق خاطري ويموج في صفحاته البيضاء
لم يبق من نغم الصبا وفتونه الا حنين مبهم الاصداء
ذكرى من الماضي السحيق سللتها فتخضبت بالدمعة الحمراء

ويقابل الكاتب، في القطعة التي سماها «بين أيوب وبيني»، بين أيوب الذي كان غنياً، ثم أصيب بقروح. يقول، في ذلك: «أما أنا فعلى هامش الحياة جئت... وإذا كنت أنت قد أصابك قرح من باطن قدمك الى قمة رأسك، فأنا قد تغلغل دائي في العظام، وأذابها فعجنها بالصديد. وتناوشتني المباضع فسالت روحي عليها تسع عشرة مرة. وترصّدني الموت عشر فلقيته وجهاً لوجه».

ويضيف قوله: «ولقد سمرني الألم مستلقياً على ظهري تسع سنين أصلاً لكنها ارتفعت الى أربع عشرة سنة، لا أتحرك إلا بقدر ما تتحرك الخشبة على الماء الراسب. وانطفأت زهرة صباي في المستشفيات حيث قضيت من الأعوام سبعة. وهذا هو العام الرابع عشر لمرضي الوبيل واستشهادي الطويل».

ويتحدث بولس سلامة عن زوجته في هذا المقال بالذات، فيقول: «أما زوجتي يا أيوب فهي أصبر من زوجتك. أما تلك فقالت لك جدّف على الله ومت. وأما هذه فقالت لي سبح الله تحيَ. وكنت إذا أدمعت عيني خنقتها العبرات، أو حز المبضع في أوصالي مرة حز في قلبها مرات».

وبعد مقارنات ومفارقات بينه وبين أيوب، يقول بولس سلامة: «أشكرك اللهم لأنك طهرتني بالألم، وصهرت روحي في مصهر العذاب لتأخذني نقياً اليك، فغسلتني بنداك السماوي... اللهم ليس عذابي بجانب نارك شيئاً مذكوراً، ولقد كانت حياتي كلها ذنباً كبيراً... لقد جرعتني كأساً مرّة ولكنها دون ما استحق فإذا زدتني بعد استزدت».

وفي مذكرات جريح، قصيدة ثانية، بعنوان «وَحْدَه»، منها:

سوط العذاب أطال سهده فرثت لأنته المخدة
أنّاته الحمراء جارية مع الانفاس وقده
يا ساجياً أكل الفراش ضلوعه وامتص جلده
ثأر الزمان من الورى وعليك وحدك صب حقده

وقد كتب بولس سلامة، في مذكراته، فصلاً عن المال والنفقات. وكل من مَرِضَ في بيروت، حتى ولو كان المرض عادياً، يعرف ما يكلفه ذلك. فكيف بهذا الذي أجريت له هذه العمليات الجراحية، والذي أقام في المستشفيات ما مجموعه سنوات.

يقول الكاتب في ذلك: «والحق أقول لك إن هذا الزئبق الفرار أجهدني. فأنفقت بين ١٩٣٦ و١٩٥٠ ما يربو على المئة والعشرين ألف ليرة، في جملتها ثمن غابة الصنوبر التي تلقيتها عن أبي رحمه الله».

وبهذه المناسبة، فقد استمر الإنفاق بعد ١٩٥٠، لأن بولس سلامة لم يشف من علته!

ونورد، فيما يلي، ما قاله الكاتب عن غابة الصنوبر هذه: «ولقد كانت تلك الغابة، التي حصدتها الفؤوس. ثروة في أعين الترابيّين. وكانت في أعين الشعراء أعمدة للجمال الاخضر، منطلقة من جبال الرمل الذهبي الاصفر، زمرّد على عقيق وعطر ونسيم واظلال ونعيم. وكانت في نظر اصدقاء الشجرة ملتقى ملكات حسان كشفن عن سوقهن كما فعلت من قبلهن ملكة سبأ».

ويتألم بولس سلامة من ان كتبه، التي لقيت من الاستحسان، ما شاء للأقلام أن تغدق عليها، تقبلها الناس هدية ولم يخطر في البال شراء نسخ منها تعين المريض!

ويتحدث بولس سلامة عن أصحابه - بعض أصحابه طبعاً - بمرارة، اذ يقول:

«أصحابي! وكانوا يباهون بصداقتي، وكان يطيب لي ان أفتديهم بمالي وولدي. وأنا أتحدى أياً كان أن يتهمني في وفائي. فأنا على كثرة عيوبي أستطيع المباهاة بفضيلتين: نزاهتي قاضياً ووفائي صديقاً. أولئك [الاصدقاء] لما يئسوا من شفائي وتقطعت بي أسباب الرجاء، تولوا كأنهم لا يعرفونني. وأصبحت في نظرهم ميتاً. ولم يبق في صف الأوفياء إلا قلة تكاد تجاوز أصابع اليدين، وكذلك هي عتاق الخيل تكون قلة ولا يثبت في الميدان سواها».

ويضيف الكاتب: «ومما يجدر بالذكر أن الذين آسوني في محنتي لم أعرفهم ابان العافية، ولم أمدَّ اليهم يداً بفضل، ولا أذكر أنني أنجدتهم بقلم أو لسان. فبهولاء النبلاء وأمثالهم صحّ عندي أن المروءة لم تنقطع عن وجه الأرض».

١١ ـ جرجي زيدان يتحدث عن بيروت والكلية

لعلّ جرجي زيدان أول من دوّن مذكرات شخصية، أو ذاتية، بين أهل الفكر المحدثين من العرب. وقد توفي الرجل، قبل نحو سبعين سنة، والأمور التي يتحدث عنها، تشمل الفترة السابقة لسنة ١٨٨٣ م، وهي السنة التي ترك فيها بيروت الى مصر. ومذكرات جرجي زيدان لها صفات مهمة. فهي صريحة، صادقة، بسيطة، لا زخرف أدبياً فيها، ولا محاولة للتستر. هي حكاية رجل كان عاملاً بسيطاً، وطباخاً صغيراً في مطعم شعبي، في ساحة البرج، وصانع أحذية أصبح، بجده، وصبره، ورغبته في المعرفة، أحد كبار العلماء في مشرقنا.

وكلنا يعرف أن جرجي زيدان خدم التاريخ العربي الاسلامي خدمات جلّى، في كتابيه «تاريخ التمدن الاسلامي» و«تاريخ آداب اللغة العربية» وروايات تاريخ الاسلام، فضلاً عن الكثير مما نشره في «الهلال». وهو، كما يقول الدكتور صلاح الدين المنجد، كتب الآلاف من الصفحات، ودوّن العشرات من المؤلفات، وأسهم: «في نهضة مصر العلمية» فكان «موجهاً لها وأستاذاً كبيراً فيها».

ولد جرجي زيدان في ١٤ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٨٦١ م، في بيروت، في بيت الياس الشويري. كان والده يعمل في اللوكندة، أي المطعم، من الصباح الباكر حتى منتصف الليل، يومياً. ولذلك، وقع أمر العناية بالعائلة على كتف أمه، التي قال جرجي زيدان عنها: «وكانت والدتي... قوية البنية، صحيحة العقل، دقيقة الإحساس كتومة، قليلة الكلام كثيرة العمل، لا تهدأ ليلاً ولا نهاراً للقيام بكل لوازم البيت».

وقد غرس ذهاب الوالد مع الفجر والعودة المتأخرة، وعمل الوالدة المستمر في ذهن جرجي زيدان: «ان الإنسان خلق ليشتغل وأن الجلوس بلا عمل عيب».

وكان والد جرجي أمّياً، لذلك، لما اتسع نطاق عمله، وكثرت حساباته، رأى وجوب تعليم ابنه القراءة، ليساعده في العمل. وكان المعلم الياس، شقيق قسّيس العائلة، أول معلمي جرجي زيدان.

ثم نُقِلَ جرجي الى مدرسة، عرفت بمدرسة الشوام، أنشأها جماعة من أدباء دمشق؛ هاجروا الى بيروت. هنا، أخذ جرجي بعض مبادىء الحساب، والنحو، والخط. وكانت مدرسة ذات شهرة حسنة. وكان فيها معلمون أفاضل. ولكنها أقفلت سنة ١٨٧٠ م. وكانت النقلة التالية الى مدرسة الثلاثة أقمار، للروم الارثوذكس في الاشرفية.

يقول جرجي زيدان: «ففي أواخر السنتين وأنا في الحادية عشرة من عمري ومعارفي ناقصة احتاج والدي إليّ في لوكندته لأتولى مساعدته موقتاً في تقييد الاسماء وإرضاء الزبائن، ريثما يوفق الى سفرجي غير الذي تركه بالأمس... وامتدت الأيام السبعة الأصلية الى سبعة أو ثمانية أعوام».

هذه الأعوام، التي قضاها جرجي زيدان في أسواق بيروت، يقول عنها: «قضيتها في أسواق بيروت بين عامتها، وأنا مضطر لمعاشرة أحط الطبقات فيها، لأن محلنا ـ أي اللوكندة ـ كانت حوالي ساحة البرج. انتقلت من محل الى آخر ولم تبعد عن تلك الساحة. وساحة البرج كانت يومئذٍ ملتقى الزعران الرُعاع وأهل البطالة وفيهم السكير والمقامر وأهل الدعارة والخصام».

ثم جرب جرجي حظه في تعلم صناعة الأحذية، ولم ينجح، فعاد الى اللوكندة، موقتاً، ريثما يفكر أهله في صناعة أخرى.

ويصف جرجي زيدان، بعفوية وصدق، ما كان يقوم على مقربة من اللوكندة، من أنواع الملاهي التي «كانت تجري بالقرب من محلنا، الذي كان على شارع عربات الشام». فقد «كان بجانبه قهوة تقدم فيها القهوة والشيشة أي الاركيلة... ويلعب أهلها في اثناء النهار بالدامة أو النرد أو الورق... فإذا غابت الشمس أقاموا فيها الألعاب والتمثيل وأهمها لعب السيف وتشخيص الكراكوز والشعوذة وحكاية القصص».

وقد كان للكراكوز «سوق رائجة في ذلك العهد. وإني لأستغرب الآن كيف كان الناس يحضرون لمشاهدة ذلك التمثيل. فقد كان تمثيلاً بذيئاً كله فحش وسوء أدب».

وأود أنا، كاتب هذه السطور، ان أقول إنني وأنا صغير، في أيام الحرب العالمية الأولى، كنت أحضر تمثيل كراكوز، في جنين بفلسطين، وكان التمثيل على الشكل عينه. والذي أراه ان كراكوز كان هو كراكوز تمثيلاً وفحشاً وسوء أدب حيث كان، في بيروت أم في جنين.

«كان أهل بيروت يومئذ طبقتين: العامة وهم الرعاع والصناع وسائر أهل الصنائع والتجارة الصغيرة؛ والخاصة وهم رجال الحكومة وأهل الثروة... ونشأت طبقة ثالثة تخرجت في المدارس البيروتية وأكثرها كانت مدارس ارساليات... مثل المدرسة الكلية السورية والمدرسة الانكليزية للبنات ومدارس اليسوعيين وبعض المدارس الوطنية مثل البطريركية والحكمة».

وكان أول اتجاه لجرجي زيدان، في أن ينضم الى الطبقة الثالثة، هو إقدامه على تعلم اللغة الانكليزية، وذلك لما عرف أن أحد زبائن اللوكندة، مسعود الطويل، من أهل الشياح، فتح مدرسة لتعليم الانكليزية. يقول زيدان: «وكان اسم الانكليزية غريباً على مسامع البيروتيين، لأنهم لم يكونوا يعرفون من فضائل الانكليز إلا قولهم «سكرة انكليزية»، لكثرة ما كانوا يشاهدون من البحرية الانكليز سكارى في شوارع المدينة.

فإن بعض الدوارع الانكليزية التي كانت تتجول في البحر المتوسط. كانت ترسو في ميناء بيروت أحياناً، وينزل بحارتها للفسحة، بعد ان يكونوا قد انقطعوا في دورانهم أسابيع وأشهرا. فيطوفون بالبلد، يأكلون ويشربون، ويستولي على أكثرهم السكر. وإذا سكروا عربدوا بلسان لا يفهمه أحد فدار على ألسنة البيروتيين قولهم «سكرة انكليزية».

كان جرجي في سن الخامسة عشرة، لما أخذ بتعلم الانكليزية، عند المعلم مسعود الطويل. ثم اعتنى بالقراءة والتحصيل بنفسه. يصف جرجي زيدان تعلمه للانكليزية، فيقول: «وبلغ من اجتهادي في درس هذه اللغة، أني كنت وأنا أطبخ في الصباح، وطَبْخُنا عبارة عن وضع عشر حلل دفعة واحدة على الكوانين: واحدة للرز وأخرى للفصولية وأخرى الخ... وأنا أعالجها كلها، افتح الكتاب بالانكليزية للمطالعة أو الترجمة. فأقرأ فيه فإذا احتجت الى تحريك حلّة، أو تقطيع لحم، وضعته مقلوباً على الطاولة وحركت ثم عدت اليه».

كان مما أثر في تطور جرجي زيدان الثقافي، يومها، صدور المقتطف. قرأ بعض الاعداد، وأدرك الفائدة من استمرار القراءة في المقتطف، فلم يلبث ان اشترك فيه. وتعلم الدوبيا عند التجار. وكان يتردد على اللوكندة الشيخ ابرهيم اليازجي، العالم في لغته، الأنيق في لباسه، الشروال والطربوش المغربي. وكذلك كان من الزوار عبدالله البستاني. هذان كانا من كبار علماء اللغة. وكان جرجي يحضر احتفالات شمس البر، التي كانت فرعاً من جمعية اتحاد الشبان المسيحيين بانكلترا. وتعرف جرجي زيدان بالدكتور اسكندر البارودي، الذي كان تلميذاً في مدرسة الطب في الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الاميركية اليوم).

تكونت عند جرجي زيدان الرغبة في دراسة الطب في الكلية، ليكون بذلك عوناً لأهله. واجتمع بصديقه البارودي الذي أوضح له ما يقف في الطريق من المشاكل والصعوبات. لكن جرجي زيدان اعتزم أن يعد نفسه، خلال عطلة الصيف، ليتقدم لامتحان دخول الطب، في مواد يتعلمها الطلاب، عادة، في سنة على الأقل. واشترط حرجي على اسكندر البارودي أن يكون معلمه. وفعل ذلك. ونجح.

ويقول الكاتب: «أصبحت في يوم الاربعاء في (التاريخ ناقص) سنة ١٨٨١ وأنا تلميذ من تلامذة الطب في المدرسة الكلية، وأنا لا أصدق أنني حصلت على هذه الأمْنِيَة. وفتحت دكاناً بقرب بابها لبيع المأكولات عهدت بها الى أخي متري. واستأجرت غرفة أقيم فيها بقرب المدرسة. فاشتغلت الدكان بضعة أشهر ثم وجدتها لا تفي بالمطلوب فتركتها، وتفرغت للدرس. ولكنني ما لبثت أن اهتممت بالقسط الثاني. فوُفِّقت الى شاب أعلمه اللغة العربية... واشتغلت أشغالاً أخرى استعنت بها على دفع القسط الثاني وثمن الكتب.

«وكنت أشعر أول الأمر أنني غريب عن هذا الجو. لكن ذلك لم يطل. فقد ألفتهم وألفوني. وكان طلاب الطب جميعهم ٤٥ طالباً، منهم تسعة في صف المبتدئين» (أي صف الكاتب).

يتحدث جرجي زيدان عن معلمي الكلية ومنهم فانديك وورتبات ولويس وبورتر وبوست (بوسط). وجاء موعد الامتحان وإعلان النتائج، فكان لجرجي زيدان امتيازان ـ في الكيمياء التحليلية واللاتينية.

ويعطينا صورة عن «الكلية» وأقسامها الثلاثة: علمي وطبي ولاهوتي، وكان رئيسها دانيال بلِسّ. وكان للكلية عمدة مقيمة فيها، وكان لها «عمدة عليا» أعضاؤها موجودون في دمشق وزحلة والقدس واللاذقية وعبيه وثمانية في بيروت من أصل أربعة عشر عضواً. وقد ذكر هذه التفصيلات الادارية وأشرنا نحن اليها هنا، لأن ذلك ارتبط بحادثة اتحد فيها جميع تلامذة الطب في المطالبة بحقوق لهم. ويقول عنها زيدان:

«وهي أول حادث من هذا النوع في الشرق».

ونحن نتفق معه في ذلك، خصوصاً من حيث أثرها.

والحادث هذا يمكن تلخيصه، من كلمات الكاتب نفسه، بما يلي: «اتفق في ذلك الوقت (أي سنة ١٨٨١) انتشار مذهب داروين (القائل بالتطور). فألقى فيه الدكتور لويس (أستاذ الكيمياء) خطاباً على التلامذة (لم يتعرض فيه للدين في شيء). لكن ذلك الرأي (أي مذهب داروين) كان لا يزال حديثاً ورجال الدين يعدونه مخالفاً لقواعد النصرانية. فحسبوا هذا الخطاب نقطة سوداء للدكتور لويس واشتكوه الى عمدة المدرسة الكبرى في أميركا. فالجأته الى الاستعفاء لأنها شديدة الحرص على المبدأ الديني الذي أنشأوا تلك المدرسة من أجله».

يقول زيدان: «كان الطلبة يحبون لويس ويعتبرونه، فلما صدر قبول استعفاء لويس في اثناء الفصل الأول من السنة التي نحن بصددها... انحاز تلامذة الطب لجانب فانديك ولويس، والأول كان يحب الثاني ويقربه. وأجمعوا على اقامة الحجة ومطالبة المدرسة بحقوق لهم عليها، ومن جملتها أن يكون الدكتور لويس استاذ الكيمياء فيها».

وكان من لوالب الحركة اسكندر البارودي وسليم جريديني. واشترك جرجي زيدان في ذلك، احتراماً لاسكندر البارودي. وكان يعقوب صروف وفارس نمر، صاحبا المقتطف، يؤيدان الطلاب تأييداً معنوياً.

وقد اعتبر جرجي زيدان هذه الحركة أمراً يستحق التدوين فقال: «إن الحركة التي قام بها طلاب الكلية مما يحق تدوينه لأنه بدء نهضة جديدة بين تلامذة المدارس في الشرق لم يسبق لها مثيل. والفضل فيها راجع الى تربية المدرسة نفسها، فإنها كانت تربي تلامذتها على حرية الفكر وحرية القول، وعوّدتهم على الحرية الشخصية والمساواة في الحقوق، حتى ان التلميذ كان يشكو أستاذه الى عمدتها إن توهم أنه خرج

في معاملته عن الحدود المفروضة له. والعمدة تنصف صاحب الحق ولو كان أصغر التلامذة. هذا الروح الذي تمتاز به هذه المدرسة من مدارس الشرق كان لها تأثير كبير في ترقية النفوس في هذه النهضة، وهي التي سوّغت لتلامذة في هذا العام التّظلم للعمدة لاعتقادهم بصواب عملهم».

ويقول زيدان: «بلغ تلامذة الطب ان الدكتور لويس استقال من أوائل كانون الاول سنة ١٨٨٣، فأجمعوا على الاحتجاج. فانقطعوا عن المدرسة يوم الاثنين ٤ كانون الاول المذكور، وهم ٤٥ شاباً، كل تلامذة الطب. واجتمعوا اجتماعهم الأول في احدى قاعات المستشفى البروسياني (الالماني). وكلهم من أهل الدراية. وقد تعوّدوا الاجتماع في المدرسة نفسها أو في «جمعية شمس البر» وبعضهم في الماسون. فساعدهم ذلك على التكاتف والانتظام في أعمالهم، ومناقشاتهم».

وبعد ان يشير الى انتخاب هيئة تشرف على شؤون الجمعية؛ كان رئيسها زيدان، وكاتبها اسكندر بارودي، وأمين صندوقها جرجي باز، وغيرهم خطباء ومساعدون. ويقول زيدان، عن انتخابه رئيساً: «ولم أوَلَّ رئاسة تلك الجلسة لفضل في، فقد كنت من صغار التلامذة مقاماً، ولكنهم جعلوا الرئاسة اسمية لحفظ النظام في الجلسة... واختاروني لعدم وجود المنافسة بيني وبين أحد من التلامذة».

وكان الاتحاد موضوع الجلسة الأولى. ووضع، في جلسة تالية، صيغة أقسم عليها التلامذة واحداً واحداً. وهذه صورتها: «أقسم بالله وبشرفي أن أحافظ على العهود التي قررناها في هذه الجلسة وعلى الثبات الى النهاية مع الجمهور».

ومع ان الاحتجاج، أصلاً، كان على خروج الدكتور لويس من المدرسة قبل نهاية السنة، والاستفهام عمن ينوب عنه، لأن هذا كان يهمهم من حيث ثقتهم بعلمه، فإن العريضة، التي تقدم بها الطلاب الى العمدة، شملت أموراً أخرى، كان التلامذة صابرين عليها.

وبعد اجتماع التلامذة بيومين، طلبت العمدة اليهم أن يعودوا الى الدراسة، وإلا وقعوا تحت طائلة القصاص المدرسي. إلا ان اللجنة انصرفت الى كتابة الاحتجاج والعريضة. وقد جاء في العريضة: «أتينا نطلب الطب في مدرستكم على أساتذة معلومين تحت ظروف معلومة حسب قوانين مقررة. فنصرف الدرهم ونكابد المشقة لتتميم ما يطلب منا محافظين على واجباتنا. فحدث في هذه الاثناء نقض بعض العهود التي دخلنا عليها. ومن حيث ان الروابط بيننا وبينكم هي تلك العهود لا غير، وقد نُقِضَ بعضها، فأصبحنا خائفين أن تنقض كلها. فأصبحنا في اضطراب عظيم فتوقفنا عن ملازمة الدروس».

وقد عددت العريضة المطالب، وأهمها عودة لويس، والغاء الفحص الطبي المحلي، ما دام لا يقبل في الآستانة، وتسهيل فحص الطلاب في الآستانة بالعربية،

كما كانت قبلاً، وعدم تقييدنا بتقديم الفحص بالتركية أو الفرنسية. ووقع العريضة جميع الطلاب.

وجاء جواب العمدة (٦ كانون الاول/ ديسمبر ١٨٨٢ م) غير كاف، وأجاب الطلاب عليه برسالة تشدّد على تحديد وتوضيح الأمور المطلوبة قبلاً، ومن أهمها تعيين استاذ الكيمياء والتأمين على الأساتذة الباقين. وفي اليوم التالي (٧ كانون الاول/ ديسمبر) بحث الطلاب في رفع شكواهم الى العمدة العليا. وأعد الطلاب عريضة تقدم لهذه اللجنة. كما انصرف بعض الطلاب الى الاتصال بالكبراء في المدينة لإطلاعهم على الحالة. وقدمت العريضة الى العمدة العليا. يقول زيدان: «ودارت المباحثة في المطاليب فقر الرأي على أن يعهد بذلك الى عمدة المدرسة الأصليين. وإنما ساقهم الى هذا التعصب الجنسي واحتقار ابناء العرب».

وقررت الهيئة المذكورة توقيف التلاميذ عن المدرسة والمستشفى شهراً، ثم لا يعاد منهم بعدها، إلا من استرد اسمه من ذلك التحرير أي العريضة. ولم يرجع من الطلاب الا ستة، لأسباب فصّلها زيدان في مذكراته. أما الطلاب الباقون (٣٩) فقد كتبوا عريضتين شديدتي اللهجة. لكن دون جدوى. وجربت العمدة جميع أنواع الاغراءات فلم تنفع.

وانتهى الأمر بأن بعض تلامذة الصف المنتهي علمهم امتحنهم فانديك في منزله، وامتحن بعضهم أمام لجنة رسمية في بيروت، وأتموا امتحانهم في استانبول. أما الصفوف الأخرى فقد انتثر عقد طلابها. وعزم جرجي زيدان على الذهاب الى مصر لإتمام الطب في القصر العيني. وذهب هو وأمين فليحان في تشرين الأول/اكتوبر ١٨٨٣ م.

«ولكن للأسف لم نفلح بما أردنا».

وهنا تقف المذكرات.

١٢ ـ سبعون ميخائيل نعيمة

يعتبر الذين كتبوا سيرتهم الذاتية، بمثل ما وضعها ميخائيل نعيمة، قلّة بين رجال الفكر والأدب من أبناء الضاد. ورجال السياسة فعلوا هذا في مذكراتهم، مثل أحمد شفيق باشا. لكنه، في مذكراته، ذكر الأمور العامة، ودوّنها أحداثاً. أما نعيمة فقد وقف على السبعين، ونظر خلفه، عبر عشرة عقود، وانتظم تجاربه القروية والمدنية، التعليمية والجامعية، الأدبية والفكرية، في ديار الاغتراب المبكر والمتأخر، وفي الوطن أولاً وآخراً، ثم كتب، فجاء كتابه «سبعون»، في أجزائه الثلاثة، «كلاً ووحدةً».

وكان لقراء نعيمة ومحبيه أمل، هو أن يلحق جزء رابع الاجزاء الثالثة السابقة، تدوّن فيه حياة الرجل في ربع القرن الاخير.

وفي كتاب من هذا الحجم وبهذه التفاصيل يحار المرء ماذا يختار وماذا ينتقي والرجل أديب ومفكر وفيلسوف وشاعر؛ وفوق ذلك؛ هو نفسه «وحدة وجود». ولعلّ هذا مما مكّن له أن يكتب سيرته الذاتية بهذه «النظرة الكلية». أما آراؤه في الحياة، والأدب، والنفس، وما إلى ذلك، فهي منثورة في كتبه؛ ويستطيع من أراد ان يطلع عليها، فلا حاجة للخوض فيها. ولكن من المفيد هنا، أن نتصيّد موقفاً خاصاً، يعبّر فيه نعيمة عن لمحة من حياته، بأسلوبه الرائق، أو ننتقي صورة رسمها بقلمه الأنيق، فنجعل منها نموذجاً لتصويره ولتعبيره.

وفي هذه الحالة، قد يكون التركيز على مصادر تفكيره الادبي، إطلاقاً، أمراً مناسباً. ومعنى هذا أنه يترتب علينا، قبل كل شيء، أن نتعرّف الى تنقلات ميخائيل نعيمة زمنياً تمهيداً لمحاولة تتبع هذه المصادر التي أشرنا اليها.

ولد نعيمة في بسكنتا في خريف ١٨٨٩ م، وقضى السنين الأولى. ثم ذهب، أو على الأصح، أُرسِلَ الى الناصرة، حيث ظل هناك أربع سنوات من ١٩٠٢ م الى ١٩٠٦ م. وفي سنة ١٩٠٦، ذهب الى بولتافا، في روسيا، طالباً حيث ظل خمس سنوات الى ١٩١١ م.

وفي سنة ١٩١١، ذهب الى اميركا الشمالية، بعد ان كان قد وطّن نفسه على الذهاب الى باريس. وقد امتدت فترة إقامته بالولايات المتحدة من سن ١٩١١ م الى سنة ١٩٣٢ م، حين عاد الى لبنان، وعاد يقيم في بسكنتا، ويشتو في الساحل اللبناني. هذه هي المتنقلات الرئيسية في حياة هذا الرجل العجيب في تفكيره، وفي نتاجه وفي

آرائه وفي مواقفه. والغرابة مصدرها، في رأيي، أنها تتسم بالشجاعة والجرأة.

يقول ميخائيل نعيمة، في هذا الذي سماه باب الكتاب: «لكن فضول قرائي ـ وهو فضول مغفور ومشكور ـ يأبى الاكتفاء بمشاركتي في حياتي الفكرية. انهم يريدون ان يعرفوا التربة التي نبتت فيها هذه الافكار، والأجواء التي تبلورت، والأسس التي تقوم عليها، والعقبات التي واجهتها وذلّلتها، والتي واجهتها ولم تذللها بعد، وإلى أي حد تساير حياتي أفكاري. وإلى أي حد تغايرها».

وكأن نعيمة، بهذه الكلمات، يستبق هذا الذي فكرنا به نحن، من قبل. إذن فلنحاول أن نختار، من هذا الكتاب، المقاطع التي تعبر عن هذا الذي ذكره المؤلف نفسه ـ الأفكار وكيف نمت وتبلورت وانتصرت وفشِلَت وما الى ذلك. لنترك مدرسة بسكنتا الوطنية، ولنترك المدرسة الروسية في بسكنتا، ولننتقل الى الناصرة. لقد كوفىء ميخائيل على نجاحه في مدرسة ضيعته الروسية، بأن اختير ليذهب الى «دار المعلمين الروسية في الناصرة». وكان حلمه أنه سيصبح معلماً أو حتى مديراً لمدرسة، تحت إمرته معلمون ومعلمات، كما كان حال مدير المدرسة الروسية في الضيعة.

لقد وضع ميخائيل نعيمة في عناوين فهرست كتابه عنواناً للفترة التي قضاها في الناصرة: «بين عالَمَين». فما هما هذان العالمان؟

لا شك في أن العالم الأول كان عالم القرية بسكنتا الذي كان نعيمة يدركه تماماً لما وصل الناصرة، التي كانت «بلدة». لكن العالم الثاني وهو عالم بولتافا، في روسيا، لم يكن قد خُلِقَ حتى في مخيلة نعيمة يومها. لكن نعيمة يكتب «سبعون»، بعد ان أصبح عالم بولتافا نفسه قديماً في ذاكرته، لكنه كان حياً في وعيه. فلنر، على كل، ما الذي تأثر به نعيمة في فترة الانتقال هذه.

يقول نعيمة، عن الناصرة وأثرها في نفسه: «هنا ـ في الناصرة ـ ومنذ ألف وتسعمئة سنة درج أول ما درج ذلك الطفل العجيب الذي تسبح باسمه الملايين شرقاً وغرباً. انك ههنا، وفي سائر ارجاء فلسطين، يا ميخائيل، لفي دنيا من السحر والبركة. فحيثما مشيت، وأنى تطلعت، نبت لك من الماضي السحيق وجوه وأحداث بغير عد... وأحبها اليك وجه المعلم وأحداث حياته...».

ويضيف: «فالشعور الديني العميق الذي حملته معي من سفح صنين أخذ يزداد عمقاً في الناصرة».

وفي الفصل الذي عقده عن سنواته الأربع في الناصرة، تحدث عن معلميه، العرب والروس منهم على السواء. وقد تذكرت هؤلاء الأساتذة العرب، لأنني عرفتهم في شبابي المبكر. ولعلّ الأثر الثاني، الذي تركته الناصرة ومعلمو مدرسته في نفس نعيمة، هوالذي سماه الشعور الوطني. يقول نعيمة: «والأهم من ذلك أن المعلم أُنطون بلان كان أول من نبّه فينا الشعور الوطني. فقد كان يحدثنا، كلما سنحت الفرصة، عن

البؤس الذي تعانيه بلادنا تحت النير التركي، وعن استبداد عبد الحميد... فلا بد للعرب، إذا هم شاءوا عيشاً فيه شيء من الإستقلال والكرامة من أن يستردوا أرضهم وحريتهم السليبة. وعلى المسلمين منهم أن يستردوا الخلافة المغتصبة. فالخلافة للعرب وحدهم . ولا يجوز أن تنتقل إلى الأتراك والأعاجم».

وكان أنطون بلان حمصي الأصل. وقد تعلم في روسيا. ولا شك، عندي، أن أنطوان بلان، كان متأثراً بآراء عبد الرحمن الكواكبي، خاصة فيما يتعلق بالخلافة.

وبالانتقال الى عالم نعيمة الجديد ـ إلى بولتافا في روسيا ـ نتبين أن نعيمة اختير ليذهب اليها، لأنه كان في مقدمة طلاب صفه. وكان إرساله إلى روسيا مكافأة له على جده في العمل، وعمق تفكيره وشعوره بالواجب. وفي بولتافا ـ أوفي روسيا على الأصح ـ أدرك شيئاً جديداً ذكّره، ولا شك، بما كان يقوله انطون بلان عن الدولة التركية. يقول نعيمة: «إنني في روسيا ضيف... ولكنني، وقد امتزجت حياتي بحياة البلاد الى حد بعيد، أصبحت... أحس الضغط الهائل الذي يتعرض له شعبها «من فوق» ـ من الامبراطور وحاشيته الفاسدة؛ ومن طبقة الاشراف المتمسكة بحقوقها والمغفلة واجباتها نحو الشعب؛ ومن مجلس «الدوما» المحشو بالمحافظين المتهالكين على نفوذ وكرسي الحكم».

ولا ننوي ان نسير مع نعيمة، عبر السنوات الخمس، التي قضاها في بولتافا، في سمنار للدراسات العلمية اللاهوتية، والذي كان يؤهل المتخرجين فيه للدخول الى الاكاديمية اللاهوتية، لمتابعة الدراسة العليا في اللاهوت. والسمنار كان منه واحد في عاصمة كل ولاية، أما الاكاديميات، فكانت أربعاً لروسيا بأجمعها.

اننا لا نستطيع متابعة نعيمة هناك. ولكننا نستطيع ان نستقرىء عما أفاده نعيمة من هذه السنوات ـ تعلماً ودرساً وقراءة ومعاشرة ومغامرة وحتى ثورة مع طلاب بولتافا في السمنار. يقول نعيمة نفسه، عن الفترة التي قضاها في روسيا: «لقد كانت فترة جني أدبي وفير، وفترة غليان فكري وفوران عاطفي وامتداد روحي. وكان منها ان فتحت عيني على الضحاضيح التي كانت تعيش فيها بلادي ـ بل جميع البلاد العربية ـ بل الشرق كله وبخاصة في دنيا الفكر والفن والأدب».

ويضيف نعيمة: «فالكتّاب والشعراء عندنا كانوا لا يزالون يتبارون في ستر عقمهم الفكري والروحي بالعبارات المنمقة والقوافي الطنانة».

وأذكر، بهذه المناسبة، ان أول كتاب كامل، قرأته لنعيمة، كان «الغربال»، الذي نقد فيه الكثيرين من أصحاب القلم. لكن كنت قد وقعت على شيء مما كتب في كتاب جمع مختارات من الأدب المهجري، صدر في مصر، في مطلع العشرينات. وقد أعجبت، يومها، بقصيدة «النهر المتجمد». وكم استغربت، لما عرفت، من قراءة «سبعون نعيمة» أن هذه القصيدة صاغها، أصلاً، بالروسية، وهو في تلك الديار.

ويقول نعيمة، عن الفترة في روسيا، إنها مكّنته من التعرف الى المرأة، بلحمها ودمها. ويقول في ذلك: «والرجل الذي لا يعرف قلب المرأة ـ لا يعرف قلبه. والرجل الذي لا يحاسب نفسه أدق الحساب عن علاقته بالمرأة تحاسبه الحياة أقسى الحساب عن استهتاره بمقدساته».

وثمة أمر آخر أثارته في نفسه إقامته في روسيا. وهو أن عقله أخذ ينظر الى أمور الكون وما يتصل به من جديد، ويعيد الفكرة، التي كان قد ورثها عن بسكنتا والناصرة. ويقول: «أخذت أشعر أن ذلك الثوب يضيق بي، وأن جوانب منه تتفتق وتتمزق باستمرار. ولا حيلة لي في رتقها... ورحت أطرح على نفسي طائفة من الاسئلة، تتلاحق وتلاحقني باستمرار، وتتعلق بكل الأسرار الكونية، التي يمكن ان تثار».

وبعدها انتقل نعيمة الى المخيم الثالث سنة ١٩١١ م، وظل في الولايات المتحدة الى سنة ١٩٣٢ م. وفي هذه الفترة، درس القانون والأدب في جامعة ولاية واشنطون، وانتقل الى نيويورك وخدم في الجيش الاميركي. لكن المهم هو أن ميخائيل نعيمة الكاتب، بدأ عمله هناك، وفي هذه الفترة. وفي نيويورك أنشأ هو وتسعة آخرون «الرابطة القلمية». ولعلّ المرء يتساءل عن أول انطباع تركته اميركا، وكانت نيويورك المدينة الأولى التي هبطها وقد جاء بحراً، في نفس هذا الفتى ـ ابن الاثنين والعشرين عاماً.

فقد كتب في «سبعون»: «كان أخي يتوقع أن تخطف الدهشة أنفاسي عندما أبصرت نيويورك من البحر، وما فيها من ناطحات سحاب... وعندما دخلنا المدينة وسرنا في شوارعها المكتظة بالحركة والناس ولم يكن أخي يدري أن الفترة القصيرة التي أمضيتها في روسيا كانت قد جعلت مني شبه متوحد في فكره وروحه. فقد تركت بولتافا ـ وهي دسكرة إذا قيست بنيويورك ـ وبي نقمة على المدينة التي انحرفت بالانسان عن سبيله السوي وراحت تدفعه في شعاب تحف بها من كل جانب شتى المطامع، ولا يؤنسها شيء من الرحمة والعدل والمحبة، ومن اليقين أنها والسالكين فيها ليسوا للفناء».

يصف نعيمة نيويورك، وازدحام شوارعها بالناس وبوسائل النقل والتنقل، والعجيج والضجيج اللذين تنعم بهما. وفي وصفه دقة؛ ولكن الشعور هو شعور قرف. وهو شعور استمر معه، بالنسبة الى مدينة الماكينة والآلة، في نيويورك وغيرها.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان نعيمة قد انتهى من دراسته (١٩١٦ م)، وانتقل الى نيويورك. فعمل في جمعية سوريا الحرة. وهناك أنشئت الرابطة القلمية، كما قلنا. لكن فترة خدمة عسكرية، في فرنسا، تخللت ذلك، بعد ان انضم نعيمة الى الجيش. ويصف تجربته، في هذه المدة القصيرة، بكثير من التفصيل، الذي نعيمة قادر عليه، من دون أن ننكر ذلك عليه.

ومما قاله، لما انتهت الحرب: «قبيل ظهر الحادي عشر من تشرين الثاني (١٩١٨) إذ كنا نسير في شارع موحل في قرية متهدمة، التقانا ضابط فرنسي كان يسير وحده فحيانا، ووجهه يطفح بشراً وقال انتهت الحرب. لقد كان لنا ان نقفز فرحاً ـ ان نرقص ـ ان نغنّي. ولكن التعب الذي كان قد أخذ منا، والجوع الذي كان يعضنا، والوحل الذي كنا غارقين فيه حتى الكواحل، والوسخ العالق بأيدينا وشعور لحانا، والقمل الذي كان يرعى في أبداننا ـ كل هذا انتزعت منا حتى الشعور بالفرح. فكيف بالقدرة على التغني به؛ لذلك تابعنا سيرنا وكأن بشارة الهدنة كانت لسوانا».

إلا أن الأمر ينتهي بأن يلتحق ميخائيل نعيمة بجامعة ران بفرنسا، وذلك كان مكافأة له، ولبعض الجامعيين في الجيش. فكان من حظه تحقق حلم قديم له، ان يدرس في فرنسا. وان كان غرض اميركا، من هذه العملية بالذات، توثيق عرى الصداقة مع حليفاتها. وعاد نعيمة بعد ذلك الى اميركا في صيف ١٩١٩ م، وإلى نيويورك، ليقيم إقامة دائمة فيها. وليعنى «بالفنون» المحتجبة والرابطة وشؤون الوطن وبنفسه وبآرائه وبقلمه؛ وفوق ذلك، التفتيش عن عمل.

يصف نعيمة نشاطه ونشاط عبد المسيح حداد، في «السائح»، التي حلّت مكان «الفنون» نادياً، ومستقراً، ومنفساً لأعضاء الرابطة. وهناك وصف مفصل لناحية من نواحي حياة الجالية في نيويورك. ولعلّ من أدق ما كتبه ووصفه حفلة يوبيل الهدى الفضي في نيسان/أبريل ١٩٢٣م، وما سبق ذلك من شد وارتخاء، بين الجماعة التي كانت الهدى تخصها، ومن إصرار صاحب الهدى، نعوم مكرزل، على أن تكون الرابطة مدعوة، وأن يكون أحد أعضائها خطيباً. وهناك أمور أخرى، تظهر لنا، مع الأسف، أن ابناء بلادنا، اجمالاً، ينقلون الى المهاجر خصومات الضيعة، ومهاترات الحي، وتحرشات الأسر. وينفقون الكثير من الجهد في ذلك، بدل ان ينفقوا هذا الجهد في سبيل تثقيف أنفسهم!

ولا يمتنع نعيمة عن ذكر الأمور الخاصة به. فهو، فضلاً عن أنه كاتب وأديب وشاعر ومفكر أو لأنه كاتب وأديب وشاعر مفكر له أيضاً قلب له حقه في الحياة. ومن ألطف فصول الجزء الثاني، من «سبعون» فصل عنوانه: في «الريف» وهو «قصة قلب» في فترة قصيرة. كذلك المقال الذي كتبه للعدد الممتاز من «السائح»، مع المقدمة التي أدت اليه. والمقال يصف حالة المهاجر الطامع في الثروة، في ديار غير دياره، فلا يحظى بالثروة، ولا ينعم ببلده وطبيعته الأصيلة.

في أواخر سنة ١٩٣١ قرر نعيمة أن يعود الى وطنه. فقد ذهب الى اميركا ليتعلم، لا ليهاجر، وقد أخرته الحرب هناك... وقد جاهد بعد ذلك في الحياة الأدبية، وكان له فيها دور كبير. وفي آخر الجزء الثاني من «سبعون»، يقول نعيمة: «تركت اميركا وليس في جيبي من غناها الفاحش سوى خمسمئة دولار ـ فقط لا غير! وما اللوم في ذلك

عليها بل علي. فالدولار لا يغدق نفسه بوفرة إلا على الذين يتعبدون له. وتبين لي أنني ما كنت... منهم».

ويضيف: «على أنني إذا لم أغترف من أميركا إلا ذلك النزر اليسير، فقد اغترفت من الخبرة المادية والروحية ما يحسبه زاداً لا يُثَمَّن بمال. ففي خلال السنوات العشرين التي عشتها هناك تيسرّ لي ان أرافق الثورة الصناعية والعلمية والفنية والاجتماعية في أعنف مراحلها».

وعاد نعيمة سنة ١٩٣٢ م، وهنا نقف مع سيرته الذاتية. أما ما تبقّى، وهو الجزء الثالث من «سبعون»، الذي يتناول اثنين وثلاثين من عمره المديد، فيحتاج الى معالجة لاحقة.

١٣ ـ سوانح خمسين سنة فؤاد الخوري

هذا الكتاب، الذي بين أيدينا، هو مزيج من المذكرات والسيرة الذاتية. ذلك أن فؤاد الخوري، الذي سلخ خمسين سنة من حياته في المحاماة والقضاء والوزارة والنيابة، جاء، بعد هذه المدة، يدوّن ما تستطيع الذاكرة لملمته من شؤون ماضية، وما تقوى على استعادته من صور سالفة «لما مرّ أمامي وحولي من أحداث القضاء والمحاماة في لبنان».

وقد رأى في حياته أخباراً وعبراً وفكاهة، فدوّن ذلك كله تدويناً منطقياً، بلغة صحيحة، دقيقة التعبير، شأن المحامي النابه والقاضي العادل.

استخدم فؤاد الخوري، وهو في الرابعة عشرة من سنِّه، في محل تجاري ليفيد مادياً، لكن رغبته كانت ان ينضم الى جماعة المحامين. ولكن كيف السبيل الى ذلك، وأين يدرس القانون؟

نحن نتكلم عن لبنان في مطلع القرن، يوم لم يكن في لبنان معهد لدراسة القانون. وهنا يأخذ فؤاد الخوري بيدنا، ليدلنا على كيفية الاستعداد للدخول في ميدان المحاماة. يقول: «وما كان ولوج باب المحاماة بالأمر الصعب في ذلك الزمن حيث لم يكن في لبنان، وقد كان ذا استقلال اداري، ولا في سائر الأصقاع والمدن التابعة للدولة العثمانية معهد لتدريس الحقوق ما عدا عاصمتها الآستانة. وقد كان تحصيل هذا العلم في معهدنا ـ بلغته التركية التي كنت أجهلها ـ على أمثالي ولا سيما من الوجهة المادية صعباً عزيزاً. أجل، لم يكن ولوج باب المحاماة صعباً إذ كان يكفي الطالب ان يدرس على قاضٍ ضليع او محامٍ بارع بأحكام الشرع الإسلامي، في «مجلة الأحكام العدلية»؛ وقانون أصول المحاكمات الحقوقية؛ وقانون أصول المحاكمات الجزائية؛ وقانون الجزاء وقانون التجارة. ولم يكن درسها يستغرق عادة أكثر من سنة يقوم بعدها الطالب بممارسة المحاماة مباشرة. أو إذا شاء قدم فحصاً أمام لجنة عليا معينة في المتصرفية من رجال الشرع، فينال رخصة بتعاطي المحاماة، ويصبح حالاً في مصاف المحامين، يستطيع ان يرافع لدى أي محكمة شاء من المحاكم البدائية والاستئنافية».

ويعود فؤاد الخوري فيذكر بعض أولئك الذين دَرَس عليهم الحقوق. يقول: «ومما سهل لي درس الحقوق، وقد صممت على اعتناق المحاماة، أن المرحوم ملحم خلف

الذي كان يشغل وظيفة المدعي العام في جبل لبنان كان يسكن مع شقيقه المحامي نجيب خلف في بلدتي الحدث. وكنت أثناء ترددي عليهما أجد لذة في الاستماع إلى ما كان يدور بينهما من نقاش فقهي أو حديث في شؤون المحاماة. وكان ملحم يومها يعمل في تأليف كتاب يتعلق بأصول المحاكمات الجزائية».

وقد قبل ملحم أن يعطي فؤاد الخوري دروساً في علم الحقوق، مقابل قيام هذا بنسخ أوراق الكتاب وغيرها.

وبعد سنتين، أي سنة ١٩١٢ م، بدأ فؤاد الخوري العمل بالمحاماة، وأنشأ له مكتباً في الجديدة، مقر قائمقامية المتن. ومما سَرّه في ذلك، أن عهد اليه أحد الوجهاء المثرين بقضاياه العديدة، لقاء بدل سنوي. لكن أمراً طريفاً حدث بعد ذلك، يرويه فؤاد الخوري بقوله: «ذات يوم، بينما كنت جالساً في مكتبي سألني أن أفتش له عن ورقة بيضاء تكون قديمة العهد. فعثرت على ورقة من هذا النوع، ودفعتها اليه. وكم دهشت في اليوم التالي عندما سلمني بعض سندات له على أشخاص طلب مني أن أقدم بها دعاوى عليهم، وبين تلك السندات الورقة القديمة التي طلبها مني في اليوم السابق، وقد تحوّلت الى سند دين مكتوب بخطه على شخص مهاجر الى اميركا امضاؤه في ذيل هذا السند مكتوب بخط يشبه خط الموكّل».

ويضيف فؤاد الخوري:

«وبعد شيء من التردد، رددت اليه السندات وسائر أوراق دعاويه، وطلبت منه اعفائي من الوكالة».

ويلاحظ الكاتب فرقاً بين دعاوى أهل المدن ودعاوى أهل القرى في ذلك الوقت. يقول في ذلك: «لقد دلني الاختبار على أن دعاوى أهل المدن لم يكن في الغالب هدف المنازعين منها سوى المنفعة المالية. أما دعاوى التنافس على تنفيذ الكلمة، فقد كان، ولا يزال، موطنها الدساكر والقرى. وسبب ذلك أن أهل المدن أصحاب مهن وأعمال ومتاجر يشغلهم دائماً العمل فيها والجري وراءها. فلا فضل من الوقت لديهم ينفقونه في غير الكسب والمنفعة. أما القرى، فالعمل فيها قليل، والوقت متسع فسيح للقال والقيل، فينفتح المجال للتنافس ولو في ميادين القضاء على تنفيذ القول والكلمة».

يحدثنا فؤاد الخوري عن أسلوب المحاكمات، في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى. وحريٌّ بالتذكر أن فؤاد الخوري كان يتحدث عن جبل لبنان ومتصرفيته. ونحن يهمنا، من جميع المذكرات أو السِّيَر الذاتية، التي اخترناها، أن نعود الى أبعد الأيام عند هؤلاء الكتاب، لنكشف عن شيء من التاريخ. أما الأمور الحاضرة فلها مكانها، وفي وقت آخر.

يقول الكاتب: «ولا أنسى أيضاً كيف كان أسلوب المحاكمات في المحكمة البدائية ومرافعات المحامين لديها. فعلى أحد جانبي هيئة المحكمة في قوس المحاكمة يجلس

كاتب للقضايا الحقوقية، وعلى الجانب الآخر كاتب للدعاوى الجزائية. فإذا دعي طرفا الدعوى لحضور الجلسة، حضر وكيلاهما أمام الكاتب وأخذ كل بدوره يملي مرافعته املاءً فيدونها في محضر المحاكمة كلمة كلمة. وبعد الانتهاء من تدوينها، يسلمها الى رئيس المحكمة لتوضع تحت المذاكرة في الوقت المناسب بينه وبين عضوي المحكمة قبل اصدار الحكم».

ويضيف قوله: «وكثيراً ما كانت تجري المحاكمة والمرافعة في المحكمة التي تكثر قضاياها من المحاكم البدائية ـ على النحو المار ذكره في دعويين معاً بوقت واحد جزائية وحقوقية، تلك لدى كاتب الجزاء وهذه لدى كاتب الحقوق».

ويقول فؤاد الخوري: «في ذلك العهد كان كاتب ضبط الجزاء في محكمة المتن شاباً في بدء الصبا ... حسن العشرة، جميل الطلعة، ابن بيت كريم، محدود المعرفة، بطيئاً في الكتابة. كان يرتبك عند تلقين المرافعة حين تزيد حروف الكلمة عن خمسة. وكثيراً ما كان يدون بعض حروف الكلمة على ان يكمل بعدئذ باقيها، إذا كان الملقن عجولاً».

وقد يستغرب المرء لماذا احتفظ هذا الشاب بوظيفته، ما دامت هذه حاله؟ لكن فؤاد الخوري، يجيب عن ذلك بقوله: «وعلى الرغم مما كانت حالة هذا الموظف تدعو رئيس المحكمة الى التمرمر، فقد كان يغض الطرف عنه اكراماً لشخصية محترمة كان ينتمي اليها، وصل الى الوظيفة بواسطتها».

ومما يذكره صاحبنا، في سوانحه، عن المحاكمات يومها، قوله:

«وعندما يكون رئيس المحكمة من المعروفين بالألمعية والتمرس بالقضاء يصدر الحكم بالدعوى في نفس النهار على أثر تلك المرافعة وعلى أثر مذاكرة خاطفة بينه وبين القاضيين الجالسين على جانبيه».

ويبدو أن اهتمام محامينا، فؤاد الخوري بنظم الشعر ظهر مبكراً نسبياً. لذلك، كان من عمله قصيدة عنوانها: «نجوى قاض» (١٩١٢ م)؛ نظمها لمناسبة امتداد أيدي الزعماء الاقوياء، من السياسيين وأصحاب الأموال، الى القضاء. فكان، جرّاء ذلك، جنوح بعض القضاة عن جادة الحق. ونختار، من هذه القصيدة، الأبيات التالية:

ويْحي انا القاضي الذي أهواؤه ... تقضي عليه بما تشاء وتأمرُ
ويْحي أرى درب العدالة بيّنا ... وأحيد عنه كأنني لا أبصرُ
فيهيج موج إرادتي، لكنه ... حالاً على شاطي الهوى يتكسرُ

ومنها:

يا قوم لا تستكبروا أو تنكروا ... حالي، فأنتم أصلُها والمصدرُ
أنتم فتحتم للقضاة جيوبكم ... فاقضوا بما شئتم وشاء الأصفر
فما تغير حاكم وتقومت ... أخلاقكم فقضاؤكم يتغير!

هذا ما كان عليه الحال قبيل الحرب العالمية الأولى.

ولعله مما يلذ للبعض، أن يعرف شيئاً عن تشكيل محاكم جبل لبنان. يقول فؤاد الخوري: «كانت محكمة الجنايات واستئناف الجزاء مؤلفة من قضاة كل منهم من طائفة من طوائف الجبل وهي: المارونية والأرثوذكسية والروم والكاثوليك والاسلام السنيون والاسلام الشيعيون برئاسة قاض من الطائفة الدرزية. ومثلها قضاة محكمة الاستئناف الحقوقية برئاسة قاض من الطائفة المارونية».

«وعندما يكون أحد المتقاضين في دعوى من طائفة البروتستانت يضاف الى هيئة المحكمة قاض بروتستانتي عند رؤية تلك الدعوى. وكان المرجع الأخير لتدقيق الأحكام الصادرة عن هاتين المحكمتين محكمة التمييز في الآستانة».

وكانت ثمة قضايا تجارية. لكن: «لم تكن محاكم لبنان في ذلك العهد تنظر في القضايا التجارية، ولو كانت حادثة ضمن أراضيه وحتى بين لبنانيين، بل كانت تنظر فيها محكمة بيروت التجارية».

وأحسب أن ذلك يعود، الى أنه لم يكن في لبنان مراكز تجارية كبرى، وأكثر التجارة اللبنانية، أي المتصرفية، كانت تتم عن طريق مرفأ بيروت، الذي كان فيه ميناء حديث العهد نسبياً، ويرتبط مع دمشق والداخل بطريق العربات والسكة الحديدية.

وكان هناك، فضلاً عن ذلك، نوعان من القضاء؛ الواحد القضاء الاداري «الذي كانت السلطة فيه لمجلس الادارة في المتصرفية. هذا القضاء كان يوزع تكاليف الحكومة سنوياً، ويراقب أنواع الواردات والنفقات وإنشاء الطرق وما الى ذلك».

أما القضاء الآخر، فهو القضاء العسكري. وكان على رأسه مجلس عسكري، يتألف من ضباط.

«هذا المجلس كان ينظر في الدعاوى العسكرية، عندما يكون الجرم عسكرياً بحتاً، أو كان المعتدى عليه من صنف الجند».

وهنا يحدثنا فؤاد الخوري عن موقفه من الوظيفة يومها، فيقول: «وضعت نصب عيني الحصول على وظيفة حكومية ـ ولو وظيفة كاتب في بعبدا مركز الحكومة القريب من سكني ـ يضمن راتبها بعض ما يتوجب علي من اسعاف عائلتي. وأخذت أسعى للوصول الى هذا بجميع الوسائل التي تيسرت لي. وظللت سنة أو سنتين أعقد الآمال على الوعود التي كانت تبذل لي عبثاً».

ويضيف: «إلى أن فتح الله أمامي أبواب الرزق في المحاماة. وبينما كنت أغترف بلذة من مواردها إذ بي ادعى لتسلم الوظيفة التي كنت أطلبها في قلم محكمة الاستئناف الجزائية في بعبدا. وكم دُهِشَ رئيس المحكمة عندما اعتذرت من عدم قبولها ...».

وفي سنة ١٩١٩ م، أي بعد دخول الفرنسيين الى لبنان، بُدِىء بتنظيم مهنة

المحاماة، من حيث الإذن بتعاطي المهنة، وما الى ذلك. ونظمت هيئة المحاماة في شكل نقابة. وقد عينت الحكومة، يومها، رئيس النقابة، ثم تم انتخاب أربعة أعضاء.

يقول فؤاد: «وفي أول اجتماع للهيئة في ١٩ كانون الأول ١٩١٩ أصدرت أول قرار يتضمن الطلبات التالية. أولاً: أن تكون اللغة العربية وحدها لغة المحاكم الرسمية. ثانياً: أن يكون لجميع المحامين المأذونين الحقوق نفسها. ثالثاً: ان يكون رئيس النقابة منتخباً لا معيناً. ورابعاً: ان تهتم هيئة النقابة بوضع القوانين لسلك المحامين، وتعرض هذه على جميعة المحامين العامة».

ونتبين من هذا، ان المحامين كانوا يشعرون بالدور الملقى على عاتقهم، وبحاجتهم الى تنظيم المهنة. ويعلق فؤاد الخوري، على المطالبة بأن تكون اللغة العربية، اللغة الرسمية الوحيدة في المحاكمات، بقوله: «ذلك نظراً لما كان يجمع كلمتهم من الشعور الوطني والتضامن النقابي».

وكان أول نقيب انتخب، هو ألبر قشوع سنة ١٩٢١ م.

وفؤاد الخوري حريص على أن يروي عدداً من النكات، التي كان أبطالها مشاهير رجال القانون في العشرينات، مثل ابرهيم المنذر، والكسي كاتسفليس، وأمين تقي الدين، ويوسف السودا، وغيرهم. وحري بالذكر، أن هؤلاء، كانوا قد هاجروا من لبنان الى القطر المصري أو غيره، تخلصاً من ظلم الحكم التركي، وعادوا، بعد زوال هذا الحكم، الى البلاد.

يقول فؤاد الخوري، عن أمين تقي الدين: «كان أمين تقي الدين من حملة الأقلام الذين غادروا وطنهم لبنان الى القطر المصري كسباً لحرية القلم وتخلصاً من ظلم الحكم التركي. فكان يسمع صوت بيانه في لبنان من مجلة الزهور أو نوادي الأدب المصرية. وعاد بعد الاحتلال الفرنسي الى وطنه وتعاطى المحاماة مع جبرائيل نصار... وقد بقي جانب الأدب طاغياً عنده على المحاماة. فما كتب مرافعة في قضية الا استهلها أو ختمها بقطعة تجلى فيها حسن الصياغة وزهو البلاغة».

«وكان في ساعات الفراغ من المحاماة يلتف حوله الزملاء يستمتعون بمنظوم جديد له، او بجزء أدبي من مرافعة، أو بما يروى عن المحدثين من أعلام الشعر الذين عرفهم في مصر شخصياً مثل خليل مطران وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري، صاحب القول:

اقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنا حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا».

ولفؤاد الخوري صور، رسمها لشخصيات قضائية وقانونية طريفة جداً. منها ما قاله، عن الشيخ محمد الجسر، وهو: «نقلت محكمة الاستئناف الى بيروت (١٩٢٠) وقلد منصب رئاسة محكمة الجنايات واستئناف الجنح الشيخ محمد الجسر... ومع أن

الشيخ محمد ما تولى قبل رئاسة هذه المحكمة منصباً قضائياً بل وظائف ادارية، فإنه لم يمض عليه سوى وقت قصير جداً حتى تجلّت كفايته القضائية بأجلى مظاهرها، ولمع ذكاؤه الفطري بصورة جعلت رفاقه في هيئة المحكمة، وجميعهم قضاة قدماء، يعترفون بل يستسلمون لآرائه في القضايا التي تكون لديهم قيد المحاكمة».

ومن الاشياء، التي اختفت من بيروت، شجرة قصر العدل، وذلك منذ ان نقل قصر العدل، من مقره القديم الى جهات المتحف. وقد وصف فؤاد الخوري هذه الشجرة، بقوله: «تتوسط قصر العدل ساحة وسيعة مكشوفة تشمخ في جوانبها ثلاث شجرات من نوع الشجر الافريقي ذي الورق العريض، لها جذع ضخم وفروع متعددة وأغصان كثيفة ممتدة. كان المحامون يتفيأون ظلها زمراً وفئات على مقاعد خاصة بهم بين تناول قهوة او مبردات لاستراحة بعد مرافعة، او لتشاور في مسألة. ويكثر تجمعهم عندما يرتفع صوت أحدهم بنكتة بارعة أو حديث جذاب أو خبر طارىء».

وقصر العدل، كان، في أيام الأتراك، قشلة. لذلك، فإن المحامين لم يعرفوا ظل هذه الشجرة الوارف، إلا بعد ان خرج منها ضباطها وجنودها وسياطهم، وأصبح المبنى للعدل، والشجرة للظل.

وهنا نقف مع السوانح، فنحن لم نقصد ان نتناول الكتاب بكامله.

القسم الرابع

لبنان في كتابات الآخرين

١ ـ لماذا كتبوا عن لبنان

من المفيد جداً أن نتعرف إلى كتابات الآخرين، أي غير اللبنانيين، بلداً وشعباً وحضارة . على أن الأمرالذي شغلني، هو سؤال دار في خلدي، لما بدأت أفكّر في هذا الموضوع. لماذا اهتمّ الآخرون بالكتابة عن لبنان؟

السؤال ولا شك مهمّ، ولعل الإجابة عنه توضح لنا الطريق، التي يجب أن نسلكها، في متابعتنا للموضوع. ونذكر، قبل كل شيء، ان الكتابة عن لبنان ليست أمراً حديث العهد. فقد ورد ذكر أجزاء منه في القرن العشرين قبل الميلاد، في نصوص ووثائق عديدة. وهنا سنترك الأسطورة جانباً، وإلا كان علينا ان نعود الى ما قبل بكثير.

ورغبة منا في الاجابة عن السؤال، «لماذا اهتمّ الآخرون بالكتابة عن لبنان؟»، يتوجّب علينا أن نلقي نظرة عن طبيعة هذا البلد، وموقعه بالنسبة للرقعة المحيطة به، والتي تشمل، بحسب التقسيم الحالي، سوريا وفلسطين والاردن وتركيا والعراق ومصر. وبطبيعة الحال، إن هذا التعداد، لا يقتصر على الجيران المباشرين. وهذا أمر طبيعي، فالحدود السياسية، قديمها وحديثها، ليست هي التي تعيّن التأثر والتأثير. فتنقل الناس كان حرّاً، في الأيام الغابرة وفي أيام الامبراطوريات الواسعة خاصة. لكن هذا التنقل، هو الذي يؤدي الى تبادل المنافع، والمتاجر والآراء، وعناصر الحضارة بأجمعها.

ولعلّ النقطة الأولى، التي يجب ان تذكر حول موقع لبنان، هي أنه يقتعد ساحلاً على البحر المتوسط، ويحوي سلسلة جبال مرتفعة، توازي هذا الساحل ويلي ذلك سهل البقاع الواسع الخصب الجميل. وهذا يمتد شرقاً حتى قمم لبنان الشرقي. ومن هناك تبدأ الأراضي السورية.

هذا السهل الساحلي، أو سلسلة الجيوب الساحلية الصغيرة، الممتدة من الشمال إلى الجنوب، يحتضن كلٌّ منها ميناءً كان، بالنسبة للعصور القديمة، ذا موقع هام. فطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور ـ ونكتفي هنا بالأهم والأكبر من الموانىء اللبنانية ـ كانت على اتّصال مستمرّ، منذ ان ركب أهلها البحر، غرباً وشمالاً، ومنذ ان خاض أهل البلاد، القاصية والدانية، البحر، وصولاً الى موانىء لبنان. فكانت السفن تذهب من هذه الموانىء الى مصر وآسيا الصغرى مثلاً، بل الى أبعد من ذلك تدريجاً. فقد تبادلت هذه الموانىء الزيارات، التجارية طبعاً، مع موانىء البحر الإيجي، ثم مع

موانىء شمال افريقية، وصقليّة، وجنوب فرنسا، واسبانيا. وكانت الصلات التجارية، بين هذه الموانىء المتوسطية، جميعها، نشيطة على طول الزمن؛ ولو أن هذا النشاط كان يتعثر أحياناً.

ومعنى هذا الكلام، هو أن موانىء لبنان، الفينيقية الكنعانيّة، كانت تتلقى مختلف أنواع المتاجر، من الجهات البحرية والديار التي تقع خلفها. ولكن ماذا كانت هذه الموانىء تصنع بكل ما كان يُحمل إليها؟

من المعروف أنه قام، منذ الألف الثالث قبل الميلاد، في الرقعة التي رسمنا حدودها العامة في البدء، قطران، كلّ منهما كان غنياً، وكلّ منهما كان لديه «فائض» من نتاجه، وكلّ منهما كان يحب أن يبيع هذا الفائض، ليحصل، في مقابله، على أشياء غير موجودة عنده. والقطران هما: أرض الرافدين ووادي النيل.

وكان هذا نتيجة لقيام المدن في أرض الرافدين، وتنظيم الريّ هناك، وفي وادي النيل، والاهتمام بالصناعات، والاهتداء ـ تدريجاً ـ الى استعمال المعادن ـ النحاس ثم البرونز ثم الحديد. ثم انضمت آسية الصغرى الى هذين القطرين.

أما المتاجر والسلع والبضائع، فكانت تنقل من أي من هذه الاقطار الثلاثة الى الآخر، عبر البحر الذي يصل بين آسية الصغرى ومصر. لكن السفن القديمة الصغيرة، لم تكن تستطيع قطع المسافات الطويلة، على دفعة واحدة. فكان لا بد لها من موانىء تتوقف فيها، وتلجأ اليها. ويبدو أن الموانىء اللبنانية والفلسطينية، وهي الفينيقية ـ الكنعانية، كانت هي المحطات الضرورية، للتجارة والسفن.

وكان لا بدّ ان ينتج عن ذلك أمر آخر، وهو أن ربابنة هذه السفن، والتجار الذين تحمل السفن بضائعهم، أصبحوا، مع الوقت، يبيعون بضائعهم، في هذه الموانىء، الى التجار فيها، ويبتاعون بعض ما يحتاجون، ويعودون الى بلادهم، مختصرين الرحلة الطويلة الشاقة.

وأخذ بحارّة هذه الموانئ وتجارها يذهبون، في سفنهم، إلى الموانئ الأخرى، القريبة والبعيدة. فيحملون إليها ما عندهم، ويعودون منها بما يجدونه فيها. ولذلك، أصبحت هذه الموانىء، التي تعمر الشاطىء، من أوغاريت، أو رأس الشمرا شمالاً، الى غزة جنوباً، أسواقاً ومخازن؛ يعثر فيها المرء على الكثير من البضائع.

وكانت هذه الموانىء الممتدة من آسية الصغرى الى مصر، تتصل بطريق بريّ، يصل بينها. وقد عرف هذا الطريق قديماً، لكن لما استولى الرومان على المنطقة، بنوا طريقاً آخر، ورصفوه بالحجارة. وكان هذا طريق العربات في أيامهم.

أما المدن، الكثيرة والكبيرة، التي قامت في الجزء الجنوبي من أرض الرافدين، في أرض سومر أو شنعار ـ فكانت لها علاقات تجاريّة مع الخليج العربي، وما وراء الخليج العربي. وكانت لها صلات مع آسية الصغرى. وكانت تتصل بمصر، عن طريق

سوريا ولبنان وفلسطين. إذ كانت القوافل،القادمة من أرض الرافدين، تفرغ أحمالها في المدن الداخلية، مثل: حمص ودمشق وبيسان. ولكن القسم الأكبر من هذه الأحمال، كان ينتهي به الأمر في الموانىء. وكان لجبيل وصيدا وصور حصة الأسد.

ويعود ذلك الى المهارة التجارية، التي كان أهل المدن يتمتعون بها، واستعدادهم للإفادة من موقع مدنهم وإفادة زبائنهم. وهكذا، فقد أصبحت هذه الموانىء المتوسطية اللبنانية وغيرها، هي مراكز التبادل التجاري، الذي كانت المنطقة تحتاج اليها، كي تحصل كل جماعة على ما عند الآخرين.

والجدير بالذكر، أن الممرات الطبيعية، بين بعض الموانىء والمدن الداخلية، كانت ذات أثر في السير التجاري. فهناك ممر طرابلس حمص؛ وممر صيدا مرجعيون دمشق؛ وممر بيروت دمشق، الذي كان الأقل استعمالاً في القديم، بسبب سقوط الثلوج على منطقة ظهر البيدر وما حوله، في فصل الشتاء، بحيث كان الطريق يقفل لمدة طويلة.

وكان التاجر هو الذي ينقل البضائع، ويسد حاجات الناس. لكن قيام الامبراطوريات في المنطقة، وتوسعها العسكري جعلاها المشرف على الطرق والتجار والتجارة. وقد بدأ هذا حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م.، على يد المصريين والسومريين والأكديين؛ ثم على يد المصريين ثانية، في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ثم على يد الآشوريين والكلدانيين والفرس، خلال الفترة الممتدة من القرن الثاني عشر ق.م. الى القرن السادس قبل الميلاد.

إذن، كان لبنان مستقراً لحضارته الخاصة؛ وممراً للحضارات المختلفة، التي عرفت في المنطقة بأسرها؛ وتاجراً، يسهل للزبائن الحصول على حاجاتهم؛ من نحاس آسية الصغرى وقبرص وسيناء، وفخار اثينا والعالم الايجي؛ وخيول الهكسوس؛ وعاج افريقيا؛ وخشب الابنوس، الذي كان ينقل من أواسط افريقيا الى مصر، ثم الى لبنان؛ وقماش الكتان، وجلود الثيران . وحتى الأسماك، كانت تنقل من مصر الى بلاد الشام.

ويظل للبنان فضل آخر على المنطقة، يتمثل بأخشابه. فخشب الأرز والشربين، كان يلزم، بكثرة، لكل من أرض الرافدين ووادي النيل.

وكان هؤلاء التجار يحبون، عندما يستطيعون ذلك، ان يدوّنوا أخبار تنقلاتهم. إلا أن الملوك، كانوا على ذلك أقدر، وإليه أسرع. إذ كانوا يدوّنون أخبار معاركهم وانتصاراتهم، نقوشاً على جدر الهياكل، أو يقيمون لذلك نُصباً خاصة. وللتدليل على أهمية أعمالهم الحربية، كانوا يذكرون المدن التي احتلوها؛ وهدموها؛ وما حملوه منها، من مغانم؛ وما فرضوه على السكان، من مغارم؛ وكم صادروا من الأملاك؛ وعدد الأسرى والسبي. ولعلّ بعضهم، كان يبالغ في ذلك.

وكان ثمة من يقصد لبنان زائراً أو هارباً من ظلم. ومن هؤلاء وأولئك، كان يقوم

من يتغنّى بجمال هذا البلد وطبيعته. فجباله السامقة، وأوديته السحيقة، وينابيعه المتعددة، وغاباته الجميلة، وطيوره الغرّيدة، وبيوته الفريدة، شكلاً وبناءً، وحدائقه الغناء، وبساتينه الفيحاء، والثلج الذي يغطي قمم جباله، وقد يغطي من الجبال حتى الخصور، كل تلك أمور تثير، في نفس الزائر، الرغبة في أن يقول شيئاً، عن هذا البلد وأهله.

وجميع هذا، الذى أشرنا اليه، وارد في النقوش والنصوص والأخبار والرحلات والأشعار ـ ومنها الكثير الكثير ـ التي وضعها المئات من الكتّاب والرحّالة عن هذا البلد وأهله.

لكن، من الطبيعي أننا لن نتمكن من الإحاطة بهذه الكتابات جمعاء. والسؤال، أو السؤالان، على الأصح اللذان يتبادران الى الذهن هما: أين نبدأ؟ وكيف نتخيّر من نتحدث عنهم، أو ما نتحدث عنه؟

في اعتقادنا أن تخير الأشخاص، الذين كتبوا عن لبنان، ووصفوه، أساسه تقديم نماذج منتزعة من أكثر العصور، إن لم تكن منها جميعها. وسنفتش عن أقدم أثر مدوّن، جاء فيه ذكر للبنان، وكتبه الآخرون، لنبدأ به.

٢ ـ لبنان في النقوش القديمة

يردُ اسم لبنان في كثير من النصوص والنقوش والوثائق القديمة. ومن الطبيعي أن نقع على بعض النصوص الطويلة، نسبياً، فضلاً عن بعض النصوص التي لا يعدو كونها إشارة الى لبنان، أو إلى مدينة من مدنه.

في الواقع، لن نُعنى هنا بما هو إشارةٌ الى اسم لبنان؛ بل سنعنى، بشكل خاص، ببعض النصوص الطويلة، نسبياً.

ولنبدأ بواحد، من أقدم النصوص التي بين أيدينا، وهو أخبار سنوحي. كان هذا نبيلاً مصرياً، يشغل منصباً كبيراً في بلاد الفرعون امْنِمَنْحت الأول، الذي توفي حوالى سنة ١٩٦٠ ق.م. وخشي سنوحي على نفسه، فخرج من مصر هائماً على وجهه الى فلسطين، ثم الى بلاد الريتنو، التي شملت شمال فلسطين والجزءين الجنوبيين من سوريا ولبنان، ووصل الى جبيل، أي بيبلوس.

ومن سوء حظنا، أن الجزء الذي يلي ذلك من النقش تالف. لذلك، فإننا لا نعرف ماذا حدث له في جبيل. إنما يمكن تصوره، أن وصوله الى هذا الميناء، لم يكن مجرد مصادفة. فقد كانت جبيل، يومها، الميناء الرئيس للعلاقات الفينيقية ـ المصرية التجارية. ومهما كان نوع العلاقات التجارية، فالمهم أن مصر وأرض الرافدين وغيرهما، كانت تتاجر مع المدن الفينيقية. فتبتاع، وتبيع، وتقايض سلعاً بسلع. وقد بدأت هذه التجارة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

لكن، منذ أواسط القرن الخامس عشر ق.م.، أصبحت العلاقات مع مصر تقوم على الفتح. وكذلك مع أرض الرافدين فكانت حملات الفرعون تحتميس الثالث، الذي حكم من سنة ١٤٩٠ الى ١٤٣٦ ق.م. والذي وسع حدود مصر كثيراً، وجعلها امبراطورية واسعة. ذلك أن مصر ، بعد طرد الهكسوس من ديارها، سنة ١٥٦٧ ق.م.، أخذت توسع رقعة نفوذها في افريقيا وفي آسية. وكانت حملة تحتميس الثالث الأولى والمهمة هي التي تغلب فيها على أمراء الكنعانيين في معركة مجدّو، سنة ١٤٦٩ ق.م.، وقد صرف سبعة شهور في حصار هذه المدينة، المعروفة أيضاً باسم اللجون أو تل المتسلم، والواقعة في شمال فلسطين. وفيما كان الجيش المصري يحاصر مجدّو، بقيادة تحتميس، أرسل هذا فرقة من جيشه الى لبنان الجنوبي، فاحتلت تلك الأجزاء من لبنان، وبنت حصناً قوياً في تلك الجهة. لكننا لا نعرف مكان هذا الحصن تماماً. لكن

يبدو أن هذه الحملة، لم تؤد الى احتلال لبنان. لذلك، نجد الفرعون يرسل رئيس المحاسبين في بلاطه الى صور، ليبتاع الأخشاب اللازمة لبناء مركب الإله «رَعْ» الاحتفالي. إلا أن الحملات، الست عشرة، التي تلت ذلك، كانت نتيجتها ان وقعت المدن الفينيقية تحت السيطرة المصرية؛ وأصبح الاتّجار بين البلدين خاضعاً للنفوذ والسلطة المصريين.

ويبدو أن الحصول على أخشاب الأرز، كان أمراً ضرورياً، لبناء مركب الإله رع، سنوياً، في مناسبة معينة. لذلك، فإن نقش سيتي الأول، حاكم مصر بين ١٣١٨ و١٣٠١ ق.م.، يُظهر لنا الآسيويين (وهي هنا تعني سكان المنطقة الممتدة من جنوب فلسطين الى شمال سوريا وإلى أرض الرافدين شرقاً) يقطعون الأشجار، تمهيداً لشحنها الى مصر، لبناء السفينة المذكورة.

ثم ضعفت الإمبراطورية المصرية، وفقدت سلطتها على المدن الفينيقية. لذلك، نجد وينامون يرسل الى فينيقيا وكيلاً تجارياً، ليشتري الأخشاب اللازمة. وهذه الأخشاب، يجب أن تكون من الأرز، لأنها ستستعمل أيضاً لبناء مركب الإله رع. فقد أصبح استعمال أخشاب الأرز جزءًا من الطقوس المتعلقة بهذه الاحتفالات الدينية للإله رع.

حمل وينامون معه ذهباً وفضة. وهذا معناه، أن الرسول التجاري جاء مبتاعاً للأخشاب. ولعله كان ينوي شراء أشياء أخرى، من مدن الساحل اللبناني ـ الفلسطيني.

لكن، فيما كانت السفينة، التي حملت وينامون ومساعديه وأمواله، تتزود بالمؤن، في واحد من الموانىء في الطريق، سرق بحار من بحارتها الذهب والفضة، وهرب بهما. ولم يتمكن المسؤولون، في ذلك الميناء، من القبض عليه. وبطبيعة الحال، لم يجد أمير تلك المدينة أنه من واجبه التعويض على وينامون، لأن اللص كان من جماعة التاجر المصرية. ولم يكن مواطناً من الميناء، ولعله دور.

ومرّ وينامون بالموانىء، الواحد بعد الآخر. ومع أن النص المتعلق بهذا الجز من مذكرات وينامون، إذا جاز التعبير، مشوه، فالمهم، بالنسبة لنا، هو ما تبقى. ونحن نجد هذاالتاجر الرسمي في صور ثم في جبيل. وهنا تتخذ قضية التاجر شكلها النهائي.

في جبيل، استعاد وينامون ما يعادل الفضة التي سرقت منه، وهو ثلاثون دِبناً، ولكنه لم يحصل على الذهب أو ما يعادله. وبحكم أنه يملك ثمناً للأخشاب، فقد أوصى عليها، فقُطعت من الغابات المجاورة لجبيل، وحُملت الى الميناء، ووُضعت في السفينة. وكان وينامون ينتظر غَسَق اليوم التالي، ليُقلع نحو مصر، لما وصله الأمر من زكر ـ بعل، أمير جبيل، بأن يتوقف عن السفر، ويأتي الى بلاطه.

انصاع وينامون للأمر، مكرهاً، وذهب الى القصر وهناك، سأله الأمير عن أوراق

هويته، والرسائل الرسمية، التي تُخوِّله حق شراء الأخشاب، لمناسبة دينيّة رسمية. وكانت أوراق التاجر قد انتُزعت منه، في آخر مخفر مصري.

عندها قال له الأمير: «لقد مر عليك، كما قلت، خمسة أشهر ويومٌ واحد منذ أن غادرت هيكل أمون ـ رع. وأنت لا تحمل تذكرة هوية؛ ولا رسالة من الكاهن الأعلى؛ ولا أمراً رسمياً، يسمح لك بشراء الأخشاب. وأنت مررت بصيدا، وقضيت بعض الوقت هنا. في صيدا ومدينتي (أي جبيل)، يوجد سبعون سفينة تنقل المتاجر بين مصر وهذه المدن. ومنها نحو خمسين سفينة تعمل لحساب التاجر المصري الكبير ورقت ال».

فما الذي كان يرمي اليه زَكَر ـ بعل، أمير جبيل، من ذلك؟ من الواضح، أنه لم يك يعرف ويناموت، وهو التاجر الرسمي، للصلات التجارية بين البلدين. ويبدو أن أمير جبيل، كان يشير الى أن التاجر المصري الرسمي، كان باستطاعته، لو كان صادقاً، أن يحصل على تعريف، أو كفالة، أو حتى المال اللازم من أحد ربابنة هذه السفن، المعروفين في جبيل؛ في حين أن ويناموت، لم يكن معروفاً، أو على الأقل لم يتعرف إليه أولئك التجار.

وقد دوّن التاجر المصري في بُرديَّة طويلة، الحوار الذي دار بينه وبين أمير جُبيل، إذ إن التاجر قال له: «إنني قَدِمت بلدك لأحصل على الأخشاب اللازمة لبناء السفينة العظيمة لاحتفالات ملك الآلهة، رع. وهذا أمر مألوف فقد أرسل أبوك الأخشاب، وأرسل جدك الأخشاب».

وقال له الأمير: «نعم لقد فعل أجدادي هذا. ولكنهم فعلوا ذلك في مقابل أشياء. لقد أرسل المصريون أيام أبي وجدي ست سفن محمَّلة بالسلع المصرية أفرغت حمولتها في مخازنهما فما الذي تحمله أنت لي أنا بالذات؟».

ثم نشر الأمير برديات بين يديه، وقرأ منها، على مسامع التاجر، ما دل على أن التجار دفعوا، فضلاً عما حملوه، نحو ألف دِبن من الفضة.

يتضح من هذا القول، أن زكر ـ بعل، أمير جبيل، كان يحصل على شيء مقابل السماح للأخشاب بأن تُحمل الى مصر. فقد أضاف: «أنا لست تابعاً لأولئك الذين أرسلوك، لذلك بعثوا معك بالفضة والذهب. لكن أين السلع المصرية المألوفة؟».

قال التاجر:

«سيصلك ما تريد. ابعث إلي بأمين سرك، لأحمله رسالة الى أمراء الأطراف الشمالية في مصر، وهم يقومون بأعمالهم هناك بتفويض من أمون. وعندما يعود يكون قد جاء معه بما تطيب له نفسك».

وهذا ما حدث. فقد عهد أمير جبيل برسالة ويناموت الى أمراء الأطراف، الى أمين سره، وهذا نقل الرسالة اليهم. إلا أن أمير جبيل، أرسل معه سفينة محملة بالأخشاب كانت جُزءاً ممَّا أراد التاجر المصري أن يبتاعه أصلاً.

وقد تم كل شيء على ما أراده ويناموس. وتقول البردية: «عاد الرسول من مصر في الوقت المعين حاملاً معه، ذهباً وفضة فضلاً عن عشر قطع كبيرة من الكتّان الملكي. وعشر بالات من الكتان الجيد من مصر العليا، وخمسمئة لفة من ورق البَرْدي المصنع أي الجاهز للكتابة عليه، وخمسمئة جلد ثور وخمسمئة حبل، وعشرين كيساً من العدس، وثلاثين قفصاً من السمك».

وحمل رسول الأمير الى ويناموس هدايا شخصية كي يفيد منها لمصلحته.

وقد سر زكر ـ بعل، أمير جبيل من ذلك وأمر ثلثمئة رجل، ومعهم ثلاثمئة من الأبقار، بالخروج الى الغابات، لقطع الأشجار وإعداد اللازم من الأخشاب. وقد تركت الأخشاب موسماً كاملاً في الجبال، كي تجف؛ ثم نقلت الى جبيل، حيث حملت، وغادرت الميناء. على أن خصوم ويناموس، لحقوا به في عرض البحر. وألقت به العواصف الى قبرص. فتبعه خصومه. لكن أميرة قبرص أمنته على نفسه. والذي نعرفه مع أن ورقة البردي، المدون عليها أخبار ويناموس تالفة عند هذه النقطة، هو أن الرجل وصل بسفينته وحمولتها الى مصر.

ودليلنا على ذلك، أن المدوّنة رواية شخصية، بقلم ويناموس. وما كان ليدوّن قصته لولا أنه عاد إلى مصرحياً، ومعه سلعه وتجارته.

وفي القرن الرابع عشر ق.م.، بدأت دولة الحثيين تؤسس ملكها في آسية الصغرى؛ ثم أخذت تتوسع في سوريا. وفي أول القرن الثالث العشر ق.م.، اشتدت المنافسة والخصومة، بين المصريين والحثيين، في سوريا ـ فوصل هؤلاء إلى أواسط البلاد. ووقعت بين الفريقين معركة قادش، حول سنة ١٢٨٠ق.م. واتضح بعدها، للفريقين، أنهما متعادلان، وأن أياً منهما، لن يتمكن من كسب نصر حقيقي على الآخر. فعقد الملكان، المصري والحثي، معاهدة في تلك السنة، بحيث أصبحت المنطقة، الواقعة إلى الشمال من خط يمتد من نواحي حمص إلى الشاطئ شمالي طرابلس، تابعة للحثيين؛ وظلت الأجزاء الجنوبية تابعة للمصريين. ومع أن لبنان لم يشترك في هذه المعارك، فإن المعاهدة ظهر عليها اسم إلهة لَبْلانا والمقصود لبنان. ووضع أسماء الآلهة، التي كانت تعبد في المنطقة بأكملها، على المعاهدة، هو لتقويتها. فالآلهة لم تكن شهوداً فقط، بل كانت ضمانة للحفاظ على الاتفاقية، لإحلال السلم في البلاد.

ومن المعروف أن مدن سومر وأكّد ومدن شمال العراق كانت لها صلات تجارية مع مدن الساحل الشامي بأكمله. وجدير بالذكر، أن الموانىء التالية: رأس الشمرا (أوغاريت) وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا ودور ويافا وغزة. والمدن الداخلية التالية: حلب ودمشق وتدمر وبصرى والبتراء؛ كانت الأسواق الرئيسة، حيث يتبادل التجار السلع والمتاجر والبضائع بالجملة. ولم تكن جميع هذه المدن، والداخلية منها خاصة، متعاصرة.

لسنا هنا في صدد الحديث عن أدوار هذه المدن التاريخية، بل نحن معنيون بناحية خاصة وهي: ما الذي دوّن في مدن المنطقة الواسعة عن لبنان؟ وحتى هذه المدوَّنات إنما ذكرناها بشكل عام. وقد ذكرنا ما وجد منها في مصر. لكن من المفيد الانتقال الى المشرق الى أرض الرافدين. وهنا لن نرجع القهقرى الى القرون الثلاثين أو العشرين، بل نود أن نتناول نقشاً أحدث عهداً.

نحن نعرف أن النقوش التي لدينا من أرض الرافدين، لا تحملنا القهقرى الى مثل العهود المصرية القديمة. ولأننا نحن لا نؤرّخ للمدن، ولكننا معنيون بالنقوش المتعلقة بلبنان، فإننا لا نبحث هنا عن نقوش يشكّ الباحثون بصحتها. ومن هنا، فإننا سننتقل عن نقش يعود الى أيام تغلات بلا سرّ الأول، الذي ملك آشور، بين سنتي ١١١٤ و١٠٧٠ ق.م.، لا الى قبله.

المعروف عن هذا الملك، أنه كان، في أيامه، من كبار الفاتحين. لذلك فقد دوّن أخبار حروبه ومعاركه في نقش أشار فيه الى انتصاراته الأولى، التي كان الإله أشّور عونه فيها على البلاد الواقعة الى الغرب من مملكته واحداً واحداً. وكان من الطبيعي أن يأتي على لبنان.

وهذا ما ورد في النقش، عن لبنان: «ذهبت الى لبناني (لبنان) حيث قطعت الاشجار للحصول على خشب الأرز اللازم لهيكل انو وأدد، الإلهين العظيمين، وحملت ذلك الى آشور. أتممت بعد ذلك سيري الى بلاد أمورّو (سورية). وقد أخضعت بلاد أمورّو بكاملها».

ويستمرّ الملك قائلاً:

«لقد دفعت كلّ من ببلوس (غبال) وصيدا (صيدوني) وأرواد (أرمادا) الضريبة التي فرضتها عليها. وركبت بعد ذلك سفينة أرواديّة الى سموري. وفي طريقي اليها، قتلت حيواناً بحرياً، يسمونه فرس البحر».

ويأتي دور أشّور نصر بعل الثاني، ملك آشور من سنة ٨٨٣ حتى سنة ٨٥٩ قبل الميلاد. وكان هذا الملك محارباً، طويل الباع. وفي النقش الذي خلّد فيه أعماله الحربية يذكر انتصاره على عدد من الملوك، وفرضه الضريبة عليهم، ومنهم ملك كركميش الحثي، وملك حثينا، وملك أريبو، وهذه المنطقة حثيّة أيضاً. ثم وصل الى أمورّو.

وهنا يأتي الجزء الذي يهمنا من النقش. وفيه يقول أشّور نصر بعل: «ثم استوليت على جبل لبنان بكامله، ووصلت البحر الكبير الذي يحاذي بلاد أمورّو. وقد غسلت أسلحتي في مياه البحر العميق. وقدّمت ضحايا من الكباش لجميع الالهة. وكانت الضريبة التي حصلت عليها من مدن الساحل ـ صور وصيدا وجبيل ومحلاّتا ومن أرواد، التي هي جزيرة في البحر ـ تتكوّن ممّا يلي: الذهب والفضة والقصدير والنحاس

والأوعية النحاسية والثياب الكتانية المزخرفة الحواشي والقرود والسعادين وخشب الأبنوس والعاج وشب الدارصيني».

ويشير الملك، في النقش، الى أنه صعد الى جبال أمانوس، حيث قطع الكثيرمن الأشجار، من الأرز والشربين، وبعث بذلك كله الى بلاده.

ومنذ أيام أشّور نصر بعل، أخذ ملوك آشور بالاهتمام بالسيطرة الدائمة على البلاد التي يحتلّونها. ومن هنا نجد أن خلفاءه اهتموا بذلك. لكن موضوعنا لا يحملنا على الوقوف عند عمل كلّ من هولاء الملوك. فلا بد من الانتقال الى نقش خلّفه تغلات فلاسرّ الثالث، ملك آشور، من سنة ٧٤٤ الى سنة ٧٢٧ ق.م. وقد انتصر هذا الملك على ملوك الممالك الآرامية، التي كانت قد قامت في بلاد الشام الشماليّة، قبل أيامه بقليل، ودمّر بعض المدن، بعد أن حصل منها على الضريبة المفروضة.

والمدينتان اللبنانيتان، اللتان يرد لهما ذكر في نقوشه المتعددة هما جبيل وصور. فالأولى، ورد ذكرها الى جانب الممالك الآرامية. أمّا صور فيقول عنها: «أرسلت أحد ضباطي الى صور الذي تسلم من ملكها متناً مئة وخمسين وزنة من الذهب ضريبة».

ولم يكن هذا الشيئ الوحيد الذي فرضه الملك الآشوري على صور. لكن النقش مكسور بعد كلمة «ذهب».

والذي نصل اليه، من قراءة النقوش الآشورية، هو أن الملوك كانوا، الواحد تلو الآخر، يقومون بالحملات العسكرية، ويخوضون المعارك، ويحتلّون المدن، ويهدمون أسوارها، ويأسرون سكانها، ومع ذلك، كانت هذه المدن تثور، وكان لا بد من فتحها ثانية.

ولعلّ الأصحّ القول بأن هذه المدن، كانت تثور بسبب هذا التشدّد الآشوري، الذي كان يصل حد الهمجيّة أحياناً. والنقش الذي خلّفه أسرحدّون، ملك آشور بين سنتيّ ٦٨٠ و٦٦٩ ق.م.، والذي يرد فيه ذكر مدينة لبنانية، هي صيدا، يدل على ذلك. «أنا أسرحدّون قاهر صيدا الذي سوّى جميع مبانيها بالأرض. بل إنني هدمت أسوارها وأسس الأسوار وألقيت بالحجارة والتراب في البحر. وبذلك أزلت من الوجود معالمها حتى المكان الذي كانت صيدا تقوم عليه، حتى لكأن عاصفة عاتية قد مرّت به. وكان ملكها، عبد ملكوت، قد هرب في سفينة، آملاً أن يحميه البحر منّي. لكنني قبضت عليه كما يقبض على السمكة».

ثمّ نقرأ في النقش: «وبعد أن قبضت على ملك صيدا قطعت رأسه. ثم حملت من المدينة غنيمة كبيرة من الذهب والفضة والحجارة الثمينة والثياب الكتانية وجلود الفيلة والعاج وخشب الابنوس وجميع ما حوته المدينة وقصره خاصة. وجميع ذلك كان بكميات كبيرة. وحملت هذا جميعه الى اشور. هذا فضلاً عن الأبقار والحمير التي لا تحصى».

ويتبجّح أسرحدّون، في النقش المذكور، إذ يقول: «وكانت الغنيمة تشمل أيضاً زوج الملك وأولاده وجميع رجال البلاط ونسائه».

وعندنا أخبار آشور بانيبال الذي ملك بين سنتي ٦٦٨ و٦٣٣ ق.م.. وفي واحد من النقوش التي خلفها، يقول: «في الحملة الثالثة قدت جيشي ضد بعيل ملك صور، الذي تقوم مدينته على جزيرة، وسبب الحملة ضده هو انه لم يكن يصغي للأوامر الملكيّة التي أصدرها اليه، ولم يعمل بما أمرته به شخصياً. (ولمّا وصلت مدينته) أحطتها بجنودي الاشداء، وسيطرت على وسائل اتصالها البرية والبحرية. وبذلك قطعت عن السكان المؤن والزاد. فحملتهم على قبول نيري. عندها جاء ملك صور بابنته وببنات أخوته ليقمن بخدمتي. وفي الوقت ذاته، أحضر ابنه ياهيملكي ليقوم بخدمتي كعبد».

ونلحظ في النقش شيئاً، يراه بعض المؤرخين غريباً. فقد كان من المألوف، أحياناً، أن يدخل شاب أو فتاة من أسرة الملك أو الأمير المقهور في حاشية الملك المنتصر. لكن الجديد في النقش ما يلي، إذ يقول أشور بانيبال: «قبلت ابنته وبنات اخوته وما حملن من الدوطة أو البائنة».

هذا هو الجديد في هذا النوع من العلاقة.

ونعرف، من مناسبات مختلفة، أن الموانىء الواقعة في شرق المتوسط، كانت أسواقها تمتلىء بالسلع المختلفة، التي كانت تنقل اليها من موانىء مصر والعالم الإيجي وبقيّة أنحاء اليونان. وأن هذه الموانىء بالذات، كانت تتجمّع فيها سلع، تحمل اليها من المناطق الداخلية. ولعلّ النقوش الآشورية، التي أشرنا اليها، أوضحت لنا شيئاً عن تنقّل هذه السلع من الموانى اللبنانية شرقاً. لكن مع فرق مهم. فقد كانت هذه السلع، في العصور المبكرة من الاتّصال بين لبنان وسوريا وأرض الرافدين، تنتقل على أيدي التجار، بيعاً وشراءً. فيفيد منها التجار ومن لفّ لفهم من أصحاب الحمير والخانات والحوانيت والصناع. لكن في أيام الآشوريين، أو بعض ملوكهم على الأقل، تبدّل الحال عما كان عليه بتبدل الطريقة التي كان الملوك يحصلون فيها على هذه السلع ـ ضريبة أو غرامة حرب أو غنيمة. وهذا الشكل الجديد، مهما كان اسمه، هو «سلب ونهب».

انتهت دولة الآشوريين؛ وخلفتها في أرض الرافدين، دولة الكلدانيين. وكان ملوكها، مثل ملوك آشور، رجال حرب وتوسّع وتسلّط. فقد أصبحت هذه، لقرون خلت، هي الصيغة الناجحة في المنطقة. واستمرّت هذه الصيغة لقرون ستتلوها. وكان من ملوك الكلدانيين الكبار نبوخذ نصّر الثاني، من سنة ٦٠٥ الى سنة ٥٦٢ ق.م.

قاد هذا الملك حملات الى الغرب، عبر الفرات، ثم عبر العاصي. ومع أن نبوخذ نصّر معروف عنه أنه كان يسبي الشعوب، التي يحتلّ بلادها، وينقلها الى جهات أخرى؛ أكثرها الى الشرق، فإن النقش الخاص بلبنان، يختلف عن ذلك. يصف النقش حالة

لبنان لما وصله نبوخذ نصّر، بعد توليه العرش بمدة قصيرة، ثم يذكر ما صنعه، من أجل سكانه. إذ يقول: «في ذلك الزمن كان لبنانو أي لبنان، جبل الارز وهو الغابة الكثيفة الممرعة التي كانت تخصّ مردوخ إله بابل الجديدة. كانت رائحتها عطرة، وكان أرزها الشامخ مما لم يرغب فيه أله، ولا قطعه ملك من قبل... وقد أراد مردوخ خشباً صالحاً لتزيين قصر حاكم السماء والأرض. وقد كان لبنان يومها يخضع لعدو أجنبي الذي كان ينتزع منه خيراته وثرواته، وكان سكانه قد أخرجوا من ديارهم».

ولم يكتفِ هذا العدو الأجنبي، على حسب قول النقش، بذلك؛ بل تعقب هؤلاء القوم. ويتابع النقش القول: «وقد لجأ القوم الى منطقة نائية. ولما كنت مؤمناً بقوة سيديَّ الإلهين نبو ومردوخ، فقد نظّمت جيشاً للقيام بحملة الى لبنان. وقد أدخلت السعادة الى نفوس شعبه إذ قضيت على عدوه قضاء مبرماً حيث ثقفته. وأعدت الشعب المشتّت الى دياره».

ثم ينتقل نبوخذ نصر، في هذا النقش، الى انجازاته العمرانية، فيقول: «وقد فعلت ما لم يفعله ملك قبلي. لقد شققت طريقاً مستقيماً، إذ أزلت الصخور الضخمة من هذا الطريق، فأصبح بالإمكان نقل جذوع الأرز الضخمة الى السهول (ومن هناك كانت تحمل الى النهر). ومن ثمّ كانت تحملها مياه الفرات الى حيث يقيم إلهي مردوخ. وهكذا كانت هذه الجذوع البالغة الجمال الممتازة في أصنافها، الآتية من لبنان تصل الى أيدي الصناع في بابل».

ونبوخذ نصر هذا هو الذي حاصر صور، فيما بعد، فامتنعت عليه ثلاث عشرة سنة. فلما احتلّها، وكان الحصار قد أثّر في المدينة وسكانها، لم يبقِ فيها حجراً على حجر. ولم تقم لصور، بعدها ، قائمة، في القرنين التاليين. لكنها استعادت نشاطها، في أيام الدولة الفارسية.

وما أكثر ما مرّ بنا ذكر الأرز في لبنان وأخشابه. ونودّ هنا أن نذكّر أنفسنا، بأن هذه الأخشاب، كانت مطمح رجال الحكم وكبار الاثرياء والتجار في المنطقة الممتدة من أرض الرافدين الى أرض الكنانة. وخشب الارز يصلح للأثاث والاشياء الفنيّة، التي تُزيَّن بها المنازل. والواقع، أن أخشاب الارز والشربين في جبال لبنان، وجبال أمانوس، كانت، في كثير من فترات التاريخ، أحد الأسباب الرئيسة للحملات العسكرية، ولو أنها لم تكن قط السبب الوحيد.

ويرد ذكر شجر الارز والشربين ووصفه في عدد كبير من أسفار العهد القديم. وفي بعض الحالات، يكون الوصف شعراً جميلاً. لكن في سفر ابن سيراخ، الذي وضع في القرن الثاني، قبل الميلاد، شيئاً خاصاً. فالحكمة تشبّه بشجرتي الارز والشربين. يقول ابن سيراخ بلسان الحكمة:

«ارتفعتُ كالأرز في لبنان وكالسرو في جبال حرمون. كالنخل في السواحل

وكغراس الورد في أريحا. كالزيتون النضير في السهل... فاح عرفي كالدار صيني وانتشرت رائحتي كالمرّ المنتقى».

ففي هذه الصورة، بل الصور، تجميل للأشجار والحكمة، وتمجيد للإنسان الحكيم. وبهذه المناسبة، فهناك اشارة جميلة، في أحد أسفار العهد القديم، هي من نوع المعاملات الزراعية، إذ ان الكاتب يبيّن لنا الطريقة التي ينقل بها الارز، لزرعه من بقعة الى أخرى، في المنطقة. ولا بد من ذكر أن أنواع الأرز كثيرة في المنطقة المشرقية، إلا أنه أكثر أنواعاً متى تجاوزناها، ووصلنا الى شمال غرب افريقيا، مثلاً.

أمّا ما ورد حول نقل الارز لزرعه فهو: «وآخذ أنا من فرع الارز العالي وأغرسه، وأقطف من رأس خراعبه غصناً وأغرسه على جبل عال وشامخ. في الجبل العالي أغرسه فينبت أغصاناً ويحمل ثمراً ويكون أرزاً واسعاً. فيسكن تحته كلّ طائر، كل ذي جناح يسكن في ظلّ أغصانه. فتعلم جميع أشجار الحقل الى الرب وضع الشجرة الرفيعة، ورفع الشجرة الوضيعة، ويبّس الشجرة الخضراء، وأفرخ الشجرة اليابسة».

وهكذا كان أرز لبنان وموانىء لبنان، وسهول لبنان، ونتاجا الأرض والبحر في لبنان تجذب الناس تجاراً ومحاربين ولاجئين في جميع العصور. وقد فعل القدماء ذلك، ودوّنوا أعمالهم، وقرأناها، وأفدنا منها.

٣ ـ الكتّاب الكلاسيكيون ولبنان

الأدب الكلاسيكي هو جماع ما خلّفته الحضارة الاغريقية ـ الرومانيّة، خلال ألف من السنين. وقد دوّن هذا جميعه باللغتين اليونانية واللاتينية. أما من حيث الزمان، فقد كان هذا الأدب نتاج جهد، يبدأ بحلول القرن السابع قبل الميلاد، ويتوقف في القرن الرابع بعد الميلاد.

وليس من المألوف أن يدخل المؤلفون المسيحيون، من أهل القرن الثاني أو الثالث أو الرابع، قصر المؤلفين الكلاسيكيين الذين وضعوا أدباً كلاسيكياً في القرون الأولى للميلاد. فالأدب الكلاسيكي، من حيث طبيعته، هو أدب وثني. وقد يشار في بعض الأحيان الى أدب أنه كلاسيكي، لكن هذه الاشارة تكون مشروطة بروح هذا الأدب. فهناك أدب كلاسيكي عربي، هو أدب التراث. وهناك أدب مسيحي شرقي كلاسيكي، كتب معظمه باللغة السريانيّة، في وقت من الأوقات. لكن، كما قلنا، هذا أدب مشروط بوصف معين.

إذن، فالأدب الكلاسيكي ـ باستعمال الكلمة مجردة ـ هو، حسب الوضع المتعارف عليه هو أدب وثني، وهو لا يتقيد بنوع معين أو بشكل خاص. فالأدب الكلاسيكي يشمل الشعر والقصة والتمثيلية والفلسفة والتاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية والطبيّة الى آخر ما هنالك من فروع المعرفة. ومما هو جدير بالذكر، أنه قد يغلب على واحد من هؤلاء الكتّاب الكلاسيكيين اهتمام بناحية خاصة من نواحي المعرفة، لكن الأمر الأعمّ والأغلب هو النظرة المألوفة لفنون المعرفة وهي أن هذه المعرفة هي وحدة أصلاً. هذه هي القاعدة.

ويبدو أن هذه النظرة، استمرت فترة طويلة. وهي المتحكمة في التطور الفكري للبشريّة. فعلماء العصور الوسطى العرب والمسلمون منهم والغربيون على السواء، كانوا ينظرون الى وحدة المعرفة كأنها الأصل.

أما النظرة اليوم، فتختلف. فالتخصص الدقيق هو الأساس في العلم، على اختلاف وجوهه. ولكن التخصص المهني، على أسس متينة، يعود بنا الى فكرة وحدة المعرفة.

بعد أن تحدثنا باقتضاب عن الأدب الكلاسيكي، لا بد أن نذكر بعض الاسماء، التي تعتبر كلاسيكيّة في انجازاتها. ولعلّ من أقدم الاسماء هوميروس، الشاعر اليوناني

القديم، صاحب الإلياذة والأوذيسي. وهذه الاسماء معروفة عند الجميع، ولكن يجب التذكير بها، ومنها: هيزيود الشاعر؛ وأفلاطون وأرسطو الفيلسوفان وابقراط الطبيب وهيرودتس وبوليبيوس وديوديوروس، الذين كتبوا التاريخ، وبطليموس الجغرافي الأول وخلفاؤه، وهم كثر.

ولسنا نريد أن نلجأ الى الاسطورة نستنطقها، وإلا لكنّا وقفنا عندها وقتاً طويلاً. بيد أنه لا يجوز ان نتجاوز هوميروس، الذي نظم ملحمتين هما: الإلياذة والأوذيسي. وإذا جاز التخصيص في الأمر، قلنا إن الإلياذة تغلب عليها الأساطير النابعة في شرق البحر المتوسط، يونانيّة كانت أم غير ذلك، فيما قصص الأوذيسي فيها نفحة غرب حوض المتوسط.

ولعله من المفيد التوقف عند الإلياذة قليلاً مع الإشارة الى أن هناك من الباحثين الغربيين من يعزو الى الأساطير المشرقيّة الكنعانيّة ـ الفينيقيّة أثراً كبيراً على هوميروس.

فهوميروس يشير في الإلياذة الى مهارة الصيدونيين في صنع الفضة ونقش الاشياء المصنوعة منها. إنه يتحدث عن إناء فضيّ ويصفه وصفاً دقيقاً. وبعد إظهار الإعجاب به، يقول إنه صناعة صيدونيّة، ونحن نعرف، أن اسم صيدا القديم هو صيدون. فلا بد أنه كان يعني صناعاً من صيدا.

وهيرودتس، المؤرخ اليوناني، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، كتب تاريخاً للحروب الفارسية اليونانية، وكان قد رحل في المشرق؛ فزار أقطاره: فارس، مصر، وبعض مناطق بلاد الشام. ومن الطبيعي، وهو يتحدث عن قوة الفرس البحريّة، أن يذكر مدناً فينيقيّة، كانت عماد الأسطول الفارسي في البحر المتوسط. فهو يصف اكسركيس، الامبراطور الفارسي، وقد جاء يستعرض هذا الاسطول، المكوّن من نحو مئة وعشرين سفينة. فقد أقيم للامبراطور عرش موقت على منصة كبيرة، حيث جلس يراقب السفن تتسابق. وقد أبدى إعجابه، لما نالت السفن الصيدونية قصب السبق.

ويعدد هيرودتس السفن التي أُعدت للاشتراك في الحرب. ويقول إن خير سفن الاسطول الفارسي، هي التي هيأتها المدن الفينيقيّة. وهناك ملاحظة حريّة بالاهتمام، وهي أن الامبراطور الفارسي، كان يعتبر جميع سكان امبراطوريته، زعماءً وأفراداً عاديين، تابعين له مع تفرّد في الرأي والتصرف من جهته. ومثل هذا الموقف، لا بدّ أن يأتي من يوناني عاش في تلك الفترة.

ولقد ظهر، في العالم الاغريقي الروماني، عدد من الجغرافيين، وكثيرون منهم كانوا يُعنون بالجغرافية الرياضية، بما في ذلك الفلك. من هؤلاء اراتسثينس وبطليموس. وأمثال هذين كانوا، في نهاية المطاف، يحضّرون ما يسمى بالزيج، وهو جدول فلكي، يعيّن مواقع النجوم، وخطوط الطول والعرض، والأقاليم وطبيعتها. وليس

من شك في أنه علم مهم، وكان له دور كبير في تقدم هذا الفرع من المعرفة. لكن ما يهمنا هو الجغرافي البلداني او الاقليمي، كما نسميه اليوم.

ومن هذا المنطلق، من المفيد ان نعرف ما قاله مؤلف معروف أو ما رُوي عن لسان مؤلف مجهول، مما يخصّ الجماعة عن العادات والتقاليد والصنائع، فضلاً عن معرفة شيء عن وصف لبنان. ومن هنا، سنتوقف عند سترابو، ونترك الآخرين.

عاش سترابو في العقود الأخيرة من القرن الأول قبل الميلاد والعقود الأولى من القرن الأول بعد الميلاد، في عصري اغسطوس وخليفته. وهي أيام بلغت الامبراطورية الرومانية فيها الذروة. ومعنى هذا، أن سترابو، كان باستطاعته ان ينعم بالوصول الى المعلومات التي يريدها في مدى واسع. فالامبراطورية، كانت تمتد من اسبانيا الى الفرات، ومن آسية الصغرى الى جنوب مصر. كما ان الكثيرين، كانوا يتاجرون مع الشرق، وغيرهم كانوا يأتون من المشرق. لذلك، كان مجال الاتصال واسعاً، والعالم الصبور، يحصل على ما يريد من المعرفة.

يقول سترابو، عن صور، إن الاسكندر خرّب المدينة، لما احتلها؛ لأنها استعصت عليه، فحاصرها طويلاً. ولما استولى عليها، عاقبها بالتدمير، وبيّع الكثيرين من سكانها عبيداً. كان هذا سنة ٣٣٢ ق.م.، ويضيف الجغرافي: «لكن أهل صور، المعروفين بنشاطهم ومهارتهم، استطاعوا أن يعيدوا الى المدينة أمجادها».

ويتحدث سترابو عن الأرجوان وصباغته، في صور، فيقول: «والارجوان الصوري هو أجمل وألطف من غيره. وفي صور عدد كبير من المصانع؛ الأمر الذي يجعل الإقامة في بعض انحاء المدينة مزعجة. لكن هذه الصناعة هي مصدر ثروة للمدينة».

ويعير سترابو صيدا عنايته، كما اهتم بصور. فيقول عنها، وعن سكانها: «الصيدونيون (أي الصيداويون) هم أهل معرفة عميقة في علمي الفلك والحساب، وهما ضربان من المعرفة يهمان الملاح والتاجر».

ويقول سترابو أيضاً، وهو، كما قلنا، وضع كتابه في العقد الثالث من القرن الأول للميلاد: «إن أكبر مصدر للمعرفة الآن في المشرق، نجده في لبنان والمناطق المجاورة».

ولم يجرد سترابو صيدا من الصناعات، فهو يقول: «إن الرمل، الذي يوجد بين عكا وصور، يحمل الى صيدا، حيث يستعمل في صناعة الزجاج، وهي صناعة متقنة وناجحة».

بعد وفاة الاسكندر، قامت بين خلفائه حروب؛ وهي المعروفة بحروب الوراثة. وكان أقوى هؤلاء الخلفاء، حوالى السنة ٣١٥ ق.م.، انتيغونس، الذي كان يخاصمه صاحب مصر وفلسطين، وحاكم مقدونيا. وبعد تنظيم شؤونه، أراد أن يُعد العدة، لمقارعة خصومه. فأوكل الى هيرونيموس أمر جمع الأخشاب، اللازمة لبناء السفن،

التي يحتاجها. وهذا الوكيل أعطى المعلومات الوافية عن غابات لبنان الى ديودورس، الذي نقلها الينا.

يقول المؤرخ اليوناني ديودورس الصقليّ: «إن انتيغونس، اتخذ صور القديمة مستقراً له، كي يعد العدة لمحاربة خصومه. ودعا اليه ملوك الفينيقيين وحكام المناطق. وطلب من الملوك أن يقدموا العون على بناء السفن، وجمع هو قطّاعي الأخشاب وأصحاب المناشير من كل جهة، كما جمع بناة السفن؛ وقطع الأخشاب وأوصلها من جبال لبنان الى البحر. كان هناك ثمانية آلاف قطّاع للأخشاب ونشّار لها، وكان هناك ألف من الثيران لجرها الى الساحل. وهذا الجبل يمتد مما وراء طرابلس الى أراضي صيدا. وتغطيه اشجار الأرز والشربين، وهي أشجار في غاية الجمال والضخامة».

أقام أنتيغونس ثلاثة مصانع كبيرة، لبناء السفن، في فينيقيا، في طرابلس وجبيل وصيدا. وكان هناك مصنع رابع في طرطوس، وكانت الأخشاب اللازمة له، تقطع من جبال طوروس.

ويتحدث كاتب مجهول عن صنع الكلس «الجير» في لبنان، فيقول: «تُقطع الحجارة المخصصة لصنع الكلس قطعاً صغيرة نسبياً. وتُحرق هذه في أتون، لأيام، وقد يستعمل روث البقر، إذا وجد، لأنه يحتفظ بحرارة منتظمة. وبعد ان تحترق هذه الحجارة، تصبح كلساً يخلط بالماء، عند الحاجة، ويستعمل في البناء.

ويقابل الكاتب بين طريقة إعداد الكلس في لبنان والطريقة الطبيعية، التي يحصلون بها عليه في قبرص، إذ يزيلون طبقة من الأتربة، ويعثرون على الكلس في مناجم، فيحفرون فيها، وينقلونه الى مكان البناء.

وتظهر في المرسوم الذي أصدره ديوقلتيان، الامبراطور الروماني، من سنة ٢٨٤ الى ٣٠٥ م، وحدد فيه أسعار جميع المواد التي يمكن أن تباع، وفي انحاء الامبراطورية جمعاء، بعض المواد التي كانت تصدّرها مدن الساحل والداخل في لبنان، ومنها العسل، وخصوصاً العسل الفينيقي، والجلود، التي كانت تحمل من بابل، والصنادل البابليّة، والارجوان الفينيقي، والحرير الخام، والصوف المصبوغ، والأقمشة الكتانيّة، والمناشف ومحارم الجيوب والقمصان.

وعندنا وثيقة، قديمة فعلاً، تعود الى القرن الرابع للميلاد، أي الى بدء العصر البزنطي، وهي وثيقة مجهولة الهويّة. وقد وصلتنا عن طريق محام بزنطي كان مغرماً بجمع مثل هذه الوثائق، اسمه هرمينو بولس. وقد عاش هذا في القرن الثاني عشر للميلاد.

تعيّن هذه الوثيقة المناطق، التي يمكن ان تقام فيها صناعات معيّنة، في المدن وما اليها. وهي تشمل الصناعات، التي قد يتأذّى السكان منها. والوثيقة طويلة؛ لذلك،

سنكتفي بانتقاء بضعة أمثلة منها. وهي تقول: «إن كل من يريد ان يقيم مصنعاً للاسبستوس، يتوجب عليه ان يبتعد مئة ذراع (أي حوالي سبعة وأربعين متراً ونصف المتر) عن البيوت المكوّنة من طابقين او ثلاثة طوابق أو أكثر. أما إذا كانت البيوت مكوّنة من طابق واحد فقط، فيكتفي بأن يبتعد نصف المسافة فقط».

وهذا مثل آخر: «إن صناعة الأجبان وعصير السمك النيء هما مزعجتان جداً بسبب الرائحة الكريهة المؤذية التي تنبعث من مثل هذا العمل. لذلك لا يجوز ان تقوم صناعة منهما في مدينة او قرية. وإذا كان ثمة سبب خاص يحتم ان يقام مثل هذا المصنع في المدينة او القرية فيجب ان تكون المسافة بين المصنع وبين أقرب بيت ستمئة متر».

وتقول الوثيقة: «يتوجب على صانعي الزجاج والأدوات الحديدية ان لا يقيموا مصانعهم في المدن. أما إذا كان ثمة حاجة ماسّة للسماح بذلك فإنه يترتب عليهم أن يقيموا مصانعهم في الأماكن النائية والقليلة السكان. ذلك بأن الخطر يأتي من النار المستعملة التي قد تؤدي الى حرائق».

وعندنا أيضاً وصف من المؤرخ الكنائسي يوسابيوس لكنيسة بنيت في صور سنة ٣١٢ ـ ٣١٩ للميلاد، وهي أول باسيليكا مسيحية. والكلمة التي كتبها مؤرخنا هي مديح لأسقف صور باولينوس، الذي قام بالعمل. ومن المهم أن نذكر، أن هذه الباسيليكا قام ببنائها أحفاد الصوريين الذين بنوا هيكل الإله ملكارت، إله صور.

يقول المؤرخ: «شاد باولينوس باسيليكا تفوق سابقتها في أناقة المواد المستعملة وغناها، مما يدل على أنه لم يبخل عليها بالنفقات. إنني أربأ بنفسي أن أعمد الى وصف طول البناء أو عرضه، أو جماله أو عظمته التي يعجز اللسان عن وصفها. ولن أقول شيئاً في مظهر البناء المدهش أو في ارتفاعه الذي يطال السماء، وفوق ذلك أخشاب الارز اللبناني الثمينة التي تعتلي البناء كله. وقد قيل في هذه الأخشاب، تشبه أشجار أرز لبنان الذي أنبته الله».

٤ ـ جغرافيو العرب ولبنان

كان للعرب باع طويل في الكتابة الجغرافية. ومع أننا لا ننوي الافاضة في هذا الموضوع، لأننا لسنا معنيين، بذلك هنا، فإنه لا بدّ لنا من وقفة قصيرة، نشير فيها الى أمرين أساسيين، يتعلقان بالتأليف في الجغرافيا عند العرب. وأول هذين الأمرين هو أن العرب كانوا، في الدور الأول، ينقلون عن الأمم السابقة كاليونان والهنود والفرس. وكان الذي نقلوه، في غالبه، يتعلق بالجغرافية الفلكيّة.

أما الأمر الثاني فهو أن الجغرافيين العرب أوجدوا، في القرن العاشر، ما يصح أن يسمى المدرسة الجغرافية العربية. ولكن سبق هذا، في القرن التاسع، ظهور كتب هي مزيج من الأثر اليوناني، طبيعياً، والعناية بموارد الدولة العربية الاسلامية وإدارتها، سياسياً ومحليّاً. ومن الكتب التي عنيت بهذه النواحي، «المسالك والممالك»، الذي وضعه ابن خرداذبه، وكتاب «الخراج وصنعة الكتابة» لقدامة بن جعفر، وكلاهما وُضعا في القرن التاسع.

لكن الجغرافيين البلدانيين، وجغرافيي القرن العاشر، وهم الذين يمثلون الجغرافيا العربية المستقلة، كتبوا فيما يصح أن نسميه الآن «الجغرافيا الاقليمية»، وإن كنا نفضل «الجغرافيا البلدانيّة».

ومن المناسب أن نذكر هنا أشهر الجغرافيين البلدانيين، الذين ظهروا في القرن العاشر. والبارزون من هؤلاء المؤلفين هم: البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي. والبلخي هو أول من استقل عن بطليموس، الجغرافي اليوناني المشهور. ومؤلفات الباقين، أي الاصطخري وابن حوقل والمقدسي تمتاز بأنها تعتمد على المشاهدة، فضلاً عن القراءة الكثيرة والعميقة. وكل من هؤلاء الكتاب، عني بالرقعة العربية الاسلامية أصلاً، وتنقل في أجزائها. فابن حوقل زار الرقعة من حدود الهند الى الاندلس.

وقد عقد المقدسي فصلاً في كتابه، «أحسن التقاسيم» بيّن فيه ما لقيه من الصعوبات في تنقله من جهة الى جهة، كي يجمع مواد كتابه. قال: «إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكدية وركوب الكبيرة. فقد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعبّدت وفقّهت وأدّبت وخطبت على المنابر وأذّنت على المنائر وأممت في المجالس».

وإذا تصفحنا كتاب «الخراج» و«صنعة الكتابة» لقدامة بن جعفر، نجد أخباراً عن لبنان، ففيه يقول: «وأما الثغور البحرية (في لبنان) فهي طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وصور. وبصور صناعة المراكب».

ويضيف: «ومقدار ما يغزو في الغزاة من مراكب الشام ومصر من الثمانين الى المئة مركب».

ويحدثنا ابن الفقيه، في كتابه «مختصر كتاب البلدان»، عن سواحل لبنان، وهو يقصد المناطق او الكور الساحلية، فيذكر أنها صيدا وبيروت وطرابلس وصور. ولسنا ندري تماماً إذا كان ترتيبه للموانىء على أساس أهميتها في عصره، إذ إن الترتيب ليس جغرافياً.

وفي «مختصر كتاب البلدان» وصف آخر للبنان، هو قوله: «ولبنان هو الجبل الذي يكون عليه العبّاد والابدال. وعليه من كل الثمر والفواكه. وفيه عيون كثيرة عذبة».

وقد دهش ابن الفقيه، لدى رؤيته بعلبك، فاعتبر حجارتها من عجائب الشام الاربع. ويقول: «إن فيها ـ أي بعلبك ـ حجراً ارتفاعه في السماء عشرة أذرع في عرض خمسة عشر ذراعاً في طول خمسة وأربعين ذراعاً».

ومن المرجح أنه يشير الى حجر الحبلى.

ويقول في مكان آخر، إن للبنان صيدا وصور، وهذه مشهورة بصنع الشبه أي البرونز والنحاس الاصفر. على أن الشجرة التي أسرت لبّ ابن الفقيه هي شجرة الكرمة. ويؤكد على «أن اسم الكرم مشتق من الكرم والاكرام والتكرم».

على أننا نعثر في مكان آخر، وهو يتحدث عن البقاع وكرمه، على وصف أدبي جميل لهذه الشجرة، إذ يقول: «ولنا الكرمة أفضل الاشجار، والعنب سيد الثمار، (والكرمة) ناعمة الورق ناضرة الخضرة، غريبة تقطيع الورقة، بديعة الزوايا، مليحة الحروف، حسنة المقادير، كأنما قوّرت من سَرَقة حرير، واستخرجت من ثوب نسيج».

ويستمر المؤلف في وصفه قائلاً: «كثيفة الظل خفيفة الفي، لدنة الاغصان ليّنة الافنان، خضرة الاطراف كريمة الاخلاق، سلسة القياد رفيعة جوهر الأعواد، لذيذة الجنى قريبة المجتنى، صغيرة العجمة رقيقة الجلدة، عذبة المذاق، سهلة المزدرد، كثيرة الماء فاضلة المخبر على المنظر، شريفة العنصر والجوهر».

ومن جغرافيي القرن الرابع هـ/ العاشر م ابن حوقل. وهو من نصيبين في أرض الرافدين. وقد بدأ الرحلة سنة ٩٤٢ م من بغداد، وعاد اليها بعد ثلث قرن. وقد زار، خلال هذه المدة، ديار الاسلام من الهند الى اسبانيا. وتغلغل في مناطق أخرى كثيرة؛ حتى أنه وصل الى بلاد البلغار. وقد قرأ كثيراً فجاء كتابه «صورة الارض» يجمع هذه الاختبارات جميعها.

يصف ابن حوقل بعلبك بقوله: «هي مدينة على جبل، وعامة أبنيتها من حجارة قد

بنيت على أساطين شاهقة. وليس بأرض الشام أبنية حجارة أعجب ولا أكبر منها. وهي مدينة كثيرة الخير والغلات والفواكه الجيدة. بيّنة الخصب والرخص. وهي قريبة من مدينة بيروت التي على ساحل بحر الروم (البحر المتوسط) وهي فرضتها وساحلها».

ويشير الى أهل بيروت، فيقول عنهم: «وفيهم من إذا دعي الى الخير أجاب وأصغى».

ثم يضيف قوله: «وببيروت هذه كان مقام الاوزاعي. وبها من النخيل وقصب السكر والغلات المتوافرة الكثير. وتجارات البحر عليها دائرة واردة وصادرة. وهي مع حصنها حصينة منيعة السور، جيدة الاهل، مع منعة فيهم من عدوهم، وصلاح في عامّة أمورهم».

ولعلّ أكبر الجغرافيين البلدانيين العرب، هو أبو عبدالله محمد بن أبي بكر البناء، المعروف بالمقدسي، صاحب كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم». وهو مولود في بيت المقدس، ومن هنا جاءت تسميته. وهذا المؤلف غني، ليس بالمعلومات الجغرافية العاديّة فحسب، بل هو حريص على جمع المعلومات المتنوعة، بحيث إننا نعثر في طيّات كتابه على أخبار اقتصادية ومعارف اثنوغرافيّة ولمحات اجتماعية لا مجال لذكرها هنا.

ومما يلفت في كتاب المقدسي، هو أنه في نهاية حديثه عن كل من الأقاليم التي يعالجها، يأتي بفصل يسميه «جمل شؤون هذا الاقليم» وهو يقوم بدور الخلاصة - الخاتمة من جهة، ويضم اليه ما قد يكون فاته ذكره، او لم يجد له مكاناً مناسباً من قبل.

والمقدسي أول جغرافي عربي تنبه الى الاقسام الطبيعية لبلاد الشام، ولبنان وسطها، فيقول: «وضع هذا الاقليم، ظريف، هو أربعة صفوف. فالصف الاول يلي بحر الروم وهو السهل وفيه جميع مدن السواحل، والصف الثاني الجبل مشجّر ذو قرى وعيون ومزارع وفيه لبنان. والصف الثالث هو البقاع في لبنان والغور في فلسطين، والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة».

ويقول أيضاً: «وأما جبل لبنان فهو كثير الاشجار والثمار المباحة».

ويقول عن بعلبك: «بعلبك مدينة قديمة فيها مزارع وعجائب. معدن الاعناب، وسائر مدنها طيّبة رحاب. وأشد اقليم الشام برداً بعلبك وما حولها. ومن أمثالهم، قيل للبرد: اين نطلبك؟ قال بالبلقاء، قيل له: فإن لم نجدك؟ قال «بعلبك بيتي»».

ويتحدث المقدسي حديثاً مقتضباً، ولكنه ذو دلالة، عن جبل عاملة (جبل عامل) فيقول: «وجبل عاملة ذو قرى نفيسة وأعناب وأثمار وزيتون وعيون. المطر يسقي زروعهم. ويطل الجبل على البحر، ويتصل بجبل لبنان». ويقول أيضاً إن عسله خير العسل، مثل عسل ايلياء، أي القدس، لأن النحل يرعى السعتر.

ويحدثنا عن مدن الساحل الرئيسية، فيقول: «وصيدا وبيروت مدينتان على الساحل حصينتان.وكذلك طرابلس إلا أنها أجل... وفي جبال بيروت معادن حديد».

وكعادته، يختم المقدسي الفصل بذكر المسافات، ويقول إن المسافة، بين دمشق وكل من بيروت وصيدا وطرابلس، هي يومان.

لم يتوقف تقدم الجغرافيا العربيّة عند مدرسة القرن العاشر. فنحن واجدون ثلاث صفحات ناصعة في تاريخ هذا العلم. أولها الادريسي، نابغة الخارطة العالمية، وهو من أهل القرن الثاني عشر. وثانيها المعجميون الجغرافيون؛ وشيخهم هو ياقوت الحموي، صاحب «معجم البلدان». أما الصفحة الثالثة، فهي التي تزدان بالموسوعيين، أمثال: النويري والعمري والقلقشندي. وفي موسوعاتهم الكبيرة، فصول مهمة عن جغرافية العالم المعاصر لهم، وهم من أهل القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

والادريسي، الذي كان صفحة مشرقة في تاريخ الجغرافيا عند العرب، هو أبو عبدالله محمد الشريف الادريسي. ولد في مدينة سبتة بالمغرب، في أوائل القرن الثاني عشر، وطلب العلم في بلده، وفي قرطبة في الاندلس. وقد كان فيما درسه، وعني به عناية خاصة، العلوم الرياضية والفلكيّة والجغرافيّة والطب، وما يتبع ذلك من اهتمام بالنبات ومنافعه.

وكان من عادة علماء العرب والمسلمين ان يرحلوا بعيداً في طلب العلم، فقد زار الادريسي الشمال الافريقي والاندلس وجزءاً من فرنسا؛ وقضى في المشرق بعض الوقت. وأخيراً، يظهر الادريسي في بلاط روجر، صاحب صقلية. فقد دعاه الملك ليكون ضيفه، ويسّر له وسائل العمل العلمي من حيث المكان والناس الذين يفدون الى البلاط، والتجار الذين يهبطون الجزيرة. إذ كان هؤلاء يعطون الادريسي ما عندهم من معرفة وخبرة وتجربة، وما يعرفونه عن بلادهم.

وفي هذا البلاط رسم الادريسي خارطة للأرض، على كرة من الفضة. ورسم شرحات لهذه الكرة، كان مجموعها يكوّن خارطة العالم المعروف يومئذ. ثم وضع كتاباً يفسّر فيه الأمرين اسمه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». وقد كان الفراغ من هذا العمل سنة ٥٨٤ هـ أو سنة ١١٥٤ م. وبعد ذلك بفترة قصيرة، وقعت في بلرمو ثورة، كانت الدائرة الفضية، أي الكرة الادريسية، إحدى ضحاياها. لكن الخارطة والكتاب أُنقذا. وبهذه المناسبة فإن خارطة الادريسي نشرها المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥١ م.

وقد وصلنا وصف لبيروت، من قلم الادريسي، هو قوله: «بيروت مدينة على ضفة البحر عليها سور حجارة كبيرة واسعة. ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد جيد يقطع ويستخرج منه الكثير، ويحمل الى بلاد الشام. وببيروت غيضة أشجار صنوبر مما يلي جنوبها تتصل الى جبل لبنان. وتكسو هذه الغيضة اثنا عشر ميلاً في مثلها. وشرب أهل بيروت من الآبار».

ويضيف، ويبدو أنه ينقل عن آخرين: «ومدينة بيروت حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن. وتجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد. ولسورها برجان ولها بساتين ونهر وهي خصبة. وكان يقيم بها الامام الأوزاعي الفقيه. ولها ميناء جليل».

وعندما نذكر الجغرافيين، لا بد من ذكر الموسوعيين فإن الذين برزوا بشكل خاص في المشرق، وفي عهد المماليك على التخصيص، هم الذين وضعوا مجلدات ضخمة، كثيرة العدد، تناولوا فيها ما كان يحتاجه المشرفون على ديوان الانشاء، أي دائرة المراسلات الرسميّة في الدولة. وكتبهم هذه شملت الجغرافيا والتاريخ والادب والمراسم والنظم والمراسلات وما الى ذلك.

وحصة الجغرافيا، في هذا كله، كانت كبيرة، وكانت تتناول النواحي الادارية، فضلاً عن الأوصاف الطبيعيّة. وعندنا، من ابن فضل الله العمري، وصف لطرابلس، يبيّن لنا الدور الذي كان لتلك المدينة في أيام العمري، أي في النصف الاول من القرن الرابع عشر.

قال العمري عن طرابلس: «ولها نهر يحكم على دورها وطبقاتها حيث يجري الماء في الأماكن العالية من الدور التي يرقى اليها بالدرج. وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذات أشجار وكروم ومروج وأغنام وبقر. ويجتمع فيها الجوز واللوز وقصب السكر والثلج. ويعمل بها السُّكَّر. وتأتيها وفود البحر، وترسو بها مراكبهم وهي موضع زرع وضرع، وهي الان مدينة كثيرة الزحام. وبها مارستانان، [أي مستشفيان]، ومساجد ومدارس وزوايا وحمامات موصوفة، وأسواق جليلة. وجميع بنيانها بالحجر والكلس مبيضة ظاهراً وباطناً. بها غوطة ويحوط بغوطتها مواضع من مزدرعاتها».

كان القلقشندي، وهو من أهل النصف الثاني من القرن الرابع عشر وأوائل القرن التالي، واحداً من أقدر من تعرض لموضوع ديوان الانشاء والمراسلات، في كتابه المسمى: «صبح الاعشى في ديوان الانشا». والقلقشندي ينقل كثيراً عن سابقيه، لكنه يذكر مصادره. فوصفه لبيروت وطرابلس، منقول عن العمري.

وقد وضع القلقشندي فصلاً، في آخر كتابه، تناول فيه نقل الثلج، من لبنان الى مصر، في أيامه: «كانت للثلج هجن تنقله في البر وسفن تنقله في البحر حتى يصل الى قلعة القاهرة. وقد كانت هذه المراكب ثلاثاً في السنة أيام الملك الظاهر بيبرس. ثم أخذت في الزيادة حتى بلغت أحد عشر مركباً. كانت المراكب تخرج من بيروت او طرابلس وتأتي دمياط في البحر، ثم يُخرج الثلج في النيل، ثم ينقل على البغال السلطانية الى مخازن السلطان في القلعة. وقد جرت العادة ان المراكب إذا سفرت سفر معها من يتداركها من ثلاجين لمداراتها».

وبمثل هذا الاسلوب، كان السلاطين يتمتعون بالشراب المبرّد.

٥ ـ ناصري خسرو في لبنان

من بين الكتابات التي اخترناها عن لبنان صفحات منقولة عن الرحّالين. والسائح او الرحالة، يختلف عن الكاتب الجغرافي. فالكاتب الجغرافي يسأل، ويستقصي، ويحقق، أملاً في أن يشمل حديثه كل جزء من المنطقة، التي يتعرض لدرسها.

أما الرحّالة، فينقل ما يشاهده؛ وبذلك تكون صوره جزئية، ولكنها ثمينة، من هذه الناحية. وهذا ما نجده عند الرحالة ناصري خسرو. فصوره عن لبنان وعن غيره من الأقطار جزئية، ولكنها مليئة بالحياة والحركة. فالرجل، لما وصل الى لبنان، سار على ساحله، من طرابلس الى صور. فهو يصف المدن الكبرى، مع لمحات لطيفة فيما يلي.

لكن وقبل ان ننقل وصف ناصري خسرو وصوره للبنان، يجدر بنا ان نتعرّف الى هذا الرجل، ذي الاسم الغريب على المسامع، بعض الشيء.

ناصري خسرو فارسي الأصل والنشأة والثقافة. وهو من أهل القرن الحادي عشر م/ الخامس هـ. وقد تنقل بين بلاده والهند، وعمل في بلاط السلاطين. وكان منغمساً في اللهو، الى ان تراءى له في ليلة رجل في حلم نهاه عن المعاصي؛ فارتدع وسمع نصح الهاجس، بأن يذهب الى الحجاز لأداء فريضة الحج.

ومع أننا معنيون بتحرك ناصري خسرو في لبنان، إلا أنه لا بأس، في ان نرافقه ـ بسرعة ـ في طريقه من مرو. فقد مر بأشهر المدن الاسلاميّة والعربية يومها، مثل: نيسابور والري وتبريز وأخيراً دخل سوريا، بطريق منبج. وفي شمال سوريا زار حلب والمعرة وحماة. وفي المعرة، لقي أبا العلاء المعري، ثم اتجه من تلك الجهات الى الساحل، فدخله عند عرقة، واتجه جنوباً الى طرابلس.

حريّ بالذكر أنه لما وصل ناصري خسرو الى بلاد الشام، كان النفوذ الفاطمي هو المسيطر في المنطقة. ذلك بأن الدولة الفاطمية، التي انتقلت الى مصر، أواسط القرن الرابع للهجرة/ القرن العاشر الميلادي، أخضعت فلسطين وعدداً من المدن اللبنانية الساحلية لسلطانها. أما حلب وما اليها فكان حكامها الحمدانيين. ويبدو أنه كان عند ناصري خسرو استعداد لتفهم النظرية الفاطمية. لكن هذا تم له لما وصل القاهرة، وأقام فيها ثلاث سنوات وبعض السنة.

كان ناصري خسرو في لبنان في سنة ٣٣٨ هـ وسنة ١٠٤٧ ميلادية. وقد وصل حلب يوم السبت في الخامس من شعبان، الموافق للسادس من شباط. وقضى نحو

اسبوعين متنقلاً بين مدن الساحل اللبناني، من طرابلس الى صور، إذ نجده في عكا في الاسبوع الاخير من شعبان. والمهم هنا ان ننقل ما قاله ناصري خسرو عن لبنان.

يقول الرحّالة، عن طرابلس وأرباضها: «وحول المدينة المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والترنج (الاترج او الكباد) والموز والليمون والتمر. وكان عسل السكر يجمع حينذاك. ومدينة طرابلس مشيّدة بحيث ان ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر. فإذا ماج علت أمواجه السور».

ويقول الرّحالة أيضاً: «أما الجانب المطل على اليابس فيه خندق عظيم عليه باب حديدي محكم. وفي الجانب الشرقي من المدينة قلعة من الحجر المصقول عليها شرفات ومقاتلات من الحجر نفسه، وعلى قمتها عرادات لوقايتها من الروم، فهم يخشون ان يغيروا هؤلاء على طرابلس بالسفن».

ونحن نعرف، أن العرب احتلوا بلاد الشام بأكملها، في العقد الرابع من القرن السابع الميلادي. وقد ظلت تلك البلاد، تتبع الدول التي قامت في المنطقة: الراشدون والأمويون والعباسيون. لكن في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، استقوى الروم البزنطيون على الموانىء الشامية الشمالية، بسبب الضعف الذي أصاب الدولة في هذه الديار. ومن هنا اشارة ناصري خسرو الى تحصينات طرابلس، خشية الهجوم الرومي.

وهناك ملحوظة ثانية، يجدر بنا ان نتذكرها، بالنسبة لطرابلس. ان زائر طرابلس اليوم، قد لا يرى آثار هذا الذي وصفه ناصري خسرو. ذلك بأن المدينة، كما نعرف، احتلها الصليبيون الافرنج، في أوائل القرن الثاني عشر للميلاد، وظلوا يحكمونها نحو قرنين. ولما أخرجهم منها المماليك، في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، هدم السلاطين المدينة ميناءً وحصوناً وأسواراً حتى لا يعود اليها الافرنج، الذين كانوا ما يزالون يقيمون في قبرص.

ثم اكتشف سلاطين المماليك، بعد ذلك، الحاجة الى ميناء وقلعة وأسوار في المكان. فبنوا القلعة على التل، وهي القلعة التي يراها زائر طرابلس اليوم، مع ما مرّ بها من تطور، بعد العصر المملوكي، ثم أثناء العصر العثماني. وأكبر الظن، أن طرابلس القديمة، التي زارها ناصري خسرو، هي التي تقع حول الميناء اليوم. والميناء بلد مستقل عن طرابلس المدينة.

ويقول ناصري خسرو، في وصفه لمدينة طرابلس: «ومساحة المدينة ألف ذراع مربع».

والذي نراه أن هناك خطأ في التعبير، إما أصلاً، أو نقلاً. فألف ذراع مربع، ليست مساحة تستحق الاهتمام. والمرجح أن ناصري خسرو أراد ان يقول ان مساحة المدينة هي ألف في ألف ذراع. وعندها يصح القول.

ويتابع ناصري خسرو: «وفنادق المدينة أربع أو خمس طبقات، ومنها ما هو ست

طبقات أيضاً. وشوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة، حتى لتظن أن كل سوق قصر مزيّن».

ويبدو ان ناصري خسرو، كانت له عناية بالطعام والشراب، لذلك، نجده يلقي الملحوظات، المتعلقة بالأطعمة، في مظان كثيرة من رحلته. فهو يقول عن طرابلس: «وقد رأيت بطرابلس ما رأيت في بلاد العجم من الاطعمة والفواكه، بل أحسن منه مائة مرة».

وكم كنا نحب لو ان ناصري خسرو ذكر لنا بعض أنواع الاطعمة التي رآها في طرابلس، فقارىء كتابه يتساءل دائماً، ومراراً، هل كانت الحلاوة بجبنة والجزرية، مثلاً، معروفتين يومها؟ وهل المفروكة قديمة في عاصمة الشمال اللبناني؟

وينتقل ناصري خسرو الى جامع المدينة، ونحسب انه يقصد الجامع الكبير، كما يتضح من وصفه، فهو يقول في ذلك: «وفي وسط المدينة جامع عظيم، نظيف، جميل النقش، حصين. وفي ساحته قبّة كبيرة تحتها حوض من الرخام، في وسطه فوّارة من النحاس الاصفر».

ويتابع الرّحالة وصفه للمدينة التي سحرته، على ما يبدو، طبعاً قبل ان يصل القاهرة التي شدهته، وأدهشته، فيقول: «وفي السوق مشرعة ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير، يأخذ الناس منه حاجتهم ويفيض باقيه على الارض ويصرف في البحر».

ولعل الذي قصده ناصري خسرو، بكلمة «مشرعة»، هو «السبيل»؛ إذا وافقنا على ذلك مترجم رحلة ناصري خسرو الى العربية، الدكتور يحيى الخشاب. فالكلمة المألوفة، في بلاد الشام، هي السبيل. وكثيراً ما نقرأ على سبيل: «وقف هذا السبيل فلان بن فلان» الخ... إذ ان السبيل كثيراً ما كان وقفاً، سواء أكان الواقف رجلاً رسمياً أم رجلا من عامة الناس. لذلك، فالذي يصفه ناصري خسرو هو سبيل له خمسة صنابير، أي حنفيات، ومعناها خمسة منافذ للماء كي يتمكن اكثر من شخص واحد، ان يستعمله، في وقت واحد.

أما بقية هذا الوصف المقتضب الشيق، فهو: «ويقال ان بها عشرين الف رجل. ويتبعها كثير من السواد والقرى».

وليس في أن يتبع طرابلس كثير من القرى أيّ مشكلة. ولكن ما معنى قوله: «ويقال ان بها عشرين ألف رجل؟» وبعبارة أخرى: كم كان عدد سكان طرابلس، بحسب هذه العبارة؟ هل نعتبر ان كل رجل كان رأس أسرة؟ وهل نفرض أن معدل اعضاء الاسرة ـ أباً وأماً وأولاداً ـ هو خمسة؟ وهل يعني هذا ان طرابلس كان عدد سكانها نحو مئة ألف نسمة؟ لا أعتقد أن هذا العدد غريب، إذ إنّه من الممكن أن يكون عدد سكان طرابلس وأرباضها مئة ألف نسمة. فالمدينة كانت مشهورة بالزراعة، كما رأينا من ذكر الزروع في أرضها. يضاف الى ذلك الصناعة والتجارة.

يقول ناصري خسرو: «ويصنع أهل طرابلس الورق الجميل مثل الورق السمرقندي، بل أحسن منه».

ويضيف قائلاً: «وتحصّل المكوس في هذه المدينة. فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والاندلس والمغرب العشر للسلطان، فيدفع منه أرزاق الجند. وللسلطان بها سفن تسافر الى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة».

ويلخص الرحّالة الحالة السياسية في طرابلس، بقوله: «وطرابلس تابعة لسلطان مصر. قيل وسبب ذلك انه في زمن ما أغار عليها جيش الروم، فحاربه جند سلطان مصر وقهروه، فرفع السلطان الخراج عنها، وأقام بها جيشاً من قبله، على رأسه قائد لحمايتها من العدو».

ولما غادر ناصري خسرو طرابلس، سار على شاطىء البحر ناحية الجنوب، فمر بقلعة تسمى القلمون. ثم بلغ مدينة جبيل، التي يحيط بها سور حصين شاهق الارتفاع، وحول مدينة جبيل النخيل. ويقول الرحالة: «وقد رأيت في يد غلام بها وردة حمراء وأخرى بيضاء ناضرة. وكان ذلك في اليوم الخامس من شباط».

ويقول ناصري خسرو، عن جبيل، إنها «مثلثة، تطل زاوية منها على البحر، وحولها النخيل وغيره من اشجار المناطق الحارة».

وبعد هذه الزيارة المقتضبة لجبيل، يستمر الرحالة في سيره نحو الجنوب، فيصل بيروت. والغريب، أن ناصري خسرو، لم يذكر، عن بيروت، سوى وصفه للطاق. ويقول: «ولم يبق هناك أبنية سوى الطاق».

ولا شك في صحة هذا القول، لأننا نعرف ان بيروت بعد ان خربها الزلزال الكبير، سنة ٥٥١م، لم يعن بها العناية التي تستحقها. ويبدو ان الموانىء ودور السلاح، التي انشئت على الشاطىء، لم تكن بيروت في عدادها. ويقول ناصري خسرو: «والوادي المجاور لهذه الناحية مملوءة بأعمدة الرخام، تيجانها وجذوعها».

ثم يتساءل: «وليس في هذه الجهة جبل حتى يقال بأن الحجارة والأعمدة جاءت منه».

ويصل الى صيدا، وكأنه يتنفس الصعداء حين يقول: «ثم بلغنا مدينة صيدا، وهي على شاطىء البحر أيضاً. يزرع فيها قصب السكر بوفرة، وبها قلعة حجرية محكمة ولها ثلاث بوابات، وفيها مسجد جمعة جميل يبعث في النفس هيبة تامة. وقد فرش كله بالحصير المنقوش».

ويعجب الرحالة بصيدا، فيقول: «وفي صيدا أسواق جميلة نظيفة. وقد ظننت حين رأيتها، إنما زينت لمقدم السلطان او لأن بشرى سعيدة أذيعت. فلما سألت، قيل لي هكذا عادة هذه المدينة دائماً. وفيها حدائق وأشجار منسقة حتى لتقول إن سلطاناً هاوياً غرسها. وفي كل من هذه الحدائق كشك».

ويجب ان نذكر ان صيدا، كانت الميناء الذي كان يصل دمشق بالعالم البحري الخارجي. كما كانت صيدا محطة لمناطق حوران. أما بالنسبة لهذه، فالأمر طبيعي. لكن ان تكون صيدا ميناء دمشق، فهذا الأمر يحتاج الى تفسير مقتضب، وهو ان جبال لبنان الغربية تعترض المرور بين بيروت ودمشق، نحو ثلاثة أشهر في السنة، بسبب سقوط الثلوج وتراكمها عليها في فصل الشتاء؛ وعندها ينقطع الاتصال نسبياً. أما طريق صيدا الى مرجعيون، ومن هناك الى دمشق وحوران أيضاً، فالأمر أيسر.

وقد أصبحت بيروت ميناء دمشق وما اليها، بعد بناء سكة الحديد، في أواخر القرن التاسع عشر، وإنشاء البور» في بيروت، في الوقت نفسه تقريباً.

ويقول ناصري خسرو إنه سار خمسة فراسخ، من صيدا حتى بلغ صور. والفرسخ يقدر بنحو ستة كيلومترات. فما الذي رآه في صور؟

يقول: «وصور ساحلية أيضاً. وقد بنيت على صخرة امتدت في الماء، بحيث ان الجزء الواقع على اليابس من قلعتها، لا يزيد على مئة ذراع والباقي في ماء البحر».

كانت صور في الازمنة القديمة، ومنذ زمن إنشائها، تقوم على جزيرة مفصولة عن البرّ، ولما جاء الاسكندر الى لبنان سنة ٣٣٢ ق.م. وحاصر صور، استعصت عليه، لأنها كانت تعتمد على صلتها بالبحر، وصعوبة مقاومة ذلك من البر. فطمر الاسكندر الجزء المائي، الذي كان يفصل الجزيرة عن البر، فوصل القسمين، وأصبحت صور، منذ ذلك الوقت، تبدو وكأنها مبنية على شبه جزيرة صخرية!

ويقول الرحالة: «وأسوار القلعة مبنية بالحجر المنحوت، وقد قدرت المدينة بألف ذراع في كل جهة. وفنادقها، مثل فنادق طرابلس، تتكون من خمس طبقات او ست. وكلها متلاصقة وفي كثير منها نافورات».

ويبدو ان الاسواق كانت تؤثر في صاحبنا. ولو أننا نتابع زيارة ناصري خسرو للقاهرة، لكنا رأينا مدى اهتمامه بالأسواق. وفي هذا الصدد، يقول عن صور: «وأسواها جميلة كثيرة الخيرات. وتعرف مدينة صور بين مدن الشام، بالثراء. والقاضي في صور اسمه ابن أبي عقيل، وهو رجل طيّب ثري».

ويضيف الرحالة قوله: «وقد بني على باب المدينة مشهد به كثير من السجاجيد والحصير والقناديل والثريات المذهبة والمفضضة».

ويختم وصفه لصور بقوله: «وتأتيها المياه من الجبل. وقد شيّد على بابها عقود حجرية يمر من فوقها الماء الى المدينة. وفي الجبل واد مقابل لها، إذا سار السائر فيه ثمانية عشر فرسخاً، أي مئة وعشرة كيلومترات نحو المشرق، بلغ دمشق».

ومن صور اتّجه ناصري خسرو الى عكا، متخذاً الطريق الساحلي. وله أوصاف جميلة دقيقة لأماكن في فلسطين، وخصوصاً القدس، ثم يذهب الى القاهرة.

٦ ـ ابن جبير ومعاصره

يجب ان نتذكر، عند الكلام على أحد كبار الرحالة العرب، وهو ابن جبير، أن المسرح السياسي في بلاد الشام بأجمعها، كان قد تغيّر. ففي سنة ١٠٩٩ للميلاد، كان الصليبيون قد احتلّوا القدس. وبعيد ذلك، كانت أساطيلهم وجيوشهم قد استولت على الموانئ الشامية، من انطاكية الى يافا. وكانوا قد أقاموا في بلاد الشام مملكة القدس، وثلاث امارات هي: الرها وانطاكية وطرابلس.

وفي الجهة المقابلة، كانت بلاد الشام ومصر، قد مرّت بتجارب سياسيّة خاصة. فالخلافة الفاطمية في مصر، قد أخذت تتأخر، سياسياً واقتصادياً؛ وسلطة الخلافة العباسية قد انحسرت عملياً عن شرق البحر المتوسط. وقامت مكانها دويلات السلاجقة والزنكيين. وكان نجم الأيوبيين في صعود.

جاء ابن جبير بلاد الشام سنة ١١٨٥ م، أي قبل معركة حطين بسنتين. وصاحبنا اندلسي، من مواليد بلنسية سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م. تفقّه على أبيه، ودرس الأدب على علماء عصره، فبلغ فيه الغاية.

وقد عمل ابن جبير كاتباً في بلاط صاحب غرناطة؛ ثم اعتزم أداء فريضة الحج، فأعانه سيده على ذلك. وانتقل من غرناطة الى سبتة في المغرب، حيث ركب مركباً للجنويين. ووصل، بعد ثلاثين يوماً، الى الاسكندرية، ومنها الى القاهرة، ثم الى الحجاز، بطريق موانى البحر الاحمر.

وبعد أداء الفريضة، انتقل الى الكوفة، وزار بغداد والموصل، وعاد بطريق حلب وحماة وحمص ودمشق وعكا. ومن هذه المدينة، أقلع في مركب افرنجي، الى صقليّة. وقد مرّ ابن جبير، في طريقه من دمشق الى عكا، بجنوب لبنان. كما أن السفينة، التي أبحر فيها من عكا، توقفت في صور. ومن هنا، كان لنا حظ الحصول على وصف جميل لهذه المدينة.

وتذكرة ابن جبير هي أخبار رحلته الأولى. ذلك أن الرجل، رحل مرتين الى المشرق. أمّا الواحدة، فقد كانت بُعيد معركة حطين، التي انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين، في سنة ١١٨٧ م. والأخيرة من رحلاته، حج فيها، وزار بيت المقدس، ثم تحوّل الى الاسكندرية. وأقام فيها يحدّث ويؤخذ عنه حتى وفاته سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م.

دوّن ابن جبير أخبار رحلته على شبه مذكرات يومية. وكان يستعمل فيها التقويم القمري مع السنة الهجرية، والتقويم الشمسي دون السنة. وكان ابن جبير صاحب ذوق أدبي رفيع وقلم بارع؛ لذلك جاءت أوصافه رائعة. وهو يفعل ذلك سواء في ذكر مناسك الحج أم صعوبات السفر أم وصف المشاهد الطبيعيّة.

وفي سيره من دمشق الى عكا، مر ابن جبير بمنطقة تبنين؛ فقال عنها: «ورحلنا من تبنين سحر يوم الاثنين، وطريقنا كله على ضياع متّصلة، وعمائر منتظمة، سكانها كلهم مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفيه... وذلك لأنهم يؤدون لهم نصف الغلّة، عند أوان ضمّها، ويدفعون جزية على كلّ رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك».

ويضيف ابن جبير: «ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل. رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع...».

وما ذكره ابن جبير لا ينطبق على جميع ما كان بأيدي الافرنج. إذ لا بد ان يقع، هنا أو هناك، ظلم على السكان. ولكن ابن جبير يروي ما شاهده، وهذا نقبله منه لكن تعميمه، قد يكون بحاجة الى التعديل.

المدينة اللبنانية الوحيدة، التي شاهدها ابن جبير، وأدرك الكثير من شؤونها، كانت صور. وهو يقابل صور بعكا؛ لأن المدينتين، كانتا بين الموانىء الكبرى في ذلك الوقت. فيقول: «صور أنظف من عكا سككاً وشوارع، وأهلها ألين في الكفر طبائع، وأجرى الى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع. فخلائقهم أشجع ومنازلهم أفسح وأوسع وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن. وعكة أكبر».

ويعجب ابن جبير بحصانة المدينة ومنعتها، فيقول في ذلك: «وأما حصانتها ومنعتها فأعجب ما يُحدَّث به. وذلك أنها راجعة الى بابين أحدهما في البرّ والآخر في البحر. والبحر يحيط بها إلا من جهة واحدة. فالباب الذي في البر يُفضَى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب وأربعة كلها في ستائر مشيّدة محيطة بالباب».

لكن باب البحر أعجب ابن جبير أكثر من الباب البري. فقال فيه: «وأمّا الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيّدين الى ميناء. وليس في البلاد البحرية أعجب منها وصفاً. فسور المدينة يحيط بها من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص. فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها. وتعترض بين البرجين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج».

وهذه السلسلة، التي كانت معروفة في عدد كبير من المدن البحرية، تمنع المراكب من الدخول او الخروج، إلا عند رفعها. ويضيف ابن جبير: «وعلى ذلك الباب حرّاس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم. فشأن هذه الميناء

عجيب في حسن الوضع والصفة. لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل الصغار، وإنما ترسو خارجها، والمراكب الصغار تدخل اليها. فالصورية أكمل وأجمل وأحفل».

ويبدو أن ميناء صور، كان قد بني على هذه الصفة، أيام ابن طولون، الذي كان حاكمًا لمصر وأكثر بلاد الشام، في القرن التاسع الميلادي؛ ولو أن العناية بالميناء، تعود إلى قبل ذلك.

لسنا ندري فيما إذا كان إبن جبير، قد سرّ بوصفه العرس الذي شهده في صور، وهو عرس للإفرنج. لكن الذي يهمنا، اننا حصلنا على هذه اللقطة الأدبية الطريفة.

يقول: «زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام قرب مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى، وهم من الإفرنج ، رجالاً ونساء. فقد اصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب المزامير وجميع الآلات اللهوية».

وخرجت العروس من بيتها، فقال ابن جبير، يصف المشهد:

«خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوي أرحامها. وهي في أبهى زيّ وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهّب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم. وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفّت بشبكة منسوجة. وعلى ركبتها مثل ذلك منتظم».

ومع أن ابن جبير، استعاذ بالله من الفتنة، فإنه تابع الوصف بدقة وأمانة. قال: «والعروس رافلة في حليها وحللها تمشى فتُرى في مشي الحمامة أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنة المناظر. وأمامها جلة من رجالها النصارى في افخر ملابسهم البهية، تسحب أذيالها خلفهم، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات، يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلي».

ويعود الرحالة الى الوصف، فيقول: «والآلات اللهوية قد تقدمتهم، والمسلمون والنصارى من النظار قد أعادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم، ولا ينكرون عليهم ذلك. فساروا حتى ادخلوها دار بعلها. وأقاموا ذلك في وليمة. قادنا اتفاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفي».

فلو أغمضنا أعيننا، واستذكرنا كلمات ابن جبير، لتمكنا من تصور هذه الحركات، التي دبجتها يراعة كاتبنا. فلو كنا نتمتع بموهبة الرسم، لوجدنا ما يعيننا على رسم لوحة فنية.

وإن كنا نأسف لشيء فهو أن ابن جبير، لم يتنقل في لبنان، فيصف لنا مشاهده الطبيعية وآثاره الجميلة، على نحو ما فعل، بالنسبة للعراق وسوريا والحجاز ومصر.

على أنه من حسن حظنا أن رحالة اسبانياً آخر جاء بلاد الشام قبيل ابن جبير بنحو عشر سنوات. هذا الرحالة، هو بنامين التطيلي من سرقوسة، حيث بدأ أسفاره،

فانتقل الى ايطاليا وبلاد اليونان والقسطنطينية وهبط انطاكية. ومن هذه المدينة، سار على الساحل الشامي الى عكا، ثم اتجه الى نابلس فالقدس. ولسنا معنيين هنا بما تبقى من حلته. لذلك فإننا سنكتفي بمرافقته على الساحل اللبناني.

لقد نقل بنيامين قصصًا وأخباراً غريبة، سمعها من الناس، من دون ان يرف له جفن، لكنه عندما يتحدث عن الامور الاقتصادية تجارة وصناعة وزراعة ومواصلات فانه يكون دقيقاً. فمن النوع الاول، ما رواه عن شيخ الجبل، مما سمعه من الناس في اللاذقية. ولكنه عندما يصل الى طرابلس، ويسميها طرابلس الشام، يذكر فيما يذكر، الزلزال الذي أصاب سوريا قبل مجيئه بمدة قصيرة، ودمّر طرابلس وأدى الى مقتل الالوف من سكانها. ويقول، بالمناسبة، إن هذا الزلزال قتل من أهل فلسطين عشرين الفاً.

ويقول بنيامين، إنه سار يوماً واحداً، من طرابلس حتى وصل الى جبيل. ويقول عن جبيل، إن المجلس القائم على شؤونها، يتكون من سبعة جنويين، والرئاسة بينهم دائما لواحد من أسرة امبراكو. وسبب هذا الوضع هو أن وليم امبراكو الجنوي، عهدت اليه مدينة جنوا بقيادة الاسطول، الذي أرسلته المدينة التجارية الكبيرة الى بلاد الشام، ليكون في عون الافرنج الصليبيين.

وقد احتل الاسطول جبيل سنة ١١٠٩ م، لذلك اقطعت جبيل الى وليم امبراكو، القائد الحبري؛ واحتفظ خلفاوه بهذه الزعامة بعده. ولما جاء بنيامين الى المدنية كان وليم امبراكو، الحفيد، هو الرئيس. أما الاعضاء الستة الآخرون، فكانوا ممن تنتدبهم جنوا لادارة المدنية اللبنانية.

وينتقل بنيامين بعد ذلك، الى بيروت التي لم تؤثر كثيرا فيه. لكن صيدا، كانت أبعد أثراً في نفسه. فقد قال عنها، إنها مدينة عظيمة حقا. وهنا يشير الى العداء المستحكم بين صيدا وبين جماعة من السكان، يقيمون في المناطق الجبلية الداخلية. ويسميهم الدروز. لكن الرحالة يروي عنهم ما سمعه محليًا. ولعل الشيء الوحيد اذي ذكره وكان صحيحا، انهم يعتقدون بالتقمص.

ويزور الرحالة صور، التي يقول عنها، إنها بلدة جميلة جدا. ويحدثنا عن الميناء، الذي يحرسه برجان، تصل بينهما سلسلة حديدية تسحب ليلا؛ وبذلك، تحول دون اللصوص وسرقة المراكب او القوارب. ويضيف قائلا:

«والتجارة والصناعة رائجتان في صور. إذ أن المدينة فيها المهرة من العاملين بصنع الزجاج الصوري المشهور. وعلى مقربة من صور تقوم صناعة الصباغة بالارجوان. والصناعتان قديمتان في المدينة. وصور الآن مشهورة بالتجارة، وهي من المدن القليلة التي تملك تجارها جميع السفن التابعة للمدينة، فضلاً عن أنهم يملكون سفنًا كثيرة تنتقل متاجرة في أنحاء البحر المتوسط».

ومن صور، ينتقل بنايمن الى عكا، ومنها الى نابلس فالقدس فدمشق فبغداد. وعاد من بغداد وغرب فارس الى مصر، بطريق جنوب بلاد العرب. ثم عاد الى بلاده اسبانيا.

قد يبدو غريباً ان يذكر اسم المنيطرة، في مناسبة الحديث عن لبنان، في كتابات الآخرين. لكن المنيطرة كانت، في القرون الوسطى، مركزًا اقطاعيًا واستراتيجيًا هامًا، بالنسبة الي جرود جبيل. والخبر الذي نورده هنا منقول عن الفارس العربي، الامير اسامة بن منقذ، صاحب كتاب الاعتبار.

وأسامة بن منقذ اسم معروف، لذلك لن نتوقف عند التعريف به. وكل ما ننقله الآن خبر أورده عن الطب الافرنجي. قال: «طلب صاحب المنيطرة الافرنجي من عمي ان ينفذ له طبيبا يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل اليه عمي طبيبا عربيا نصرانيًا اسمه ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد. فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى».

فروى الطبيب ثابت، على قول ابن منقذ:

«احضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة، وامرأة قد لحقها نشاف. فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وأصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب افرنجي فقال للفارس: أيما أحب اليك تعيش برجل واحدة ام تموت برجلين. فكان جواب الفارس أنه يعيش برجل واحدة».

ويستمر اسامة بن منقذ في روايته، فيقول:

«فطلب فارساً قوياً وفأساً قاطعاً، فحضر الاثنان. وأنا حاضر فحطّ ساقه على قرمة خشب وأمر الفارس ان يضرب الرجل ضربة واحدة ليقطعها. فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت، فضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات لساعته».

ويقول ابن منقذ، على رواية ثابت:

«إن الطبيب الافرنجي نظر الى المرأة وقال ان في رأسها شيطانًا. وطلب أن يحلق شعر رأسها، وعاد فسمح لها بأكل الثوم والخردل، فزاد بها النشاف. فأخذ الموسى وشق رأسها وسلخ وسطه حتى كشف العظم وحكه بشدة، فماتت في وقتها».

وينهي اسامة رواية ثابت بقوله:

«وسأل ثابت هؤلاء القوم هل بقي لهم اليه حاجة. فلما قالوا لا، قال: فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أعرفه».

٧ ـ وليم الصوري ومعاصروه

يلاحظ الذي يُعنى بما كتب عن لبنان والأقطار المجاورة له في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ان الكتّاب والرحّالة أخذوا ينظرون الى المنطقة نظرة شاملة، بدل النظرة الجزئية السابقة. وثمة أمر آخر يجدر الانتباه له، وهو أن الأمور العادية، الخارجة عن طقوس الزيارات الدينية، أصبحت موضع اهتمام الكتّاب والزوار. فهناك أمور تتعلق بطبيعة البلاد، وثمة وصف للانتاج الزراعي أو الصناعي.

ولعل أحد اسباب هذا التطور أو التبدل، هو أن زوار هذين القرنين، أي الثاني عشر والثالث عشر، كانوا هم أنفسهم أكثر التصاقاً بالطبيعة من سابقيهم، أو لعلهم كانوا أوسع أفقاً فكرياً ممن جاء البلاد قبلهم. ومن هنا تنوع اهتمامهم؛ وبدا ذلك فيما خلفوه.

ومن هذا النوع من الكتّاب وليم الصوري، رئيس أساقفة صور. فقد وضع كتاباً في سنة ١١٨٣ م سماه: «تاريخ الصليبيين». والمؤلف لا يقدم لنا معلومات ذات قيمة، بالنسبة لعدد من الرحالة حتى من السابقين. هذا بقطع النظر عن اللاحقين. ومع ذلك، فوصفه لبلاد الشام جيد؛ وتعود جودته الى النظرة. إذ إن وليم من الأوائل الذين نظروا الى البلاد النظرة الشاملة، قبل ان يتجه الى التفاصيل والجزئيات. فبلاد الشام عنده، وهو يسميها سوريا، تمتد من أعالي دجلة الى مصر، ومن كيليكيا الى البحر الاحمر، وبعد ذلك يُعنى بتقسيمها الى مناطق أو أجزاء.

وهذا التقسيم، هو مزيج من المناطق الطبيعية والأقسام الادارية. إذ ان وليم الصوري، يذكر الجزيرة الفراتية، وسوريا الشمالية، وسوريا الداخلية، ولبنان أي الجبال والساحل اللبناني والولايتين العربيتين: حوران وشرقي الاردن، وأدوم، والأقضية الثلاثة التي تنقسم اليها فلسطين.

وعند الاشارة الى أقسام فلسطين الادارية، يقول إن هذه الاجزاء الثلاثة، كانت مراكز الادارة فيها، هي القدس وقيسارية وبيسان. وهذا التقسيم، فيه التاريخ الروماني والبزنطي، كما أنه يحوي التوزيع الاداري على أساس الأسقفيات، التي عرفت بعد ذلك، والذي عاد الى البلاد أيام الصليبيين.

وفي سنة ١١٨٥ م، أي بعد ان كتب وليم كتابه بسنتين، زار المنطقة فوكاس، وهو راهب كريتي، وقد ترك وصفاً مختصراً للبلاد. وأسلوب فوكاس رائع، وصوره كثيرة

الألوان متناسبتها. وهو، إذ يقدم كتابه الى القراء، يتساءل، ما الغاية من هذا الكتاب؟

ويجيب: «إن اولئك الاشخاص الذين لم يتح لهم ان يمتعوا ناظريهم بمرأى هذه الاماكن البالغة البهاء، ومع ذلك فهم يقعون على ذكرها كثيراً، سيفيدون من كتابي، على ما أظن، أكثر بكثير مما قد يفيدون ممن يسمعونهم دون ان يحددوا كلامهم».

ويضيف فوكاس قائلاً: «وأحسب ان الكتاب يجب أن يمنح حتى أولئك الذين شاهدوا تلك الأماكن متعة ناتجة من معرفة الشيء الذي يتحدث عنه كتابي».

ولعلّ الخاتمة، التي أنهى بها فوكاس كتابه، تظهر مدى العناية التي بذلها في الكتاب. فهو يقول: «فإما وجد القارىء فيما كتبت فائدة، فإنني أحسب أنني جوزيت خير الجزاء عما بذلت من جهد، وإلا فليعد ابني هذا إليّ، فإن صراخه يعيد الى نفسي ذكريات عذبة عن الأماكن المقدسة وغيرها التي زرتها، وهذه الذكريات تبعث النشوة في خيالي».

ويصف فوكاس جبل لبنان، فيقول:

«إن جبل لبنان جميل جداً ومشهور جداً وعظيم جداً، يكسوه رداء من الثلج، وتنحدر ذيول منه على جوانبه. تكثر في سفوحه أشجار الارز والصنوبر والسرو، وتزيّنه الاشجار المثمرة من مختلف الأنواع».

ويقول فوكاس، في وصف ينابيع الماء فيه:

«تنبثق من أوديته وكهوفه أنهار تسرع في جريانها نحو البحر على شكل يخطف الأبصار».

ويقول أيضاً: «وتقوم طرابلس عند أقدام الجبل؛ وهي صغيرة جداً من حيث المساحة، وقد بنيت على رأس المرتفع الذي يخرج من البحر، ومما يدعو الى الإكبار الأسوار المنيعة التي تدور بها، وجمال أبنيتها».

ويتوقف فوكاس بعض الوقت عند كل من الموانىء اللبنانية، ليلقي عليها نظرته، وليستمتع بها، ثم يختصر وصفها في عبارات قصيرة، لكنها معبّرة. فجبيل جميلة، لكن بيروت: «كبيرة كثيرة السكان، تحيط بها الأرباض الواسعة والحدائق النضرة».

وينتقل ليتحدث عن ميناء بيروت، فيقول: «ليس للمدينة ميناء طبيعي، لكن الذي بني حولها هو عمل فني رائع. فقد صنعها الفن هلالاً واحتضنتها المدينة عاطفة عليها».

ويبدو أنه كان لبيروت، كما كان لكل مدينة ساحلية، برجان كبيران في نهايتها؛ في كل منهما أصل لسلسلة ضخمة، كانت تسحب ليلاً، لتسد السبيل على من يريد أن يدخل الميناء، معتدياً أو لصاً.

ويلي بيروت، على الساحل، مدينة صيدا، ذات الميناءين التوأمين. الواحد في الداخل، والثاني خارج المدينة. ويذكرنا فوكاس بأن هذين الميناءين، كانا قديمين؛ وأن

المؤرخ تاتيوس، قد وصفهما وصفاً دقيقاً، في قصته المسماة: «غرام كليتوفون ولوسيّي».

ولكن الذي لم يتنبه له فوكاس، هو أن الميناءين القديمين طرأ عليهما تبدل كبير، بين الوقت الذي وضع فيه تاتيوس قصته، والزمن الذي كان فيه فوكاس في صيدا. لكن المهم، هو أن فوكاس، يود ان يشير الى أن صيدا حافظت على أهميتها، طيلة هذه الفترة.

وتبهر صور فوكاس، كما بهرت ناصري خسرو، في القرن السابق. فيقول عنها، إنها تفوق في جمالها كل مدينة في فينيقيا.

ويضيف: «وهي مبنية على شبه جزيرة واسعة، وأبنيتها أجمل وأفخم من أبنية طرابلس».

ويعجبه ميناؤها الخارجي، الذي يشبهه بميناء بيروت، لكنه، حسب قوله: «أوسع وأجمل وأبراجه أعلى من أبراج ذاك».

ويحدثنا عن نبع، على مقربة من صور. وبعد أن يروي عنه قصصاً منتزعة من أساطير المنطقة الوثنية والدينية، يقول: «إن النظر اليه يملأ القلب سروراً، خاصة وقد أقيم فوقه بناء جميل وفسقية تنفر منها المياه، التي تجري في أقنية الى المرج المحيط به».

وقد تسلق فوكاس البناء الى أعلى البرج القائم فوقه، فوقعت عيناه على رقعة واسعة من الارض تكسوها أوراق النباتات الخضراء.

وينحدر بعد ذلك جنوباً، متتبعاً الساحل الى الناقورة فعكّا، التي يقول عنها، إنها تتفوق، في حجمها وعدد سكانها، على كل مدينة أخرى. ولا غرابة في ذلك، فقد كانت يومها الميناء الأول بالنسبة للفرنجة والمملكة اللاتينية في فلسطين.

ومع أننا نتحدث عن الموانىء اللبنانية، فإننا ننقل هنا، عن ابن جبير، وصفه لعكا، التي أقام فيها بعض الوقت، وهو في طريق عودته الى الاندلس، قال يصف عكا:

«وهي قاعدة مدن الافرنج ، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام. مرفأ كل سفينة والمشبهة بعظمتها بالقسطنطينية. مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق. سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطىء الاقدام».

وما دمنا نتحدث عن كتّاب القرن الثاني عشر الميلادي ورحاليه، فقد يكون من المناسب، أن نضم الى وليم الصوري وفوكاس الكريتي، ثيودوريتش الألماني. ويبدو أن هذا، كان أسقف مدينة ورتزبرغ، وأن زيارته لبلاد الشام، كانت حوالى سنة ١١٧٢ م. ومن الضروري، أن نذكّر أنفسنا دوماً، بأن أكثر هؤلاء الرحالين كانوا حجّاجاً وأنهم كانوا يعنون بالأراضي المقدسة أولاً وقبل كل شيء.

ومعنى هذا، أن أي شيء يكتب عن بقية بلاد الشام، أو أي جزء من المشرق، إنما يأتي مصادفة. وقد يكون سبب مثل هذه الكتابة، الطريق الذي اتبعه الحاج أو الرحالة.

ونود أن نستبق الأمور بعض الشيء، فنذكّر بأن هذا الأمر تبدل فيما بعد، ذلك بأن عدداً كبيراً من الرحالين، بدءاً من القرن الرابع عشر الميلادي، كانوا عيوناً لبعض أهل الحكم في الغرب، جاءوا المشرق، ليتعرفوا إلى أحواله، ولينقلوا أخباره الى القائمين على الشؤون العامة في اوروبا.

لكن ثيودوريتش هذا، كان، بالنسبة الى فلسطين، أول من نظم دراستها الجغرافية. وطريق صاحبنا في فلسطين واضحة لكنه في آخر كتابه، يضيف بضع صفحات، يتناول فيها دمشق وفينيقيا. فيقول ان صور، هي المدينة الرئيسة، في فينيقيا. ويعدد المدن الأخرى الساحلية، فيأتي على ذكر طرابلس، وجبيل التي توجد فيها قلعة حصينة. ويتوقف عند بيروت، فيقول، في وصفها: «بيروت مدينة غنيّة وحصينة وكبيرة ومزدحمة بالسكان».

وصيدا، في رأي رحالتنا، مدينة شهيرة. إذ إنها موطن ديدو، التي يرجع اليها الفضل في تأسيس مدينة قرطاجة في الشمال الافريقي. وينتقل ثيودوريتش الى صور، فيقول فيها: «وتقوم صور على الشاطىء، وتتفوق على غيرها من المدن بمتانة أسوارها وقوة أبراجها».

ويقول أيضاً: «يكاد البحر يدور بثلاث جهات منها، فيما نجد الجهة الرابعة محصنة بطريقة قوية جداً. إذ تمتد على شكل مواز لأسوارها القوية الخنادق والستارات والأبراج والفرجات، وليس بها، من جهة البر، سوى مدخلين، محروسين كل ببوابة رباعية».

ولصور، بحسب رواية رحالتنا ثودوريتش، ميناءان، الميناء الداخلي، ويستعمل لسفن المدينة، أما الميناء الخارجي، فهو للسفن الاجنبية. وللميناء سلسلة تمتد بين برجين، تسحب، عند الحاجة، فتقفل الميناء.

ويبدو أن سلسلة الميناء هذه، لم تكن توضع في المدن لمجرد الحراسة فحسب، بل لعلّ أحد أغراضها، هو منع السفينة الأجنبية من الخروج من الميناء، قبل ان تدفع ما يترتب عليها من الرسوم.

وبهذه المناسبة، ورد في بعض الكتب الصينية، التي تحدثت عن موانىء الصين، التي كانت تستقبل السفن الاجنبية، ان هذه السفن، كان يؤخذ منها الشراع والمرساة (الياطر)، لمنعها من السفر، قبل دفع الرسوم المتوجبة عليها.

ويذكرنا ثيودوريتش، بأن صور كانت مركزاً لأسقفية. وهذا، ولا شك، واضح من اشارتنا، قبلاً، الى وليم الصوري، على أنه كان أسقف صور. وثيودوريتش وفوكاس ووليم متعاصرون.

في سنة ١٠٩٩ م، احتل الصليبيون بيت المقدس، بعد ان كانوا قد استولوا على انطاكية والرها (ادسّا). وتوسعوا، خلال العقود الثلاثة التالية، في بلاد الشام، وأنشأوا ثلاث امارات في الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة القدس اللاتينية. ففي المئة سنة، أو ما يقرب من ذلك، التي مرت على وجود هؤلاء الفرنجة في بلاد الشام، زاد عدد الحجاج المسيحيين، الذين قصدوا البلاد المقدسة. وكثيرون منهم دوّنوا أخبار زياراتهم وحجّهم. ولكن القلة منهم، خرجوا عن وصف الكنائس وأماكن العبادة والطقوس المتعلقة بالأعياد الدينية.

جاء في الفترة نفسها، عدد من الرحالين العرب الى بلاد الشام، من جهات مختلفة. ولعلّ أبرزهم، هو ابن جبير الاندلسي. وابن جبير، تحدث بإسهاب عن الحج وشعائره ومكة المكرمة والمدينة المنورة؛ لكنه وصف الأماكن الأخرى، التي زارها وصفاً دقيقاً.

ومن هذه الأخبار والمعلومات والأوصاف، أمكن الحصول على الكثير من لفتات السائح عن لبنان، ولكن أكثر ما رُوي وذُكر، كان يتعلق بالموانىء والمدن الساحلية الواقعة على الطريق. أما الداخل، فلم يبرز إلا لماماً، عند الأجانب. وبعض هؤلاء الحجاج؛ حتى لما كتب عن فلسطين، لم يذكر كل شيء. فهناك واحد منهم يقول، إنه تجنب الاشارة الى عشرات من الكنائس وأماكن العبادة، التي تخص الفئات الدينية الصغيرة، لكثرتها. فذكرها جميعاً، يجعل ظل الكتاب ثقيلاً.

وفي سنة ١١٨٧ م، انتصر صلاح الدين على الصليبيين في معركة حطين. واسترد القدس، من حكامها، في السنة عينها. والذي نلاحظه، في القرن الثالث عشر الميلادي والقرن الذي يليه، هو تبدل لهجة الكتّاب الأوروبيين، كما سنرى ذلك لاحقاً.

٨ ـ يعقوب دي فتري وبركارت وجماعتهما

في سنة ١١٨٧ م، خرج الصليبيون من القدس، ومن تلك السنة حتى خروجهم النهائي من بلاد الشام سنة ١٢٩١ م، كانت عكا عاصمة ما ظل اسمه «مملكة القدس اللاتينية»، وأضيف اليها غالباً، «في عكا». وقد دارت بعد حطين معارك حول عكا وغيرها، لكن لم يكن في أي منها، بعد استرداد القدس، معركة فاصلة.

وأخيراً، توصل صلاح الدين الأيوبي وريكاردوس، ملك انكلترا، الى توقيع صلح الرملة، سنة ١١٩٢ م. وتوفي صلاح الدين بعد ذلك بفترة وجيزة. وظلت الأمور تتأرجح، حتى قيام دولة المماليك، سنة ١٢٥٠ م. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، تم للملك الظاهر بيبرس، وللناصر قلاوون، وللأشرف خليل ان يضعوا حداً للوجود الفرنجي، في المشرق العربي.

كان من الضروري ذكر هذه الأمور، كي نتمكن من استحضار خلفية، ولو بسيطة، للرحالين، الذين سنتحدث عنهم، وعما وضعوه، مما له صلة بلبنان.

من الطبيعي، أن يكون موقف الرحالة الأوروبيين، حجّاجاً كانوا أم تجاراً، في القرن الثالث عشر الميلادي، مختلفاً عما كان عليه في القرن السابق. لذلك، فهناك أمور كثيرة، كانت تؤثر في تطوير المواقف وتبديلها. فإذا أخذنا الوضع السياسي، بشكل عام، عند الفريقين، نلاحظ أن الجبهة العربية الاسلامية، كانت تمر بها فترات الجبهة الموحدة القوية، أيام صلاح الدين مثلاً، ثم في أوائل عهد المماليك. فضلاً عن ذلك، فقد أعاد انتصار المشارقة في حطين، ثم في عين جالوت، نوعاً من الثقة بالنفس اليهم، وهو ما كانوا قد فقدوه من قبل.

في مقابل ذلك، كانت الجبهة الفرنجية مضعضعة مضطربة. نتيجة لذلك، غيّرت بعض الحملات طريقها، فبدلاً من الوصول الى البلاد المقدسة، احتلت القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م، وظهرت الرغبة التجارية والاقتصادية واضحة في تصرف المؤسسات والقوى الفرنجية. ومن ثم لم تستطع هذه ان تصمد أمام القوى النشيطة الحديثة الصاعدة في المنطقة.

وحري بنا أن نذكر، أن نحو قرن من الاختلاط التجاري والثقافي والاجتماعي، كان قد مرّ على الجماعة الفرنجية، منذ ان وصلت بلاد الشام. وكان من أثر ذلك تبدّل،

ولو محدودًا، في النظرة والزاوية، نحو أهل البلاد. كما ان أهل البلاد، تبدّلت نظرتهم، بعض الشيء، بالنسبة للأجانب.

وكان من نتيجة هذا الاختلاط، أن أصبح الفرنجة، ونقصد المؤلفين والكتّاب والرحالين، أوسع أفقاً من سابقيهم. وكذلك بدت عندهم الرغبة في تفهم الأجواء الجديدة، التي سيعيشون فيها. ولعلّ مما يدل على ذلك، أن أكثر من واحد من رحالة هذا القرن، كانوا يعنون بالبلاد على أنها وحدة جغرافية طبيعية.

ولا شك بأن هذا الأمر، ينطبق على العموم، في أكثر الحالات. فالذين أرادوا أن يقصروا كتاباتهم على فلسطين، نظروا الى البلاد على أنها وحدة، وكتبوا عنها كذلك. والذين كانت بلاد الشام بأجمعها موضع اهتمامهم، تعاملوا معها على أنها وحدة.

على أن الأمر كان أبعد من مجرد الاهتمام بطبيعة البلاد بالذات، أو جغرافيتها، كما نقول. كان هناك اهتمام بالجماعات، التي كانت تقطن البلاد. فيقعوب يظهر اهتماماً كبيراً، للتعرف إلى الطوائف المسيحية المختلفة.

وكان هناك تبدل في موقف هؤلاء الرحالين، أو بعضهم على الأقل، من الاسلام. فنحن نجد، أن تتمار يحاول التعرّف الى الإسلام، ويضع ترجمة مختصرة للرسول. وهناك غيره. صحيح أننا نعثر على جماعة لم يفهموا الاسلام فهماً صحيحاً؛ لكن هذا من طبيعة الامور. فالمحاولة كانت في بدئها. وكان لا بد من مرور عشرات السنين، أو حتى المئات منها، قبل أن يتمكن الأجنبي من فهم هذه الأمور بالدقة الكافية.

يتضح، من هذه العجالة، أن الأمور تبدلت في هذه الفترة. وسنرى، أن تبدلاً آخر، سيدخل على أولئك الأجانب الذين سيكتبون عن لبنان او بلاد الشام، من خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. هناك نجد أن بواعث الرحلة تتبدل، ومن ثم، فإن وسائل التعرف وطرقها تتبدل أيضاً.

أما وقد أشرنا الى التغييرات ودوافعها، فلا بد من التعرف الى نفر من هؤلاء الرحالين. وأول سائح اوروبي، من القرن الثالث عشر الميلادي وصلتنا أخباره، هو ولبرند. فقد زار سوريا ولبنان، وحج الى القدس، سنة ١٢١١ م. ومع ان ولبرند وصف الموانىء الشامية، فإن ما ذكره كان مختصراً جداً، بحيث أننا لا نفيد من أقواله جديداً.

وكان الزائر التالي هو تتمار، الذي زار المنطقة سنة ١٢١٧ م، ابّان قيام هدنة بين المسلمين والفرنجة. يحج تتمار، ويصف القدس وصفاً مجتزءًا، ويقول ان الذين سبقوه، قد أفاضوا بما فيه الكفاية. لذلك فإنه لا يريد ان يكرر القول على غير جدوى.

ولكن تتمار، عوّض عن ذلك، في وصفه لأماكن أخرى. فهو يعطينا وصفاً جميلاً لدمشق، مثلاً. ووصفه غني بالصور والألوان. فقد شبهها بالجنة، لكثرة ما يحيط بها من الحدائق الغناء، ذات الأشجار المنوعة والأزاهير المتعددة الألوان، التي تسرح فيها العنادل وتغرّد؛ حتى في فصل الخريف.

وهذا الكلام يذكرنا، بوصف ابن جبير لدمشق، الذي اعتبرها تُسامتُ الجنة. ولعل ما يجب ان يذكر لتتمار، ولو أنه يبعدنا عن لبنان، هو أنه مر بالبتراء سنة ١٢١٧ م، ووصفها وصفاً مجملاً، كان الأخير من نوعه، لمدة طويلة.

ويبدو أن موقع البتراء، المحاط بالجبال، حجبها عن الرحالة مدة طويلة. لذلك، كانت البتراء، خلال ستة قرون، اسماً في الذاكرة، بالنسبة للعالم العربي. حتى زارها لدوغ بركهارت سنة ١٨١٢ م، فكانت زيارته لها اكتشافاً جديداً لعاصمة الأنباط.

ومن الرحالة أيضاً وليم الصوري، الذي كان مؤرخ الصليبيين، في القرن الثاني عشر الميلادي. وكذلك كان ثمة مؤرخ للقرن الثالث عشر الميلادي هو يعقوب دي فتري، أسقف عكا. وقد سيم سنة ١٢١٧ م. وكان، يومها، قد أقام عشر سنوات في البلاد المشرقية.

وكتاب يعقوب دي فتري يحتوي على معلومات جغرافية مفيدة جداً. كما أن معلوماته، عن الطوائف المسيحية المحلية، دقيقة. لكن ما كتبه عن الاسلام، لا يدل على فهم صحيح للأمور.

وينطبق، هذا الذي ذكرناه عن يعقوب والاسلام، على عدد كبير من الأمور التي يدونها في كتابه. ففيما يتحدث عن أهل البلاد، نجده يُدخل في حديثه قصصاً خرافية عن أقزام أو رجال ذوي أذناب أو قرون.

ومثل ذلك يقال عن أمور أخرى. فبينما يخبرنا عن نبع ماء قرب مدينة ما، تراه ينتقل فجأة، فيروي اعتقادات العامة بشأن ارتباط أنواع من المياه بالعقم والحمل. ومع ذلك، فإن ملاحظاته حول الأرض والنبات والمزروعات، بالنسبة للمنطقة، غاية في الدقة.

ويبدو أن تدريب يعقوب دي فتري وثقافته عمادهما اللاهوت، بحكم منصبه، والقانون على ما يظهر من كتابه. ذلك أن أفضل أجزائه، هي التي يصف فيها تنظيم الوحدات السياسية، التي أقامها الصليبيون في بلاد الشام، أي المملكة اللاتينية والامارات الثلاث.

وقد وصف يعقوب دي فتري ثلاثين مدينة، تقع على الساحل الشامي، بين انطاكية ومصر. ولكن ليس في المعلومات التي يعطينا إياها جديد.

وثمة من رحالي القرن الثالث عشر الميلادي بركارت، وهو راهب دومينيكي الماني، كتب عن الأراضي المقدسة وجوارها سنة ١٢٨٣ م. وكان قد أقام في القدس وعكا، وتجول في البلاد. لذلك، جاءت أخباره نتيجة تجربة شخصية.

وبركارت هذا، كان من أول الرحالين الذين عُنوا، بشكل خاص، بالآثار. وقد اشتهر بحملته على اللاتين، الاوروبيين المقيمين في البلاد المقدسة والامارات الفرنجية في المشرق.

وثمة أمر آخر حري بالذكر، بالنسبة لهذا الراهب الدومينيكي، وهو أنه من أوائل الذين وصفوا الجماعة الاسلامية وعاداتها وصفاً دقيقاً.

ويجدر بنا ان نذكر، ان الادريسي وصاحب «تقويم البلدان»، أوردا الكثير عن المدن اللبنانية. فالادريسي يقول، عن بيروت، إنها: «مدينة على ضفة البحر ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد جيد، يستخرج منه الكثير ويحمل إلى بلاد الشام. وبها غيضة أشجار صنوبر مما يلي جنوبها تتصل إلى الجبل».

ويقول أبو الفداء، صاحب «تقويم البلدان»، عن بيروت وجبيل، ما يلي: «وبيروت على ساحل البحر لها بساتين وهي خصبة. وهي فرضة دمشق... وبينها وبين مدينة جبيل ثمانية عشر ميلاً. وجبيل لها ميناء وسوق وجامع».

ويعنى أبو الفداء بالطرق. فهو يتحدث عن الطريق من صيدا إلى دمشق، كما عرف في أيامه، أي في القرن الثالث عشر للميلاد، فيقول انه كان يتجه من صيدا إلى مشغرة إلى كامد (اللوز) وعين الجر (عنجر) في البقاع، ثم إلى دمشق.

وقد وصف أبو الفدا مشغرة بقوله: «ومن مدينة صيدا إلى مشغرة وهي من أنزه بلدان تلك الناحية، فواديها في نهاية الحسن بالأشجار والأنهار». ووصف أبي الفداء لطرابلس، لا يختلف كثيراً عما وصلنا، وذكرناه من قبل. لكنه يذكر قصب السكر ، يزرع فيها. فهو يقول: ولطرابلس بساتين وأشجار كثيرة ويزرع بها قصب السكر».

ويذكر ارتباط طرابلس ببعلبك. وهذه، كما يقول: «لها قلعة حصينة عظيمة البناء وهي ذات أشجار وأنهار وأعين. وهي كثيرة الخير، كثيرة المنارة».

ولدينا وصف من بركارت الدومينيكي لصور، جاء فيه قوله:

«دورة سور المدينة أكبر من دورة سور عكا. وقد أقمت فيها مرة عشرة أيام. والماء في جهاتها كثير، وأهل صور يوزعون المياه على كل أجزاء السهل المحيط بالمدينة. فيروون البساتين التي ينمو فيها الكرم وقصب السكر، وهو كثير. وينال صاحب صور منه رسوماً كثيرة».

ونورد هنا وصف الرحالة نفسه لعكا، للمقارنة بين المدينتين. يقول الكاتب: «عكا مدينة حصينة بأسوارها وأبراجها وخنادقها وبقية أساليب التحصين المتينة الى درجة كبيرة. يحيط بعكا من الشرق سهل متسع خصب جداً، سواء في ذلك أرضه المفتلحة ومروجه وكرومه وبساتينه التي تنمو فيها أنواع مختلفة من الفاكهة».

ويصف داخل المدينة فيقول: «وفي داخل المدينة أمكنة كثيرة محصنة وقلاع وحصون تخص الفرق المختلفة كفرقة المستشفى أو فرقة الهيكلين أو جماعة التوتون. ولها ميناء كبير جداً في جنوبها تستطيع السفن ان ترسو فيه».

كان صلح الرملة، الذي عقد بين صلاح الدين وريكاردوس، إيذاناً بتنشيط التبادل التجاري، بين الموانىء الشامية والداخل. ففي واقع الأمر، أنه لما عقد الصلح، نودي

في الناس، أن من شاء، من الفريقين ـ العربي والفرنجي ـ أن يذهب الى بلاد الآخر، فليفعل.

وهذا لا يعني، فيما أعتقد، أن الحروب توقفت بين الفريقين نهائياً. لكن على ما يبدو، لم يكن ثمة ما يمنع تبادل القوافل والاتجار، بين الاجزاء التي لا تكون خطوط معارك او ميدان قتال.

لكن الأمر المهم، الذي يلاحظه المرء، هو أن الموانىء الشامية ـ السورية واللبنانية والفلسطينية ـ كانت دوماً محط أنظار التجار. وهم الذين كانوا يحركون القوى المختلفة، لتأمين مصالحهم. وهذا يبدو لنا أوضح في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، أي بعد القضاء على الصليبيين، وإخراجهم من البلاد.

وبعد احتلال المماليك للبلاد التي كانت تحت إمرة الفرنجة، خشوا ان يعيد هؤلاء الكرة، فيعودوا لاحتلال الموانىء، خصوصاً أن قبرص، كانت ما تزال تحت حكم من تبقى من الصليبيين. فدمر سلاطين المماليك أكثر الموانىء،وهدموا أسوارها وأبراجها. وهذا أمر سرى على أكثر المدن الساحلية.

وتدخل التجار الاوروبيون، إثر ذلك، تدخلاً اجمالياً، باعتبار أنهم يمثلون جزءاً من البندقية أو جنوا أو فلورنسة أو غيرها. وقامت المدينة، المعنية بالأمر، بالتقرب من السلاطين. ورأى هؤلاء الفائدة من التجارة، فعقدوا اتفاقات مع المدن؛ كانت فيها الفائدة المشتركة للفريقين، كما كانت مفيدة للتاجرين العربي والشرقي الى أقصى الحدود التجارية، ومفيدة للتاجر الاوروبي الى أبعد أسواقه.

٩ ـ ابن بطوطة وأنداده

شُغل عدد من رجال السياسة والحرب، في القرن الرابع عشر الميلادي في أوروبة، في البحث عن الأسباب التي أدّت الى زوال الحكم الصليبي في المشرق. وشُغل عدد آخر في وضع برامج لحملات فرنجية جديدة. واقتضى الاهتمامان، ان يحاول أصحاب الأقلام وأهل الفكر، أن يتعرفوا الى الأوضاع التي كانت سائدة في المشرق العربي، لعلّهم يستخرجون من ذلك عبراً أو عوناً في التخطيط.

لذلك كانت كتابات الرحّالين، الذين زاروا بلاد الشام مثلاً، في القرن الرابع عشر الميلادي، ذات طابع جديد وخاص أيضاً. لكن هذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن الرحالة العادي والحاج المؤمن انقطعا عن المجيء إلى المنطقة، ولكن عندما نستعرض ما وضعه بعض هؤلاء الرحالين، مثل دوبوا ودي نوغاره ودي پادو وفيليب، نجد فرقاً كبيراً، بين الرحالة والحجاج السابقين وهؤلاء.

وضع رحالة القرن الرابع عشر الميلادي بحوثاً عن موارد الثروة والقوة العسكرية عند المماليك، في بلاد الشام، ومصر. كما أنهم كتبوا، بتفصيل، عن الطرق المؤدية الى المشرق وما فيها من صعوبات، سواء في البر أو في البحر. ولا يجوز أن ننسى كذلك اهتمام الكتّاب بالتحصينات، التي كانت قائمة في المدن المختلفة.

كما أن هناك رحالين زارا المشرق في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي. هما: كروشي وبروكارد؛ كان يشغلهما أمر واحد، هو دعوة جميع المشارقة الى اعتناق الكثلكة، سواء في ذلك المسيحيون الشرقيون والمسلمون واليهود. بل إن بروكارد، كان يدعو الى إعداد حملة صليبية تهاجم القسطنطينية، بقصد إرغام المسيحيين البزنطيين على اعتناق الكثلكة والتبعية للبابا.

من رحالي القرن الرابع عشر الميلادي، المبكرين، سنودو. ومع أن الرجل، كان يريد أن تقوم اوروبة بحملات جديدة على المشرق، فإن أهمية دراسته، بالنسبة لنا، هي أنها تزودنا بمعلومات اقتصادية فريدة عن بلاد الشام ومصر.

وممّن زاروا المشرق، وكتبوا عن بعلبك وصيدا وصور وبيروت، دي فيرونا. وهناك أيضاً فون سوخم، وهو مثل سنودو، كبير العناية بالشؤون الاقتصادية. إلا أن الرحالة الطريف، كان يوحنا مندفيل. وسنعود اليه، بعد الكلام على شيخ الرحالين العرب اطلاقاً، وسيد رحالي العصور الوسطى إجمالاً: ابن بطوطة.

فهذا الرحالة، هو الذي طبع الرحلة، في القرن الرابع عشر الميلادي بطابعه الخاص. إنه طنجي المولد، من أبناء سنة ٧٩٣ هـ/ ١٣٠٤ م. وقد عرفت أسرته باشتغالها بالعلوم الشرعية؛ وسار هو على خطة أسلافه. وحتى في رحلاته، أفاد من هذه المعرفة. فقد عيّنه الحاج المغربي قاضياً على المشاركين في الرحلة، وهم في تونس، في طريقهم الى مصر. وعمل في القضاء، في الهند، وفي جزر ملديف.

ولا نعرف رحالة، قطع من الأميال، وزار من البلدان، مثل الذي فعله ابن بطوطة، في العصور الوسطى. فقد اجتاز العالم، من طنجة الى أقاصي الهند والصين وسومطرة، ثم عاد فزار السودان الغربي والاندلس. ودخل القسطنطينية، ومر بأواسط آسية.

كانت مصر المحطة الأولى الكبرى، في رحلة ابن بطوطة الأولى، في طريقه الى الحج. وكان طريق البحر الأحمر معطلاً، يومها؛ فاضطر ابن بطوطة الى السير الى الحجاز مع الحاج المصري البري، فاجتاز سيناء الى بلاد الشام، ووصل القدس.

والقارىء لرحلة ابن بطوطة، يجد أن ذكره للأماكن المختلفة في بلاد الشام، لا يسير على طريق سوي. ذلك أن ابن بطوطة، لم يدوّن أخبار رحلاته، التي دامت قرابة ثلاثين سنة، بنفسه. ولكن لما استقر في بلاط سلطان فاس، في المغرب روى أخبار رحلته لابن جنيّ، الذي دوّنها بأمر من السلطان. وقد يكون سها عن ترتيب تنقله، في بعض الأحيان.

من هنا، كنا مضطرين ان ننتقل مع ابن بطوطة، على نحو ما كتب، لا ما زار فعلاً. فهو يقول، في وصف طرابلس: «ومدينة طرابلس هي احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام، تخترقها الأنهار وتحفّها البساتين والأشجار، ويكنفها البحر بمرافقه العميمة، والبر بخيراته المقيمة. ولها الأسواق العجيبة مع المسارع الخصيبة».

ويشير ابن بطوطة الى ان المدينة، التي يصفها، هي الحديثة. يقول، في ذلك: «وهي حديثة البناء، وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الفرنج، فلما استعادها الملك الظاهر بيبرس خُربت».

لكن الواقع هو أنه كان وقت طويل نحو قرن وبعض القرن، بين التخريب للقديم ولبناء الجديد. ذلك ان تخريب الملك الظاهر لطرابلس، كان يقصد منه جعل المكان غير صالح لأن يعود اليه الفرنجة، وكانت مملكتهم قائمة بعد في قبرص. لكن اتضح، فيما بعد، أن هذا الذي صنع في طرابلس، ثم صنع في غيرها من مدن الساحل، لم يكن يكفي لمنع الفرنجة. بل كان من الواجب اقامة بناء محصّن بالأبراج والأسوار.

وعندها بنى المماليك طرابلس الحديثة على تل يشرف على الميناء. هذه هي طرابلس التي وصفها ابن بطوطة.

والمدينة البحرية الثانية، التي روى ابن بطوطة أخبارها، هي صور، فهو يقول:

«ثم سافرت من عكا الى مدينة صور وهي الآن خراب وبخارجها قرية معمورة. ومدينة صور هي التي كان يضرب بها المثل في المنعة والحصانة... وبناؤها ليس في الدنيا أعجب ولا أغرب شأناً منه. وكان ميناؤها يحمل السفن الكبار».

ويروي ابن بطوطة قصة تنقله في لبنان، فيقول: «ثم سافرت الى مدينة صيدا، وهي على ساحل البحر، حسنة كثيرة الفواكه، يُحمل منها التين (اليابس) والزبيب والزيت الى بلاد مصر».

وكان ابن بطوطة ينزل ضيفاً عند القضاة او العلماء، حيث ينعدم النزل أو الفندق أو الزاوية أي الخانقاه. وفي صيدا، نزل عند قاضيها. فيقول، في ذلك: «نزلت عند قاضيها كمال الدين الاشموني المصري، وهو حسن الأخلاق كريم النفس».

والواقع، أن القاضي كمال الدين أكرم وفادة ابن بطوطة، حتى نعته بحسن الأخلاق وكرم النفس؛ لأن ابن بطوطة، لم يتورع قط عن ذمّ من لم يكرمه، حتى ولو كان من الملوك، على نحو ما فعل في مالي، من السودان الغربي.

ويصف ابن بطوطة بيروت، بقوله:

«وهي صغيرة حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن، وتجلب منها الى الديار المصرية الفواكه والحديد».

ونالت بعلبك حصة كبيرة من رواية ابن بطوطة. ومع أننا لا نعرف، تماماً، الطريق الذي اتبعه ابن بطوطة في تنقله في بلاد الشام، فالذي يمكن ترجيحه هو أن الرجل، ذهب الى بعلبك من بيروت أو طرابلس. فهو يقول: «ثم وصلنا من جبل لبنان الى مدينة بعلبك».

ومهما كان الطريق الذي سلكه ابن بطوطة في توجهه نحو بعلبك، فقد تركت المدينة في نفسه أثراً كبيراً. قال عنها: «وبعلبك حسنة قديمة، من أطيب مدن الشام، تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة، وتخترق أرضها الأنهار الجارية، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية».

ونشعر أن ابن بطوطة يتلمظ، وهو يقول: «وبها يصنع الدبس المنسوب إليها، وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب، ولهم قربة يضعونها فيه فيجمد، وتكسر القلة التي يكون فيها فيبقى قطعة واحدة. وتصنع منه الحلواء، ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن».

ويضيف قائلاً: «وهي كثيرة الألبان ويجلب منها الى دمشق، وبينهما مسيرة يوم للمجدّ. وأما الرفاق المتنزهون فيخرجون من بعلبك، فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني، كثيرة الفواكه، ويفدون منها الى دمشق».

ولما كان ابن بطوطة، مع الحاج المغربي، في طريقه من طنجة الى مصر، أصيب الركب بمطر عظيم، وهم على أبواب قسنطينة، في بلاد الجزائر. فلما بلغ الخبر حاكم

قسنطينة، أعان الجماعة على شؤونهم، وأهدى ابن بطوطة إحراماً بعلبكياً. وكان من الطبيعي أن يذكر ابن بطوطة الأحرام، لما وصل بعلبك، وأن يقول في ذلك: «ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الأحرام وغيره».

إلا أن الذي دهش به ابن بطوطة، فوصفه بدقة، هو مهارة صنّاع المدينة في صنع الاشياء الخشبية. فهو يقول، في ذلك: «ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه، التي لا نظير لها في البلاد. وهم يسمون الصحاف - أي الصحون - بالدسوت. وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها وأخرى في جوفها الى أن يبلغوا العشر. ويخيل لرائيها أنها صحفة واحدة».

ويقول ابن بطوطة، عن صنع الملاعق الخشبية: «وكذلك الملاعق يصنعون منها عشراً الواحدة في جوف الواحدة، ويصنعون لها غشاء من جلد. ويمسكها الرجل في حزامه. وإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة، ثم يخرج من جوفها تسعاً».

لقد كان للعنوان، الذي اخترناه لهذا المقال، ابن بطوطة وأنداده، معنى خاص. فالقرن الرابع عشر الميلادي عرف رحالة اوروبياً كبيراً، هو ماركو بولو، الذي قضى هو الآخر، سنوات طويلة في بلاد الشرق النائية. ودوّن أخبار رحلاته. وهو في الواقع ندّ لابن بطوطة، من حيث سعة الرقعة، وزمن الرحلة، والمعلومات التي يعطينا. لكن ماركو بولو، لا يهمنا، لأنه لم يزر مشرقنا، الذي ينتظم بلاد الشام.

ونعود هنا الى يوحنا مندفل. فمن هو هذا الرحالة؟ وهل نستطيع ان نعتبره نداً لابن بطوطة أيضاً؟ وما هو مدى صحة كتاباته؟

لقد كتب مندفل عن نفسه، يقول: «أنا يوحنا مندفل، الفارس المولود في انكلترا... ركبت البحر في سنة ١٣٣٢ وزرت بلاداً مختلفة وجزراً كثيرة واجتزت بلاد التتار وفارس وأرمينية الصغرى والكبرى وليبيا والعراق وجزءاً كبيراً من اثيوبيا وأمازونيا والهند الكبرى والصغرى وجزراً حول الهند... حيث تقطن شعوب متباينة في قوانينها وعاداتها وحتى في أشكالها البشرية».

لقد ارتاب المؤرخون في أكثر ما ورد في رحلة مندفل. وأكثرهم يرى أنه زار أجزاء من المشرق العربي، أما ما تبقى، فقد نقله من مظانه المتنوعة، وأضفى عليه شيئاً من خياله.

وخلاصة القول، ان ابن بطوطة يبقى المنار الأعلى والأوضح بين رحالي العصور الوسطى، لا بين رحالي القرن الرابع عشر الميلادي فقط. ويظل لا ندّ له!

١٠ ـ دو لابروكييه الرحالة الحاج الدبلوماسي

في سنة ١٣٩٦ م، أرسلت أوروبة، بقدر ما كان يمكن لها أن تجتمع يومها، حملة ضد الدولة العثمانية. ذلك بأن هذه الدولة، كانت قد اجتازت بحر مرمرة ومضيقيه الى اوروبة، وفتحت جزءاً لا يستهان به من البلقان، واتخذت أدرنة عاصمة لها، وهددت مناطق مجاورة من القارة الاوروبية.

فقد كان الغرض من الحملة الاوروبية، أن تضع حداً لتقدم الدولة العثمانية أولاً؛ وبعد ذلك، يمكن التعامل مع هذه، في عقر دارها، لكن الذي حدث، هو أن الحملة الاوروبية، غُلبت في معركة نيكوبوليس، وتفرق القوم أيدي سبأ.

وكانت حملة بحرية سابقة، قد أرسلت الى الاسكندرية، قبل ذلك بنحو ثلاثين سنة؛ وفي سنة ١٣٦٥ م، على وجه الدقة، ونجحت في احتلال الميناء ونهب المدينة. لكن هذا، كان أمراً عارضاً. فالواقع الذي لا خلاف حوله، هو أن معركة نيكوبوليس، سنة ١٣٩٦ م، كانت خاتمة الفصول الطويلة، التي تُسمى الحروب الصليبية.

لكن ذلك لم يمنع رجال الحكم والسياسة والكتّاب والدبلوماسيين من الحديث عن السبل، التي يمكن ان تؤدي الى احتلال المشرق، بقطع النظر عما يمكن أن تُسمى الحملات الجديدة. صحيح أن كلمة «الصليبية»، كانت لا تزال شائعة على ألسنة المتحدثين وأقلامهم، لكن الناحية التجارية، كانت أوضح صورة الآن منها قبلاً.

بين أيدينا أسماء العشرات من أولئك الذين انتُدبوا، أو انتدبوا أنفسهم، لدرس جميع ما يتصل بأمر الحملات والاحتلال، كالطرق والحصون والجنود والتنظيم والموارد الاقتصادية والعلاقات بين حكام المنطقة وغيرهم، شرقاً وغرباً. كل أولئك، كانوا موضع اهتمام ودرس وتمحيص وتدقيق، وأخيراً كتابة بشكل تقارير رسمية تُرفع الى أولي الأمر.

وأحد أولئك الدبلوماسيين، هو برتراندون دو لابروكييه. وكان هذا اللورد تابعاً لدوق برغندية، فيليب. فانتدبه هذا لمهمة سياسية في المشرق. ومن هنا كانت رحلته. ويقول دولا بروكييه، في مقدمة كتابه إنه وضعه «ليجذب قلوب الناس الراغبين في رؤية العالم، وليرضي سيده دوق برغندية، وليقدم المعلومات عن البلاد الواقعة وراء البحار اللازمة لمن تحدثه نفسه من الملوك والأمراء بفتح القدس، أو لتكون المعلومات لمن يريد الزيارة أو الحج جاهزة له».

أبحـر بروكييه في شهر أيار/ مـايو ١٤٣٣ م من البندقيـة، متجهاً نـحو يافـا. ومن هذه، انتقل الى القدس بطريق الرملة. وبعد زيارتها، ذهب الى سيناء، وعاد ليتنقل في بلاد الشام، مفتَّح الأذن والعين.

وهنا لا بد من السؤال: إذا كان بروكييه رحالة سياسياً أو عيناً لدوق برغندية أو لغيره، فما معنى زيارته للقدس؟

من الملاحظ، أن أكثر الزوار والرحالين، والتجار والسياسيين منهم على السواء، كـانوا يرون واجبـاً عليـهم، أن يزوروا الأمـاكن المـقـدسـة. ومن ثم، فـإن زيارة القـدس وغيرها من البقاع المباركة، كانت جزءاً من حياتهم ورحلتهم.

أما لمـاذا لم يزر مصـر؟ فلا نحسب أنه كان مصـادفة، بل يجب أن نذكر أن ملكي انكلتـرا وفرنسـا انتدبا رحّـالة آخر، هو غلبـرت لانوي، لزيارة مصـر ودراسـة أحـوالهـا. فذهب هـذا، سنة ١٤٢٠ م، الى الاسكندرية، وقضى في مصر بعض الوقت، وزار البلاد المقدسة، وعاد الى البندقية.

ويبـدو أن لانوي وبروكييـه كانا سياسيـين اقتسمـا المشرق العربي، كي يدرس كل منهما جزءاً منه. وليس في ذلك غرابة، فليس من المستبعد، أن يكون قد تم شيء من التنسيق بين دوق برغندية، وهو فرنسي، وملك فرنسا!

ولقد زار بروكييه أكثر المدن السورية الـداخلية. وفي النهاية، يبـدأ عودته براً من دمشق الى فرنسا، عبر حلب وأرمينية وآسية الصغرى. وبعد أن يقضي ردحاً من الزمن في القـسـطنطينيـة، يُتم سيـره، فـيـصل فـرنسـا في سنة ١٤٣٩ م. أي أن إقـامتـه في المشرق وديار الدولة العثمانية، دامت نيفاً وثلاثين سنة.

ومن الطريف، أنه قضى في القسطنطينية سنوات، قبل احتلال العثمانيين لها. إذ إن هذا، تم سنة ١٤٥٣ م!

وبعد أن زار بروكييـه وصحبـه من النبـلاء القـدس، اتجهوا نـحو يافـا. ومن هناك، استـأجروا مـركبـاً نقلهم الى عكا، التي يقـول عنهـا رحـالتنا: «هذا مينـاء حسن، عميقـة ميـاهه ومحروسـة جوانبه. ويبـدو أن المدينة كانت، في سـابق عهدهـا، كبيـرة وحصينة، أمـا الآن فـلا يوجد أكثـر من ثلاثمئـة بيت، تقـوم في ناحيـة قصيـة منهـا، بعيـدة عن البحر».

وعرف بروكييـه وصحبـه أن سفينـة ناربونيـة، كـانت منتظرة في بيروت. ولما كان صحبـه راغبين في العودة الى فرنسـا، أسـرع الجـميع في طريقـهم الـى بيروت. يقـول بروكييه: «ومررنا في طريقنا من عكا الى بيـروت، بصور، المدينة المحـاطة بسور والتي تملك ميناء جيداً».

وتستمر الجماعة الصغيرة في سيرها، فتمر بصيدا، التي كان لها ميناء على شيء من الحسن. وتصل الى بيروت. ويصف رحالتنا بيروت، فيقول: «كانت بيروت أكبر

مما هي الآن بكثير، لكن ميناءها لا يزال في حالة حسنة، فهو عميق وتجد السفن فيه الحماية الكافية. ونرى في جهة منها آثار قلعة كانت حصينة وقوية لكنها قد أصبحت الآن ركاماً».

لم يكن بروكييه ينوي العودة بحراً. لقد خطّط للعودة براً، عبر سوريا وآسية الصغرى. وقد عاد بهذا الطريق. لكن الأمر الذي ليس واضحاً، هو: متى قرر بروكييه القيام بهذه الرحلة؟ أو العودة بهذا الطريق؟ فهو يقول، في كتابه: ان الخطة، خطرت له، وهو في القدس.

إذا صح أن بروكييه، كان منتظراً منه، أن يدرس الجزء الشمالي من بلاد المشرق وآسية الصغرى، فقد تكون الخطة نفسها، أي العودة براً، قديمة.

لكن كان باستطاعة بروكييه، أن يزور سوريا وآسية الصغرى، ويعود بحراً، من أي ميناء الى فرنسا. فمن الممكن، أن بروكييه أراد أن يطلع على أحوال البزنطيين والدولة العثمانية من الداخل، فعاد براً. والواقع، أن الرجل تعرف الى الجيوش العثمانية، وزار المدن في الدولة، وتصادق مع رجال حاشية السلطان مراد.

ولقد لجأ بروكييه الى تاجر ثري جنوي كان مقيماً في بيروت، اسمه برفيزين، للاستفسار عن الطريق الممكن اتباعه. يقول بروكييه: «نصحني جاك بأن أذهب الى دمشق مؤكداً لي أنني سأجد هناك تجاراً من البندقية وقطلونية وفلورنسة وجنوه وغيرها. وارتأى أن استشارتهم قد تفيدني. وأعطاني جاك رسالة توصية الى تاجر جنوي في دمشق اسمه اسكوت».

ذهب بروكييه الى دمشق. لكنه أراد أن يصطحب واحداً من أصحابه، فأقنع سانسون أن يرافقه، لكنه لم يخبره عن سبب هذه الزيارة المفاجئة. واستأجر الرجلان الدواب اللازمة مع المكاري، المشرف عليها. وجازا، في طريقهما، جبال لبنان الغربية والبقاع.

يقول بروكييه: «كان طريقنا عبر جبال تقبع في أكنافها قرى تحيط بها كروم غنية. وهبطنا بعد هذه الجبال الى واد يسمونه «وادي نوح» وهو ليس واسعاً جداً. لكنه جميل ونزه وخصيب، ويرويه نهر ويقطنه العرب».

ويبدو أن طريق بروكييه، كانت على مقربة من كرك نوح، حتى ذكر الوادي بهذا الاسم، ولم يسمه سهل البقاع.

ويضيف بروكييه: «إنني أنبّه أولئك الذين قد تضطرهم الأحوال أن يقوموا بهذه الرحلة الى ضرورة أخذ الحيطة ضد البرد الشديد الذي يتعرض له المسافر. فإنني لم أعرف برداً مثله في حياتي».

وصل الركب الى دمشق، في يومين ونصف اليوم. فالجماعة كانت مجدّة. وبعد أن قضى بروكييه وسانسون الزيارة، عادا الى بيروت. واقترب وقت النزول الى السفينة.

وعندها، أسرّ بروكييه الى واحد من الصحاب بنيّته، في أن يظل في بيروت، ليعود الى بلاده براً، عن طريق دمشق وحلب والقسطنطينية. فرحل الرفاق، وخلفوه في بيروت.

أقام بروكييه في منزل تاجر بندقي، اسمه بربريكو. وكان بروكييه ينوي أن يزور الناصرة وجبل طابور، الواقع على مقربة منها. لذلك، فقد رتب بربريكو الأمر. يقول بروكييه: «نزلت أثناء اقامتي في بيروت في دار تاجر بندقي هو بول بربريكو... وهذا دبّر لي مكارياً يحملني الى الناصرة ثم يوصلني الى دمشق، ويعود الى بول بوثيقة مني تعرفه بأخباري وبسلامتي. وقد أشار عليّ المكاري أن ارتدي ثياباً شرقية، ففعلت».

ويصف بروكييه الاحتفال بالعيد، الذي حضره في بيروت، فيقول: «شهدت احتفال المسلمين بأحد أعيادهم في بيروت. بدأ الاحتفال مساء، فكانت الجماعات تسير في الشوارع فرحة طربة. وكانت المدافع تطلق من القلعة احتفاء بالعيد. وأطلقت الألعاب النارية التي بلغت ارتفاعاً كبيراً».

ولا بد أن بروكييه، الدبلوماسي السياسي، حاول التعرف إلى أسرار هذه الصواريخ كما يسميها.

فهو يقول في ذلك: «وقد استطعت ان أتعرف الى سر هذه الصواريخ، وحملت معي الى فرنسا طريقة صنعها ونماذج منها».

ويضيف أمراً، يعتبره مهماً: «لأن هذه الصواريخ متى صنعت على مقياس كبير أمكن استعمالها لحرق السفن في البحر. هذا ما بلغني أثناء اقامتي في الشرق».

لكن مما يؤسف له، أن بروكييه، لا يخبرنا عما تم بشأن مثل هذه التجربة، أو فيما إذا لم تجرب.

ونعود الى بروكييه، وهو في طريقه من بيروت الى الناصرة. لقد سلك الطريق البحري، الذي سيوصله الى عكا، إذ قال: «والطريق يتعرج تبعاً لبعد الجبال أو قربها من الشاطىء، إذ إنه يقع بين الشاطىء والجبل. وبعد ركوب ساعة من البيت، مررت بغابة من أشجار الصنوبر الطويلة. ويُعنى سكان البلاد بهذه الغابة ويحرصون عليها، الى حد أن قطع الشجر منها ممنوع البتة».

وهذه اشارة قديمة الى صنوبر بيروت، ومع ذلك فليست الاولى. فهناك شاعر بيزنطي، كان يعيش في بيروت في القرن الرابع للميلاد، كان اشار الى هذه الغابة أيضاً. ومر بروكييه فوق جسر حجري بعد ذلك، لعله كان جسراً فوق الدامور. يقول: «وكان على مقربة منه خان أرحنا فيه ليلتنا».

وطريق بروكييه هذه، كانت تأخذه الى صيدا وصور. وهو يقول:

«في اليوم التالي وصلنا صيدا. وهي مدينة على الشاطىء، ومحاطة من جهة البر بخندق، لكنه ليس عميقاً. ومثل ذلك يقال عن صور».

وهذه تنقل اليها المياه، على قناة، من نبع، يقع الى الجنوب من المدينة.

ويعلق بروكييه على المدينتين، بقوله: «إن المدينتين، اللتين كانتا من قبل كبيرتين وغنيتين، قد دمرتا وهدمتا على ما يبدو من آثار الأسوار والأبراج».

وسار بروكييه في طريقه، حتى بلغ عكا، فقال عنها: «هذا ميناء جميل عميق ويدور به سور يحميه. أما المدينة فهي صغيرة وبعيدة عن البحر».

وكما أقام بروكييه في بيروت عند تاجر بندقي، أقام في عكا أيضاً عند تاجر بندقي آخر اسمه أوبرت فرانك.

لقد زار بروكييه بيروت ودمشق وعكا وغيرها من مدن المنطقة، في القرن الرابع عشر للميلاد. وكانت البلاد تحت سلطة المماليك. ومع ذلك، نجده يقيم عند تاجر بندقي، ويتعرف في بيروت الى تاجر جنوي، ويقال له، بأن دمشق فيها تجار من أربع أو خمس جماعات اوروبية. ويمكن تفسير هذا الامر، بأن المماليك، بعد ان استقر لهم الامر في مصر وبلاد الشام، وبدءاً من أوائل القرن الرابع عشر للميلاد، أي قبل زيارة بروكييه بنحو قرن، أخذوا يسمحون للتجار الاوروبيين بالاقامة في المدن البحرية والداخلية؛ بحيث يعملون في جميع أنواع التجارات، مستوردين، ومصدرين، ووسطاء. وهذا ينطبق على القاهرة والاسكندرية، كما ينطبق على بيروت وعكا ودمشق.

وكان بروكييه شبه مندوب سياسي، لتقصي الحقائق النافعة، لمن يريد ان يعد حملة الى المشرق.

كتب بروكييه ما سمع وما رأى، لكنه في تضاعيف ما كتب، لم يشجع على القيام بحملة ضد المشرق، ولو أنه لم يذكر ذلك بوضوح. أما الذي نصح الاوروبيين بالامتناع عن مثل هذه الأمور، فهو فيلكس فابري، الذي زار المشرق في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد.

١١ ـ الأب دنديني في لبنان الشمالي

يختلف الأب دنديني عن غيره من الرحالة، في أنه كُلِّف، رسمياً، بمهمة خاصة، في مكان معين. فالكنيسة المارونية، التي كان قد مرّ عليها حتى القرن السادس عشر للميلاد، قرون، وهي تابعة للبابوية، دارت حولها إشاعات في روما، تناولت نواحي العقيدة والطقوس الكنسية.

لذلك، انتدب البابا، كليمنت الثامن الأب دنديني، ليقوم بزيارة شمال لبنان، حيث يوجد مركز البطريرك الماروني في قنوبين، ومقابلة غبطة البطريرك وعقد مجمع كنسي، لتوضيح بعض القضايا. وقد كان الأب دنديني يتولّى تدريس الفلسفة، في مدرسة بروجيه، لما انتدبه البابا لهذه القصادة، سنة ١٥٩٦ م.

يقول دنديني عن مهمته: «في ١١ حزيران (من السنة ١٥٩٦) مَثُلتُ بين يدي قداسة (البابا) وعرضتُ ما بُلِّغته عن أمره، واستعدادي للقيام بكل ما يأمرني به بكل أمانة ونشاط... ملتمساً منه أن يمدني ببركته ليتهيأ لي أن أخترق ما يعترض سبيلي من المصاعب للوصول الى الغاية المطلوبة... وأخيراً التمست منه الرخصة في زيارة القبر المقدس... فأجاب ملتمسي».

وهناك أمور أخرى، كُلِّف الأب دنديني الاهتمام بها، ولعلّ أهمها، كانت المدرسة المارونية، التي كانت قد أُنشئت في روما سنة ١٥٨٤ م، بعناية البابا غريغوريوس الثالث عشر، وخريجيها الذين عادوا الى لبنان، ولم يجدوا عملاً في الكنيسة.

دوّن دنديني أخبار هذه الزيارة، بكثير من التفصيل. ونحن هنا، نودّ أن نفيد من الأمور الأخرى، التي كتبها القاصد الرسولي، وصفاً لمناطق شمال لبنان. إذ إن القضايا المتعلقة بالكنيسة بالذات، لا تدخل مجال اهتمامنا.

كان دنديني ايطالياً، وقد دوّن أخبار رحلته باللغة الايطالية. وهذه طبعت، للمرة الأولى، باللغة الأصلية، سنة ١٦٥٦ م. ونقلت الى الفرنسية. أما نحن، فإننا رجعنا الى الترجمة العربية، التي قام بها الخوري يوسف يزبك عن الايطالية رأساً والتي نشرت في المجلة البطريركية، تباعاً، ثم نشرت كتاباً مستقلاً سنة ١٩٣٣.

وصل دنديني ورفيقه الى لبنان في ٢٥ آب/ اغسطس سنة ١٥٩٦ م، وقد رست السفينة التي حملته في ميناء طرابلس وكانت مسيرته قد بدأت من البندقية ومرّ في طريقه بقبرص. وكانت النقلة الأخيرة، من قبرص الى طرابلس، في سفينة صغيرة،

تحمّل فيها دنديني وبقية الركاب عنتاً شديداً: «بسبب صغر السفينة وإهمال نوتيتها».

فلما وصل الى طرابلس، شعر بالارتياح. وفي ذلك يقول: «والنتيجة بلغنا ميناء طرابلس، وإذا أمامنا خمسة أبراج مستحكمة تحرس شواطئها. فشدّ ما كان سروري وارتياحي، رغماً عما قاسيته من داء الدوار البحري، وانقطاعي عن تناول الطعام مدة يومين. صعدت ورفيقي الى البر. فأركبته حماراً ومشيت أنا قاصديْن المدينة. وما كان أشد لفحات شمس هذه البلاد التي لا يفارقها الحر حتى في لياليها».

ولا غرابة في أن يشعر بالحر، فقد وصل الى طرابلس في أواخر شهر آب/ اغسطس ويقول، بعد ذلك: «لم أكن أحبس النظر عما كان يطرأ عليه من المشاهد حباً للاطلاع على حقائق الأمور تنويراً للذهن وتفكيهاً للخاطر».

وكان مما شاهده في الطريق: «خمسين الى ستين جملاً محمّلة رماداً يقودها رجال من الأعراب أقوياء البنية. وهذا الرماد هو نتيجة حريق أعشاب يلقونه في حجرة فلا يلبث أن يتحجّر. ثم يصدرونه الى البلاد الاوروبية وإلى جمهورية البندقية (خصوصاً) لعمل الزجاج البلوري».

وكانت الأشجار والبساتين، مما لفت دنديني، فقال: «وما كان أجمل مناظر البساتين والحدائق النضرة المرصّعة بمختلف الاشجار بروائحها العطرة».

ويقول دنديني: «مما شاهدته مما فكّه الفكر وأنسانا مشقة الطريق هو ما اصطلح عليه سواقو الدواب من اللهجات الغريبة التي يسوقون بها دوابهم دون الاستعانة بالعصا أو بمناخس حديدية أو واسطة أخرى. فلم أملك النفس من الضحك».

وأقام دنديني ورفيقه في ضيافة مواطن ايطالي من البندقية. يقول الكاتب، عن وصولهما الى منزل مضيفهما: «نزلنا في طرابلس ضيفين على أحد مواطنينا من أهل البندقية، فأكرم مثوانا واحتفى بنا كثيراً، وعلى الخصوص رفيقي الذي سبقت له معرفة به. وبداعي انحراف صحته ذهب صديقي الى السرير الذي أُعد له. أما أنا فبعد أن صليّت ذهبت الى الكمرك (الجمرك) لأستخلص ما حملته معي من ايطالية من الآنية والأدوات والحلى الكنسية، لأقدم بعضها للبطريرك من قبل البابا، والبعض الآخر لأوزعه على كنائس الطائفة».

ويقول دنديني عن طرابلس: «إن موقع طرابلس على سفح جبل يبلل أقدامها البحر بمائه ويغسلها بأمواجه. تعلوها على تلة صخرية قلعة تشرف عليها. وهي غنية بصادراتها وتجارتها بالحرير والرماد والقطن المغزول والعنب والصابون والشموع التي يُحسن صنعها فيها».

ويقول أيضاً: «عدد المسيحيين كبير في هذه الأسكلة (الميناء) من روم ارثوذكس وموارنة، أما المسلمون فهم العدد الأكبر فيها».

ويصف الرحالة زي سكان الطوائف المختلفة في طرابلس، رجالاً ونساءً، ويقول عن الزي النسائي: «أما زي النساء في ملابسهن فهي القميص والجلابية والمضربية والسراويل والأخفاف. ويسترن رؤوسهن بعرقيات أو طاقيات من صوف أو جوخ أو حرير أحمر أو أزرق مطرزة بالذهب والفضة».

ويضيف: «وبعضن يرصّعن هذه الطاقيات بالنقود الذهبية أو الفضية ويقال لها صفّة أو شكة. ويجدل النساء شعورهن ويتركنها مسترسلة على أكتافهن أو تُضمّ خصائل (جدائل) بشريطة. ولا يجعدنها فوق الجباه. ووجوه النساء تظل بهيئاتها الطبيعية دون تصنع وطلاء. إنما يضعن في أصابعهن خواتم، ويزيّن الآذان بالأقراط الذهبية، والمعاصم بالأساور».

ويلاحظ دنديني أن الأقراط والأساور، مرتبطة بغنى المرأة وثروتها. ويقول:

«والإسورة عريضة صفحة واحدة خلاف أسورة نساء بلادنا. ولا تقتصر هذه الأسورة على المعاصم لتحسدها الرِّجل، بل هي أيضاً، أي الرِّجل، ينالها نصيبها منها وتدعى إذ ذاك خلخالاً».

ويخبرنا عن المرأة في الشارع، فيقول، في ذلك: «لا تشاهد المرأة بزيّها أو بحلاها في الأزقة والشوارع، بل في بيتها. وعندما تخرج منه فإنها تتأزّر من كتان أبيض أو من قطن أو من حرير أسود يحجبها عن النظر حتى يديها. وأما وجهها فتحجبه بقطعة من قماش أبيض أو أسود».

ويتنبّه دنديني الى أن هذا الزيّ عند النساء، لا يقتصر على طائفة دون أخرى، إذ إن المسلمات والمسيحيات، كن يرتدينه على السواء. وحتى اليهوديات، كن يفعلن الشيء نفسه.

وبعد ذلك، غادر دنديني طرابلس، مخلفاً صديقه الأب فابيو فيها، بسبب مرضه، ووصل قنوبين قبيل غروب الشمس في أول أيلول. وذهب لزيارة البطريرك في غرفته الصغيرة، حيث كان معتكفاً بسبب تقدمه في السن وانحراف صحته. وقدّم له براءة البابا. ثم ذهب لتناول طعام العشاء في دير لبناني. وأرسل في اليوم التالي يستدعي رفيقه من طرابلس، فجاء هذا، لكنه لم يكن قد شفي. فظل ملازماً الفراش في قنوبين خمسة عشر يوماً.

تحدّث دنديني الى البطريرك بخصوص عقد مجمع، وطال الحديث بين الرجلين. وأخيراً قبل دنديني بوجهة نظر البطريرك بوجوب تأجيل عقد المجمع الى أن يتعافى صاحب الغبطة. ومن هنا أخذ الزائر نفسه بالعناية بالمنطقة للزيارة والاطلاع. وكان أول ما فكر بزيارته الأرز، فالغابة قريبة من قنوبين.

يقول دنديني: «وإذ لم أكن بعيداً عن غاية الأرز المشهورة، اغتنمت الفرصة لزيارتها. وما أوعر الطريق المؤدية إليها. يُدّعى هذا الأرز مقدساً، ويدّعون أنه يعود

الى القرن العاشر قبل الميلاد. ومع أن أشجار هذه الغابة هي قليلة يزعم أهل المحل استحالة عدّها. أما أنا فعددت ثلاثاً وعشرين شجرة، وآخر من رفاقي عدّ أربعاً وعشرين شجرة».

ويضيف الزائر قائلاً: «ممنوع قطع شجرة من هذه الغابة... يشاهد هناك جدول ماء يدعى نهر قاديشا ومعناه النهر المقدس. تنساب مياه هذا النهر في الوادي؛ وما أعذب خريرها في الأذن، وأجمل منظرها للعين».

وبهذه المناسبة، فإن هذا الماء، الذي ينبع من مغارة تحت غابة الأرز، هو الذي ينتهي في طرابلس باسم نهر أبو علي.

وقد شمل اهتمام الأب دنديني خاصية التربة في المنطقة، وعوائد السكان وطرق معيشتهم. فكان يسأل أصحاب الخبرة ويختبر بنفسه، ما أمكنه ذلك. وانتبه الى النشاط الذي يبديه الفلاح في تلك المنطقة. فيقول: «إن أيدي اللبنانيين النشيطة جعلت من هذه الجبال سهولاً كثيرة الخصب. ومن شاهد كثرة الحيطان المتدرجة في سفوح هذه الجبال، وارتفاعها لتقي التربة من الانهيار، لعَلِمَ نشاط هذه الجماعة وهمتها».

ويعدد الرحالة ما تجنيه الناس من هذه الارض. فيذكر الحبوب بأصنافها والخمر المشهور بطعمه اللذيذ وطيب نكهته، والحرير والعسل والشمع والزيت والقطن. كما يربي السكان الخروف الكبير السمين والماعز والطيور الداجنة، وهي الدجاج والإوز والبط والحمام.

ونقل عن أهل المنطقة أن الحيوانات البرية، المعروفة لديهم، تشمل الدب والنمر والضبع والخنزير البري؛ فيما يدخل في عداد الطيور البرية الحسون والشحرور والنسر والحمام البري وعصفور التين. ويقول إن الحجل يكثر في المنطقة، ويشبه الدجاجة بكبره! ويلاحظ أمرين يتعلقان بالحيوانات والطيورالداجنة، الأول هو أن أبراج الحمام ليس لها ما يماثلها في البلاد التي عرفها؛ والثاني هو أن الخنزير الداجن لا أثر له هناك.

والكرمة في لبنان لفتت دنديني. فهو يقول: «يزرع أهل لبنان الكرمة على خطوط مستقيمة على بعد متساو بين خط وآخر. ولا يستعملون المساميك لرفعها، بل يلقونها على الأرض، وما أذهلني في عنب هذه الكرمة هو كبر العنقود، وكبر حبته التي توازي حبة الخوخ عندنا».

ويذكّر قراءه بأن المنطقة غنية بكل أسباب المعيشة. وقد يكون في جوف الأرض معادن، وقد قيل له إنه يوجد بعض الحديد في جبال لبنان. ويروي عن رفيق سفره المحلي يوسف خاطر: «أنه منذ مدة قليلة ذبح جدياً من الماعز فوجد أسنانه مفضضة».

ويبدو أن دنديني قبل الحكاية فلم ينكرها، أو لعلّه تأدب.

نفذ دنديني الى بيوت أهل القرى في لبنان الشمالي، ووصف الكثير من عاداتهم. فمن ذلك قوله: «يسكن الموارنة في تلك المنطقة القرى الصغيرة الكثيرة والمتفرقة. يتعممون العمامة ويلبسون ثوباً قصيراً الى الركبة او الى وسط الساق، وفوقه السبنية او القباء. أسلحتهم القسي والسيوف والخناجر. وهم كريمو الخُلق».

أما داخل بيوتهم الصغيرة، فلا «طاولات ولا موائد ولا كراسي. يجلسون على الحصر او البسط، وعلى هذه يجلسون، ويمدون الأسمطة للطعام ويفرشون الفرش للنوم. وفي حالة الأكل فإنهم يجلسون في حلقة حول قصعة الطعام ويأكلون منها جميعاً. وإذا جلست الأسرة للأكل ودخل عليهم أحد وقت الأكل فإنه، بعد التحية، يُدعى للأكل فيجلس بجانب أحدهم ويشاركهم طعامهم».

هذا طبعاً وصف لبيوت الفلاحين، لكن لا بد ان الأغنياء منهم كانوا لا يختلفون عنهم في الأسلوب، وإنما في أنواع الأطعمة التي يقدمونها. فقد كان هذا هو نسق المعيشة عند الفلاحين في بلاد الشام، في الفترة التي جاء فيها دنديني لبنان، أي في القرن السادس عشر الميلادي.

ومع أن دنديني كان مكلفاً بقضايا ومسائل معينة، فإن ذلك لم يمنعه من التعرف إلى أحوال السكان وما تنتجه البلاد. لذلك فقد كان تقريره، الذي وضعه، يشمل معلومات وفوائد ذات قيمة كبيرة. فإلى جانب الاهتمام بالغلات الزراعية والمصنوعات والمآكل، حدثنا عن الضرائب التي كان سكان شمال لبنان يدفعونها الى حاكم طرابلس، إذ كانوا يتبعونه.

ويعدّد دنديني ما يتوجب على اللبناني دفعه، ويبيّن أساليب التحصيل. وهو يتحسّر على هؤلاء الناس. ولو أن دنديني تجوّل في مناطق أخرى من بلاد الشام، لوجد الأمر نفسه في أجزاء أخرى. فالضرائب كانت متنوعة. لكن الأهم من تنوعها هي طريقة جمعها. يقول دنديني: «يتولى تحصيل الأموال الأميرية، أي الضرائب الرسمية، أمير هو غير الحاكم المنصّب من قبل سلطان الأتراك. فهذا الأمير يرسل جباة لتحصيل المطلوب، لكنه لا يقف عند الحدّ الذي يقرره الحاكم الأعلى، بل يضيف اليه مثله كي يغنم هو النصف الآخر».

ويخيّل لنا أن دنديني لم يفهم تماماً نظام تلزيم الضرائب، الذي كان شائعاً في نواحٍ كثيرة من الامبراطورية العثمانية. فبموجب هذا النظام، كان على الملتزم ان يدفع للدولة مبلغاً مقطوعاً، هو قيمة الالتزام. أما هو ورجاله والحكام المحليون الذين يساعدونه. فلا بد لهم أن يضيفوا مبالغ أخرى تذهب الى جيوبهم.

ويضيف رحالتنا: «على أن الجابي بالذات لم يكن يُحرم أيضاً نصيبه من البخشيش».

وإذا لم يكن لدى الشخص المبلغ المطلوب، فإنه يستدين لوفاء ما عليه للدولة. والاستدانة تكون عادة من تجار المدينة، الذين كانوا يتقاضون فوائد عالية على مثل هذه القروض!

ولعل مما استغرب دنديني وجوده، هو الضريبة على الموتى. فهو يقول: «لم تقتصر هذه الضرائب على الأحياء فقط، بل تناولت الموتى أيضاً. ولذلك يتوجب على الورثة أن يدفعوا ضريبة الوفاة عن مورثيهم كي يعيشوا بطمأنينة وسلام. وهذه الضريبة تدفع للحاكم. وقد عيّنت الحكومة مأموراً لهذه الغاية يتجوّل دون انقطاع في المدن والقرى ليتقاضى الرسوم عن الموتى».

ويُجمل دنديني القول في هذه القضايا: «لا يشفع شيء أمام الحكم سوى الفلوس ولا يمثل أحد أمام محكمة دون أن يملأ يده بالهدايا والرشوة. ومن دفع أكثر نال مرغوبه».

وإذاكان دنديني يتعاطف مع الناس، بسبب موقف الحكّام منهم، فإنه يشفق على السكان، بسبب جهل الكهنة. فيقول في ذلك: «الكهنة على وجه العموم هم كالعامة من الشعب تنحصر معارفهم بالقراءة والكتابة في لغتهم العربية الاصلية. ويحسنون أيضاً القراءة والكتابة باللغة السريانية».

لكن الزائر لا ينسى أن يشير الى بضعة كهنة، يحسنون الفلسفة واللاهوت. وهؤلاء هم الذين أتموا دروسهم في روما. ويضيف دنديني قوله: «وسيكثر عدد العلماء بين الكهنة لما يبذله أرباب الأمر من العناية والغيرة في تهذيب ناشئتهم وتعليمهم وتدريبهم في المدرسة التي أُنشئت لهم في رومة. وستحقق أماني السكان إذ سيحصلون على رعاة علماء أفاضل».

ويذكّرنا دنديني بأنه لا مطابع عند سكان شمال جبل لبنان. ويجب أن نذكر أن الطباعة أصلاً كانت حديثة العهد في اوروبة. ومن ثم، يقول: «إن الموارنة يتولّون نَسْخ كتبهم بأيديهم. وطريقة الكتابة عندهم أن يأتي الكاتب بقصبة صغيرة يبريها بمدية على شكل ما نعمله نحن بريشة الإوز أو أحد الطيور. وفي نهاية المطاف انعقد المجمع في ٢٨ أيلول (١٥٩٦) حساباً غربيّاً الموافق ١٨ منه حساباً شرقياً، لأن الموارنة لم يزالوا حتى ذلك العهد تابعين للحساب الشرقي».

ولعل من المناسب هنا أن نشير الى أن الحساب الشرقي، هو الحساب اليولياني الذي يعود الى أيام يوليوس قيصر. وقد اكتشف، في أوخر القرن السادس عشر الميلادي، أنه كان ثمة خطأ في الحساب، بحيث ان الزمن تأخّر يومها عشرة أيام. وقد صُحّح الحساب بأمر البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٨٣ م. ولكن الكنائس الشرقية لم تقبل بهذا الحساب يومها. ومن هنا ذكر موعد انعقاد المؤتمر في تاريخيْن.

وبهذه المناسبة، فإنه ثمة حساب شرقي، يُتّبع الى اليوم في الكنائس الشرقية،

لكن الفرق أصبح الآن ثلاثة عشر يوماً، بدل عشرة أيام. وقد قُبل الحساب الغربي، المسمى الغريغوري باسم البابا، في الكنيسة المارونية سنة ١٦٠٦ م. فقد أمر بذلك البطريرك يوسف الرزّي.

كان بين القضايا، التي ترتب على دنديني الاهتمام بها، مسألة طلبة المدرسة الرومية وخريجيها. والمدرسة هذه هي في الواقع، المدرسة المارونية التي أنشأها البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٨٤ م. وقد وقف عليها الأملاك والأرزاق الغنية. وعهد البابا بإدارتها يومها الى الآباء اليسوعيين. وكان الغرض منها تهيئة رعاة للكنائس المارونية.

ويبدو أن هذه المدرسة دارت حولها وحول المتخرجين فيها أمور أهمها سن القبول بالمدرسة، وثانياً مستقبل المتخرجين فيها. ذلك أن بعض الطلاب، الذين أرسلوا من لبنان أو من حلب أو من قبرص، كانوا صغار السن. لذلك فقد تقرر، نتيجة البحث والمناقشة، أن يكون عمر الطالب ١٤ سنة، وقد أتقن القراءة والكتابة، قبل أن يذهب الى روما. فضلاً عن ذلك فإنه كان يجب أن يصحب الطلبة رجال ثقة، حكماء؛ يُعنون بأمور سفرهم.

أثار دنديني قضية أولئك الذين كانوا قد أرسلوا الى روما، وعادوا وقد تعلموا ما كان بإمكانهم أن يتعلموه، لكن لم يجدوا عملاً في الكنائس. وكل ما حصل عليه القاصد الرسولي هو وعد بأن يُعنى أصحاب الحل والعقد بالأمر في المستقبل. وهذه الأمور والكثير غيرها، بحثت في المجمع الذي عقد في عهد البطريرك سركيس.

ولما أنجز دنديني مهمته، وعقد المجمع وبحث في الأمور المختلفة والشؤون المنوعة، المتعلقة بالعقيدة والقداس والمجتمع، أراد أن يقوم بزيارات متعددة في المنطقة، ومنها زيارة البلاد المقدسة. وبدأ رحلته بالفعل. وبعد زيارة بعض الأديرة وصل مع صحبه الى اهدن لزيارة دير مار سركيس. وقبل أن يستقر بهم المقام، جاءهم من ينبئهم، أن البطريرك سركيس يعاني آلام الموت. فأسرعوا عائدين، لكنهم وجدوه قد لفظ أنفاسه قبل وصولهم بساعتين. وكان ذلك في اليوم الخامس من تشرين الاول/ اكتوبر حساباً غربياً والخامس والعشرين من ايلول/ سبتمبر حساباً شرقياً سنة ١٥٩٦ م.

كان ثمة أمران يجب أن يتما: الأول مواراة البطريرك سركيس المتوفى، والثاني انتخاب بطريرك جديد. أما الأمر الأول، فقد تمّ في اليوم التالي للوفاة. يقول دنديني: «عند الظهر حملوه الى معبد القديسة مارينا حيث واروه في الحجرة المعدة لدفن البطاركة جالساً على كرسي من خشب».

أما انتخاب البطريرك الجديد، فقد اقتضى حديثاً ومشاورات، كان لدنديني فيها دور كبير.

«فقد تقرر موعد الانتخاب بعد ١٩ يوماً من وفاة البطريرك».

ورغب أعيان البلاد الى دنديني أن يبقى ليوم الانتخاب. ومع أن دنديني لم يشارك في الانتخاب، بمعنى أنه لم يحضره، فإنه، كما يقول: «لم أدع الفرصة تفوتني دون أن أفاوض البعض بشأن البطريرك الجديد وببعض أمور أخرى».

ورغبة منه في أن يكون بعيداً عن قنوبين،. وقت الانتخاب، فقد ذهب الى طرابلس.

يقول دنديني، نقلاً عمن كان هناك: «ولم يأتِ اليوم الثالث عشر من تشرين الأول بموجب الحساب الغريغوري موعد انتخاب البطريرك حتى ضاقت ساحة الدير وما جاوره عن استيعاب الوفود الذين جاء بعضهم من أطراف البلاد، ويقدر عددهم بألفي شخص ونيّف. وقد انتخب رئيس دير قزحيا يوسف الرزّي بطريركاً بأكثرية الأصوات».

والبطريرك الجديد، كان ابن أخي البطريرك المتوفى.

وأراد دنديني أن يزور البلاد المقدسة، الى أن يتاح له أن يتفاوض مع البطريرك الجديد. فانتقل الى طرابلس، ومع أنه وجد سفينة، فقد تأخر في طرابلس مدة شهر كامل بسبب سقوط المطر الغزير واشتداد العواصف. لذلك عاد الرحالة الى قنوبين، ليتحدث الى البطريرك الجديد في شؤون الطائفة. وكان من المناسب أن يعقد مجمع جديد، لأن الأساقفة موجودون في روما. وهذا ما حدث فعلاً. وكان أهم ما قرِّر في هذا المجمع، هو تأليف كتب في التعليم الديني، صالحة للصغار. وقد عهد الى أخي البطريرك بهذه المهمة.

ثم عاد دنديني، بعد هذا كله، الى التفكير بزيارة الأراضي المقدسة. فترك مذكرة لغبطة البطريرك يوسف، ثم سار من قنوبين الى طرابلس، ووصل الى المدينة، وقضى فيها بعض الوقت قبل أن يعثر على سفينة تنقله الى يافا. وقد تمّ له ذلك. لكن دنديني لا يحدثنا، في الكتاب الذي بين أيدينا عن زيارته للقدس، إنما يحدثنا عن السفينة الصغيرة التي عاد فيها من يافا الى طرابلس. يقول: «لكن الظروف أبت أن تسهّل لنا الأمور في العودة في فصل قامت قيامته علينا. فركبت سفينة صغيرة في شهر كانون الاول كان يخرقها الماء من كل جهة. فرأى ربّانها أن يشغل نوتيتها بتفريغ الماء منها على طول المسافة بين يافا وطرابلس أي نحو مئتي ميل».

وأخيراً، وصل دنديني الى طرابلس. وهناك، احتفل مع بقية الطوائف المسيحية بعيد الميلاد. وكان التجار الأوروبيون الأكثر سروراً بذلك، إذ لم يكن لهم كاهن، يُعنى بهم.

وكانت سفن فرنسية ثلاث ترابط في ميناء طرابلس، مزمعة السفر الى ايطالية. لكن لم يتح لدنديني السفر في أي منها. فقد كانت إحدى هذه السفن تقصد مالطة؛ والثانية تتجه نحو صقلية.

يقول دنديني: «من حسن الحظ أننا لم نسافر مع أي من هاتين السفينتين، فقد غرقت واحدة وأسر الانكليز الثانية. وقد أنقذتنا العناية الإلهية من الأمرين».

وركب دنديني السفينة الفرنسية الثالثة الى اسكندرونة. يقول في وصف هذه السفينة: «هذه السفينة وإن كانت صغيرة لكنها كانت كبيرة بمعداتها. وكان بحاروها أصحاب خبرة وأقوياء. عندها نزعنا عنا ثياب زيّ الزوار والحجاج، ولبسنا أثواب تجار أي ثوب مبطن «مُضـرَبيَّة»، وتعممنا بعمائم مقلّمة، وكان ذلك في اليوم الثالث من كانون الثاني نصف الليل. وكان البحر أولاً هادئاً مسالماً».

لكن كان لا بد لدنديني من أن يتعب في تنقله. إذ إن البحر لم يلبث أن هاج وماج، وأخذت أمواجه ترغي وتزبد مدة ثلاثة أيام متوالية، الى أن بلغ اسكندرونة بعون الله. ومن هناك ركب السفينة التي جاء فيها من ايطالية الى طرابلس.

وصف دنديني اسكندرونة بقوله: «اسكندرونة فرضة بحرية صغيرة تحوي على عشرين أو اثنين وعشرين بيتاً. بيوتها خشبية مسقوفة بالقش. لا يسكنها إلا التجار الذين يعانون من المشقة والارهاق الكثير في سبيل أرباح تافهة».

وقد لقي دنديني صعوبات كبيرة في سبيل عودته في قبرص، إذ وُشي به الى السلطات، بأنه جاسوس، فهرب، خشية أن تحتجزه الحكومة.

وهكذا كلف البابا دنديني بمهمة لدى البطريرك، فحصلنا نحن على وصف للبلاد وأهلها.

١٢ ـ تبدل الأزمنة

احتل الأتراك العثمانيون بلاد الشام في السنة ١٥١٦ م. وفي السنة التالية، قضوا على دولة المماليك، واستولوا على مصر. وخلال العقود الخمسة او الستة التالية، شملت سلطتهم ليبيا وتونس والجزائر في شمال افريقيا، وبعض المناطق العراقية واليمن. وهكذا فقد أصبحت سواحل البحر المتوسط، الجنوبية والشرقية، وجنوب شرق اوروبا وحدة سياسية واسعة، تحت اشراف استانبول. وهذا كان له أثران هامان: الأول، أن أصبحت هذه الرقعة الواسعة جداً وحدة تجارية، يمكنها ان تتعامل مع الأسواق الأخرى تعاملاً واحداً. والثاني، استقلال هذه المناطق ادارياً.

حدث هذا في القرن السادس عشر وبعض القرن السابع عشر الميلاديين. لكن الدولة العثمانية، على ما كانت عليه من قوة عسكرية، وعلى انتصارها في كثير من المعارك، فإنها كانت أقل من ذلك ادارياً. فقد تركت للأمراء والزعماء والقادة المحليين أمر ادارة مناطقهم. صحيح أنها لم تترك لهم الحبل على الغارب، لكن ليس من الصعب على من له حنكة، أن ينتقل من حالة التبعية الى حالة تشبه الاستقلال.

ومن الأمثلة على ذلك، فخر الدين الثاني المعني، الذي لا تهمنا في هذا الوقت، قضيته السياسية، ولكن ما ترتّب عليها. فلما استقرّ الأمير المعني في إمارته، جبلاً وساحلاً وداخلاً استطاع أن يتعامل مع التجار الأوروبيين على طريقته، ووفقاً لمخططاته، وتبعاً لمصلحته، بقطع النظر عن السياسية التجارية الرسمية. وذلك، لأنه لم يكن هناك سياسة تجارية رسمية. وأخيراً، جرّدت الدولة جيشاً ضده، للقضاء عليه.

كان في أنحاء الامبراطورية الواسعة مثل فخر الدين كثيرون، وإن لم يتزامنوا وإياه. فضلاً عن ذلك، فالفترة المذكورة كانت فترة تجارة المحيطات التي كانت، الى درجة كبيرة، بعيدة عن البحر المتوسط. ومن المعروف، أنه في الوقت الذي كان العثمانيون يقومون فيه باحتلال بلاد الشام ومصر، كان البرتغاليون قد اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح الى البحار الشرقية، وأخذوا يحتكرون تجارة التوابل والأفاويه، وخاصة الفلفل، بالنسبة لأوروبا. كما ان الاسبان وقعوا في القرن السادس عشر الميلادي على ثروات العالم الجديد. وإذًا، فما الذي بقي للبحر المتوسط ومنطقته الشرقية من التجارة؟

هنا، يجب أن نذكر أن البرتغاليين، لم يكادوا يسيطرون على مصدر التوابل

ويبدأون بحملها الى اوروبا، حتى فرضوا على الأسواق الأوروبية أسعاراً احتكارية. وبذلك أصبح المستهلك يدفع ثمناً باهظاً لما يحتاجه. كما أن المدن الايطالية والفرنسية، التي كانت لها سفن تمخر عباب المتوسط الى أسواقه الشرقية، لتحمل منها حاجة اوروبا من التوابل ـ هذه المدن خسرت تجارتها. فكان عليها، أن تحاول استعادتها. وهنا يأتي دور التاجر البندقي والفرنسي والانكليزي، بالنسبة للمنطقة أولاً، ومن ثمّ بالنسبة للدولة التي كانت لها السيطرة على المنطقة بأجمعها.

كان على التاجر، مهما كانت تبعيته السياسية، أن يحاول عقد اتفاقات مع الدولة من جهة، ومع الزعيم أو الحاكم المحلي من جهة ثانية، كي يؤمن له مكاناً في السوق؛ وهذه السوق، التي كانت عادة في المشرق العربي، كان ينتظر منها أن تستورد التوابل والعطور وبعض الحجارة الكريمة. وكان من الطبيعي ان يكون الطريق المتّبع متصلاً بالخليج العربي. ومن هنا، فإننا نجد أن حلب تستأثر بحصة الأسد من التجارة الشرقية ـ من الخليج الى بغداد فحلب فالإسكندرون.

لذلك نجد أن موانىء المتوسط تفقد مكانتها التجارية. وكان للتجار الانكليز مكانة خاصة هناك. على أن هذا لا يستمر طويلاً. فالمنافسة بين فرنسا وانكلترا، كانت قوية. وبدءاً من أيام فخر الدين، بدأت صيدا تستعيد مكانتها نسبياً. ثم بعد عام ١٦٦٠ م، تصبح صيدا، على ما يرى المرحوم الدكتور انطوان عبد النور:

«المركز التجاري الأساسي في سورية الجنوبية. فهي مخزن كل انتاج سورية الجنوبية ـ أي لبنان وفلسطين، يرسلُ تجارها لتجميع المحاصيل وكلاء لهم الى الرملة وعكا وبيروت وطرابلس. فيقيم الوكلاء طوال العام في مراكزهم ويشترون البضائع ويشحنونها الى صيدا على زوارق محلية، وتعود اليهم بالمال والبضائع الاوروبية التي يحتاجون اليها».

ويستمر الدكتور عبد النور في وصفه لتجارة صيدا، فيقول: «وفي صيدا يوضّب الانتاج ويُشحن على السفن الذاهبة الى الغرب. فأساكل سوريا الجنوبية كانت اذن على نوعين: أساكل تؤمن جمع انتاج المناطق المحيطة بها، وأخرى (كصيدا) تقوم بجمع البضائع من الأساكل الصغيرة، ومن الأرياف بواسطة القوافل، وبتصديرها الى الخارج».

وفي القرن الثامن عشر الميلادي، أيام ظاهر العمر والجزار، وقد حكما إيالة صيدا من عكا، خلال النصف الثاني من القرن المذكور، أخذت عكا مكانة خاصة لجمع المتاجر والسّلع، على نحو ما كانت تقوم به صيدا. فقد ضمن هذان الحاكمان الأمن في شمال فلسطين وجنوب لبنان، وشجعا التجار الفرنسيين، الذين استقروا في عكا، ومن هناك، انطلقوا في تجارتهم. على أن الذي يجب أن يذكر دائماً، هو أن التنافس التجاري الأوروبي كان هو المسيطر على تجارة الدولة العثمانية. وهذه

المنافسة كان مجالها وممثلوها، فرنسا وانكلترا وهولندا، بعدما فقدت البندقية دورها بعد سنة ١٥٧٠ م. وكانت الأدوار، بالنسبة للتفوق والتأخر، تتأرجح ، وتختلف.

في سنة ١٧٩٩ م حاصر نابليون عكا، بعد أن كان قد احتل مصر، ولكنه لم يتمكن من احتلالها. فعاد الى مصر، ثم الى فرنسا. وكانت حملة نابليون ذات أهمية خاصة، بالنسبة لبلاد المشرق. لقد كانت الإعلان الرسمي عن اعتماد الدول الاوروبية سياسة السيطرة الفعلية على هذه المنطقة، وذلك تحقيقاً لمطامع اقتصادية، تكون السياسة والحرب الوسيلتين المؤديتين اليها. ومع أن الاحتلال الفعلي احتاج الى وقت طويل - مصر ١٨٨٢ م، وبلاد الشام والعراق ١٩١٨ م - فإن المقدمات والتدخلات والعمل على استمرار ضعف الدولة العثمانية وتفككها، كانت جادة. وقد أعانت الدولة العثمانية، بما مرّ بها، خصومها على نفسها.

وفي هذه الفترة - أي في القرن التاسع عشر الميلادي - لم يكتفِ التجار بمحاولة الاستيلاء على الأسواق بل تقدموا في أنحاء الدولة العثمانية بمشاريع لبناء الموانىء وإنشاء السكك الحديدية، مقابل امتيازات معينة. ومن هذه المشاريع، سكة حديد برلين - بغداد أصلاً، ثم السكك الحديدية التي مُدَّتْ بين بيروت ودمشق، ثم الى حماة وحلب، وبين يافا والقدس.

أما سكة حديد الحجاز، فكانت مشروعاً عثمانياً حميدياً اسلامياً. وكل ما هناك، أن التكنولوجية في اجزائه الأولى، كانت المانية. لكن المشروع، كان بعيداً عن الاستعمار ومخططاته.

ولا ننسى أن المنطقة، التي سيطرت عليها الدولة العثمانية، أفادت من ذلك شيئاً كثيراً. فقد سهل الاتصال بين أجزائها، وقامت فيها مدن كبيرة. صحيح أن هذه المدن مثل القاهرة ودمشق وحلب والقدس وبغداد، كانت موجودة، لكنها نمت واتسعت.

والذين زاروا المنطقة، من الرحالين والكتّاب ورجال السياسة والمال والتجار، وخصوصاً من أهل الغرب، حرصوا على تدوين أخبارهم في يوميات أو مذكرات أو تقارير أو كتب وضعوها. وبعضُ ما كتب، كان للتسلية الشخصية. وبعضه، كان أعمالاً أدبية مجرّدة. لكن أكثره كان مما يمكن أن يفيد، إما المؤسسات التجارية، مثل شركة المشرق أو شركة الهند الشرقية البريطانيتين، او المؤسسات الحكومية، كالذي عرف عن «فولني» و«علي بك العباسي»، من حيث ارتباطهما بالبلاط الفرنسي.

وعلى كل، فنحن مدينون لهؤلاء بكثير من المعلومات، حتى التي كتبها المغرضون منهم، التي استقيناها مما وضعوه. على أن البلاد - وهنا نقصد لبنان بشكل خاص - وصفها رحالة عرب. ومن جماع ما نحصل منه، نكوّن ناحية من نواحي تاريخها.

١٢ ـ جون ساندرسون يزور لبنان

رجال من جنسيات مختلفة ومتعددة زاروا لبنان والمنطقة، في العصور الحديثة، بيد أن أكثرهم كانوا من الانكليز والفرنسيين. وقد يكون سبب هذا الاهتمام بالأساكل، أي الموانىء كما كانت تسمى، لما فيها من متاجر وأسواق ومرابح. فإذا خفّت الحركة التجارية في الموانىء، وجد هؤلاء في الداخل ما يجذبهم. وحتى إذا أقفرت الأسواق من المتاجر، جاء المنطقة زوار من نوع آخر.

فهناك رجال السياسة؛ وهناك جماعات المبشرين؛ وهناك الحجاج، الذين لا يبغون من الزيارة، إلا أن ينعموا بدخول الأراضي المقدسة. ولطلما وسعوا نطاق حجّهم، بزيارة دمشق ولبنان. بل وقد تضطرهم السفن الى الوصول الى ميناء في لبنان، أو حتى في مصر، كي يتمكنوا من العودة.

ومن هنا جاءت هذه الرحلات المنوعة، من حيث الأوصاف والمعلومات، ومن حيث الانطباعات. فالذي تتكسر به السفينة، فتلقيه على الشاطىء، لا يمكن أن تكون انطباعاته مثل الذي يصل الميناء مطمئناً. والذي قد يتعرض للصوص في الطريق، وما كان أكثرهم، لا يمكن إلا ان يُنحي باللائمة على ادارة البلاد وحكامها.

فضلاً عن ذلك، فهؤلاء القوم، كانوا يأتون بلاداً تختلف عن بلادهم في كل شيء، وكانوا يلتقون جماعات بعيدة كل البعد عما ألفوا. ومن ثم، فقد كانت مواقفهم تختلف من حالة الى حالة. على أنه يظلّ، عندما نُقَصي هذه الأمور عن كتاباتهم، بإمكاننا أن نستعين بما كتبوا على كتابة تاريخنا.

وسنتناول هنا جون ساندرسون John Sanderson، وهو بريطاني من جماعة التجار.

وساندرسون لندني المولد والنشأة. ولد سنة ١٥٦٠ م، وبعد سنوات قضاها في المدرسة، ثمّ في تلقي الدروس الخصوصية في الكتابة وأصول المعاملات الحسابية التجارية، انتقل الى حانوت والده. ولم يطل ذلك، فقد دخل في خدمة تاجر، ليتدرب على العمل بأنواعه، كي ينضمّ الى المؤسسة التجارية.

ولا بد هنا من ذكر ان ساندرسون كان يتضايق من نظام المدرسة التي أُرسل اليها. وبما أننا معنيون بزيارة ساندرسون للبنان، فقد يكون ثمة متعة في معرفة هذه القصة.

كتب جون ساندرسون ترجمة ذاتية؛ جاء فيها، فيما يتعلق بالمدرسة، ما خلاصته: روت له والدته ان طفولته كانت بائسة؛ بسبب ضعف بنيته، وبسبب بثور كانت تظهر على جلده، فتؤلمه وتؤذيه. أما هو فيقول عن مدرسته: «إن بؤسي في المدرسة كان كبيراً... فقد كان فيها معلمان مجنونان. وقد ضربني أحدهما، وهو المدعو كوك وكان مدير المدرسة، بحيث أنه ترك على فخذيّ ندباً ما تزال موجودة الى الآن».

وقبل أن ينهي ساندرسون مدة الخدمة القانونية مع التاجر، نقله هذا الى جماعة أخرى من التجار. ويبدو أن مثل هذا الأمر، كان جائزاً. هذا مع العلم بأن ساندرسون، لم يُستشر، ولم يعرف بالأمر. وعندها، أرسله المسؤولون الى استانبول، ليكوّن صلة تجارية مع المموليين المحليين هناك، وكان يومها في سن الرابعة والعشرين، فقضى هناك أربع سنوات، وعاش في منزل السفير البريطاني.

كانت العلاقات التجارية بين استانبول وانكلترا، آنذاك حديثة العهد، وقد نظمها السفير هاربورن نفسه. وكان السفير الفرنسي يحاول أن يمنع التجار البريطانيين من الحصول على إذن بالاتجار مع استانبول ومع الولايات العثمانية، على اعتبار أن هذا كان حكراً على الفرنسيين. لكن هاربورن دبّر الأمور، وحصل على الإذن ـ البراءة، قبل وصول ساندرسون بفترة وجيزة. وأثناء السنوات الأربع التي قضاها في العاصمة العثمانية، أُرسل ساندرسون الى الاسكندرية في مهمة تجارية.

وفي طريق عودته، مرّت السفينة بمدينة طرابلس. وهناك، مرضَ ساندرسون، وقضى نحو ستة شهور في مرض وعلاج ونقاهة. ومنها سافر الى لندن. وكان «لمعلمه»، التاجر الأصلي، حصة من المتاجر التي حملتها السفينة، وهي من «النيلة». وقد بيعت في أسواق لندن بسعر سبعة شلنات للپاوند، أي الرطل الانكليزي (٤٥٤ غراماً). ويعلّق ساندرسون على ذلك، بقوله: «هذه الأسعار المرتفعة تدلّ على حاجة الصباغين للنيلة».

زار ساندرسون المشرق ثانية لسبع سنوات، بين سنتي ١٥٩١ و١٥٩٨ م.

لكن أثناء زيارته الثالثة للمشرق، والتي تمت بين سنتي ١٥٩٩ و١٦١٢ م، جاء لبنان، وزار فلسطين. وقد وصل الى استانبول أولاً، ثم ذهب الى صيدا. ويقول إنه مرّ بصور يوم أول حزيران/ يونيو، وفي اليوم عينه، ألقت السفينة مراسيها في صيدا.

والطريق الذي اتبعه ساندرسون من صيدا الى دمشق، شمل النقاط التالية: السمقانية والباروك وطرف جبل الشيخ وسلسلة لبنان الشرقية. واقتصرت زيارة ساندرسون لصيدا على الآثار التاريخية.

وبعد زيارة البلاد المقدسة، عاد ساندرسون الى لبنان، بطريق دمشق. لكن هذه المرة عاد من دمشق الى طرابلس. فمرّ بسهل البقاع، الذي يقول عنه، إن عرضه

يتراوح بين عشرة أميال واثني عشر ميلاً؛ أما طوله، فضعف ذلك. وهو سهل خصب، غني بتنوع ألوان التربة والمزروعات فيه.

ويمرّ ساندرسون ببعلبك. لكنّ هذا الرجل التاجر، لا تلفته قلعة خربة، لا يسكنها أحد. بل إن كل ما يضيفه الى ما تقدم هو أن القلعة تعود في تاريخها الى العصر الذي عاش فيه سليمان. وهذا يقصّر عمر بعلبك ـ الهيكل ـ بما لا يقلّ عن عشرين عاماً. أما سهل بعلبك ـ البقاع، فيقول عنه ثانية: «أروع بحر من الأرض رأيته في حياتي».

فهو يصفه بالبحر، لأنه مستو!

اجتاز ساندرسون وصحبه المنطقة بين بعلبك وطرابلس في الثالث عشر والرابع عشر من شهر آب/ اغسطس. ويشير الى أنهم وصلوا الى قرية، هي عين عطا، ثم تسلقوا جبل لبنان الذي يقول عنه إنه أعلى جبل يجتازه البشر في العالم. وهذا كان قبل ان يتعرّف الغرب إلى جبال هملايا، ويحاولون تسلق جبل افرست. ويضيف ساندرسون قوله: «مع أن الوقت كان أحرّ أيام السنة، فقد كانت جيوب من الثلج ترى على الجبل. وقد كان البرد شديداً بحيث أن يديّ جمدتا من شدته. لكن لما انحدرنا بضعة أميال، الى الغرب، عدنا الى طبيعتنا».

ويشير ساندرسون الى شجر الأرز الكبير، الذي يقع على مقربة من بشري. وبعد أن يمتّع ساندرسون نظره بالطبيعة الجميلة، يصل مع رفاقه الى طرابلس، وقد عمّ الظلام المدينة. وقضى في طرابلس مدة طويلة، إذ إنه لم يغادرها نهائياً الى لندن، إلا في أواسط شهر شباط/ فبراير سنة ١٦٠٢ م.

وأثناء إقامته هذه في طرابلس، عرف ساندرسون ان جماعة من الذين جاءوا معه على السفينة التي حملتهم من استانبول الى صيدا، كانوا قد أودعوا سجن القلعة في طرابلس، وقد اتهموا بأنهم نهبوا مركباً، كان يحمل بضاعة من الصابون وغيره تخص الأمير وحاشيته. وعرف أيضاً أن خمسة منهم، كانوا معرضين للحكم عليهم بالقتل. وكان ساندرسون مقتنعاً أن التهمة باطلة. ولم يكن أمام أي منهم سبيل للنجاة من العقاب، مهما كان نوعه.

ولكنّ ساندرسون يقول: «إن الله يسَّرَ أمرهم. ذلك بأن قاضي طرابلس كان رفيق سفرنا على السفينة من استانبول الى صيدا، وقد لقي منا جميعاً معاملة محترمة، فتقدمت منه ورجوته أن يتدخل. ففعل ذلك وبكل ما لديه من قوة ونفوذ. وبذلك أطلق سراح الجميع، إذ اقتنع المسؤولون بأنهم أبرياء، وذلك بشهادة القاضي».

كان ساندرسون يأمل أن يبحر من طرابلس على ظهر السفينة «تروجان» Trojan، لكن هذه السفينة، ألقت بها العواصف الشديدة الى الصخور؛ فتحطم جزء منها، وانغرست في الرمال. لذلك سافر في ١٦ شباط/ فبراير سنة ١٦٠٢ م على متن سفينة أخرى، حملته الى اسكندرونة، ومنها الى بلاده.

ولما كان ساندرسون في القدس، وقع خلافٌ بينه وبين بعض الرهبان الكاثوليك، حول زيارة مكان معيّن. فقد اتهموه بأنه ليس مسيحياً، ولا يحق له زيارة هذا المكان. لكّن الخلاف سوّي يومها. إلا أن ساندرسون يقول إن هؤلاء نقلوا الخبر الى جماعة من الرهبان في طرابلس، وأوعزوا اليهم أن يؤذوه. فهو يتّهم أحدهم بأنه أطلق عليه النار من بارودة صيد، وادّعى أنه كان يصيد العصافير. ولكن الله أنقذ ساندرسون والعصافير.

١٤ ـ هنري مندرل في لبنان

من المعروف أن التجار الانكليز استطاعوا، في القرن السابع عشر الميلادي، أن تكون لهم امتيازات خاصة في الدولة العثمانية. وقد وضعت أسس هذه الصلات في أيام السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥ م). وكان المركز الرئيسي لهؤلاء التجار، بالنسبة لبلاد الشام، هو حلب. والذي نعرفه أنه في الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادي، كان هناك مجموعة لا يستهان بها من هؤلاء التجار.

وفي السنة ١٦٩٦ م عيّن هنري مندرل Henry Maundrell راعياً لهؤلاء التجار في حلب. ومندرل، كان قد تخرج في جامعة اكسفورد، ورغب على ما يبدو، العمل في التدريس في الجامعة. لكن هذا المنصب كان فيه كثير من التحدي. فترك اكسفور، وذهب الى حلب. وقبل أن يقضي سنة هناك، أظهر بعض أفراد رعيته رغبة في الذهاب الى بيت المقدس، لقضاء اسبوع الفصح هناك. وكان هذا أمراً يرغب فيه المسيحيون، وخصوصاً الأجانب، أي قضاء أيام الفصح بالقدس. وبما أن أربعة عشر شخصاً من الجماعة، كانوا ينوون الذهاب، فقد قرر مندرل ان ينضم اليهم. فهو، كما قال، يكون في صحبة الاكثرية من رعيته.

وهكذا، فقد غادرت الجماعة حلب في أواخر شهر شباط/ فبراير ١٦٩٧ م، متجهة نحو الساحل السوري. ثم سارت على الطريق الساحلي حتى دخلت لبنان، عند النهر الكبير، وذلك في التاسع من آذار/ مارس. وكانت المدينة الأولى التي وصلوا اليها، طرابلس. وكان دخولهم اليها حين مغيب الشمس. وكان مع الجماعة، بطبيعة الحال، عدد من المكارين، للعناية بدواب الركوب والنقل. يقول مندرل: «لما قاربنا طرابلس تلكأ المكارون لأنهم كانوا قد سمعوا بأن حكومة طرابلس ستستولي على البغال والحمير والخيول التي معهم لتسخرها في أعمال الدولة لذلك تركناهم في السهل وسرنا نحو طرابلس».

هذا الأمر لم يكن مجرد إشاعة. ذلك أن الحكومة العثمانية، في تلك الأوقات، درجت على مثل هذا التصرف. وبهذه المناسبة، فإنه كان هناك أمر آخر، يتوجّب على المسافرين التنبه له، وهو دفع مال الغفارة (أو الخفارة)، إما للزعيم، أو للبدو، أو لأي مجموعة تطلبه ولا يمكن ردعها. ولما وصل مندرل وصحبه الى طرابلس، نزلوا في

بيت يقطنه هاستنغر القنصل البريطاني وفيشر التاجر. وعلّق الرحالة على ذلك بقوله: «وهذا هو البيت الوحيد للانكليز في طرابلس».

قضى مندرل اسبوعاً، كانت له ولصحبه خلاله زيارات للمدينة وأرباضها. فقد أخذهم المستر فيشر الى وادٍ قريب من المدينة، حيث تناولوا الطعام. ومندرل ذو إحساس رقيق بالطبيعة وجمالها. لذلك يشير الى ذلك في كل مرة تقع عينه على بقعة ساحرة. وما أكثر مثل هذه البقاع في لبنان!

والذي أسف له مندرل، هو أن طرابلس تعفوها الرمال من جهة البحر، وأن الحكومة لا تهتم لذلك، بل إن تصرفها يكاد يكون مشجعاً لأن تغطي الرمال المدينة. وفي اليوم الثالث لوصولهم، ذهبت الجماعة لزيارة باشا طرابلس. فطرابلس كانت قد أصبحت يومها إيالة، وكان سلطان الباشا يشمل شمال لبنان كله.

يقول مندرل: «ليس من اللائق أن تزور مثل حاكم طرابلس دون أن تحمل له هدية. والهدية ترسل مسبقاً ويكون معناها طلب الإذن من الحاكم في هذه الحالة لزيارته، وهو الذي يعيّن الموعد».

إلا أن الرحالة يضيف: «إن الهدية أمر متوقع حتى بين الناس العاديين. إذ قلما يزور امرؤ شخصاً آخر دون أن يحمل له زهوراً أو برتقالة أو ما الى ذلك».

وكان دير البلمند أحد الأماكن التي زارتها الجماعة. ويصف مندرل صعوبة الوصول الى الدير من الطريق البحري، مع أن الرهبان المقيمين فيه، قد بذلوا الجهد الكبير لتسوية الطريق وتمهيده. وقد دخل الزوار الى الكنيسة، إذ كان الرهبان يهمّون بالقيام بخدمة المساء الإلهية. ولم تعجب الخدمة، على الطقس الأرثوذكسي، القس البروتستانتي، أولاً، لأنه لم يفهم الكلمات، وثانياً، لأن الطقس يختلف عمّا ألف. ولم يعجبه استعمال البخور. كما أنه استغرب تقطيع الأرغفة، بعد أن صُلّي عليها، وتقديمها لجمهور المصلّين.

وتحدّث مندرل عن رهبان البلمند، فقال إنهم كانوا طيبين ومجتهدين، لكنهم كانوا جهلة. بيد أنه يعذرهم، لأنه عرف أنه مطلوب منهم أن يقوموا بجميع الأعمال اللازمة في الدير؛ فهم يرعون الماشية، ويحرثون الأرض، ويقنبون أشجار الكرمة. كل هذه الأشياء، يقومون بها؛ أولاً، كي يؤمنوا حاجاتهم من الغذاء والكساء، ويساعدوا من يأتيهم من المحتاجين؛ وثانياً، وهو الأهم، كي يُرضوا جشع أولي الأمر من الحكام، وخصوصاً الأتراك منهم.

يصف مندرل، بشيء من التفصيل، استقبال الباشا لهم وضيافته، إذ إن الهدية على ما يبدو كانت ثمينة، ولو أن المؤلف لا يتحدث عنها. ولما حان الوقت كي يغادروا طرابلس، لم يجدوا المكارين، ذلك أن خوفهم من الباشا كان كبيراً، فتركوا الجماعة، واختفوا. فكان على مندرل وصحبه أن يستأجروا الدواب اللازمة من جديد. ولما تمّ

لهم ذلك، غادروا طرابلس. ومروا بالقلمون، ثم بالبترون، وأخيراً وصلوا الى جبيل؛ في اليوم الثاني لتركهم طرابلس.

وكان من الطبيعي أن يُعنى مندرل، وهو الجامعي المتعلم، بالآثار الكثيرة التي مرّ بها. فكان يتفحصها ويصفها وكان ينقل النقوش اليونانية واللاتينية التي يراها. لذلك تأثر كثيراً، لما مرّ بنهر الكلب، ورأى النقوش، ولكنه لم يتمكن من الوقوف الوقت الكافي لينقلها، لأن الطقس كان ماطراً عاصفاً. ويبدو أن صحبه تململوا، فسار آسفاً.

وبهذه المناسبة، من الواجب أن نتذكّر أن مندرل كان يزور البلاد قبل نحو ثلاثماية سنة، وأن الآثار، التي نشاهدها اليوم واضحة، كانت مطمورة. ووجد البلدة يقطنها قليل من السكان.

قضى مندرل وصحبه ليلة في الخيام على ضفة نهر ابرهيم، وكانت العواصف والزوابع شديدة، والأمطار غزيرة. وفي صباح اليوم التالي، ظهرت مياه نهر ابرهيم، وقد احمرّ لونها، وأثرت في بقعة واسعة من البحر، عند مصبّ النهر. وفي ذلك يقول مندرل: «وهكذا رأينا مياه نهر أدونيس (ابرهيم) مصبوغة باللون الأحمر، لكن ذلك كان بسبب تربة حمراء لا بسبب دم أدونيس الذي قتل هناك، على ما تروي الاسطورة».

ويُعجب مندرل بساحل جونية وجبال كسروان المطلة عليه، ويصف المنظر وصفاً جميلاً. وأخيراً يُطل على سهل بيروت. فيذكر اسطورة قتل التنين على مقربة من المدينة، وهي الاسطورة القديمة التي نقلتها الجماعات الى القديس جورج.

وبهذه المناسبة، فإن أماكن كثيرة على الشاطىء الشامي تروي القصة على أنها تخصّها. ويافا، في فلسطين، تزاحم بيروت في التمتع بالقصة وملحقاتها.

ولما وصل مندرل الى بيروت، كان اسم فخر الدين ما يزال يذكر في المدينة وبعض أنحاء الجبل. فقد كان عدد كبير من الجسور، التي اجتازها مندرل وصحبه، بين طرابلس وبيروت، من تلك التي بناها فخر الدين. وقد حرص مندرل على زيارة بعض ما كان ما يزال قائماً من آثار الأمير الكبير. فمن ذلك، الخان الذي نزل فيه الرحالة ـ كان هذا من الأبنية التي تُعزى لفخر الدين، تشجيعاً على الأقل. وبعد أن يصف صاحبنا المدينة وموقعها وآثارها وخصب أرضها، ينتقل الى قصر فخر الدين.

يقول الرحالة عنه إنه يقوم في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة. يقوم عند مدخله نافورة من الرخام، قلّما أن يرى لها مثيل عند الأتراك. وقد كانت تحيط بالقصر، على ما أخبر مندرل، إسطبلات وأماكن للحيوانات النادرة. هذا، فضلاً عن القاعات الواسعة والغرف الكثيرة داخل القصر بالذات.

ولعل أكثر ما أُعجب به مندرل، هو بستان البرتقال، الذي كان يشغل رقعة مربعة واسعة من الأرض، مقسومة الى ستة عشر جزءاً مربعاً أيضاً، بحيث تكون كل أربعة

منها صفاً واحداً. مع وجود ممرات بين هذه المربعات. والممرات هذه تغطيها أشجار البرتقال، وهده منسقة في نموها، من الجذر الى أعلى أجزائها.

ويقول مندرل: «وقد بدت لنا، ونحن في هذه الزيارة، كأنها مذهّبة بسبب الثمار الناضجة والتي كانت تغطي الأشجار بشكل لم أرَ له مثيلاً على أشجار التفاح في انكلترا. وكان كل من هذه المربعات الصغيرة يدور به إطار من الحجارة، وداخل هذا الإطار رأينا مسارات للماء، بحيث يمكن للماء أن يصل الى كل مربع في البستان. ذلك بأن هذه المسارات المائية توجد فيها فتحات يتسرب منها الماء الى الاشجار، فيرويها.

«وكانت تقوم الى الشرق من البستان ممرات أُنشئت على نشز من الارض، فيما كانت الاستراحات الصيفية والأكشاك اللطيفة تقوم الى الشمال من البستان».

غادرت الجماعة بيروت، ومرّت بحرج بيروت أو، كما يسمى محلياً، صنوبر بيروت. وقد أُخبر مندرل أن هذا الحرج، يعود إنشاؤه الى فخر الدين أيضاً ونقل هو هذا، لكن الذي نعرفه نحن أن هذا الحرج، يعود الى الأيام الموغلة في القدم. ولعلّ فخر الدين عُني به. ومنع قطع أشجاره. ويتابع رحّالتنا وصحبه السير، فيمرون بصيدا.

وعند مدخل المدينة تلقى الجماعة فئة من التجار الفرنسيين، الذين لهم أكبر مركز تجاري في المشرق بأجمعه في هذه المدينة، ومع أن جماعة مندرل ضربت خيامها خارج المدينة، فإن السادة الفرنسيين، كما يسميهم الكاتب:

«أخذونا الى حيث يقيمون في خان على شاطىء البحر. وهو مسكن الجالية الفرنسية بأكملها بمن فيها القنصل، وهو قنصل في صيدا ويحمل لقب قنصل القدس أيضاً. وبسبب هذا اللقب يترتّب عليه ان يقصد بيت المقدس في عيد الفصح. ومن واجباته هناك المحافظة على الرهبان باسم الامبراطور».

ويعلّق مندرل على ذلك بقوله: «إلا أن الرهبان يحسبون أنهم في عافية بدون هذه الجماعة».

وأخيراً، سارت الجماعة من صيدا، ومرّت بصور. وصور، المدينة التي وقفت في وجه الاسكندر، اهتم بها مندرل، ووصفها وصفاً أثرياً. وبعد مسيرة بعض يوم من صور، وصلت الجماعة الى الناقورة، وانحدرت داخلة فلسطين.

١٥ ـ عالمان دمشقيان في لبنان

زار لبنان، أو أجزاء منه على الأصح، في القرن السابع عشر الميلادي عالمان دمشقيان، هما رمضان بن موسى العطيفي، المتوفى سنة ١٦٩٣ م، وعبد الغني النابلسي، المتوفى في دمشق في سنة ١٧٣١ م. وليس ثمة من ترابط بين الرجلين سوى أنهما زارا المنطقة في القرن السابع عشر الميلادي وخلّفا وصفاً لبعض الأماكن.

قام العطيفي برحلته سنة ١٦٣٧ م. أما النابلسي فقد قام برحلتين الى المناطق اللبنانية. في الأولى، التي تمت سنة ١٦٨٨ م، زار البقاع، بما في ذلك بعلبك، بطبيعة الحال. وفي الرحلة الثانية، خرج من دمشق الى صيدا. وبعد اسبوع قضاه فيها، انتقل الى بيروت، عبر عانوت ودير القمر والدامور. وقضى في بيروت يومين، ثم اتجه الى طرابلس متبعاً الطريق الساحلي. وقد أعجبته طرابلس. فظلّ فيها أسبوعين، وعاد عن طريق اهدن وعيناتا، مجتازاً جبال الأرز، وبعلبك وكرك نوح. وكانت هذه الرحلة في سنة ١٧٠٠ م.

يتساءل المرء، عندما يقرأ مثل هذه الرحلات، عن مدى الفائدة التي تعود عليه. والواقع أن هذه قضية هامة، بالنسبة الى الرحالين وقرائهم. والأساس في الموضوع هو: لماذا يرحلُ شخص ما؟ وبعد أن يجيب المرء عن هذا السؤال، يخطر له سؤال ثان: ما هو مزاج الرحّالة؟ وهذان الأمران يقرران ما يكتبه الرحالة، وكيف يكتبه. أما نحن، فإننا نريد أن نفيد من قراءة الرحلة.

وليس من شك في أنها قضية مهمة فعلاً: هل الرحّالة، الذي نقرأ له في وقت ما، مؤرخ؟ هل هو جغرافي؟ هل هو من أهل الأدب؟ هل هو عالم ديني أم طبيعي؟ هل هو... الى آخر ما يمكن أن يخطر على البال من الاسئلة. وبالنسبة لرحالَيْنا، اللذين نتحدث عنهما، نلاحظ فرقاً كبيراً بينهما. فالعطيفي، يدوّن فصلاً كاملاً في مدح السفر. ثم ينتقل الى تدوين رحلته، ومعه: «صديق في المحبة صادق، ورفيق فيما أروم موافق».

أما النابلسي، فيقول عن زيارته الأولى للبقاع: «لقد يسر الله تعالى لنا السير الى أرض البقاع العزيز... بقصد زيارة من فيها من الأولياء والصالحين».

أما رحلته الثانية، التي ضمّت صيدا وطرابلس، فيقول عنها: «قد اقتضت رحلتنا من دمشق الشام زيارة اخواننا من ذوي المجد والاحتشام... وقد دعينا الى زيارة طرابلس بإشارة كانت من بعض الحكام في هاتيك البلاد».

ومن الجدير بالذكر ان النابلسي، كان عالماً معروفاً ومتصوفاً مشهوراً، وقد كثر في دمشق طلابه، من أهل البلد، ومن الوافدين عليها من جهات مختلفة. لذلك، نجده يزور تلميذاً هنا، وصديقاً هناك، وزميلاً هنالك.

ويصف الرحالتان المناطق والمدن وصفاً عاماً، بحيث تكاد تشعر، أحياناً، أنك لو بدّلت اسم مكان باسم آخر لما تبدّل الكلام، ولما احتجت الى تغيير اللهجة والنبرة. والرجلان يُكثران من رواية الشعر. وللنابلسي رحلتان، والشعر عنده أكثر، وشعره هو نفسه كثير. وتكاد تشعر أحياناً ان مجرى الشعر عنده لا ينقطع أبداً.

وما دام العطيفي هو الأسبق، فسنتناوله هنا أولاً، وذلك لسببين: الأول، هو هذه المجموعة اللطيفة من الأقوال ـ نثراً وشعراً ـ التي تحضّ على السفر، مادحة، إياه على تباين أنواعه واختلاف غاياته. وأذكر أنني قرأت، قبل نحو ستة عقود من السنين أو أكثر، مقطوعة شعرية عن السفر، أعجبتني. وقد عثرت عليها عند العُطيفي. لذلك، أود أن أورد بعض أبياتها:

تغـرّب عن الأوطان في طلب العُلى — وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائد
تفـرّجُ همٍّ واكتسابُ معيشة — وعلم وآداب وصحبة ماجد
فإن قيل: في الأسفار همٌّ وغربةٌ — وقطع قفارٍ واقتحامُ شدائدِ
فموتُ الفتى خير له من مقامه — بأرض هوانٍ بين واشٍ وحاسد

ولأنني كثير الرحلة، فإنني أؤيد العطيفي فأقول: إذا استثنيت اكتساب المعيشة، فقد نعمتُ بالأمور أو الفوائد الأربع الأخرى. وكم آملُ أن أكتب يوماً من الأيام عن إفادتي من الرحلة في: تَفَرُّج الهمِّ والعلم والآداب وصحبة الماجد!

هذا هو الأمر الأول، الذي حملني على زجّ العطيفي في هذه الفصول. أما الأمر الثاني، فهو وصفه لطرابلس في ذلك الوقت. فهو الوحيد الذي تنبّه الى ناحية خاصة عن طرابلس، سأذكرها لاحقاً. لكن قبل ذلك، أريد أن أعرض الوصية التي ختم بها الباب المتعلق بالأسفار وفوائدها. قال: «أوصى بعض الحكماء ابنه، وأراد سفراً، فقال: «إنك تدخل بلداً لا تعرفه ولا يعرفك أهله، فتمسّك بوصيتي تنفقُ بها ـ عليك بحسن الشمائل فإنها تدلّ على الحرية؛ ونقاء الأطرافِ، فإنها تدل على الملوكية؛ ونظافة اليد فإنها تشهد على النشوء في النعمة؛ وطيب الرائحة فإنه يظهرُ المروءة؛ والأدب الجميل فإنه يكسب المحبة».

خرج العطيفي من دمشق، وقطع مع صاحبه عقبة دُمّر. يقول: «ثم استقبلنا وادي بردى نمشي على بساط من الأزهار، في ظل سرادق من الأشجار، ونترنّم بغناء الأطيار، ونمتّع العين بتكسّر الماء على الأحجار».

وبالمناسبة، فإنني أورد هنا وصفاً له لمحلةٍ في شرقي طرابلس، مرتفعة مشرفة

على البلدة. قال العطيفي: «فدخلنا الى دار حسنة البناء. وصعدنا الى مكان مرتفع له شبابيك من جهة الغرب. وكان آخر النهار، والشمس تهوي للغروب. ومن عادة الشمس إذا قارب وقت الغروب من جهة البحر، لا تمنع الأبصارمن رؤيتها، فرأيت شيئاً لم أرَ أبهج منه من المكان والزمان والمنظر العجيب».

أما عن طرابلس، فإن الرحالة يقول:

«دخلنا طرابلس... فإذا هي بلدة لطيفة، ماؤها كثير ورزقها غزير. جميع بنائها بالحجر ليس فيه شيء من الخشب... يشقها نهر تقع على حافتيه من الجانبين الجوامع والمدارس والقصور والشبابيك. وهذا النهر غير نهر السُقيا لبيوتها وحماماتها. والماء يصعدُ الى أعلى مكان بها».

ويضيف: «ولها قلعة في طرفها على جبل مطل عليها. وماء السُقيا يمرّ بطرف من العلوّ، والنهر الآخر في سُفل وادٍ. وبها جميع فواكه دمشق وأكثر نباتات مصر. فلذلك يقول أهلها: هي دمشقية مصرية. وقد سمعت بعض أهلها يقول: بلدتنا هذه الهند الصغيرة. ويحيط بكل أطرافها بساتين وغياض ومتنزهات، ونسيمها لطيف، وبها أزاهر ورياحين، وأكثر ما حولها من شجر الحمض (أي الاشجار الحمضية). وهي على حافة البحر. إلا أن بينها وبين البحر ما تقدّم من البساتين».

ويبدو أنه من المألوف، في الشرق والغرب على السواء، أن يُعنى الحكام بمثل هؤلاء العلماء الرحالة. فالعطيفي يروي أنه اجتمع بحاكم طرابلس يومها: «الأمير الكبير علي ابن الأمير الكبير محمد بن سَيْفا فدخل داره... فأكرمني غاية الإكرام وأمرني أن لا أغبّه في الزيارة».

هذا على غير معرفة سابقة به.

أما عبد الغني النابلسي، فقد كان عالماً معروفاً، يُسعى اليه، ولا يَسعى الى الناس. ومن هنا كان اهتمام والي طرابلس ارسلان باشا به، اهتماماً من نوع آخر، فقد أرسل هذا الى النابلسي وصحبه من يستقبلهم، وأنزلهم قصره. على كل، يجدر بنا قبل أن ننقل بعض ما قاله النابلسي عن لبنان، أن نذكر أنفسنا برحلتيه اللتين أشرنا اليهما قبلاً. الأولى، كانت للبقاع؛ والثانية، شملت صيدا وطرابلس، وعاد عن طريق جبل الأرز.

ففي رحلته الأولى، التي شملت البقاع فحسب، زار النابلسي كلّ وليّ من أولياء الله المدفونين في طريقه. لكنه يقف عند اليونيني. واليونيني، قبل أن يصبح ولياً بعد وفاته، كان عالماً مؤرخاً صالحاً. ولما توجّه النابلسي الى الدخول الى بعلبك قال:

«ثم إننا توجهنا الى الدخول الى بلدة بعلبك المعمورة، لأجل تتميم الزيارة لمزاراتها المشهورة... فخرج للقائنا... حافظ تلك البلاد حضرة محمد الباشا حفظه الله، بجماعته وخدمة وعسكره وحشمه... ثم رجع معنا فدخلنا من الباب بأكبر هيبة وجلالة».

وخرج القوم الى رأس العين. وهي متنزه بعلبك الى يوم الناس هذا، وتقع شمالي المدينة.

يقول النابلسي في وصف ذلك: «ثم أمر باخراج الخيمة العظيمة، ذات النقوش المختلفة، لأجل الاجتماع والمؤانسة، وانشراح النفوس المؤتلفة. فضربت تلك الخمية لنا في ذلك المرج الاخضر والروض الازهر الأزهى، عند المكان المسمى برأس العين، فانشرح الصدر وقرّت العين. وترقرقت هاتيك المياه اللطيفة وانسابت في ذلك الجدول وهي بنا مطيفة».

ولعله من الواضح أن التزام النابلسي السجْع يضجر بعض الشيء. ولو أن السجع يزيد في المعنى، لكان ثمة مبرر لتحمّله. ويلي ذلك، في وصف رأس العين، شعر بعضه نظم آنياً ـ نظمه النابلسي او عبد الرحمن، تلميذه وصديقه ورفيقه في الرحلة، والبعض الآخر رُوي، لمجرد أن يُقتبس الشعر.

ويصف النابلسي بعلبك، البعض نقلاً عن سابقيه، وبعض الوصف من قلمه، وهو وصف لم نحصل على مثله من رحالة عربي.

وصف عبد الغني النابلسي في زيارته للبقاع قلعة بعلبك. كما وصف حصن قب الياس، الذي بناه فخر الدين المعني، أمير لبنان في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلاديين. أما رحلته الثانية، فقد زار فيها ثلاث مدن لبنانية كبيرة، نسبياً: صيدا وبيروت وطرابلس. وقضى أسبوعاً في الأولى، ويومين في الثانية، وأسبوعين في طرابلس. وفي الرحلتين، يحرص الرّحالة على تدوين التاريخ، لكننا في الواقع لا نجد عنده أي اهتمام خارج اطار العلماء والأولياء، كما أن الاهتمام الرسمي به كان كبيراً.

بدأ إكرام النابلسي الرسمي في صيدا. فقد نزل الرّحالة وصحبه في دار صديق عزيز عليه اسمه لطفي جلبي. لكن محمد قبلان باشا، محافظ ثغر صيدا، أصرّ على السير الى حماه. فذهب الى مجلسه. ومع أنه لم يقم في دار الباشا، فإنه كان في رعايته مدة اقامته. ويذكر النابلسي زواره من أهل العلم والفضل. لكننا لا نسمع منه كلمة عن أولئك الذين كان يمر بهم في شوارع صيدا او بيروت او طرابلس. ومع أنه يتحدث عن المساجد والحمامات، فأنت لا تجد عنده ولو إشارة واحدة الى الأسواق وما تحوي. ويذكر أنواع المآكل النفيسة كثيراً، لكنه لم يصف لنا إحدى هذه الموائد وصفاً واقعياً، كذلك أصناف الأطعمة.

ويحرص النابلسي حرصاً كبيراً على وصف خزائن الكتب الخاصة والعامة، التي يراها عند أصحابها. وقد يستغرب القارىء عندما يسمع النابلسي يشير الى كتاب اطلع عليه عند الباشا، وقال عنه إنه كتاب عجيب، وله أسلوب غريب. والكتاب هو «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» تأليف شيخ الربوة الدمشقي. ويسهب في وصف

الكتاب وفصوله. فهل يا ترى لم يكن النابلسي يعرف الكتاب حقاً. أم أن تصرفه هذا كان بسبب أن الكتاب كان في خزانة الباشا؟ نحن نرجح الأول.

ويعدد المؤلف مساجد صيدا وزواياها. ففيها ستة جوامع، تقام في كل منها الجمعة. وأكبرها الجامع العمري الكبير. ينتقل الى الحمامات، ليخبرنا في صيدا ثلاثة حمامات فقط، مع أنه كان فيها عدد أكبر قبلاً.

وصل النابلسي وصحبه بيروت في اليوم الخامس عشر من بدء رحلته. ويمر بمقام الأوزاعي، فيدعو الله تعالى ويقرأ له الفاتحة. ونزلت الجماعة في سراية حاكم البلدة وأميرها؛ وهي سراية رفيعة البنيان مشيدة الأركان. وحولها الأبنية كثيرة لكنها مهجورة. والسراية وما حولها من أيام الأمير عساف والأمير فخر الدين. وقد زارها أهل بيروت من العلماء النابلسي وجماعته. ودعاهم الكثيرون لقضاء أوقات السرور في مقاهي بيروت. لكن ليس ثمة فرق في الوصف بين مكان ومكان.

يقول النابلسي:

«وقد رأينا في بلدة بيروت المحمية زوايا كثيرة وجوامع وحمامات... فمن الزوايا زاوية مشرق الأنوار تسمى بزاوية ابن القصار... والجوامع التي بها أربعة أولها الجامع الكبير. ومنها جامع الأمير عساف...».

ويخرج النابلسي من بيروت، ويمر بجسر بيروت ذي القناطر الست، ولكن الماء يجري تحت واحدة منها. إلا أنه قد أخبر أنه في الشتاء يعم الماء القناطر جميعها. ويضيف قوله: «وعلى أطراف هذا النهر رياض وبساتين يزرع فيها جميع الخضروات والباذنجان واليقطين، وكذا الموز وقصب السكر والقلقاس والليمون... وكل ما يجلب الى دمشق الشام مما هنالك. فالجميع يجلب من هذا المكان».

وعندما يصل الى انطلياس، يقول: «على جوانب نهر انطلياس بساتين أنيقة وأشجار وريقة».

ويعيد قصة الكلب المقطوع الرأس الذي سمي نهر الكلب باسمه. ومر الركب بالبترون والقلمون. وقد تلقاهم أهل القلمون بغاية الإكرام، وهيأوا لهم الذبائح في أماكنهم والمبيت في منازلهم. لكن طرابلس كانت قريبة، فاستمرت الجماعة بعد صلاة العصر في الاتجاه نحو المدينة.

يقول النابلسي:

«وجاء للقائنا من طرابلس أشخاص عديدة... فسرنا حتى دخلناها والشمس على جناح طائر... فخرج للقائنا أولو المجد والمفاخر، أرسلهم حافظ الثغر أرسلان محمد باشا. وقد كان هيأ لنا داراً عظيمة عامرة فاخرة وعين لنا جميع ما نحتاج إليه ونتوقف عليه. فرحنا، بعد اقامة عنده امتدت عقيب صلاة العشاء الآخرة، الى هذه الدار. والدار هذه منزل حسين جلبي آغا المينا بطرابلس المحمية».

زار علماء طرابلس وقاضيها والمفتي فيها جماعة النابلسي، ودعوهم الى نزهات خارج المدينة، لكن ارسلان باشا كان يستقبلهم يومياً تقريباً. ويصف المؤلف جلسة في ايوان الباشا بقوله: «فذهبنا الى ايوانه» ونزهنا الطرف في محاسنه السنية وانتشقنا من نفحاته الزكية وجلسنا في منادمة ارق من نغم الهزار وأعطار من نفحة الازهار».

وكانت تجري في جلسات مختلفة مناقشات في أمور فقهية وفتاوى متنوعة. وكان لعبد الغني النابلسي الدور الأول في المناقشة والقول الفصل في القضايا. ويحدثنا عن كتب رآها في خزانة كل من مفتي بعلبك وقاضي المدينة وابن سنين العالم الكبير».

زارت الجماعة الميناء، ونزلت في قصر آغا الميناء حسين آغا. ويروي أن صديقه الحاج نور الدين بشر، قال للجماعة: «مرادنا اليوم نرمي الشبك ونصطاد أنواع السمك. فهلموا بنا ننزه الأرواح والأشباح ونركب في البحر مع الصيادين في الغدو والرواح. فنزلنا في البحر واصطدنا أنواعاً من لحوم السمك الطرية وعدنا الى ذلك القصر الرفيع».

ولعلّ من الأشياء القليلة التي أشار اليها النابلسي، مما هو خارج عن مصاحبة الحكام والعلماء وزيارة المساجد ومشاهد الأولياء، ما رواه عن الميناء. قال: «وقد رأينا على حافة المينا جميع أنواع المراكب والسفن، وقد ذكر لنا أسماءهم صديقنا الحاج نور الدين المذكور. ولنعد ما سمعناه: اعلم أن أنواع المراكب وأسماءها كثيرة بلغت عدتها عشرين نوعاً، بعضها يخالف بعضاً في الصورة والهيئة، وأسماؤها متعددة، كل اسم يطلق على مركب مخصوص لا يتناول المركب الآخر، لكنه يطلق على المركب والسفينة».

ويعدد المؤلف العشرين نوعاً وأسماء من الماعونة والغليون الى الشنبر والبرمة والشكتباية. وكم كنا نحب، لو أن المؤلف وصف ولو البعض من هذه الأصناف. وبعد أن يعدّد هذه الأصناف العشرين يضيف قوله: «وأسماء القلوع كثيرة ولكنها لازمة لها الا القارب فإنه لا يلزم له قلع».

ويبدو من كلام الرحالة أن الحالة العلمية في طرابلس لم تكن على ما يلزم، يقول: «واعلم أيضاً أن ببلدة طرابلس المحمية مدارس وزوايا ومساجد لا تعد ولا تحصى. وسمعنا أنه كان بها ثلاثمئة وستون مدرسة، ولكن أكثرها الآن متهدم وغالبها مهجور».

كانت المولوية ذات مكانة كبيرة ونفوذ قوي في المنطقة. ويبدو أن الباشا كان من أتباعها، أو مؤيديها على الأقل. لذلك دعا الجماعة يوماً كي تحضر الى المولوية، التي وجدها النابلسي ذات أشجار عطرية، وهي شبيهة بجنة النعيم. وتكررت الدعوة الى المولوية، من القاضي هذه المرة.

وكان ممن اهتم بالنابلسي مصطفى آغا، وقد كان ضابط الجند المعروفين بالقبي قول في دمشق، وكان قد ترك الوظيفة الى الاشتغال بالعلم في طرابلس. فدعا

النابلسي وصحبه الى ايوانه الفخم. وقد رأى المؤلف عنده كتباً لطيفة، ومجاميع منيفة، منها «سكب الأنهر على ملتقى الأبحر» و«شرح المنية» وديوان أبي نواس و«مجموعة لطيفة فيها شرح البردة».

واطلع النابلسي هناك على فتوى في حلّ الدخان المسمى بالتتن أصدرها الشيخ علي الحلبي صاحب السيرة. فقد سئل الشيخ علي الحلبي: «ما قول شيخ الاسلام في شرب الدخان الحاصل في هذا الزمان. هل هو حرام على كل انسان او على بعض دون بعض».

والفتوى طويلة تأخذ بوجهات النظر التفسيرية وتنتهي الفتوى بالعبارة الآتية: «وحاصل الكلام أنه حلال، فلا تغتر بمن تراه بليدا ويفهم تقليداً ويقول في ذلك بالتحريم».

وقد تلقى النابلسي «مكاتيب» مرسلة من الأحباب في دمشق. فكان ينقل بعضها في متن رحلته. ومن الأخبار التي وصلته وأفرحته أنه ولد له ابن وهو في هذه الرحلة.

خرجت الجماعة من طرابلس في اليوم الرابع والثلاثين من أيام الرحلة التي يسميها النابلسي المباركة. وفي اليوم التالي، مرت بإهدن. ثم جدّت الجماعة السير كي تجتاز جبل الأرز الى قرية عيناتا. ويقول عن ليلة قضوها في الجبل: «وبتنا بها (عيناتا) ليلة باردة كالزمهرير، ولا بدع في ذلك فإن الجبل هناك مغطى بالثلج الكثير. فلما رأينا ذلك جمعنا الحطب وأوقدنا النيران وبتنا تحت خيمة السماء المبطنة بالدخان. ولم نزل بلا نوم كذلك حتى لاح الصباح وذهب الليل الحالك».

ومرت الجماعة ببعلبك، وزارت القلعة. ويبدو أن النابلسي زارها هذه المرة إكراماً لصحبه، وبعد زيارة لرأس العين، وقضاء بعض الوقت في الحمام. وفي صبيحة اليوم التاسع والثلاثين من الرحلة المباركة، خرجت الجماعة قاصدة دمشق، فمرت بالفرزل وكرك نوح، ثم بقرى أخرى حتى دمشق.

١٦ ـ فولني في لبنان

اتسمت الزيارات والرحلات، التي قام بها عدد من الكتّاب الأوروبيين الى المشرق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، بغايات لم تكن جميعها علمية أو أدبية. لقد كان بعض هؤلاء الرحالين من أهل السياسة، انتدبهم أولو الأمر في بلادهم ليتعرفوا إلى جزء من أجزاء المنطقة، بحيث تكون أبحاثهم سبيلاً للإفادة من تلك المعرفة.

ولم يقتصر هذا الأمر على القرنين المذكورين. فحتى في العصور الوسطى المتأخرة، كان هناك شيء من ذلك. لكن سنتحدث عن العصور الحديثة، وسنتناول واحداً من هؤلاء، لا لنبحث عن مهمته السياسية، بل لنتعرف الى الذي كتبه عن هذه البلاد. والرجل هو فولني.

زار فولني المشرق في سنوات ثلاث: ١٧٨٣ و١٧٨٤ و١٧٨٥ م. والمتعارف عليه عند الباحثين، أن حكومة فرنسا أناطت به مهمة خاصة، هي استطلاع أحوال ولايات السلطنة العثمانية في مصر وبلاد الشام. ومما لا يخفيه الباحثون الفرنسيون هو أن نابليون بونابرت أفاد من كتابات فولني كثيراً، لما قاد حملته الى مصر، ثم الى فلسطين.

لقد قضى فولني أكثر السنة الأولى من رحلته في مصر. وتعرف الى الكثير من شؤونها. إلا أنه لم يتعلم العربية هناك. ومن ثم كان في اتصالاته نقص، تخلص منه لما جاء الى لبنان، وتعلم العربية في دير لم يذكر اسمه. وتعلم العربية يسّر له من الاتصالات ما لم يتح لغيره. نحن نتكلم هنا عن فولني، ولكن لماذا لا نسمح له أن يتكلم عن نفسه، وقد ذكر أموراً طريفة في كتابه؟!

يقول فولني إنه هبطت عليه ثروة مالية جاءته إرثاً. فقرر أن يفيد منها في الزيارات والرحلات، إذ إن السفر: «أنجع الوسائل لتجميل العقل وتهذيب قوته المميزة».

وأدار الطرف، فوجد أن مصر وبلاد الشام، هما مهد جزء كبير من الحضارة الاوروبية. فضلاً عن ذلك، فإن أحوال الدولة العثمانية، كانت مما يدعو الى استقصاء المعلومات عن أوضاعها، ليخلص فولني الى معرفة قوة الدولة ومواردها.

يقول فولني: «ولدى عودتي الى فرنسة بعد غياب ثلاث سنوات حسبت أن

مباحثي قد تعود ببعض الفوائد. وعزمت على نشر دروسي عن الحالة الراهنة في بلاد الشام ومصر. وقد شجعني على ذلك أن المعلومات عن تلك الأقطار ناقصة، بسبب أن الرحلات اليها كبيرة المشقة. وقد عُني معظم الرحالين بالابحاث الأثرية أكثر من اعتنائهم بوضع البلاد الحديث».

ويضيف أن الكثيرني من الرحالين، اجتازوا البلاد على عجل، وكانت تنقصهم معرفة اللغة. وقد تردد فولني كما يبدو في الطريقة التي يضع فيها كتابه. فهو يقول:

«وكنت قد آليت عل نفسي، بادىء ذي بدء، ألا أتكلم إلا بما شاهدت بأم العين. على أنني رأيت، في سبيل إرضاء القراء أن أستكمل صورة هذه الولاية بما دونته عن غيري كلما تمكنت التثبت من صحته... وتجنبت أمرين، طريقة السرد المعتادة وتفاصيل السفر والحوادث اليومية».

ومن هنا، جاء الكتاب مؤتلفاً، معلوماته مستقاة من التجربة الشخصية والمراجع الأخرى. ولذلك نظم الكتاب تنظيماً تحليليّاً. فقد تناول المؤلف، بالنسبة الى بلاد الشام، الموضوع فصولاً: بحث فيها عن جغرافية البلاد؛ والحالة السياسة فيها؛ والسكان، رعاة ورُحَّلاً، ثمّ مستقرين؛ وخلاصة لتاريخ البلاد. ثم تحدث عن الولايات التي تتألف منها بلاد الشام في أيامه، وكانت: ولاية حلب، وولاية طرابلس، وولاية صيدا، وولاية دمشق.

ويستعمل فولني للولايات كلمة «باشاويات»؛ وهي الكلمة التركية «باشالِك». ويلي ذلك فصول تتناول وضع سوريا السياسي والإداري والديني. ولا تفلت الأحوال الدينية والمذهبية من قلمه. وأخيراً، هناك ثلاثة فصول تُعنى بالصناعة والتجارة والعلم والتعليم وعادات السكان وتقاليدهم. وسنحاول، هنا، أن نذكر شيئاً مما دوّنه فولني عن لبنان، مما فيه فائدة ومتعة.

ومع أن كثيرين من الرحالة السابقين كتبوا عن سكان بلاد الشام، فإن فولني، كان من أول من فصّل الأخبار عن القوم الرحَّل والرعاة، فعالج أمورهم تحت ثلاثة عناوين: التركمان والأكراد وعرب البادية. وخصّ كلا منهم بما يعتبره صفات مميزة له.

والمؤلف لا يطيل الحديث التاريخي، إلا أنه يخصص فصلاً طويلاً للشيخ ظاهر العُمر، الذي حكم شمال فلسطين وجُزءاً من جنوب لبنان بين سنتي ١٧٥٠ و١٧٧٦ م. وكان لبنان، في ذلك الوقت، يقع في ولايتي طرابلس وصيدا إدارياً. ونحن لا تهمنا سياسة الدولة، ولا إدارتها بشكل خاص؛ لذلك فإننا نود أن نتعرف الى ما نعتقد أنه مشاهدات فولني الشخصية عن لبنان، في السنوات التي سبقت حملة بونابرت على فلسطين.

جاء فولني أيام كان أحمد باشا الجزار حاكماً لولاية صيدا (١٧٧٦ ـ ١٨٠٥ م). وقد كانت يومها تشمل ـ من لبنان ـ سهل صور والبقاع الجنوبي والسهول الساحلية

الضيقة، الممتدة من صيدا الى بيروت. وما تبقى من لبنان، كان يدخل في ولاية طرابلس. ويلاحظ ان منطقة كسروان، تنمو فيها أشجار التوت والكروم. وورق التوت كان طعام دودة الحرير. وكان يترتب على والي طرابلس، أو والي صيدا، أن يزوّد أحدهما قافلة الحجاج الى بيت الله الحرام بالمؤن والزاد: الحبوب والشعير والأرز. وكان يترتب على والي طرابلس، عندما يقع الدَّور عليه، أن يقود القافلة، التي تحمل المؤن بنفسه، الى طريق الحاج الشامي في الصحراء.

يقول فولني إن تجارة طرابلس، كانت تدور حول خيط الحرير الخام، الذي كان يستعمل في صنع الدنتلاّ. لكن يلاحظ أن هذه الخيوط الحريرية آخذة في التأخر. وقد استفسر فولني عن سبب هذا التأخُّر، فقيل له إن السبب يعود الى العطب الذي يصيب شجر التوت، فتصبح أوراقها غذاءً سيئاً للشرنقة.

وكان من الطبيعي ان يقول فوليني: جددوا شجر التوت. لكن بعد ان ادرك الواقع علّق عليه بقوله: «هنا، أي في المشرق، قلما يفرشون أو يبنون، ذلك بأنهم عندما يبنون أو يغرسون الشجر، يعتبر الباشا الرجل الذي يقوم بذلك ثريًا، وعندها يطلب منه مبالغ من المال ـ فوق ما يترتب عليه للدولة».

وكانت تجارة طرابلس، أيام زيارة فولني، في يد الفرنسيين. وكان لهم قنصل في المدينة، كما كان لهم ثلاث وكالات تجارية. وكانت هذه الوكالات تعنى بتصدير الحرير والاسفنج، كما كانت تستورد الأقمشة والسكر والبن (من جزر الهند الغربية).

وفي منطقة صور، من ولاية صيدا، كان يزرع التبغ. ويقول الكاتب إنه صنف جيّد، لا يقل جودة عن التبغ اللاذقي، أو اللاذقاني كما يسمى اليوم. أما المنطقة المعروفة بالشوف وما اليها، فتنتج كميات كبيرة من الحرير والخمور. ويضيف أن دمشق تعتمد على المنطقة الجبلية هذه في الكثير من حاجاتها. وعلى باشا صيدا، كما ذكرنا، أن يزود قافلة الحجاج بحاجتها من المؤن، عندما يطلب اليه ذلك.

وكانت بيروت تشغل مكانة كبرى تجاريًا، ذلك أنها ميناء الجزء المتوسط من لبنان. ويصدَّر منها القطن والحرير، اللذان ينقل أكثرهما الى القاهرة. أما ما يستورده تجار بيروت، فيدخل في عداده الأرز والتبغ والبن والتوابل. وهذه المتاجر، ينقلها الداخليون الى البقاع وحوران، ويحملون الى بيروت، في مقابل ذلك، القمح من تلك المناطق.

ويحيط ببيروت سور مبني من الحجارة الرملية. لذلك، فإنَّ قنابل المدافع تخرقه، لنعومته، دون أن تهدمه. وقد أزعج هذا الأمر الاسطول الروسي، الذي أطلق قنابل مدافعه على السور، بقصد تهديمه، لكنه لم ينجح.

ويضيف فولني، أن هناك أمرين يحولان دون تقدّم بيروت، لتصبح مدينة كبرى. وهما سلسلة الجبال القريبة منها، التي تحول دون توسُّعها، والثاني قلة الماء.

وها نحن، بعد قرنين من صدور كتاب فولني، لا نزال نتضايق من مشكلة المياه.

وقد شكا فولني صيف بيروت: فالحر شديد والماء ساخن. إلا أن المدينة، كما يقول الكاتب، لا تشكو من الأوبئة. ويعود الفضل في تحسين الأحوال الصحية في بيروت الى حرج الصنوبر، الذي حسّنه واعتنى به فخر الدين.

ويتحدث فولني عن دير القمر، فيقول إن عدد سكانها يتراوح بين ألف وخمسمئة وألف وثمانمائة نسمة. ويقول إن زحلة قد أصبحت، خلال العشرين سنة الماضية، مركزاً لتبادل السلع والمتاجر بين البقاع ودمشق وبيروت. ويروي المؤلف أن زحلة يوجد فيها كل شيء، حتى إنَّ النقود تُزوَّر فيها. ويقول، تعليقاً على هذا الخبر: «إلا أن المزورين تمكنوا من تزوير القرش التركي، لكنهم لم يستطيعوا تزوير العملة الالمانية».

وينتقل فولني جنوباً حتى يصل صيدا، فيقول عنها إنها مدينة تجارية هامة، وهي ميناء دمشق الرئيسي. والفرنسيون هم التجار الاوروبيون الوحيدون الموجودون فيها. ولفرنسا قنصل في صيدا، وفيها خمس او ست وكالات تجارية فرنسية. وتجارة صيدا تدور حول الحرير والقطن المغزول. وعدد سكانها يقارب خمسة آلاف نسمة. والعمل الصناعي الرئيسي في المدينة هو غزل خيوط القطن.

ولم يستطع فولني أن يكبح جماح نفسه، لما أخذ بالحديث عن صور. فلا بد من سرد شيء من تاريخها وهذا طبيعي. فهذه المدينة اللبنانية هي الوحيدة التي وقفت في وجه الاسكندر مدة طويلة. وقد أتعبته، قبل أن تغلَّب عليها. ثم إن صور، كانت لها أدوار بالنسبة للصليبيين. وبعد ذلك يقول إن صور اليوم لا تزيد على قرية بائسة فقيرة، وتجارتها تقتصر على: «بضعة أكياس من الحبوب والقطن الخام، وليس فيها من التجار الاوروبيين سوى تاجر يوناني هو الذي يقوم بالاهتمام بمصالح الفرنسيين المقيمين في صيدا».

ويضيف فولني إن واردات هذا التاجر اليوناني، لا تكاد تكفيه لإعالة أسرته.

وبعد أن تحدث فولني عن الواردات التي تصل الى الخزينة السلطانية، رأساً أو بواسطة التلزيم، أي التضمين، من أجزاء بلاد الشام، استطعنا أن نعرف أن لبنان، كان يدفع، عن طريق التلزيم، اثني عشر ألف كيس، يصل للدولة منها ألف وخمسمئة وخمسون كيساً. وتجمع الدولة ضرائب مباشرة متنوعة. تقدر بألف كيس. ومعنى هذا، أن الدولة يصلها من لبنان ألفان وخمسمئة وخمسون كيساً.

ولكن ما معنى قولنا كيس؟ هل كان هذا وحدة معترفاً بها؟

نعم، فالكيس كان تعبيراً مالياً، يستعمل بالنسبة للخزينة، وكان يعتبر في المبيعات الضخمة. ومعنى الكلمة خمسمئة قرش. والقرش الرسمي أو الصاغ، كان أربعين بارة. وبالنسبة للعملات الأجنبية، التي كانت رائجة في المنطقة، كان القرش يساوي جزءاً

من مئة وعشرين جزءًا من الجنيه الاسترليني، كما كان كل ثمانين قرشاً تساوي ليرة فرنسية. وكانت كل أربعة قروش تساوي سكيناً بندقياً من الفضة.

ويعلق فولني على ذلك بقوله إن الدولة التي كانت تحصل على هذه المبالغ الطائلة، ضرائب من لبنان، لم تقدم لأهله الأمن، اللازم لهم، ليعيشوا مطمئنين الى أنفسهم وأموالهم وزروعهم. إذ إن كل من كان في البلاد من الجند ألف وخمسمئة جندي خيال (وكان يسمى السواري) وألف ومئة جندي راجل. أي أن مجموع الأشخاص، المكلفين بحفظ الأمن، في منطقة وعرة في الداخل، وتجارية على الساحل، كان ألفين وستمئة جندي.

لكن الانكشارية كانت تُستدعى عند الحاجة. ولو أن هؤلاء، كان شرهم أكبر من خيرهم في معظم الحالات.

وما دمنا في سبيل استعمال لغة الأرقام، فلنذكر تقدير فولني لسكان لبنان في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر. ذلك أن الرجل، زار لبنان مع سوريا وفلسطين، سنتي ١٧٨٤ و١٧٨٥ م. ويقدّر عدد السكان بنحو ٥٨٥,٠٠٠ نسمة.

وهناك، في الواقع، أمور أخرى تحدث عنها فولني، وهي في غاية الأهمية والفائدة. فالرجل متعلم، وقد قضى في سوريا ولبنان مدة طويلة، وتنقّل كثيراً. وأهم من ذلك كله، أنه تعلم العربية، فكان بإمكانه الاختلاط بالناس وقراءة ما تقع عليه يده من أشياء مكتوبة. فلم يكن كلامه عن كتب أو خزانة كتب وصفاً خارجياً، بل كان حديثاً يتناول الأمور من الداخل. طبعاً، هذا لا يعني أن الرجل اطّلع على كل خزانة كتب في لبنان، وخصوصاً الخزائن التي تخصّ أسراً تُعنى بالعلم في بيروت وطرابلس وصيدا.

قضى فولني وقتاً، لا بأس به، في دير مار حنا الشويري. ونحسب أنه تعلم العربية هناك، واطّلع على ما كان في مكتبه الدير من كتب مطبوعة ومخطوطة.

ويقصّ علينا فولني ما سمعه من عبدالله زاخر، وهو رجل حلبي، كان نقاشاً وحفاراً ذا ازميل دقيق وخط رشيق وحرف أنيق. وعُني في شبابه، وهو بحلب، بقضية الطباعة، وبدأ العمل في مطبعة، سبك حروفها بنفسه. لكن الرجل اضطر، بسبب ضغط القوى الحكومية عليه، الى الهرب من حلب، فلجأ الى لبنان. وكان بحاجة الى مركز يتخذه مقرًا له، للقيام بالطباعة. وكان أخوه رئيساً لدير مار حنا الشويري، فعرض عليه أن يتخذ من الدير مقراً ومستقراً. فقبل ذلك، وأخذ يعمل بهمة. وفي سنة ١٧٣٣ م، نشر المزامير مطبوعاً طبعاً جيداً أنيقاً نظيفاً.

ونحسب أنه طبع المزامير، لأنه كان الكتاب الأكثر انتشاراً بين الناس. فالمعروف أن المزامير كان، بالنسبة للمسيحيين في لبنان وغيره، الكتاب المدرسي الأول، فيه يتعلم الأولاد القراءة.

فجدّي لأمي، الناصري المولد والنشأة والوفاة، ولد سنة ١٨٤٠ م، أي في السنة

نفسها، التي أُخرج فيها ابرهيم باشا من لبنان وفلسطين وسوريا. ومعنى هذا، أنه تعلّم القراءة قبيل سنة ١٨٥٠ م، وكان المزامير كتابه المدرسي. لذلك، فإن عمل عبدالله زاخر، الذي توفي سنة ١٧٥٥ م، كان مفيداً جداً للتلاميذ. فقد عمل هذا الرجل على طبع عدد من الكتب، اطلع فولني عليها جميعها في دير مار حنا. ويذكر فولني هذه الكتب بأسمائها، مرسومة بالحرف اللاتيني؛ وهي ثلاثة عشر كتاباً، ثم يترجم أسماءها الى الفرنسية.

ونذكر من هذه الكتب، على سبيل المثال: «ميزان الزمان» و«أباطيل العالم» و«السواعيات» و«مرشد الكاهن». وجميع الكتب التي طبعت كانت دينية. وبعضها كان مترجماً. ويرى فولني أن بعض هذه الكتب ترجمها الآباء اليسوعيون، الذين لم يكونوا قد تمكّنوا من العربية. وأن عبدالله زاخر لم يقم بعملية الطبع فقط، بل كان يُصحح الترجمة، لأن الرجل، على ما يبدو، كان ضليعاً من اللغة العربية.

ثم ينتقل فولني الى وصف المخطوطات، التي كانت موجودة في خزانة دير مار حنا. وهي واردة عنده في قسمين: الأول: يتناول مخطوطات دينية مسيحية في غالبها عددها أربع عشرة مخطوطة، منها ست مكتوبة أصلاً باللغة العربية والباقي مترجم. وبين المخطوطات العربية الأصل، كتاب في قضايا النحو للمطران جرمانوس فرحات وقصائد للأخ نقولا، وهو أخو عبدالله زاخر. أما بقية المخطوطات، فكانت كتباً عربية الأصل، بينها نسخة من القرآن الكريم، وما تبقى من كتب التراث: القاموس للفيروز أبادي وألفيّة ابن مالك وتفسير الألفية ومقامات الحريري وديوان ابن الفارض وكتاب في الطب لابن سينا ومفردات ابن البيطار.

ويضيف فولني قوله: «هذه جميع الكتب الموجودة في خزانة دير مارحنا».

ويعتبر هذه المكتبة ممثلة للحياة الثقافية في لبنان، وخصوصاً في الجبل. ويشير الى مكتبة دير المخلص، فيقول عنها إن الجزار نهبها ونقل كتبها الى مكتبته في جامعه بعكا.

حريّ بالذكر أن فولني، كما ذكرنا قبلاً، لم يطّلع على خزائن الكتب الخاصة. وهو لم يطلع على مكتبات دمشق وحلب. لذلك فانه يطلق ملاحظاته على المكتبات التي عرفها، بحيث تشمل سوريا أيضاً، ويقع في خطأ التعميم دون سند.

ويحدثنا فولني عن حياة الرهبان في دير مار حنا، ويعتبرها حياة بائسة، جدية ومضنية أكثر من حياة الرهبان في أديرة اوروبا، وهو يعني فرنسا بشكل خاص. وإذا استثنينا رئيس الدير والمشرف على النفقات والمؤن، فإن جميع الرهبان يقومون بأعمال مختلفة من الحياكة والخياطة وصناعة الأحذية والبناء والطبخ، والعمل في المطبعة وتجليد الكتب والخبز. وكان الرهبان من قبل يعملون في الأرض. لكنهم أخذوا، مؤخراً، يستأجرون الفلاحين (للعمل بالمحاصّة). لكن متى دخلت الغلاّت

الدير، تصبح مسؤوليتهم. وكان صنع الخمور يأتي الدير بمورد من الرزق وفير نسبياً.

وقد حسب فولني أن عدد الرهبان كان بين أربعين وخمسة وأربعين، ومع ذلك فإن نفقاتهم لم تتجاوز اثني عشر كيساً في السنة. بمعنى أن معدل ما كان ينفق على الواحد منهم، هو مئة وخمسون قرشاً. ويدخل في هذه النفقات ما كان يُصرف على الضيوف. فقد كانت أبوابهم مفتوحة لكل من يطرقها.

ويشير فولني مرات كثيرة الى صعوبة التنقُّل في لبنان، بسبب وعورة الممرات الجبلية وانعدام الطرق. وقد شعر بالخوف، لما اعتزم ركوب دابّة للتنقل في الجبل. لكنه أدرك حالاً «رشاقة البغال» ومقدرتها على التنقل بسهولة ويسر. وعندها زال خوفه.

ويعقد الرحالة فصلاً عن الفنون والعلوم، وآخر عن عادات السكان وصفاتهم. وهو يتحدث، في هذين الفصلين، عن مصر وبلاد الشام حديثاً عاماً، دون التخصص؛ حتى إن الأمثلة، التي يذكرها للدلالة على سلوك معيّن، وفي بقعة معينة، هي قليلة. وعلى كلٍّ، فهو ينعى على المنطقة إهمال الآداب والعلوم بوجه عام. ويلوم الدولة التي لا تقدم للشعب التعليم اللازم والمفيد له. ويشير الى الأزهر في مصر، على أنه مركز هام للعلوم الاسلامية واللغوية.

وفي حديثه عن العادات والصفات، يصدر بحثه بأمرين: الأول، الاشارة الى أن كل شيء في المنطقة التي يتحدث عنها، بل وفي آسيا عموماً، مختلف تماماً عما هو موجود في بلاده وأوروبة. والأمر الثاني، هو أن الاختلاف هذا، لا يعني أن القوم هنا هم في حالة تأخُّر. وبعد ذلك، ينصرف الى وصف ما رآه، وما شاهده، وعاشه.

لكنه، مع ذلك، يغمز من قناة القوم هنا. فلئن قال إن حياتهم أبسط، فإنه كذلك يشير، ولو بلباقة الكاتب الماهر، الى أن الجماعة هنا قد تأخروا كثيراً في الفنون والآداب والعلوم وصناعة الحضارة عما كان عليه أسلافهم، في العهود العربية الإسلامية الأولى، التي يسميها عهود الخلافة.

وعلى كلٍّ، فكتاب فولني حريّ بالقراءة.

١٧ ـ جون كارن يزور لبنان

في القرن التاسع عشر، يصبح الرحالون، الذين يقصدون لبنان والمناطق المجاورة له، أكثر تنوعاً من ذي قبل. حيث نجد أن المبشرين والدبلوماسيين والتجار وممثلي المؤسسات المالية الكبيرة ومديري البنوك وأصحاب المشاريع يأتون في سبيل تحقيق الأطماع المختلفة في منطقة غنية، حتى قبل البترول، ومهملة، نسبياً، من الدولة التي تسيطر على مقدّراتها.

وهناك أمر حري بالذكر، وهو أن عدداً كبيراً من هؤلاء الرحالين والزوار، ينظرون الى المنطقة بعين توراتية. أي أنهم يأتون الى بلادنا، وكأن الكتاب الوحيد بأيديهم هو الكتاب المقدس، وخصوصاً العهد القديم.

والواقع هو أن الكتاب المقدس، وخصوصاً العهد القديم، كان دليل أكثرهم ومرشدهم، إما هو بعينه، أو بما كتب عنه لتفسيره. ولم يكن ابناء البلاد قد كتبوا ما يمكن أن يُرشد هؤلاء الرحالين إرشاداً صحيحاً. وهذا جون كارن، الذي زار لبنان وسوريا والأرض المقدسة وآسية الصغرى، في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، هو على ما يقول مترجمه الى العربية، المرحوم رئيف خوري: «إن المؤلف ـ مذكان مبشراً ـ لا يفتأ يصدر عن انفعالات وأحكام تأثر بها في دعوته او حرفته. فهو يتصدى أحياناً لأمور مذهبية تخالف وجهة نظره، ويدعو جهراً أو خفية الى أمور مذهبية على طرازها».

وهناك رحّالة آخر يصف ثياب الكاهن الماروني وصفاً تشعرمن خلاله أن الأمر لا يعجبه. ولكن لماذ؟ لأن هذا الثوب الكهنوتي يختلف شكلاً وزياً ولوناً عن الثوب الكهنوتي البروتستانتي الذي ألفه في بلاده».

لكن ذلك يجب ألا يحول بيننا وبين الافادة من بعض ما كتب هؤلاء الرحالون في توضيح تاريخ بلادنا، فنحن حريون بأن نتعرف الى ما عند جون كارن من صور لطيفة، طبيعية او اجتماعية او اقتصادية. فبيروت، كما رآها كارن: مرفأ لدمشق وداخل سوريا، وموقعها يصلح لتقبل المشحونات وما أشبه من اوروبة. فنشاطها التجاري أعظم من نشاط كل مرفأ آخر على الشاطىء الشامي.

ويضيف: وقد تحسنت بيروت وضواحيها جداً في الآونة الأخيرة، وما تزال مطردة في التحسن. فقد أصبح أجر بيت صالح، يتسع لعائلة صغيرة، يبلغ في هذه

المدينة ثلاثين جنيهاً استرلينياً. فأما بيت يصلح لسكنى عائلة أكبر، ومعه حديقة، فيبلغ أجره خمسين استرلينية. فقد ارتفعت أجور المنازل بسبب وجود كثير من الفرنسيين. وارتفع سعر اللحم أربعة بنسات لكل أوقية. والبنس يساوي نصف قرش رسمي، أي صاغ.

ولما وصل كارن وجماعته صيدا، اضطروا الى الاقامة في خان مهمل، وغرفة خربة. وهو يصف ذلك وصفاً دقيقاً صحيحاً. ثم تقوم الجماعة بزيارة أسرة من أسر التجار في صيدا. يقول جون كارن، واصفاً ذلك: «كان الاختلاف بارزاً قوياً وباعثاً على الفرح والبهجة. قعدنا على سجادات وثيرة، واتكأنا الى مساند ناعمة، وقدمت لنا القهوة والقصبات للتدخين، ودعينا الى تناول شيء من طعام شرقي خفيف».

وقرر جون كارن، منذ تلك الليلة، أن يقصد في رحلاته بيوت الأهلين للنزول عندهم، حتى ولو كان هؤلاء الأهلون فقراء. وقد جرب ذلك أكثر من مرة ونجح.

وفي طريقه من بيروت الى طرابلس، مر كارن بنهر ابرهيم، وهو يسميه نهر أدونيس. ويروي قصة قتل الخنزير البري لأدونيس. ويشير الى الاسطورة التي تقول بأن مياه النهر تصبح حمراء، مرة في العام، في أول الربيع، لأن دم أدونيس يختلط بها. والواقع، كما نعرف نحن، هو أن التربة تنحل عند هبوب عاصفة مطرية قوية، فتختلط بالماء فتصبغه. وينقل المؤلف قصيدة للشاعر الانكليزي شلي عن هذه الاسطورة.

ويصل كارن طرابلس، فتسحره، فيقول، فيما يقول: «وطرابلس أغنى بالحدائق من بيروت. وحظها من الوقاية والصحة يفوق حظ صيدا وعكا. وعلى ذلك يبدو ان طرابلس تجمع كل مميزات الراحة والمشاهد البديعة والخصب، وهي مميزات تغري الغريب الذي يلتمس العافية أو المتعة، فيجعل منها مقراً لاستجمامه».

ويضيف ان في المدينة تجاراً أوروبيين مستوطنين فيها. وفيها قناصل لفرنسا وانكلترا والنمسا...

ولا بد من التذكير هنا، بأن طرابلس كانت يومها ميناءً تجارياً كبيراً. وكانت أهم بضاعة فيها للتصدير الصابون المصنوع في الجبال. وقد كانت تصدر منه ثمانمئة كنتال في السنة. والكنتال هو مئة كيلوغرام. وكان ثمن الكنتال الواحد ثمانية استرلينيات، أي ان صادرات الصابون وحدها كانت حصيلتها ٦٫٤٠٠ جنيه استرليني. وتلي الصابون في الأهمية سلعة الاسفنج. وكانت طرابلس تصدّر مادة لصنع الصابون وكان لصناع الصابون خان حسن البناء خاص بهم.

ويسيل قلم جون كارن رقة وعذوبة، عندما تمتلىء نفسه ببهجة النظر أو كرم المضيف او جمال المناظر. وقد وجد في لبنان بقاعاً كثيرة، ملك جمالها لبه، وانغرس في شغاف قلبه، وأنت تسير معه، خطوة خطوة، وكأنك تملأ عينيك منها، نظرة نظرة. وهذا الذي سنورده هنا، هو ترجمة. لكن الأصل هو، في الواقع، أجمل بكثير.

يقول كارن في وصف قرى الباروك: «إن لبنان في نظر الراهب والراعي لأغنى بقاع العالم تلويناً وسحراً. يستطيع الراهب في هذه المنعزلات، ذات الجمال الرائع والخلاء والبساتين والمغارس، ان يشرف من جلاليه على البحر المغطى بألف شراع، ويستطيع الراعي في كل يوم أن يقتاد قطيعه الى المنحدرات الخصبة والوهاد العميقة وأغاريز الجبال التي تمد ظلها على الأغوار. وحتى هذه القرى الباروكية التي تبدو معلّقة في السحب أو على حفافي المهاوي، تقدم زناراً رقيقاً يحيط بها من شجر الأرز والصنوبر وسائر الشجر مما يحجب الجلامد الهائلة ويخفف وحشة المشهد».

ورأس العين، هو متنزه بعلبك وأهلها وزوارها؛ هذا ما نعرفه نحن عنه تجربة ومشاهدة ورواية. لكن هذه تجربة القرن العشرين. أما تجربة الأيام السابقة، فهي مختلفة. وقد سمعنا من المتقدمين في السن، أن رأس العين ومرجتها كانتا، من قبل، مكاني اللهو للأسر والاصدقاء، يقضون فيها اليوم أو أكثر من اليوم. لكن جون كارن يحدثنا عن مخيم في رأس العين، أقيم في الثلث الاول من القرن الماضي، وقد أقامته جماعة من الانكليز المقيمين في لبنان، وخصوصا في بيروت.

ولعل زيارة كارن لهذا المخيم، جاءت بعد ان قضى ليلة في بيت لم يرقه في بعلبك، وبعد ان زار آثار بعلبك نفسها، وكانت في أكثرها مطمورة تحت الاتربة والمنازل المتهدمة. فقد تضايق الرجل من ذلك. وهو على علم بوجود المخيم، وكان يحمل رسالة من القنصل البريطاني في بيروت الى الجماعة المخيمة هناك. فاتجه نحو المخيم، وهو مغتبط ان يغادر بعلبك وبيوتها، التي تُرك قسم كبير منها للخراب. وقد وجد البيوت التي تبدو مأهولة، قليلة جداً، حتى في شوارع المدينة الرئيسية.

وصل كارن الى المخيم، ماذا رأى؟ هذا ما قاله، واصفاً المشهد الذي وقع عليه نظره: «يقع هذا المشهد في سهل بعلبك على مسافة ميلين من أنقاض الهياكل. وتبدو في المقدمة سلسلة جبال لبنان الشرقية. أما الجدر المتداعية التي ينعكس عليها لهب النار، فهي آثار كنيسة مسيحية. وأما المخيم فهو مضرب جماعة من الانكليز استشرقوا بملابسهم وعمائمهم ولحاهم».

ويستمر كارن في حديثه بقوله: «خلّفت بعلبك ورائي ودخلت السهل الطلق. كانت الليلة طريئة ملأى بالإلهام، والريح تهب عليّ من الجبل. ودخلت المخيم، فوجدت الجماعة متكئين في راحة عظيمة. واستقبلوني بترحيب حار. ثم خرجنا من الخيام لنقف الى جانب النار الكبيرة التي أضرمها الخدم. فرأينا مشهداً رائعاً».

والوصف الذي خلّفه كارن، عن أيامه في المخيم مع الجماعة، فيه ناحية شخصية. فالرجل انكليزي، ولقد لقي جماعة من أهل بلده، فعاش معهم أياماً، كأنه في بلده، الا ان الجو الطبيعي كان أجمل وأشد متعة. فهو يقول مثلاً: «وشد ما كانت وقعات طعامنا أنسية مرحة. أما المؤن فكنا نجلبها دونما صعوبة من النواحي المجاورة

لنا. والحق أن الخبز والزبدة الطازجة وأباريق الماء الساقية ـ كل تلك كانت ترفاً عظيماً».

ثم جاء وقت التفرّق. فانصرف الجميع، بعد اقتلاع الخيام، ووقف جون كارن يعاني رحيل الرفاق حتى توارو عنه. وعندها يقول: «وبقيت رأس العين هي رأس العين جمالا ولطفاً. غير أنها خلت من كل حركة للحياة وعادت عباءة للكآبة: الكآبة الحلوة العذبة».

هذا هو الرجل الرومنطيقي يتكلم الآن...

ويبدو، من كتابه، أنه لم يترك مكاناً في لبنان يعتب عليه، حتى دير بزمّار الارمني في كسروان، فقد زاره، واستضيف فيه. يقول: «إذا وفد الغريب على هذا الدير وجد فيه ضيافة أنيقة، ورأى المائدة مزودة بالطيبات وفي جملتها أنواع شتى من الخمور تشهد بجودة الكروم والعصّارين. والغالب عليه انه مدرسة لاهوت لا ديراً للرهبان. وفيه نحو من عشرين طالباً».

وعلى بعد أربع ساعات من بيروت، وعلى مقربة من غوسطا، يقوم دير عين ورقة. وفيه يقول كارن: «هو مؤسسة مارونية يتعلم فيه الموارنة اللغة السريانية ويتهيأون للخدمة الدينية».

لكن الذي لم يتنبه له كارن هو ان مدرسة عين ورقة، التي كانت تعنى أصلاً بتهيئة الشباب للخدمة الدينية، كانت تعلم اللغات اليونانية والفرنسية والايطالية للطلاب، وأنها كانت مؤسسة في مستوى الكليات الجامعية يومها.

وختاماً سنورد شيئاً مما قاله كارن عن تجارة بيروت: «إن بيروت مركز تجارة اللبنانيين. اليها يحملون قطنهم وحريرهم فيأخذون عوضه الارز والتبغ والنقود، وبهذه يشترون القمح من سهول البقاع وحوران. ولا شك أن الحرير الخام أهم مادة تجارية تتعاطاها بيروت، تأتي بعدها مواد القطن والزيتون والتين. وهي كلها تصدّر الى القاهرة ودمشق وحلب. وما زال النشاط التجاري في بيروت يزداد يوماً بعد يوم».

وهكذا ينقلنا هذا الرحالة الذواقة الاديب من جمال المناطق اللبنانية المختلفة الى أسواق لبنان الكبيرة. وفي الحالتين يكتب برشاقة وبراعة وأسلوب جميل.

١٨ ـ رسائل من مهندس: وليام مكسول

سنتناول، في هذا الحديث، رسائل كتبها مهندس، كان يعمل في المنطقة، وسنخص بالذكر الرسائل التي كتبها وهو في لبنان.

ولد وليام مكسول في بلفاست بأرلندة سنة ١٨٣٨ م. ودرس الهندسة. وعمل، منذ سنة ١٨٦١ م، في مكتب لشركة هندسية ومقاولات كبيرة. وأثبت جدارته ومقدرته، بحيث أخذ مدير الشركة يعهد اليه بأمور مهمة في بلاده أولاً، ثم في الخارج. وقد رشّحه المسؤولون ليكون مخططاً للطريق المزمع إنشاؤه بين يافا والقدس. لكن هذا المشروع أُجّل. فاختير مكسول، ليمسح، ويخطط لسكة حديد، كان التفكير بإنشائها في حوض الفرات يشغل بال رجال المال والسياسة والتجارة. وقد نجح، على ما لقيه من صعوبات ومضايقات رسمية، في رسم خارطة للمنطقة التركية.

فقد روى أنه، لما مُنع من الحصول على الآلات والأدوات اللازمة، استطاع ان يقيس المسافات مشياً منتظماً. وقاس الارتفاعات بساعة الاترويد، التي كان يحملها في جيبه.

وفي سنة ١٨٧١ م، أُرسل مكسول الى بيروت. ذلك أن شركة فرنسية، حصلت على امتياز لجرمياه نهر الكلب الى بيروت، لكنّ تنفيذ المشروع كان بيد شركة انكليزية. وهي الشركة التي كان مكسول يعمل فيها. ومن ثم فقد أُرسل هذا المهندس الماهر، والدقيق في أعماله، ليشرف على التنفيذ. وأرسلت الشركة الفرنسية مندوبا عنها، ليكون المنفذ المقيم في بيروت.

وفي بيروت، وقع مكسول بين مراكز قوة ونفوذ متناقضة. فالماء ينبع من نهر الكلب، وهذا كان في متصرفية لبنان، التي أنشئت سنة ١٨٦١ م. والماء سيُنقل الى بيروت، وهذه كانت خارج المتصرفية، ويحكمها وال غير المتصرف. والماء، في ينابيعه، يفيد منه أهل المنطقة، ونقله الى بيروت يجردهم من مورد رئيسي في حياتهم. ومن المستفيدين من الماء الرهبان المقيمون في الأديرة المجاورة. وهؤلاء لهم نفوذهم والبطريرك الماروني يدعم حقهم في الحفاظ على الماء!

نعم مكسول بمحبة زملائه ومعاونيه واحترامهم لما كان يعمل في بيروت. وعاد الى لندن سنة ١٨٧٥ م، وبعد زيارة عمل الى المانيا، أُرسل سنة ١٨٧٦ كمفتش لأعمال الشركة، ليقدم تقريراً عن أعمالها. إلا أنه بعد عودته هذه المرة، ساءت صحته،

وأصيب بشلل جزئي؛ شُفي منه نسبياً. وأراد التغيير والتبديل، فسافر الى استراليا (١٨٧٨ م)، في زيارة لقريب له، وعاد سنة ١٨٨٠ م، إذ لم يجد الراحة التي أمل فيها.

وأثناء عودته من استراليا، وإذ غادرت السفينة ميناء نابولي الايطالي في ٢٢ آب/ اغسطس ١٨٨٠ م، أُصيب بفالج، قضى عليه خلال بضع ساعات. وحسب قوانين البحر، أُلقي بجثمانه في البحر. ولما وصلت السفينة لندن، تقدم أخوه الوحيد لاستقباله، ففوجىء بالنبأ الأليم.

وأراد أصدقاؤه إحياء ذكراه، فكُلِّف أحدهم ان يجمع رسائله، التي كان يبعث بها الى أقاربه الأدنين وأصدقائه الاقربين. فتمّ ذلك سنة ١٨٨٦ م. والرسائل تشمل أعماله في جهات مختلفة من بين رسائله، أما الذي يعنينا نحن فهو ماكتبه وهو في لبنان. سنختار من رسائله أيضاً، إذ لا سبيل الى الحديث عن رسائله جميعها.

كان مكسول وزميل له يتنقلان من حمص الى بعلبك. وقد جُن عليهما الليل، فعرّجا على بيت، يطلبان النوم. فلُبي طلبهما، بعدما ساومهما صاحب البيت حتى على سعر الشعير لدوابهما، وقبلا النوم في مكان كان جزء منه بيتاً والجزء الآخر اسطبلا، ومن ثم فقد تقاسما مكان النوم مع ستة خيول وست بقرات!.

ويصف مكسول بعلبك، والفرق بين ما يقوله وما يقوله الآخرون، أنه ينظر إلى الآثار نظرة مهندس. وحريّ بالذكر أن القسم الأكبر من بعلبك كان يومها ما يزال تغطيه الحجارة والأتربة، التي تراكمت فوقها، بسبب تهدُّم الأبنية. وقد كان للزلازل دور كبير في التخريب.

وبعد ذلك، وصل مكسول الى طرابلس، التي يتحدث عنها حديث معجب ببساتينها وحدائقها. ويقول ان الميناء تبعد عن المدينة نحو كيلومترين ونصف الكيلومتر. وإنه من الممكن ان يستأجر المرء حماراً، يوصله من طرابلس الى الميناء، بنصف قرش. وهذا المبلغ يساوي بنساً واحداً.

وفي رسالة مؤرخة يوم أحد الفصح سنة ١٨٧١ م، يقول مكسول: «وصلنا بيروت (بحراً) وهي أهم مدينة في المشرق. والميناء ليس محمياً من الرياح. وفي الأيام العاصفة تجد المراكب الصغيرة صعوبة كبيرة في نقل الركاب الى السفن. وليس يبدو أن هناك رغبة عند الحكومة في بناء أحواض للسفن لا في بيروت ولا في غيرها. وقد نَمَتْ بيروت وأصبحت مكاناً مهماً بسبب إنشاء خط بحري يربطها بالخارج».

وبعد زيارة للقاهرة، بسبب تأخر العمل في بيروت، عاد مكسول الى هذه المدينة. وأقام في فندق «المنظر الجميل»، الذي كان يقوم على مقربة من فندق بسّول؛ وهما فندقا بيروت اللذان كان يؤمهما الأجانب.

وقد كتب بتاريخ ٢٠ كانون الاول/ ديسمبر سنة ١٨٧١ م يقول: «إن الباخرة التي حملتنا من بورسعيد، كان عليها ان تتوقف في يافا لإنزال حجاج كانوا يقصدون

القدس. لكن العاصفة كانت قوية، فلم تتمكن السفينة من التوقف. وأملنا في ان نقف في حيفا، لكّن فألنا خاب. واستمرت السفينة في سيرها حتى بيروت».

قضى مكسول يوم عيد الميلاد في منزل القنصل البريطاني في بيروت. وكتب، في اليوم التالي لعيد الميلاد، يقول ان الكعكة الخاصة بعيد الميلاد، كانت من صنع القنصل نفسه. فزوجته روسية ولعلها لا تجيد صنع هذه الحلوى. وقد حضر صلاة العيد في كنيسة البروتستانت، التي يحضرها الاميركان والانكليز من هذه الطائفة. وعدد الحضور كان نحو ثمانين شخصاً.

وفي الفترة الواقعة بين عيدي الميلاد ورأس السنة (١٨٧١ م)، زار مكسول المغارات التي ينبع منها نهر الكلب.

وقد كتب في احدى رسائله يقول: «إن المقرنصات الصخرية في مغاور نهر الكلب هي أجمل بكثير من كل شيء رأيته في أي مكان. وقد أشعل الدليلان اللذان رافقانا قصباً جافاً، فبدت هذه المقرنصات، سواء التي تتدلى من السقف او التي تنبت من الارض، غاية في الروعة. وقد سرنا حتى وصلنا بحيرة الماء الداكن. وزحفت مسافة قليلة ثم أوقدت قطعة من شريط المغنزيوم. وعندها بدت هذه النتوءات الصخرية على أروع ما يمكن!».

ويتحدث عن بلاط الغرف في بيوت بيروت الانيقة، وأنه، في الغالب، من الرخام. ويرى أن الرخام رخيص في بيروت، إذ ان اليارد المربع، وهو نحو أربعة أخماس المتر المربع، يكلف نصف جنيه استرليني فقط، أي ستين قرشاً.

ويقول في احدى رسائله، إنه كان على موعد مع مجلس بيروت البلدي، لكن الموعد أُجِّل يوماً. ولما ذهب مع المهندس الفرنسي، لم يجد أياً من الاعضاء. فقد وصلت السفينة الفرنسية يومها، ولذلك كان جميع الاعضاء مشغولين، بسبب ارتباطاتهم التجارية مع الخارج ووصول البضاعة على السفينة.

ويوضح مكسول السر في تردي الأمور، فيما يتعلق بالعمل في جرّ الماء الى بيروت، فيقول: «يعود ذلك الى ان المدينة تقع تحت نفوذ وال هو غير الحاكم الذي تتبعه منابع نهر الكلب».

وأخيراً، اجتمع المهندسان، البريطاني والفرنسي، مع مجلس البلدية. كان ثمة أربعة أعضاء عند الساعة الواحدة، وبعد ساعة جاء ثلاثة آخرون؛ وبذلك اكتمل النصاب القانوني. ودارت المناقشة، وطال أمرها. وأخيراً، قال أعضاء المجلس، انهم لم يحصلوا على معلومات كافية تمكنهم من الوصول الى قرار.

وحسب مكسول وزميله الفرنسي أنه من الواجب زيارة المتصرف، أي حاكم متصرفية لبنان. فذهبا لزيارته، وكان المتصرف يومها فرنكو باشا، الذي حكم لبنان من سنة ١٨٦٨ م الى سنة ١٨٧٣ م. وكانت نتيجة الزيارة قول سعادة المتصرف: «لقد

تلقيت رسالة الوكيل الفرنسي، واتصلت بغبطة البطريرك الماروني. وكل ما يمكن قوله هو أن المياه لا يمكن ان تُجرَّ من المنبع».

لقد كان مكسول طُلعة بطبعه وتدريبه. لذلك أراد ان يتعرف الى صناعة الحرير، فزار مصنعاً لهذا الغرض، يقوم بالعمل فيه فتيات ورجال وأولاد، ويكونون في صفين متقابلين، يفصل بينهما طاولة تمتد على طول المبنى. وتقوم على الطاولة هذه أوعية للماء ذات حجمين ـ الكبير منها فيه ماء ساخن، يكاد يبلغ درجة الغليان، وفي الصغير ماء بارد. توضع الشرنقة وقتاً قصيراً في الماء الساخن، ثم تغطَّس بالماء البارد. والماء الساخن يحلحل الحرير المحيط بالشرنقة، والحرير الذي ينزع عن الشرنقة، لا يصلح لأنه يكون الخيط الذي يستعمل في الحياكة. لذلك فإن عدداً من الشرائح الدقيقة، يكون بين الاربع والثماني، تضم الى بعضها البعض، ليتم التوصل الى خيط حرير. ويتم هذا على الدواليب الموضوعة أمام البنات، والتي تدور فتغزل الخيط. وعندها يصبح الحرير صالحاً للتصدير.

وجاء ربيع سنة ١٨٧٢ م، وقضية جرّ الماء من نهر الكلب الى بيروت، ما تزال معلقة. وقد اضطر القوم الى انتظار بعض الوقتَ قبل أن تم التوصل الى حلّ.

١٩ - وليام مكسول ودانيال بلس في مغارة جعيتا

يتحدث مكسول عن زيارة لمتروبوليت بيروت الماروني، بقصد كسب تأييده لجر الماء الى بيروت. ويصف ثيابه الكهنوتية وصفاً دقيقاً واستقباله لزواره الذين جاءوا للحصول على بركته. ويقول ان ثياب المتروبوليت بدت له غريبة. وهنا نودّ ان نقول إن وجه الغرابة عند هؤلاء الزوار الاجانب، هو أن ما يرونه، كان يخالف ما ألفوه. وإلا ما هو الفرق، من حيث الأساس، بين لباس متروبوليت هنا وآخر هناك؟

وفي ربيع سنة ١٨٧٢، ذهب مكسول مع الوكيل الفرنسي لزيارة البطريرك الماروني. وكان في رفقة هذين الرجلين اثنان آخران. الواحد يبدو أنه موظف، يشير اليه مكسول باسم قدري، والثاني مساعد المهندس البريطاني. وصلت الجماعة الى المقر البطريركي في بكركي. وانتظرت في قاعة الاستقبال، حيث قُدِّمت لها الليمونادة والحلويات. وبعد قليل، وصل الموكب البطريركي. يقول مكسول: «وقفنا جميعنا لاستقبال غبطته. ما أنبل وجه هذا الرجل المتقدم في السن. قلما وقعت عيناي على وجه أجمل وأنبل من هذا الوجه. وقطع غبطة البطريرك الصمت الذي خيَّم على الجميع لما نصحنا بأن نغطي رؤوسنا خشية ان نصاب بالبرداء. عندها تكلم الوكيل الفرنسي، وكانت أقواله تترجم الى العربية، مع أنني واثق من أن غبطته يعرف الفرنسية».

كان ما قاله البطريرك قليلاً جداً. لكن هذا القليل أوضح للجماعة، بأنه لا أمل لها في جر مياه نهر الكلب الى بيروت. وأضاف رئيس الاساقفة، الذي كان في رفقة غبطة البطريرك، إن المياه هي ملك للجبل، ولا حق لبيروت فيها. ومع أنه اعترف بأن ما يذهب هدراً من الماء، أي يصب في البحر، قد يكون أكثر مما تحتاجه بيروت، لكن متى جرّ الماء الى بيروت، فإن الجبل يخسره نهائياً.

يقول مكسول: «وأخيراً قيل لنا، إذا استطعتم ان تُقنعوا أصحاب الأملاك بأن مصالحهم لن تتضرر، فإن غبطة البطريرك ورئيس الاساقفة يمكنهما ان يمنحاكم التأييد».

وعندئذ دخل القاعة راهب أضناه السير، واستأذن بالجلوس. ثم قال: «إذا أُتيح لشركة عامة ان تنال موطىء قدم في الجبل، فإنها تستطيع ان تفعل ما تشاء. إنها تأخذ بعض الماء أولاً، ثم تزيد الكمية، وأخيراً فإنها تجرُّ مياه النهر كلها».

وكان جواب مكسول، أن شركة عامة في بلاده تتقيد بأحكام الامتياز الصادر بخصوص قضية ما. فإذا تجاوزت ذلك، تدخّل القانون لحماية أصحاب المصالح.

«ما هو القانون الذي نلجأ اليه نحن الفقراء هنا؟ إن الغني هو الذي يفيد من القانون! والشركة العامة ستحصل على حصة أكبر من تأييد القانون».

وكانت الزيارة التالية لنيافة مطران دمشق الماروني، الذي يقيم في الجبل في لبنان. وقد تلقى الجماعة، مرحباً بهم باللغة الانكليزية. وشرح له مكسول قضية مياه نهر الكلب وجرها الى بيروت. وكانت خلاصة جواب المطران، أنه يعرف ما قد تجره مثل هذه القضية على سكان المنطقة، لكنه لا يمكنه ان يتحمل، لا هو، ولا غيره، أيّ مسوولية لقضية قد تؤدي في المستقبل الى مشكلات وإزعاج.

وزار مكسول دمشق في شهر آذار/ مارس سنة ١٨٧٢ ، ووصف، باختصار، الطريق الذي اتبعه في سيره من بيروت الى دمشق. نحن نعرف ان طريق العربات بين المدينتين، في أيامه، كان قد أُنشىء على يد برتوي. وكانت عربات الدلجنس تعمل عليه. يذكر الكاتب أولاً بضع حقائق عن المسافة بين بيروت ودمشق على خطٍّ مسستقيم هي ٨٤ كيلومتراً، لكن طول الطريق الفعلي هو ١١٢ كيلومتراً، وذلك بسبب الجبال التي تعترض الطريق، فيتعرج هذا، كي تتمكن العربات من السير عليها. وكانت عربة الدلجنس تحمل أربعة عشر راكباً، وتحمل الحقائب فوقها، ويجرها ثلاثة بغال وثلاثة جياد. وكانت دواب الجر هذه تغير عشر مرات في الطريق (لعل هنا بعض الخطأ في الرواية) كي تنقل العربة هؤلاء الركاب خلال أربع عشرة ساعة بين المدينتين. ومعنى هذا، أن كل نقلة من بيروت الى دمشق او بالعكس، كانت بحاجة الى ستين رأساً من البغال والخيول. ونحسب أن مكسول لم يطلع على العدد تماماً.

«بدأت العربة رحلتها في الساعة الرابعة صباحاً. بعد ست ساعات اجتزنا خلالها أعلى نقطة على الطريق هي ظهر البيدر، وشاهدنا القرى المنثورة على الجبال المرتفعة ثم وصلنا الى شتورا التي تبعد ستة وأربعين كيلومتراً عن بيروت. هنا أرحنا وتناولنا طعام الغداء. واجتزنا، بعد الغداء، عشرة كيلومترات في سهل البقاع الذي هو أخصب بقعة في بلاد الشام. وبعد سفر طويل مضنٍ وصلنا المحطة النهائية في دمشق».

وكانت ثمّة وسيلة أخرى للسفر بين المدينتين. إذ كان هناك عربة تسمى الأُمينبوس Omnibus التي كانت تسافر ليلاً. وقد عاد مكسول مع هذه العربة. لكن السفرة كانت مزعجة متعبة؛ فالعربة صغيرة بحيث لم يتمكن من مد رجليه. ولم يتمكن من النوم، وكانت الدواب، تبدل مرات في الطريق.

وبعد وصول مكسول الى بيروت، كانت الاعمال قد بدأت، لكنها كانت أعمالاً جانبيةً، هي حفر مجارير وإعداد للعمل الاكبر. وكان مكسول يقيم في فندق المنظر

الجميل في بيروت (على مقربة من فندق السان جورج فيما بعد). وكان يخرج لمراقبة العمل، وقد يقضي ليلة او أكثر في مخيم للعمال. ثم نصبت الخيام وأقيم هناك مخيم كبير في مكان قريب من جسر نهر الكلب، على ما يبدو من وصف الكاتب. ثم بني بيت خشبي كبير بدل المخيم. وأصبحت رسائل المؤلف تكتب في المخيم، ثم في البيت على التوالي.

تغيب مكسول سنة وبعض السنة في لندن، لأشغال تتعلق بالشركة ومشروع جر مياه نهر الكلب الى بيروت. وبعد عودته، وكان الجميع ما يزالون يقيمون في المخيم، زارهم والي بيروت. وكانت الشركة الانكليزية قد أرسلت، مع مكسول، مهندساً مقيماً هو شيفر، لكن الدور الرئيسي ظل للأول. وكانت زيارة والي بيروت تشجيعية فقط. إذ لم يكن له سلطة فيما يتعلق بالمياه في منابعها.

لكن زيارة رستم باشا، متصرف لبنان من سنة ١٨٧٣ الى سنة ١٨٨٣ م، كانت ذات علاقة مهمة ومباشرة بالمشروع. فمياه نهر الكلب تقع ضمن منطقة نفوذه وإدارته. وقد جاء رستم، مع موكبه الرسمي والموسيقى تصدح، عند الحاجة. ومع أن الحديث لم يتطرق الى المشروع، فقد سُرَّ مكسول من هذه الزيارة.

كُتبت آخر رسالة من الرسائل التي تحدثنا عنها في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٨٧٣ م، ولم تكن الأعمال قد تمت. لكن بعد ثلاث سنوات أُرسل مكسول الى بيروت، مندوباً عن شركة الأعمال المائية، للتفتيش عن الشركة وتقديم تقرير. إلا أن رسائله من بيروت، بين ٢٨ ايلول/ سبتمبر و٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٧٦ م، كانت تحوي جملة أخبار من نوع آخر. ذلك أن الرجل الذي كان قد زار مغارة النبع في نهر الكلب من قبل، ظل متشوقا الى القيام بزيارة أخرى يوغل فيها داخل المغارة. وقد أتيح له ان ينظم فرقة صغيرة، للقيام بهذا العمل. كانت الفرقة مؤلفة من ستة أشخاص، يهمنا منهم اثنان، مكسول صاحب الفكرة الاصلية والدكتور دانيال بلس Daniel Bliss.

ومن الطريف، أن مكسول يشير اليه على أنه اميركي فقط. ولكن الرجل المشار اليه، هو الدكتور دانيال بلس، الذي كان يومها رئيساً للكلية السورية الانجيلية في بيروت (الجامعة الاميركية اليوم)؛ وكان قد عمل على إنشائها منذ سنة ١٨٦١ م. ولما افتتحت سنة ١٨٦٦ م، ولّي رئاستها وظل في عمله الى سنة ١٩٠٢ م. وقد اكتشفنا، مؤخراً، من رسائل مكسول، أن بلس كانت له باع في اكتشاف هذه المغاور.

زار الفريق المغاور أربع مرات، في فترات مختلفة. وكانت عُدة الرحلات الى داخل المغاور، مجموعة من قرب الجلد الفارغة، التي كانت تستعمل للزيت، وقطعاً طويلة من الاخشاب وحبالاً. كانت هذه القرب تنفخ في داخل المغاور، وعندها تربط اليها الأخشاب بالحبال، بحيث تصبح قوارب تستعمل في الاكتشاف. وكان الفريق

يحمل معه شموعاً للإنارة. أما قطع المغنيزيوم، فكانت تستعمل قليلاً، وذلك عند الحاجة، لرؤية المقرنصات. وكان الفريق يحمل معه شيئاً من الطعام.

وقد تم اكتشاف ما طوله ١٢٨٠ متراً من هذه الأنفاق الطبيعية. ولم يكن هذا بالشيء القليل يومها. وكان مكسول يردد، في وصفه ما يراه، قوله أجمل ما رأيت وأروع ما وقعت عليه عيناي من المقرنصات. ولعله أراد ان يريح بال أصحابه، كي يتيقنوا من صحة قوله، فكتب في إحدى رسائله يقول: «وأنا لا أتكلم عن مثل هذا الجمال دون ان يكون لي شيء من التجربة في مثل هذه الأنفاق والمغاور الطبيعية».

ويروي الكاتب أنه وقف مشدوهاً، في واحدة من المغاور الكبيرة، لكثرة ما رأى من مقرنصات تشبه الاشجار والنباتات، وحتى وجوه الناس في بعض الأحيان. ورأى قطعة من المقرنصات تشبه «ملفوفة»، فأخذ يضرب قاعدتها بفأس ليقطعها. وقد ضرب كثيراً، حتى كسرها وأخرجها. ويقول عن نفسه، وهو يحاول كسرها: «وكيف يمكن قلعها من مكانها، وقد استقرت فيه من قبل أيام آدم!».

وتعود طرافة هذا الكتاب، الذي تحدثنا عنه، الى أنه رسائل، كانت تكتب بعد الحادثة بمدة قصيرة. وأن كاتبها دوّن ما رأى وسمع وما تأثر به. وأظن أن الجزء المتعلق بلبنان من هذه الرسائل، يجب أن ينقل الى اللغة العربية.

٢٠ ـ القاياتي يزور لبنان

دخلت الجيوش الانكليزية مصر في سنة ١٨٨٢ م، محتلة، بعد ان تغلبت على أحمد عرابي باشا، وقضت على حركته. بعد ذلك، عمدت السلطات الى محاكمة كل من كان له صلة بالحركة، فحكم على البعض بالإعدام، وعلى آخرين بالسجن، وعلى فئة ثالثة بالنفي. وقد اختار عدد كبير من المصريين ان ينفوا الى بيروت؛ ومنهم، كما يعرف الجميع، الشيخ محمد عبده المصلح الكبير. وكان بين من نُفِي الى بيروت الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي. وهذا الرجل دوّن أخبار رحلته، ولو أنها جاءت مقتضبة.

اختار القاياتي لرحلته اسماً مسجوعاً، فسماها: نفحة البشام في رحلة الشام. وقد عدنا الى المعجم، لنتعرف الى البشام، فوجدنا فيه: البشام (البيلسان) شجر عطر الرائحة طيب الطعم. والشيخ القاياتي يُعنى، بشكل خاص، بالناس الذين لقيهم في بيروت وغيرها من المدن التي زارها في لبنان وخارج لبنان. إذ انه زار فلسطين ودمشق أيضاً.

يقول القاياتي: «فدخلنا بيروت صباح الاربعاء ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٠٠ للهجرة، وبعد ان خرجنا من البحر نزلنا في خان من خاناتها بجوار الاسكلة المشهور بخان السيد، فما لبثنا به الا يسيراً وقد وجدنا منزلاً للسكن في منازل ال القباني. وجاء الشيخ احمد أفندي القباني، وهو الذي كان لنا صحبة وأخوة معه في عهد المجاورة بالأزهر... فنهضنا بغاية السرعة معه وركبنا في عربة مسرعة الى أن دخلنا على بركة الله ذلك البيت».

وكان هذا البيت في «الباشورة»، على مقربة دور آل حمادة، وكان يومها محيي الدين حمادة رئيس بلدية بيروت. وبهذه المناسبة، فإن الشيخ محمد عبده، أقام في أحد منازل آل حمادة، أثناء اقامته في بيروت. ويذكر الشيخ القاياتي أسماء من لقيهم من العلماء في بيروت. ولن نذكر الجميع، لئلا يصبح المقال بأكمله جدولاً لأسماء هؤلاء القوم. لكن يجب ان نشير الى عبد القادر القباني مدير جريدة «ثمرات الفنون» والسيد محمد أبو ابرهيم البربير والشيخ يوسف الاسير. ويترجم القاياتي للشيخ ابرهيم الأحدب، ويذكر أيضاً المفتي عبد الباسط الفاخوري والشيخ أبو الحسن الكستي.

والقاياتي ينظم الشعر في المناسبات. ويروي أشعاراً لغيره، كلما سنح المقام،

وكثيراً ما كان يسنح ويسمح. ثم يذكر نفراً من الذين تعرف اليهم في بيروت، ممن هم من خارجها. وأخيراً يزودنا بلائحة، ولو قصيرة، بأسماء عدد من المصريين، الذين كانوا في بيروت.

وهناك أمور تتعلق بالعوائد البيروتية، التي أعجبت القاياتي، فتحدث عنها قائلاً:

«وأما عوائدهم في المأكل والمشرب فهي لطيفة جداً. ينزل الشخص منهم في بكرة النهار الى السوق، فقبل أن يفتح مخزنه أو دكانه يذهب الى اللحام (الجزار) فيشتري منه اللحم، والى الخضري فيشتري منه الخضرة متممة بحامضها وليمونها وفاكهتها وسلطتها، ويضع ذلك كله في سل (سبت) ويرسله الى البيت مع صانعه، إن كان ممن لهم صانع وقليل ما هم، أو أجير يعطيه مصريتين. ويذهب هذا بالسل الى البيت فيوصله الى ربة المنزل أو الصانعة التي عندها. ويذهب الرجل بعد ذلك الى محل شغله، حتى إذا فرغ منه قريب الغروب، ذهب الى منزله فرأى العشاء حاضراً ناضراً، فيأكل وينام إلى مثله في اليوم التالي».

ولكن الشيخ القاياتي يضيف قوله: «وقد يخرج بعد العشاء الى المقهى فيشرب الارجيلة والقهوة الى ان يمضي من الليل نحو ثلاث ساعات او اقل او اكثر ويرجع الى بيته».

ولعل الملاحظة التالية عن بيروت في ثمانينات القرن الماضي، حرية بالتذكر، يقول الشيخ القاياتي: «ومن الخصال الحميدة في هذه المدينة انه لا يوجد فيها تجاهر بالمعاصي أصلا كشرب خمر وزنى وغير ذلك... وأيضاً فالمقاهي الموجودة بها، بل وبغالب مدن الشام، لا توجد فيها من المسكرات او المخدرات كالحشيش والشيرة (الدخان المحشش) والبسط (الآفيون) التي عمت البلوى بها في مصر...».

وسُرَّ القاياتي من الطريقة التي عقدت بها الامتحانات العامة. فقال في ذلك: «لقد حضرنا امتحان الجميع في مدارسهم في الامتحان العام في أواخر كل عام فرأينا فيهم من النجابة والإجابة ما يملأ القلب مسرة والعين قرة، ولا سيما مدارس البنات، فهن في غاية الثبات في الحساب والاعراب والقراءة والتجويد في القرآن، وجودة الصنعة في الخياطة، والاتقان... وتقوم البنت منهن أمام المجتمع الحاشد فترقى منصة الخطابة وتلقي على الحاضرين خطبة بليغة بلسان ذرب فصيح، من غير هجنة ولا تلعثم ولا لكنة».

وكانت مياه نهر الكلب، التي بدأ العمل فيها المهندس البريطاني مكسول في أوائل السبعينات، قد وصلت الى بيروت لما زار القاياتي المدينة. فهو يقول: «وأما حالة بيروت في الماء، فأهل الثروة يدخلون الى بيوتهم الماء في حيّات من الرصاص... ويشترون هذا الماء من الكبانية الأوروباوية الموجودة بها الى الآن... يصل اليها في قساطل الحديد ويمشي في طرقاتها وشوارعها في تلك القساطل تحت

الارض. وقد عمل في كل حي من أحيائها مجمع للمياه على حساب البلدية يسمى «حاووز»، وفي كل مسجد من مساجدها بركة من الماء على حساب البلدية ايضاً. ويدفع ثمن الماء للكبانية بمقادير يسمونها الأمتار».

وانتقل القاياتي وصحبه من بيروت الى صيدا، على خيول استأجرها من المكارين. وأعجبه الطريق الذي مر بحرج بيروت، ثم سار الى جانب البحر. وتحدث عن الخانات التي ينزل فيها المسافرون للأكل والشرب، لأن فيها حوانيت لبيع الاشياء، من خبز ولبن وعلف للمواشي. لكن السفر من بيروت الى طرابلس، كان يتم بحراً. إلا ان الشيخ القاياتي وصحبه لم يجدوا في بيروت الا الوابور العثماني متوجهاً بدولة والي ولاية بيروت الى اللاذقية، فساروا معه. وبعد زيارة اللاذقية، عادوا أدراجهم براً الى جبلة، ومن هناك بالوابور نفسه، بمعية الوالي احمد باشا حمدي، الى طرابلس. ويبدو أنه الى ذلك الوقت، كان الناس ينتقلون بحراً من يافا الى اللاذقية او الاسكندرون، مرورا بحيفا وعكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس وجبلة.

ونزل القاياتي في الميناء، وسار مع عمر أفندي الملاّ الى أن ركبوا كروسة الترامواي الى المدينة، والأجرة قرش واحد فقط. وكروسة الترام هذه تحتاج الى تفسير بسيط. فبعد ان مد خط الترامواي في بيروت، حصلت الشركة نفسها على امتياز لإنشاء خط ترامواي بين مدينة طرابلس والميناء. وقد وضع الخط على الارض، ووصلت عربات الترامواي، لكن القاطرة نفسها لم تصل، او لعل الآلة لم تعمل. وعندئذ استعملت الخيول لجر عربات الترامواي.

ولما اعتزم القاياتي وصحبه زيارة القدس ونواحيها، ركبوا في وابور الخديوية المصرية المسمى «الرحمانية». وكانت شركة البواخر الخديوية تقوم بنقل الركاب والبضائع بين الاسكندرية والموانىء الشامية. وأنا أذكر الآن، أنني انتقلت في سنة ١٩٢٥م. من اللاذقية الى الاسكندرون عن طريق مرسين في باخرة تابعة لتلك الشركة. والقاياتي وجماعته، ركبوا البحر الى يافا، وبعد إراحة فيها بضعة يام، انتقلوا الى القدس، وقاموا بالزيارات المألوفة.

وعادت الجماعة من القدس براً الى دمشق بطريق نابلس والناصرة وطبرية وجسر بنات يعقوب. وفي دمشق، زار القاياتي وصحبه المساجد والزوايا والمشاهد، والتقى العلماء، ووصف المدينة وعادات أهلها.

يقول الشيخ القاياتي عن عودته من دمشق الى بيروت: «بعد ان فرغنا من الزيارات وقد طالت علينا الغيبة عزمنا على الرجوع للمنزل الأول والأولية. وقطعنا تذاكر النزول في الكروسة المسماة الدالي جنص (الدلجانص) من كبانيتها قريباً من المرجة. بتنا تلك الليلة في بيت الوجيه السيد سعيد افندي الكيلاني. وقمنا قبل

الفجر وتوجهنا للكبانية المذكورة. وبعد ان صلينا صلاة الصبح، ركبنا العربة وسرنا على بركة الله مسرورين برؤية تلك المزارع والضياع».

وأذكر أنني قرأت أن المهندس البريطاني مكسول لما كان في بيروت اضطر الى ان يستيقظ الساعة الثالثة صباحاً، كي يصل الى محل انطلاق الدليجانص الساعة الرابعة. ويبدو أن الانطلاق كان مبكراً، سواء أكان بدء الرحلة من دمشق أم بيروت.

ولو أننا أردنا ان نحصي جميع الاشخاص، الذين اجتمع بهم القاياتي، أثناء اقامته ثلاث سنوات ونيف، لاجتمع لدينا عشرات، ان لم نقل مئات. وأخيراً، حان وقت العودة الى مصر. واشترى صاحبنا ورفاقه تذاكر السفر بالرحمانية من الشركة الخديوية. وأكملوا التأهب للسفر بجميع ما كان معهم؛ من الفرش والاغطية والصناديق وغيرها.

يصف القاياتي وداع أهل بيروت له ولصحبه بقوله:

«وذلك عادة من يريد السفر من أعيان البلد إذ تهرع الناس لتوديعهم يريدون التخفيف على المودعين... فيصلون الصلاة في مسجد جامع، وهنا كان جامع سيدنا يحيى ويودعون اخوانهم، وقد فعلنا ذلك على عادتهم. فاجتمع خلق كثير من عظيم وحقير وصاروا يأخذون خاطرنا من المسجد بل الاكثر والأعظم لم يفارقونا حتى نزلنا في الفلوكة إلى الوابور. والبعض منهم نزل البحر في فلائك مخصوصة إلى ان ودعنا من البحر في الوابور، وكان هذا الوداع علينا من أشق وأشد ما رأينا... وسافر الوابور قبيل الغروب، ووصلنا يافا صباحاً وأقمنا بميناها إلى الغروب أيضاً وسافرنا إلى أن وصلنا بورت سعيد في الصباح أيضاً، وأقمنا مدة يسيرة وتوجهنا إلى اسكندرية ظهراً وما زال الوابور يمشي الى أن دخلناها في الصباح أيضاً».

وتجدر الاشارة الى أن في رحلة القاياتي وأحاديثه لقطات انسانية، تدل على ما شعر به نحو أهل بيروت، في مقابل ما أحاطوه به من رعاية وعناية ولطف وكرم...

٢١ ـ لبنان في كتاب «القول الحق»

وقع في يدي، مؤخراً كتاب اسمه «القول الحق في بيروت ودمشق». اسم مؤلفه هو عبد الرحمن بك سامي، الذي زار بعض أجزاء بلاد الشام سنة ١٨٩٠ م. وفي السنة التالية، وضع هذا الكتاب، الذي قدّم له بقوله: «جلت في اثناء الصيف الماضي في بيروت ودمشق ولبنان أياماً سررت فيها كثيراً من اعتدال الهواء وعذوبة الماء وجودة المكان ولطف السكان. وقد عنيت بكتابة هذه الاسطر الوجيزة وهي ملخص رحلتي في تلك لديار».

والكاتب، كما يقول في مفتتح الكتاب، بارح دار السعادة يوم الخميس في ١٩ يونيو/ حزيران ١٨٩٠ م في الباخرة النمسوية من قومبانية لويد، ووصل الى بيروت صباح الثامن والعشرين من الشهر عينه. أي انه جاء من استانبول، فهي التي كانت تسمى دار السعادة. وفي المقدمة، يقول انه وضع ملخص رحلته في تلك الديار الشامية: «لعلها تكون مفيدة لإخواننا المصريين الذين يتوجهون اليها لتغيير الهواء».

والسؤال المطروح هو، هل عرفنا من الكاتب شيئاً جديداً، بالنسبة للبنان؟ وهل تغنّى، كا تغنّى غيره، بالطبيعة الأخاذة والهواء العليل والماء السائل كالسلسبيل؟ وهل أثنى على كرم السكان؟

لقد أثنى كاتب هذا الكتاب الصغير على كرم مضيفيه من آل حمادة في بيروت، إذ قضى أيامه في منزل رئيس بلديه المدينة، محيي الدين حمادة؛ الذي كان رئيساً للبلدية، لما زار المدينة الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي. واستقبل عبد الرحمن سامي استقبالاً حافلاً حين وصوله. فقد خفّ بعضٌ من كبار القوم الى الباخرة كما انتظره آخرون على رصيف الميناء. وكان عبد الرحمن يقضي فترة نقاهة في هذه الرحلة، فلا بدّ من كلمة عن الماء والهواء.

كانت بيروت في تلك الايام، التي جاءها فيها عبد الرحمن سامي، قد أصبحت مركزاً هاماً لأمور كثيرة وأشياء نافعة ولأنواع من الدراسات.

ويلاحظ هذا الرحالة، في أول كلام له عن ميناء بيروت، فيقول: «ولا يسعني إلا القول إن ميناء بيروت غير مرتبة (هذا كتب قبل بناء المرفأ الجديد يومها). ولاحظت أنه لا بد للمسافر الغريب الخالي من المعارف أن يتعب قليلا إذا لم يتيسر له من يساعده».

ويضيف قائلاً: «وعلمت أن أغلب الكتب والجرائد التي من خارج هذه البلاد يمنع دخولها قبل تصديق مجلس المعارف في بيروت عليها، وذلك إذا لم تكن مطبوعة برخصة سنيّة».

واللطيف، أن هذه الجملة، أُقحمت هنا إقحاماً ولعل الكاتب لم يرد ان يلفت النظر اليها.

وقد أعجبته بيروت بشوارعها الواسعة، على النسق الاوروبي، ونور الغاز وجمال الأبنية وتنظيمها وكبرها وكثرة الجنائن فيها. ويشير الى أن بيروت القديمة، ما تزال على الطراز القديم من جهة ضيق الشوارع. ويقول في الصفحات الاولى من رحلته: «وبيروت الآن مدينة العلم والطب. ويعرف علو منزلتها من كثرة مدارسها، وقيمة أعمالها الخيرية من مستشفياتها».

ويبدو أن عبد الرحمن سامي زار الكثير من مؤسسات بيروت العلمية. إذ يقول: «من جملة ما زرته المدرسة الكلية الاميركية (الجامعة الاميركية اليوم) الشهيرة، وهذه المدرسة لها فضل كبير على كثيرين من أهالي البلاد... والمدرسة مرتبة بحسب ترتيب مدارس انكلترا واميركا، وقد قسمت ثلاثة اقسام: استعدادي او تجهيزي وعلمي وطبي».

وقد زار الرحالة أيضاً المدرسة الاميرية، وليس ما يدلّ الى أي مدرسة يشير. وقد وافق وصوله فصل الصيف، فلم يتمكن من زيارة مدارس أخرى، مثل المدرسة السلطانية والمدرسة اليسوعية والمدرسة البطريركية ومدرسة الحكمة. ويذكر أشهر مدارس البنات في بيروت: مدرسة الناصرة ومدرسة اللعازرية والمدرسة البروسية والمدرسة الاميركية والمدرسة الانكليزية. وقال: «أما هيئة سكان بيروت الاجتماعي، فمختلطة ما بين الحسن من العوائد الافرنجية والشرقية، وليس عندهم محل لساقيات البيرا، وتقلّ عندهم المواخير وأماكن المومسات والملاهي التي تطرح بالانسان الى مهاوي الفقر وتصرفه عن لذة الاجتماع بأهله وأصدقائه».

وتشغل المدارس بال صاحبنا أيضاً، إذ يعود اليها، ليخبرنا أن مدارس الذكور في بيروت تقدّر بسبعين مدرسة، ومدارس الإناث تقدّر بأربعين مدرسة. وفيها نحو سبعة آلاف تلميذ ونحو ستة آلاف تلميذة. يعلم الجميع ثلاثمائة وخمسون معلماً ونحو مئتين وخمسين معلمة.

ويخص الجمعية الخيرية الارثوذكسية، المكونة من أربعة وعشرين عضواً، بكلمة طيبة، لاهتمامها بعدد من المدارس التابعة لها. وقال أيضاً عن مدارس بيروت: «وقد صارت المدارس الداخلية في بيروت أشهر من نار على علم، وكلها تقبل التلامذة بأجور قليلة، وتعلم التلاميذ وتعتني بصحتهم وسلامتهم».

وقد زار صاحبنا الضبيّة، حيث زار: «الوابور الدافع لمياه نهر الكلب الى

بيروت... وفي الضبيّة اوتيل ومقهى تابع له وعدة محلات للاستراحة».

ويشير الى ان أعمال توصيل المياه الى بيروت تمت على يد شركة انكليزية؛ وهي الشركة التي أرسلت المهندس وليام مكسول للقيام بهذه الاعمال.

كان «عبد الرحمن سامي» ما يزال يشكو آثار المرض لما وصل بيروت، وقد عالجه طبيب، هو «الدكتور ابرهيم أفندي صافي». ولعل هذا، هو السبب الرئيسي لاهتمامه بالمستشفيات في بيروت، فإنه يشير الى زيارة ثانية، قام بها الطبيب له. ووجد هذا أن صحته قد تقدمت، وذهب معه لزيارة المستشفى الحكومي. يقول في ذلك: «ثم توجهت مع حضرة عزتلو محيي الدين بك حمادة لزيارة مستشفى الحكومة، فقابلنا هناك جناب الفاضل الدكتور خيري بك، نجل أحد أعيان الآستانة العلية وأرانا مع رفقائه الاطباء غرف المستشفى ومعداته، فإذا هو كامل الترتيب، نظيف للغاية وجميع أسرته على أحسن ما شاهدت في المستشفيات».

ومن الواضح ان عبد الرحمن بك سامي، كان كبير العناية بالؤسسات. فهو يقول: «ثم زرنا مطبعة جريدة ثمرات الفنون فقابلنا حضرة الفاضل عزتلو عبد القادر أفندي قباني... وأرانا غرف المطبعة... ثم أتينا المطبعة الأدبية فقابلنا فيها حضرة الفاضل خليل أفندي سركيس صاحبها ومدير جريدة لسان الحال الغرّاء».

ويثني الكاتب على معرفة كل من عبد القادر القباني وخليل سركيس واطلاعهما على شؤون السياسة والأدب والمعرفة. وقد تعرف فيما بعد إلى «رشيد أفندي الدنا صاحب جريدة «بيروت البهية».

وأُعجب الرحالة بسوق الصاغة في بيروت، فقال عن الصاغة: «وبالحق إن لصاغة بيروت مهارة ومعرفة ودقة في العمل ولا سيما المعروف منه بكسر الجفت وغيره».

وبعد ثنائه على تجار بيروت ومهارتهم، يشير الى معمل للورق، بقوله: «أما معاملهم، كمعمل الورق الذي أنشأه الخواجان «باحوط وثابت»، فتدلُّ على ميلهم لترقية الصناعة والتجارة».

ويضيف: «أما معامل الحرير وغيره فعلى أتم نظام وأكمل إتقان».

ويعود الى مستشفيات بيروت، ليتحدث عنها بشيء من التفصيل. فيصف مستشفى البروسيني، الذي عرف باسم المستشفى الالماني، الذي كان يطبب فيه أطباء الكلية الاميركية وأساتذتها، ومستشفى اليسوعيين، الذي كان يشرف على ادارته أساتذة الطب في المدرسة اليسوعية. ويقول بعد ذلك: «والمستشفى الجدير بالذكر المستشفى الوطني للروم الارثوذكس، فإنه أُنشىء على نفقة الوطنيين بمال المحسنين. ويطبب فيه مجاناً الفيلسوف الدكتور فان ديك والدكتور حبيب طبجي والدكتور سمعان الخوري وغيرهم».

وينتقل بعد ذلك ليذكر نفراً من كبار أطباء بيروت وفيهم، غير الذين مرّ ذكرهم: «شاكر الخوري وملحم فارس وعبد الرحمن الانسي».

وهؤلاء من تلامذة كلية القصر العيني بمصر، ومنهم: «أديب قدورة وسليم جلخ وحبيب وحنا جبور والياس شكر الله ويعقوب ملاّط».

وهؤلاء من خريجي الكلية الاميركية ومن مدارس أوروبا وأميركا.

وانتقل عبد الرحمن بك من بيروت الى دمشق، لكنه قضى سبعة أيام في عاليه على الطريق. وكان سفره في مركبة لشركة طريق الشام الفرنسية، وهي الدلجانص، التي مرّ ذكرها مع كثير من الرحالين الذين زاروا لبنان بعد سنة ١٨٦٣ م. وقد نزل في عاليه في فندق بسُّول. وبهذه المناسبة، فقدكان لأسرة بسول فندق في بيروت، ظل يستعمل الى الستينات من القرن العشرين. ووصفه مناطق لبنان، التي ترى من عاليه، جميل جداً. ويزور سوق الغرب؛ وهي: «بلدة صغيرة لكنها لطيفة».

ويذكر عبد الرحمن سامي القرى التي زارها، اثناء اقامته في عاليه، والناس الذين زارهم، وقد قُوبل في كل مكان بالإكرام والتجلة والأنس. ويقول عن عالية «إنها مركز مديرية، أي قضاء».

«وفي فصل الصيف يرتّب فيها بيت للتلغراف فتصل بيروت وبيت الدين مركز متصرفية جبل لبنان».

ويذكر سوق الغرب بفنادقها للمصطافين والغرباء، وبأطعمتها اللذيذة وفاكهتها الكثيرة، ورخص الاثمان، وتمام الإتقان.

أقام عبد الرحمن سامي ليلة في شتورة. وانتقل في اليوم التالي الى دمشق. ويصف الطريق بشيء من التفصيل. وفي مقدمة الكتاب، قال المؤلف إنه تأمل ان يفيد منه الإخوان المصريون، الذين يتوجهون الى تلك البلاد. وفي الصفحات الأخيرة من وصفه للبنان، يقول: «ثم تركت عاليه وركبت الدليجانس وهي العربة الكبيرة التي تسافر يومياً من بيروت الى الشام، فوصلت شتورا ظهر النهار. وهناك قابلت جمهوراً من المصريين المصطافين».

ويعني ذلك أن اصطياف المصريين في لبنان، يعود الى أواخر القرن التاسع عشر!

٢٢ ـ مؤسس الجامعة الاميركية في بيروت

لما بدأ المبشرن الاميركان أعمالهم في بلاد الشام، في العقود الاولى من القرن التاسع عشر الميلادي، جاء عدد منهم الى بيروت وصيدا وطرابلس وجبل لبنان، وكانت إقامة البعض منهم طويلة. فقد أقام جسب ثلاثاً وخمسين سنة. وقضى فان ديك بضعة عقود من السنين. ومن هؤلاء المبشرين دانيال بلس، الذي وصل الى بيروت في نسة ١٨٥٦ م، وظل في البلاد الى حين وفاته سنة ١٩١٦ م، أي ستين سنة.

ودانيال بلس جاء مبشراً، وعمل في بيروت وعبيه وسوق الغرب قبل ان يتخلى عن العمل التبشيري، وينصرف، بدءاً من سنة ١٨٦٦ م، الى تولّي رئاسة الكلية السورية الانجيلية، وهي الجامعة لاميركية اليوم، التي ظل رئيسها حتى سنة ١٩٠٢ م.

وبعد سنوات طويلة من قيامه بالعمل في لبنان، دوّن ذكرياته. وكانت زوجته تكتب باستمرار رسائل الى أهلها وأصدقائها في اميركا، كما كان هو يكتب التقارير عن عمله، خصوصاً في الكلية، ويبعث بها الى مجلس الامناء. وقد قام ابنه الاكبر، فردرك جون، بتحرير هذه المدونات من والده ورسائل والدته. فظهر من ذلك مجلد اسمه ذكريات دانيال بلس، الذي نشر في سنة ١٩٢٠ م. ومن هذا المجلد، سننتزع صفحات للتحدث عن لبنان في مدوّنة بلس.

أشارت مسز بلس في أول رسالة بعثت بها من بيروت الى منظر بيروت الجميل، كما يبدو للقادم اليها بحراً، عند الصابح المبكر، قالت في تلك الرسالة: «إن منظر بيروت من المركب كان رائعاً حقاً، فقد سُحرت به».

ويقول ابنها فيما بعد: «بقطع النظر عن الوقت الذي تصل فيه بيروت بحراً، فإن المنظر يكون أكثر ما يدعو الى السحر. إن الألوان التي تقع عينك عليها وأنت تقترب الى الشاطىء بينما الشمس على وشك الشروق تملك عليك لبّك».

وهذا ما لاحظته، أنا شخصياً، لما وصلت مع أسرتي الى بيروت بحراً، في شهر نيسان/ ابريل سنة ١٩٤٩ م. كانت الشمس على وشك الشروق، وقد أخذت الباخرة تتهادى نحوالميناء، فيما كانت الشمس تلقي بأولى أشعتها الذهبية على بيروت وما يحيط بها، يميناً وشمالاً وجبلاً وشاطئاً. كان وصف هذا المنظر صعباً عليّ يومها. وكل ما استطيع أن أقوله، إنني أدركت يومها لماذا قال الامبراطور غليوم، لما وصل الى الميناء في سنة ١٨٩٨ م، «بيروت درة في تاج آل عثمان».

وكان بين المبشرين الذين وصلوا الى لبنان سنة ١٨٤٠ م، والدكتور فان ديك. كان فان ديك طبيباً. ولم يمضِ عليه بعض الوقت في البلاد، حت أتقن اللغات العربية واليونانية والسريانية والعبرية. يقول عنه بلس: «لم ينل أي من المبشرين إعجاب سكان البلاد كما ناله الدكتور ڤان ديك».

وبعد فترة قصيرة في بيروت، ترك بلس وزوجته المدينة الى عبيه. وقد ورد في كتاب الذكريات: «لم يكن في البلاد طرق للعربات، لذلك فالانتقال كان يتم على ظهور الخيل، فيما كانت قطع الأثاث وغيرها تحمّل على البغال. وقد يتكون حمل البغل من مكتب بأدراج في الجهة الواحدة وأرغن في الجهة الثانية، وبين هذين قد توجد طاولة أرجلها الأربع مرتفعة الى فوق. وإذا وجد المكاري الظرف مناسبا فقد يضع بين أرجلها قفصاً فيه دجاجات».

والكاتب يصف كيفية حمل الصغار بقوله: «كان الصغار يوضعون في صناديق تربط الى جانبي البغل».

وبهذه المناسبة، كنا، في صغرنا، نعيش في دمشق، وكان الاهل ـ أهلنا وأصدقاؤهم ـ يذهبون سيراناً (يعني شطحة) وكان الصغار، في هذه الحال أنا وأختي، نوضع في شقتي الخرج الذي يحمَل على الحمار. ولما كانت مجموعة من العائلات تكوّن قافلة، لا يستهان بها، فقد كانت، كما يقول بلس، الأسرة المنتقلة بهذا الشكل مع الخيل والبغال والحمير تحمل أثاث بيت عائلة تامة.

وكان ڤان ديك قد أنشأ، في عبيه، سنة ١٨٤٣ م، مدرسة عليا، لتدريب الوعاظ والمعلمين للمدارس التي يفتحها المبشرون، وللكنائس التي تؤسسها. وقد كان فيها، لما وصلها بلس سنة ١٨٥٦ م، أربعة وعشرون تلميذاً. ومع أن دراسة الكتاب المقدس كانت الأساس، فإن مبادىء الجغرافية والجبر والهندسة والمثلثات والفيزياء، كانت تعلّم فيها. وقد أعد الكتب المدرسية، لهذه الموضوعات، باللغة العربية، الدكتور ڤان ديك نفسه.

وقد جاء في الكتاب، الذي أشرنا اليه، قول بلس إن اللبنانيين أذكياء، سريعو التعلم والتكيّف، دقيقون في الحكم على الناس. وكانت الحياة بسيطة بقدر ما كانت معقدة. أما بساطتها، فتعود الى أن حاجات الناس، كانت قليلة نسبياً، وكانت نتاج الارض يكفي السكان حاجاتهم. وأما تعقيدها، فيعود الى القوانين الاجتماعية، التي كانت تتحكم في تصرف القوم، والتي ورثتها الجماعة عن الأجداد.

ويقول المؤلف: «إذا كانت الحضارة في أساسها الحصول على أدوات فنية تجعل الحياة مريحة والزراعة أنجح والتنقل أيسر، فالحياة اللبنانية كانت متأخرة حضارياً. أما إذا كانت الحضارة تأخذ بعين الاعتبار قواعد السلوك والتصرف في المجتمع بنواحيه المختلفة، فاللبنانيون لهم حضارة شديدة التعقيد».

ويشيد المؤلف بأمانة اللبنانيين.

وقد ورد في الكتاب، الذي بين أيدينا، بضعة أرقام عن أسعار الحاجيات: دزينة البيض بستة سنتات، ورطل الحليب بسنتين اثنين. ويقول ايضاً، إن أجرة الخادم شهرياً، وهي ٣,٦٠ دولاراً.

وفي سنة ١٨٥٨ م، نقل بلس الى سوق الغرب. وفي سنة ١٨٦١ و١٨٦٢ م، بعد أحداث سنة الستين، كثر الحديث بين بلس والدكتور طومسون عن الحاجة، حول أمور أساسية هي: أولاً، الحاجة الماسة الى انشاء كلية في البلاد. ثانياً، إن التعليم في هذه الكلية، يجب ان يكون باللغة العربية. ثالثاً، إن الأموال، اللازمة لمثل هذا المشروع، يجب ان تجمع من اميركا وانكلترا. رابعاً، من الضروري ان يكون لهذه المؤسسة مجلس امناء في اميركا او في انكلترا او في كليهما، كي يكسب ثقة المتبرعين. ومن المناسب أيضاً ان يكون هناك مجلس ادارة محلي، يتكون اعضاؤه من اعضاء الجاليات الاجنبية في بلاد الشام ومصر. وأخيراً، كان لا بد من الحصول على براءة، تعطي هذه الكلية الحق في منح الشهادات.

وفي اجتماع عقد في ٢٣ كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٦٢ م، تمت الموافقة على النقاط المذكورة واقترح ان يعهد برئاسة هذه الكلية لبلس. وبعدما استشار بلس زوجته، وقررا ان يقبل التكليف، صدر قرار عن مجلس المبشرين المحلي: «إن بلس سيكون رئيساً للكلية المقترح إنشاؤها، على أنه من الواضح انه سيستمر في عمله في حقل التبشير الى ان تجمع الأموال اللازمة للبدء في العمل. ومع أن بلس سيحتفظ بعلاقته مع مجلس المبشرين فإن الكلية المقترح انشاؤها لن يكون لها ارتباط عضوي بالهيئات التبشيرية».

ومن الطريف، أن ملاحظة أبديت اثناء المناقشات، هي أن كلية للدراسات العيا، يجب ان تنشأ في البلاد، وأنه لن يكون اليسوعيون هم السابقون الى انشائها. وقد أنشئت الكلية في سنة ١٨٦٦ م، وسميت الكلية السورية الانجيلية، ولم يغيّر اسمها الى الجامعة الاميركية، الا في أعقاب الحرب العالمية الاولى. أما كلية القديس يوسف، فقد أنشئت سنة ١٨٧٥ م ، وهي جامعة القديس يوسف اليوم.

ويتحدث كتاب الذكريات والتقرير، الذي سيرفعه الرئيس المقبل الى الهيئات في اميركا، عن جمع التبرعات من انكلترا ومن اميركا. ولأن الحرب الأهلية يومها جعلت الدولار يفقد شيئاً من قيمته، فقد كانت التبرعات الانكليزية، هي التي استعملت في إنشاء الكلية. أما البراءة فقد جاءت من مجلس ولاية نيويورك.

ظلت الكلية في أبنية مستأجرة حتى سنة ١٨٧٣ م، حين انتقلت الى بناية الكلية او بناية الساعة، كما تسمى عادة في حرمها الحالي.

وكانت الكلية، بحكم موقعها في بيروت، التي كانت آخذة في تبوّء المركز الخاص،

كمدينة كبيرة وميناء تجاري للأجزاء الداخلية من البلاد، وخاصة دمشق ـ من الأماكن التي تزار، سواء في ذلك الاميركان والانكليز والعرب. ومن هنا، فقد كان لبلس صداقات كثيرة. ويذكر الكتاب الذكريات أن بين زوار الكلية كان ثيودور روزفلت، الذي تولّى فيما بعد رئاسة الولايات المتحدة. وكان كثير الاتصال بأهل الفكر والعلم من العرب المقيمين في بيروت. ويذكر أن بطرس البستاني كان صديقاً له.

وقد تعرّف بلس على المهندس البريطاني وليام مكسول، الذي كان يدير الناحية الفنية من الأعمال اللازمة لجر مياه نهر الكلب الى بيروت. واتفق الاثنان على الدخول الى جعيتا، واكتشاف المغارة، وانضم اليهما ثلاثة آخرون. وقد نجح الفريق في السير ١٢٨٠ متراً داخل المغارة. وقد وصف بلس في ذكرياته هذه الحملات الثلاث داخل المغارة، لكن مكسول كتب عنها بتفصيل أكبر.